الدكتور عبد الله سلوم السامرائي



المقدمـــة

كانت رحلة طويلة اخذت من العمر أكثر من نصفه ، لم تكن سفرة مريحة سهلة ، قطعت الأجواء والمسافات في لحظة أو ساعات ، كانت مشياً على ظهر ناقة وخلفها عبر صحراء رمالها عطشى أشجارها شوك وحنظل .

وبينما أغذ السير في بيداء قاحلة يتعالى صوت الحق يصدح مردداً [وتفقد الطير فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين □ لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين □ فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين] فقرر سليمان أن يأتي بها وبعرشها وتساءل من يأتي بها قبل أن يأتوا مسلمين [قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل ان تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين □ قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فأنما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربي غني كريم] . فكانت هذه الآيات وآيات أخرى تثير السؤال وتبعث الرغبة في كشف هذه الأسرار والوقوف على حقيقتها وسبر أغوارها .

فكانت حالة من الصراع بين الخوف والأمان ، بين الشك واليقين وكانت الحيرة تلاحق الفكرة وهذه تلهث وراء آيات الكتاب الحكيم وإذا بآياته منها آيات محكمات وأخرى متشابهات [هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب] .

فكان العقل يموج بين شواطئ تلك الآيات المحكمة والآيات المتشابهة وتظل الآيات المتشابهة تثير في النفس هوى وغواية وتلك المحكمة تجر الى ساحل الهداية والأستقرار .

وكلما مشى العمر في سلم الزمن كانت قوائم الفكر تغور في أعماق المجهول تبحث في سره كما كانت نوازع الشك تطير محلقة في سماء الغيب تريد مسك الريح فتعود خالية إلا من وعثاء السفر وعنائه .

وظل القرآن الكريم هو الملاذ يبعث على الثقة ويثير الأمل وتصدح آياته ناطقة وتتهادى أحكامه عظات بالغة فتبدأ وقفة تتبعها مشية بين جنبي الكتاب وإذا بآدم وحواء في جنة عرضها السموات والأرض يناجيه ربه [وقلنا ياآدم اسكن انت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين □ فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين] فيثور سؤال وتلاحقه حيرة وتلازمه مسألة .. لماذا كان آدم وزوجه في الجنة قبل ان يعملا في الأرض ويقدما أعمالاً صالحة كانت سبيلهما الى الجنة ؟ وهل من جنة بدون مسؤولية وأعمال تقية وتلك الشجرة لماذا اختارها سبحانه من دون تلك الجنة وطالب آدم وزوجه عدم الاقتراب منها ؟ ولماذا لم يستطيعا الالتزام بأوامره سبحانه ؟ وكيف تمكن الشيطان منهما فأزلهما فاستحقا عقاب الله فأخرجهما من الجنة وهبط بهما الى الأرض لتكون مسرحاً لعداء ومستقراً الى حين .؟ كيف استطاع الشيطان دفعهما الى الخطأ ؟ ما هي قوته ؟ وهل لهذا الشيطان من قوة مستقلة خاصة به ؟ إن مثل هذه الصورة ترجع بنا ثانية الى الثنوية وتضرب مبدأ الوحدانية ضربة في الصميم وأن القول بأن هذا الشيطان كان قوة أسقطها سبحانه فاستطاعت دفع آدم وحواء على ارتكاب المخالفة فلماذا عاقبهم سبحانه على فعل كان بتأثير قوة من عنده ؟.

لقد بقيت صورة آدم وهو يتهاوى من السموات العلا الى الأرض يحتضن زوجه ويهبط على سلم طويل يمتد من السماء الى الأرض يثير اكثر من سؤال عن ذلكم الطريق الطويل الذي قطعه الانسان ليبدأ على الأرض حياة جديدة ويتحمل مسؤولية كبيرة ويستحق في ضوئها حمل شرف (خلافة الله في الأرض) .

وبينما ادم يمشي على الأرض يحمل على رأسه وزر مخالفته إذا بالله سبحانه يكرمه بالخلافة ويطلب من الملائكة السجود له (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون

هذه الخلافة كانت من عنده تعالى لآدم الذي ارتكب خطاه ومخالفته تلك وأن احتجاج الملائكة كيف يجعل الانسان خليفة ؟ وأن هذه الخلافة ستصاحبها برك من الدم وفساد .. رد سبحانه على احتجاجهم بقوله (إني أعلم ما لا تعلمون) وكأنه يقرر أن هذه الخلافة لا بد أن تكون مصحوبة بالصراع والخلاف ولا بد ان تتساقط على جنباتها أشلاء ودماء ، فأن الحياة على الأرض ومسؤولية الانسان فيها لا تقوم إلاَ بالمجابهة والقوة والتحدي وهذا هو قانونها الذي كان وسوف يبقى .

والحيرة تلقي بكاهلها.. كيف يحمّل الله الأنسان مسؤولية خلافته وهو يعلم شره وعدوانه ؟ ولماذا يمنح هذه المسؤولية لمن سبق له مخالفته وعصيانه ؟.. ونحن نقلب آيات الكتاب ونقف عند هذه الآية وتلك نقرأ قوله تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني باسماء هؤلاء إن كنتم صادقين □ قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك انت العليم الحكيم □ قال ياآدم انبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السمٰوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون □] وبقراءة هذه الآيات مرات نتبين سر هذه المنّة منه تعالى على الأنسان. انه مكنه من الادراك والتعبير عما يدرك فكانت هذه الصفة هي التي منحته تلك المسؤولية وفتحت الطريق أمامه لخلافته على الأرض.

أن معرفة الانسان للكلمة والنطق بها واستعمالها دلالة على الشئ ومعنى له ولما يحسه ويريده هي التي امتاز بها على ملائكته وعلى سائر خلقه، ومن هنا تبين أن مخالفته تلك هي بداية ظهور الشخصية المستقلة القادرة على الرفض والقبول وفي هذا تمييز أساسي عن الملائكة وسائر المخلوقات حيث الملائكة لا تمتلك القدرة على الرفض ولا تمتلك القدرة على التمييز بين الأشياء وكذلك الحيوانات لا تستطيع التعبير والتمييز بين المتناقضات ومن هنا كانت البداية لوضع اليد على خلافة

الانسان و أسبابها، ومن هنا تبين أن المعجزة الكبرى لآدم هي قدرته على التمييز وحريته في الأختيار و إمكانيته على التعبير وبهذه استحق الرئاسة على الأرض وبهذه فضله الله على ملائكته فطلب منها السجود اليه (و إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين). وقد سوّغ ابليس عصيانه بأنه لم يسجد لآدم لانه افضل منه حيث أنه خلق من نار وادم من طين [قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين.]

وقد اثار هذا الحوار بين الملائكة وابليس من جهة وبين الله من جهة اخرى وكان لرد ابليس أنه لم يسجد لانه مخلوق من نار محل تفكير طويل انتهى بنا الى أن تفضيل الله لآدم المخلوق من طين أن هذه المادة مخلوقة من عنده وانه نفخ فيها وبث الروح والحياة في أجزائها فكانت حياة الانسان تقوم على ثنائية هي المادة (التراب والماء وروح الله التي نفخ فيها) في حين أن النار التي خلق إبليس منها تقوم على بعد واحد وتظل على حالة مطلقة غير قابلة للتغيير ومن هنا تطور الانسان الى ما هو عليه وبقيت النار على حالها إما مشتعلة و إما خامدة رماداً أو ظلمة لا حياة فيها ولا حركة.

وبقي آدم يسير الهوينى من نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاما كساها سبحانه لحما وكان قد بث فيها الحياة مذ تحركت علقة حجيرة حية حتى صارت بشرا سويا وعندما وقف الانسان على قدميه وعبر عما يحس وأخذ يميز بين الأشياء ابتدأت خلافته ومسؤليته، وراح يحث الخطى يمسك بالدنيا يغرب مع الشمس ويشرق معها يسجد لها نوراً يتلألأ ويناجيها ليلا، يخشى ظلمتها، الحيوانات تهجم عليه في حلوكة تلك الظلمة، تأتي عليه، تنهش لحمه، فراح يتوسل الى الشمس حينا والى القمر والنجوم لعلها تظل مشرقة تهديه الى الطريق وتفتح امامه سبل الحياة وتنجيه من غائلة الاهوال.

كان الموت يزحف عليه في انياب افعى ومخالب حيوان كاسر، كما كانت الريح العاتية تواريه والزلازل تشق الأرض من تحته وتنزل الحمم على رأسه وكانت الفيضانات تغرقه وظل يتشبث بكل شئ يبقى على حياته فراح يمسك بالقوة المثيرة الضارة والنافعة يتوسل اليها أن تمده بأسباب البقاء وتلك تقطع عنه عواصف الموت، فكانت عبادته لكل المظاهر المؤثرة فيه فصارت لديه عشرات الآلهة.. وبعد أزمان طويلة

أخذ يجمع بين هذه القوى ويدخلها في بعضها ويجعل منها قوة اكبر وأشمل وظلت عملية الاختزال والدمج تسير بخطى سريعة حتى انتهى الى عبادة قوتين وظاهرتين هما النور والظلمة.

وبقي الانسان حائراً حول ظاهرة الموت والحياة، تارة يربطها بقوى النور والظلمة فيجعل الحياة من النور ويجعل الموت من الظلمة، وحاول أن يقنع نفسه بهذه النتيجة ولكنه لم ينته الى حالة يستقر عندها إذ ابتدأ يعاني من سؤال أخذ يلح عليه ويضغط، كيف أن الشمس ألالهة الكبيرة مصدر النور لا نقوى على البقاء مشرقة ؟ في حين تهجم الظلمة عليها فتشغل نصف حياتها وتظل مدلهمة حتى تعود الشمس ثانية تبزغ من جديد ومن هنا راح يشك في أن الحياة من الشمس، اذ كيف تكون منها هذه الظاهرة الكبرى والشمس لا تقوى على مغالبة الظلمة والانتصار عليها!

والآيات التي تحدثت عن النبي ابراهيم عليه السلام وهو يسجد للشمس تارة وللنجم والقمر تارة اخرى فأن هذا الحوار يدل على المعاناة التي كان يمثلها الانسان في شخص إبراهيم عليه السلام وقد حسم الموقف لصالح الوحدانية عندما تبين لابراهيم أن الشمس إلهة النور هي الأخرى مخلوقة ومسيّرة من قبل الاله الأوحد الذي خلقها والذي خلق القمر والنجوم وجعل الظلمة ليكون النور والاشراق.

وبينا إبراهيم عليه السلام يمسك بأول الخيط ويبدأ بالانتقال من الثنوية الى الوحدانية، من عبادة الشمس الى عبادة الله، تبقى قضية الموت والحياة وسرها تضغط عليه فيقف متوسلاً الى الله يطلب منه أن يريه كيف يحيي الموتى فيعتب سبحانه عليه بقوله أولم تؤمن بعد، فيرد متوسلاً بلى ولكن ليطمئن قلبي وتبدأ التجربة حية مباشرة لتكون دليلاً على قدرة الله ووحدانيته حيث قال تعالى [وإذ قال إبراهيم ربي أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم] وبذلك ابتدأت مرحلة جديدة في تفكير الانسان حيث توصل عبر التجربة الحية المباشرة أن أمر الحياة من الله وأنه هو الذي يحيي ويميت، وبقيت مسألة الحياة تشارك الانبياء في معجزاتهم مشاركة مستمرة لتجيب عن السؤال الملح الذي بقي ملازماً للانسان يحمله على البحث عن القدرة الخالقة التي هي

وراء حياة الأحياء وفنائها.

وعندما استقر الانسان واطمان الى ان اله هو الذي يخلق كل شي ويمد الأحياء بعناصر الحياة وهو الذي يميتها خرجت مسالة الخير والشر الى السطح ثانية وإذا بلفظة الشيطان تحمل بين جنبيها وعلى راسها قوة الشر المتسلطة التي تقع على الانسان وتدفع به الى ارتكاب الآثام وان الملك قوة خيرة تدفع بالانسان الى عمل الخير وفعله وقد سحب الانسان من هذه القوى على نفسه وقيد ارادته وجعل نفسه منقادة الى فعل هذه القوى الخارجية . ولما كانت ايات الكتاب التي تحمل كلمة الشيطان وقوته واضحة جلية إذا بالشيطان قوة تزل الانسان وتجره الى فعل الاخطاء وان هذه القوة الشريرة **لا تعدو ان** تكون إلا في حالتين . اما ان تكون قوة مستقلة عن قوة اله تعمل بذاتها كما تشاء وتريد وتستطيع ان تؤثر سلبا في الانسان وإما ان تكون قوة من عند الله تندفع بامره فتدفع الانسان الى ارتكاب الخطا وفي الحالتين تصبح قوة الشيطان قوة قادرة على التاثير والتحكم في مصير وفعل الانسان إلا انها في الحالة الاولى تصبح قوة الشيطان قوة بوجه قوة اله وتمثل الطرف الشرير المظلم وبذلك عودة الى الثنوية التي بقيت متحكمة في عقائد الناس وعقولهم زمنا طويلاً وفي الحالة الثانية التي تصور قوة الشيطان مرسلة من قوة اله فان هذه الصورة تثير اعتراضا إذا كانت هذه القوة من عنده فلماذا يحاسب الانسان المرتكب للخطا على فعل مضطر على فعله بقوة لا يستطيع دفعها .

إن مسالة الشيطان آثارت موضوع حرية الانسان او عدم حريته وهل آنه حرٌ آم مسير وقد مسير وقد دفعت هذه القضية بنا ان نستقرئ الآيات التي وردت فيها كلمة شيطان وتلك التي وردت فيها كلمة ملك فتبين لنا آن عدد المرات التي وردت فيها كلمة شيطان بصيغة المفرد او الجمع ٨٨ مرة وعدد المرات التي ذكرت فيها كلمة ملك ٨٨ مرة ايضا فاثارت هذه النتيجة تساؤلات لماذا هذا العدد المتساوي وبعد تحر دقيق ودراسة ثانية لكل آية ذكرت فيها كلمة شيطان او ملك تبين لنا ان هذه القوى المتناقضة الخيرة التي تعبر عنها كلمة ملك وملائكة وتلك الشريرة التي تحملها كلمة شيطان وشياطين موجودة في كل ظاهرة حية

بنسبة متساوية وان نصف كل ظاهرة قوة سلبية والنصف الاخر قوة ايجابية وان فعل وحركة اية ظاهرة هي نتيجة تفاعل القوتين السلبية والايجابية وان قوة المحصلة لهذا التفاعل تكون حاصل جمع وتاثير القوتين اي ان المحصلة هي قوة واحدة من القوتين السلبية والايجابية.

وان حركة هذه القوة والمظاهر الخارجية . اما ان تكون حركة غير مؤثرة في الانسان إذا كانت في ظواهر اقل قوة من قوة الانسان اما اذا كانت صادرة عن ظواهر عنيفة فانها تتغلب على الانسان وقد تعصف به وتودي بحياته وان تاثير القوى الكبيرة العاصفة بالانسان هي ليست القوى موضوع النقاش التي تمثل قوة الشيطان وقوة الملك.

إن متابعة دقيقة للآيات القرانية التي وردت فيها كلمة شيطان وملك تبين ان هذه الآيات تمثل القوى والمظاهر التي بمستوى قوة الانسان والتي يستطيع الانسان مواجهتها والتغلب عليها فهي تمثل بجناحيها السلبي والايجابي (الشيطاني والملائكي) قوة غير مؤثرة ولا فاعلة في فعل الانسان وقراراته.

لقد اثارت الآيات الكريمة الدالة على الحرية وتلك الدالة على الجبرية وان الانسان مسير وليس مخيراً. اثارت تساؤلات ودفعت الى وقفة طويلة وبعد الجمع لكل الآيات الدالة على الجبر وتلك الدالة على الحرية تبين لنا ان الآيات الدالة على الجبرية هي تلك التي تؤكد على قدرة الله الكلية المطلقة وانه خالق كل شيء وهو الذي يحيي ويميت وهو الذي يصوركم في الارحام وهو الذي يحيي العظام وهي رميم وهو الذي جعل النفس الانسانية على ما هي عليه مكونة من نزعة خيرة واخرى شريرة وان الانسان يحيا بهاتين النزعتين ويعمل بموجبهما.

هذه القدرة الكلية بيده سبحانه وان الآيات الدالة على الجبر تعطي لهذه القدرة ابعادها ودلالاتها وهذه ليست موضع جدل ولا نقاش فاننا نؤمن ونقر بهذه القدرة وإذا ما أراد البعض ان يقول ان هذا التسليم يدل على الاقرار بوجود الآيات الدالة على الجبر فاننا نعلن بان هناك آيات تشير الى ذلك وتعلنه. لاننا من المؤمنين بوجود الله وقدرته ووحدانيته وانه خالق كل شيء وبيده ملكوت السموات والارض إذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون.

إلا أن حكمته وهو يخلق الأحياء على انواعها من نباتات وحيوانات ويخلق الانسان على هذه الشاكلة ويجعله خليفة على الأرض فلا بد ان تكون لهذه الدرجات المتفاوتة في الخلق والتكوين من حكمة وغاية وانه جعل الانسان على هذه الصورة وحمله مسؤولية الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فان ذلك لا يكون إلا بتحميل الانسان تلك المهمات وتقديم مقابل ذلك جزاء وفاقا . وهذه المسؤولية لكي تكون سليمة ودقيقة يجب ان تستند الى حرية تامة في الحركة والفعل ولا بد ان تكون هذه الحركة مستندة الى قدرة وإرادة وإدراك يميز بين الاشياء ويختار منها ما يريد وينفذ ما يعتقده فان أصاب فله أجر ذلك وإن أخطأ فعليه وزره .

كانت آيته سبحانه [ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها] وآياته التي وضحت تفضيل آدم المخلوق من طين على ابليس المخلوق من نار فرصة لكشف الدلالات التي تحملها هذه الآيات فتبين أن تفضيل الانسان كان لهذه الخلقة المصنوعة من مادتين من التراب والماء والمنفوخ فيها من روح الله، وان هذه الثنائية فيه هي مصدر الحياة والحركة وانها قد بلغت أعلى درجات القوة والابداع بحيث صار الانسان أقوى بعقله وإرادته من سائر القوى والمظاهر المحيطة به عدا قوة الله وإن شاء جعل من بعض المظاهر قوة خارقة أقوى من قوة الانسان.

لقد أثارت الآية الكريمة [ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها] الرغبة في كشف قوى هذه النفس الملهمة فجورا وتقى فتبين أن هذا الفجور هو القوى الشريرة التي تمثل قوة الشيطان والقوة التقية هي القوة الخيرة التي تمثل قوة الملك وأن هاتين القوتين لا يمكن فصلهما عن بعضهما حيث أن كل قوة ضرورية للثانية وان فعل وحركة الانسان نتاج تفاعلهما وحركتهما المشتركة .

ومن هذا التصوير انتهينا الى القول بأن أنسب تعبير يحل مكان [النفس الفاجرة] هو [القوة السلبية] وخير تعبير يقوم مقام النفس التقية هو [القوة الايجابية] وأن هاتين القوتين من عند الله وأن حركتهما وفعلهما من عنده .

ولما كانت حركة الانسان وفعله هي نتاج عناصر القوة السلبية والايجابية فيه وتفاعلهما مع بعضهما فأننا سلمنا من حيث البدء أن قوة الله مطلقة كلية وأن هذه القوى الكلية هي التي تفسر بعض الآيات الدالة على الجبر حيث أن البدء والانشاء والأساس منه سبحانه وتعالى، وأن مبدأ الحرية والمحاسبة يكون لأن الانسان قادر على ادراك ما يضره وينفعه ويستطيع أن يميز بين الخير والشر ويتمكن من فعل الخير أو الشر ومن هنا كانت مسؤوليته وحسابه وجزاؤه ثوابا أو عقابا.

تلك كانت الرحلة بين الارض والسماء شاقة طويلة مرهقة طارت على جناحي النفس الملهمة فجورا وتقى فحطت زمنا في واحة وارفة ثمارها يانعة وتوقفت حينا في غابة موحشة وضاعت في صحراء رمالها جرداء، أشجارها شوك وأثل، إنها سفرة بين الايمان الساذج في براءة الطفولة والايمان الراسخ يحتضن الكلمة والآية والسورة يمشي معها كلمة وفكرة، حجة وعبرة، حتى جاءت هذه الدراسة واذا بالشيطان قوة سلبية والملك قوة ايجابية وكلاهما من عند الله وأن لا حياة ولا حركة الا من تفاعل هاتين القوتين اللتين أودع الله سبحانه وتعالى فيهما قوة وفاعلية، فكانت من اطول السفرات وأعظمها، نتمنى أن تفتح هذه الصفحات.. كلماتها وأفكارها اجنحة مرفرفة تطير عليها أرواح تعشق الفكرة وتحث الخطى ناشدة الطريق المستقيم تغذ السير على امتداده حتى تصل الى الشجرة (الملعونة) تقف عندها تشتهي ثمارها اليانعة. فتمتد الأيدي اليها تريد اختطافها فيتذكر أنها ممنوعة عليه وانه سوف يتحمل مسؤولية ما تقدم عليه يداه، وعليه أن يتحمل مسؤولية ذلك.

كانت الدراسة في أربعة فصول . كان الأول منها بعنوان (الله والانسان في الحضارات القديمة) توزع الى فقرات منها :

- الانسان يرى الله في نوره .
- الانسان يكتشف الله في ظاهرة الحياة والموت .
- مراحل العقيدة وصورها .
- مرحلة الوثنية والطوطمية .
- مرحلة الثنوية .
- مرحلة التوحيد والديانات السماوية .
- الله حقيقته وصفاته في الديانات السماوية (اليهودية . المسيحية . الاسلام) .

- الله فى معجزات أنبيائه .
- معجزة آدم عليه السلام .
- معجزة نوح عليه السلام .
- معجزات عاد وهود وصالح وثمود وشعيب .
- معجزة إبراهيم عليه السلام .
- معجزة يوسف عليه السلام .
- معجزة موسى عليه السلام .
- معجزة أهل الكهف .
- معجزة سليمان عليه السلام .
- معجزة عيسى عليه السلام .
- معجزة محمد صلى الله عليه وسلم .
- القرآن معجزة الاسلام العظمى .
- الاسراء معجزة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم .

وكان الفصل الثاني فى الانسان وتوزيع هذا الفصل الى أربع فقرات هي :

- الانسان وحدة نوعية متساوية
- الانسان معجزة الله العظمى
- العقل الانساني أعلى مراحل الاعجاز الرباني
- الانسان خليفة الله فى الأرض

الفصل الثالث كان حول الشيطان وقد توزع الى سبع فقرات هي :

- معنى كلمة شيطان
- الشيطان فى الحضارات القديمة
- الشيطان فى الديانات السماوية
- كلمة الشيطان وكلمة ملك فى القرآن الكريم
- إبليس والشيطان
- المعاني والدلالات لكلمة شيطان فى الآيات القرآنية
- الملك والملائكة ودلالاتها فى آيات الكتاب الحكيم

وكان الفصل الرابع حول الجبرية والقدرية وقد توزع على ثلاثة أقسام هي :

الآيات الدالة على الجبر والاختيار
أ - الآيات الدالة على الجبر ودلالاتها
ب - الآيات الدالة على الاختيار ومعانيها

- الشيطان والملك وآثرهما في فعل الانسان :
- القوة السلبية والقوة الايجابية
- الثنائية في الظواهر الحياتية (قوى السلب والايجاب)
- حرية الانسان المطلقة ومسؤوليته التامة
- الحرية والمسؤولية ، المعادلة التي تعطي للانسان الخلافة على الأرض
- الثواب والعقاب نتيجة لتحمل المسؤولية .
- الانسان الحر المسؤول عن أعماله هو الشاهد على وجود الله والدليل على قدرته ووحدانيته وعدالته

هذه خلاصة الرحلة الشاقة ، اتمنى ان تكون مساهمة ايجابية في الرد على عدد من الأسئلة كانت وما زالت تلح وتطالب بالجواب . ارجو ان أكون قد وفقت في الاجابة على بعضها فأن لم تكن تلك الاجابة مرضية وهناك من لديه إضافة وتوضيح فأن ميدان هذه الدراسة ما زال بكرا يحتاج الى من يزيد عليه ويضيف .

لقد حرصت على ان اتمسك بالعروة الوثقى ما استطعت الى ذلك سبيلاً فكان رائدي الوصول الى الحقيقة والى شاطئ الأمان والايمان . فأن توصلت الى ذلك فتلك منّة منه سبحانه وهداية من لدنه . كانت وقوداً ومناراً للنفس في تقواها وهديها وإلا فليس لدي إلا الاعتراف بأن ما في هذه من زلة أو خطأ فانها من النفس الأمارة بالسوء .

وليس من كلمة اختتم فيها هذا العرض أفضل من قوله تعالى [الله نور السمٰوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شئ عليم] صدق الله العظيم .

بغداد - الكرخ

١٩٨٢/٥/٢٨

الفصل الأول

الله جـل جلالـه

الله والانسان

الله خالق كل شئ .. وجوده سابق لكل موجود فهو واجب الوجود السَموَات والأرضين وما فيها من صنعه .. النبات والحيوان والانسان مخلوقاته .

عاش الانسان في هذه الأرض منذ مئات الآلاف من السنين .. وبقي عليها يصارع أهوالها وما فيها بوصفه واحداً من سائر الحيوانات . لقد انصرمت حقب طويلة على حياته لا نعرف عنها شيئاً إن ما نعرفه عن الانسان إنما يشمل الفترة الأخيرة من حياته التي تؤلف بين واحد الى إثنين بالمائة من حياته الطويلة . إن ٩٨٪ من عمر الانسان غير معروف . وان ما عرف عنه وعن حياته يمثل حيزاً قليلاً من عمره المديد[١] .

إن الانسان الذي نعرف عن حياته شيئاً هو الانسان الذي خلف آثاراً معينة وان هذه المخلفات تدل على انه كان على درجة متطورة ومتقدمة قياساً على سائر الحيوانات مما مكنه من ابداع ما أبدعه .

إن الانسان الذي خلف تلك الآثار كان على طراز إنساننا اليوم من حيث الشكل العام والتركيب الداخلي وهذا الشكل وهذا التركيب متميزان من سائر المخلوقات فهو يمشي على قدمين وله قدرة على الكلام والتعبير به عما يريد وما يخالجه .. تركيبه الجسدي وهو يواجه الطبيعة تركيبٌ متناسبٌ مع هذه المواجهة فأصابع يديه وتوزيعها ووضع الأبهام منها مكنه من استعمال يديه استعمالات كثيرة تتناسب وحاجاته وكيفية مجابهته للتحديات المختلفة كما ان تركيب جمجمته وما فيها من حواس كانت موزعة بشكل يتوافق واستقبال الطبيعة وما تحتاج من رد فعل على افعالها .. إضافة الى ذلك فأن تركيب مخه كان من التعقيد والتطور بحيث كان مهيأ لعملية التفكير والاستجابة والتمييز بشكل يتناسب والظروف المحيطة به[٢] .

إننا في البحث في الانسان لا نريد ان ندخل بالتفاصيل المتعلقة بأصل الانسان ونظريات تطورد التي اشغلت العلماء وما زالت تشغلهم . ان الخوض في منشأ الانسان وبداياته وانه تطور عبر مراحل طويلة وأن ما انتهى اليه كان نتيجة تغييرات أساسية وقعت عليه عبر حياته الطويلة فان مثل هذا البحث يدخل في

اختصاص علماء الأجناس والعلماء الباحثين فى أصل الأنواع وتطورها . إنما نحن نبحث فى الانسان وهو فى أعلا مراحل تطوره سواء أكان قد وصل الى هذه المرحلة عبر تغييرات كثيرة أم أنه قد خلق على هذه الصورة حيث ان سبحانه وتعالى خلقه فأحسن تصويره (لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم) .

وسواء أكان هذا التقويم الحسن قد صنعه الله بأمر منه فقال كن فيكون أم انه خلقه على شاكلة وهيأ له أسباب الحياة وأجرى عليه عمليات التغيير والتطور حتى صار على هذه الصورة التي هي فى أحسن تقويم فالأمر سيان فأنه سبحانه كان الخالق فى هذه وكان الصانع فى تلك .

إن البحث فى الانسان هو الذي يجرنا الى البحث فى الله إذ ليس فى الامكان البحث فى الله قديماً وحديثاً إلا بالانسان فهو الذي كشف الله سبحانه وتعالى وتوصل اليه عبر معاناة طويلة وعلى إمتداد حياته الممتدة آلاف السنين .

وعليه فان البحث عن الله جاء من الانسان ولولاه لما كانت هناك قضية مبحوثة أو مسألة مثارة فالانسان هو الذي بحث فى هذه القضية وقدم تصوراته عنها ـ وبقى فى هذا الدرب حتى جاءت الديانات السماوية فحملت إجابات وتفاصيل عن هذه المسألة وحتى فى مرحلة الديانات السماوية فأن وجود الانسان كان العامل الأساسي لنزولها والجهة التي استقبلت هذه الرسالات وعينت أهميتها وأبعادها فلولا الانسان لما كانت الرسالات السماوية ومن هنا يتبين آن الانسان (خليفة الله فى أرضه) كان الباحث عن الله وكان الوسيلة لحمل معالمه والصورة التي **تحمل الدلالات على وجوده فكان الانسان ، وسيلة الديانات كما كان غايتها .**

١ ـ الانسان يرى الله فى حاجاته :

ظهر الانسان على هذه الأرض وكان عليه ان يمشي فوقها يسد رمقه مما ينبت عليها ويأكل مما يدب فوقها وكان عليه ان يرتوي من مائها ينزل من السماء مطراً أو يتجمع فوق الأرض بركة أو غديراً أو نهراً .

كان الجوع يدفعه الى الحركة بحثاً عن شئ يسد به حاجته فكان يواجه أشياء كثيرة يتناولها برفق تارة وبقسوة أخرى فكان يجد فى بعضها ما يشبع نهمه وما يستمرئ به وكان يجد فى بعضها مرارة وقسوة وعنتا وهو يدور فى محيطه بحثاً عن حاجاته كانت تلك الحاجات قريبة منه تارة بعيدة عنه تارة أخرى فكان ينتقل من مكان إلى آخر طلباً للحاجة

لم يستطع الانسان إكتشاف الوسائل لايجاد ما يحتاجه إنما ظل مئات السنين وآلافها يعتمد على الحركة يفتش عن مصادر رزقه كما أنه لم يتوصل الى طريقة يخزن فيها طعامه إلا في فترة متأخرة[٣] .

وبقي يركب رجليه بحثاً عن حاجاته وكانت الحيوانات تنافسه على بعضها . وكانت في صراع معه على اصناف من حاجاته فكان هناك صراع بين الانسان وبعض الحيوانات وكان هناك لهاث من الانسان صوب حاجاته .

كان الاحساس بالجوع والظمأ البدايات الأولى التي تفرضها طبيعة الحياة في جسم الانسان وكان هذا الاحساس دافعاً مركزياً يحمله على التفتيش لسد هذه الحاجة وكان الاحساس بالحاجة يتفاعل مع إدراكه فكانت هناك عملية تبادل وتفاعل مستمرة بين الاحساس والادراك . إن حقيقة الاحساس تكمن في قوة الادراك لدى الانسان إذ أن لا إحساس دون إدراك كما أن الاحساس ينشط الادراك ويدفعه الى التطور والحركة والتعمق والسعة بصورة تتناسب وقوة الاحساس وفعله[٤] .

إن الصعوبات التي واجهها الانسان في الحصول على حاجاته الأولية حفزته للتفكير بأهميتها ودفعته للبحث عنها وعندما كان يواجه مشكلات وعقبات تحول دون حصوله على ما يشبع جوعه ويروي عطشه كان يزداد شعوراً بالأذى وحاجة في البحث عما يغنيه ويلبي حاجته كما ان هذه الحالة دفعته الى ربط الأحساس بالجوع والعطش بمواد معينة ومن هنا ابتدأ يربط بين تلك الحاجات وما يصيبه من أذى وظمأ ومسغبة .. فراح يتقرب الى هذه الحاجات لعلها تظل قريبة منه بحيث تقدم له ما يحول دون صعوبات الظمأ والجوع ، فحاول التوسل اليها بوسائل مختلفة والتقرب منها باعتبارها ظواهر تستطيع أن تمده بأسباب البقاء كما حاول أن يجد العلاقة بينها وبين مظاهر أخرى تؤثر فيها وتتسبب في بقائها أو تعمل على زوالها ، فلاحظ أن حاجاته في بعض الأشجار وفي بعض الحيوانات قد تعصف بها ريح عاتية أو تفرقها فيضانات صاخبة أو تفترسها حيوانات كاسرة أو تأتي بها غيوم ماطرة فأبتدأت تتكون لديه صورة مترابطة بين بعض ما يحتاجه ومظاهر طبيعية أخرى تحيط بـه .

لقد لمس الانسان وهو يبحث عن حاجاته أن من تلك المظاهر صوراً لا يقوى على ردها ولا يستطيع إحضارها حيثما يشاء ولا التأثير فيها أو عليها عندما يريد

ومن هنا راح يفكر فى وسيلة أخرى لعل تلك الحاجات وتلك المظاهر تظل قريبة منه تمده بأسباب البقاء ، ومن هنا نشأت البدايات الأولى الساذجة للعقيدة الدينية . إن ضعف الانسان وحاجته كانا البداية الأولى إلى نشوء العقائد البدائية .. وفي هذا يقول العقاد «والأكثرون من ناقدي الأديان يعللون العقيدة الدينية بضعف الانسان بين مظاهر الكون وأعدائه فيه من القوى الطبيعية والأحياء ، فلا غنى له عن سند يبتدعه ابتداعاً ليستشعر الطمأنينة بالتعويل عليه والتوجه اليه بالصلوات فى شدته وبلواه»(٥) .

إن الانسان وهو يعيش على الطبيعة بكل ما فيها كان يحس بما ينفعه منها وما يضره وأب هذا الاحساس قد حفزه الى التفكير بماهية تلك المظاهر وحقيقتها ومن معايشته الطويلة فى بيئة استطاع ان يميز بين مجموعتين من المظاهر مجموعة نافعة وأخرى ضارة .. كان هذا التوزيع مقياسه المنفعة والمضرة الذاتية .

وقد وقف الانسان طويلاً أمام هذين الصنفين من المظاهر فوجد أنه يستطيع أن يحصل على بعض ما ينفعه كما يستطيع أن يرد بعض ما يضره وانه لا يستطيع أن يحصل على جميع ما يحتاجه ولا أن يرد كل ما يؤذيه وقد فتش عن وسائل مختلفة فى كسب ما يريده وصد ما يضره ونجح فى بعضها ولم ينجح فى كلها وهو فى طريقه للبحث عن وسيلة مجدية يواصل بها مسك ما يريده ودفع ما لا يريد توصل الى ان التقرب من هذه المظاهر النافعة والتوسل اليها قد يحملها على مواصلة العطاء له كما ان التقرب من المظاهر المؤذية قد يحملها على كف أذاها عنه ، ومن هنا كانت البدايات لظهور العقيدة عند الانسان . وفى هذا يفسر المفسرون ظهور عقيدة «الطوطمية» حيث يرى فريق من العلماء «إن الطواطم هي طلائع الأديان وقد تحقق أن شعائر الطواطم منتشرة بين مئات القبائل الهمجية فى استراليا وأفريقيا والأمريكتين وبعض أقطار القارة الآسيوية وجزائرها ، فلا تزال فى هذه القارات قبائل كبيرة وصغيرة تتخذ لها على الأكثر (حيوانا) تجعله طوطماً .. وقد يكون الطوطم فى بعض الحالات (نباتاً) »(٦) . ويقول علي عبدالواحد وافي وللطوطمية (اشباه ونظائر فى كثير من ديانات العالم القديم نفسها وخاصة ديانات اليونان والرومان وفى كثير من عادات شعوبه وتقاليدها)(٧) .

إن الحيوان والنبات الذي اختارته القبائل المتخلفة كان حيواناً مفيداً الانسان يحتاجه فى طعامه وفى تنفيذ حاجاته الأخرى وأنه لا يقوى على الاحتفاظ به

فعمل على اتخاذه معبوداً يتقرب اليه ليظل معه يمده بما يحتاج . أو كان هذا الحيوان حيواناً كاسراً مؤذياً لم يستطع الانسان التغلب عليه فوجد في التقرب منه والتوسل اليه وسيلة لابعاد شره وأذاه عنه .

أما النبات الذي عبده الانسان هنا في هذه القارة أوتلك في هذه المجموعة من الناس أو في غيرها كان نباتاً فيدا وعاملا أساسيا في حياة الانسان ولكي يظل يقدم له ما يحتاج وجد في عبادته وسيلة للابقاء على منافعه .

إن التقرب من المظاهر النافعة والضارة كان ساذجا وأوليا وظل كذلك نظراً لبساطة الانسان وقلة حاجاته آنذاك إلا أن الشعور بالنفع والأذى كان يدفع الى التفكير بهذه المظاهر والوقوف على ما فيها من أسباب وقوة وعلاقات وراء تلك المنفعة أو المضرة .

إن التفكير بالاحساس كما مر بنا عملية متفاعلة تجري على ساحة عقل الانسان وعبر وجدانه .. وفي البدء كان الاحساس بالشئ إحساساً مباشراً سريعاً ساذجاً ، وبقي كذلك زمناً طويلاً من عمر الانسان وبعد ان تطور راح يفكر في ماهية هذا الاحساس وطبيعته وأبعاده وظل الاحساس بالشئ هو الذي يحرك الانسان اكثر وأعمق مما كان يثيره التفكير به .. وفي هذا يقول العقاد «وقد أحس الانسان قبل ان يفكر فلا جرم ينقضي عليه ردح من الدهر في بداية نشأته وهو يفكر حسياً او يفكر لمسياً فلا يعرف معنى الوجود إلا مرادفاً لمعنى المحسوس او الملموس ، فكل ما هو منظور أو ملموس أو مسموع فهو واقع لا شك فيه وكل ما خفي على النظر أو دق عن السمع واللمس فهو والمعدوم سواء»[٨] .

إن إحساس الانسان الفطري بالجوع والعطش والحر والبرد والجروح دفعه الى سبر غور مسببات هذه الظواهر حيث كانت رحلته في التفتيش عن مصدر الأذى في تلك المظاهر رحلة طويلة كانت البداية لكتابة العقيدة الدينية في طورها الثاني حيث في المرحلة الأولى كان الاحساس بالأذى وربطه بالظاهرة المحسوسة القائمة في محيط الانسان هو التفسير الأول والمحاولة للتقرب من تلك الظاهرة طمعاً في ابعاد شرها وعندما ابتدأ الأنسان يفتش عن عوامل الأذى في هذه الحضارة توصل بصورة أولية إلى أنها مؤذية بقوة واقعة عليها وليست بقوة صادرة منها .

كما أن تلك المظاهر النافعة المتمثلة بالحاجات التى تسد ما يحس به الإنسان وبتلك المظاهر التى تجلب إليه النفع كالدفءوالنور والأشجار والمياه وبعض الحيوانات فأنه تعمق فى عوامل القوة التى جعلتها نافعة فتوصل إلى أن نفعها صادر عن قوى خارجة عنها إلا أنه لم يستطع تصور ماهية هذه القوى ولا أبعادها وفى هذا يحدثنا العقاد فى كلامه على عقيدة البوذية قائلاً :« والآلهة عندها تأتي فى المرتبة التالية بعد مرتبة الأكوان » وما أرتفعت الأكوان عندها الى هذه المرتبة الا بأنها هي المحسوس وهي أول ما يفاجئنا قبل أن نفكر وقبل أن نتأمل وقبل أن ندين بأعتقاد»[٩] .

٢ - الأنسان يرى الله فى نوره :

إدراك الأنسان يتصاعد درجة فوق درجة عبر تفاعله مع محيطه وأن عملية الأدراك والأحساس كما أشرنا إلى ذلك متفاعلة يرفد بعضها البعض الأخر فأن كانت الأحداث والمظاهر تثير فى الأنسان الأحساس بالسعادة أو الشعور بالمرارة فأن هذا الأحساس يزيد من ادراكك الأنسان كما أن ادراكه يزيد من حساسيته بالأشياء .

ولما كانت حياة الأنسان صراعاً عنيفاً مع محيطه وأن ما يحيط بالأنسان ينفعه مرة ويضره تارة فأن عملية المواجهة هذه المستمرة تعمق من إحساسه كما تعمق من ادراكه .

إن الآثار السلبيه والأيجابية التى تفرزها المظاهر الطبيعية المختلفة على الانسان وحركة الانسان ومجابهته لتلك المظاهر فى سبيل الابقاء على النافع منها وصد المؤذي فأن التفاعل يزيد من درجة الاحساس كما يزيد من درجة الادراك ومن هنا ابتدأ الانسان يسبر غور كل المظاهر النافعة والمظاهر الضارة سبراً عميقاً لا سيما تلك المظاهر المؤثرة تأثيراً مستمراً وتأثيراً بالغاً مما جعله يقف طويلاً أمام بعض المظاهر ويفتش فيها عن أسرارها وما تنطوي عليه من منافع أو أضرار وكنه تلك الأضرار وماهية تلك المنافع .

لقد أحس الانسان بأهمية الشمس إشراقها يجلب اليه الدفء والنور .. غيابها يسبب له الظلمة الحالكة تجعله عاجزاً عن رؤية الاخطار الزاحفة اليه من حيوانات كاسرة أو متغيرات طبيعية الشمس تملأ حياته حيوية .. ونشاطاً وتعطيه فرصة للحركة بحثاً عن طعامه وشرابه .. ولهذا نجد ان الانسان القديم

حيثما وجد عبد الشمس باعتبارها رمزاً للقوة والعطاء والخير واذا كانت حاجة الانسان وضعفه وراء منشأ عقيدته فأن كثيراً من حاجاته تقدمها الشمس له بأشكال وصيغ متعددة ولهذا نجد عبادة الشمس قد تطورت عن العبادات القديمة الوثنية منها حيث صارت الشمس في كل حضارة من الحضارات الأولى «إلهة» .. وفي هذا يقول ماكس مويللر : (إن الانسان قد تدين منذ أوائل عهده لأنه أحس بروعة المجهول وجلال الأبد الذي ليس له انتهاء وأنه مثل لهذه الروعة بأعظم ما يراه في الكون وهو الشمس التي تملأ الفضاء بالضياء فهي محور الأساطير والعقائد كما ثبت له من المقابلة بين اللغات واللهجات)[١٠] .

ومما يؤكد إنتشار عبادة الشمس أن عبادتها كانت هي السائدة في حضارة مصر القديمة التي تطورت الى صورة من صور التوحيد .. وفي هذا يقول العقاد : (وعبادة «آتون» هي أرقى ما وصل اليه البشر من عبادات التوحيد في القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، فلم يكن المراد بآتون «قرص الشمس» ولا نورها .. المحسوس بالعيون ولكن الشمس نفسها كانت رمزاً محسوساً للاله الواحد الأحد المتفرد بالخلق في الأرض والسماء)[١١] .

ولم تظل الشمس إلهة للمصريين ذات بعد واحد إنما صارت مستودعاً لأبعاد متعددة وخزاناً لقوى كثيرة (فكان «أوزوريس» هو إله الشمس باسم «رع» وهو إلاله الخالق باسم «خنوم» وهو الاله المعلم الحكيم باسم «توت» وهو في الوقت نفسه إله العالم الآخر وإله الخلق حيث ينبت منه الزرع)[١٢] .

وفي بابل كانت الشمس إلهة من أهم آلهتهم حيث صارت مصدر القوانين ولذلك نرى الملك (حمورابي) يتسلم منها القوانين في أعظم أثر حضاري وجد على هذه الأرض مثلته (مسلته المشهورة) .

إن إعطاء الشمس ملكية التشريع للقوانين والأنظمة يشير الى الحكمة المجسدة فيها على اعتبار أن القوانين تمثل أعلى درجات التقدم في صنع الصيغة المثلى لحياة الانسان وتنظيمها على هذه الأرض ، وأن من دلالاتها أن الحكم يجب أن يكون ممثلاً لارادة الاله وأن تكون قوانينه وتعليماته هي المعمول بها في تمشية موكب هذه الحياة[١٣] .

إن صعود الانسان الى الشمس واتخاذها إلهة له واعتبارها اكبر الآلهة يدل

على مرحلة متقدمة فى فكر الانسان وفى معتقداته كما أنها تمثل مرحلة عالية فى تصور الانسان للقوة المؤثرة فيه وان تفكيره المتصل تمكن عبر رحلته الطويلة ان يجمع بين الشمس ونورها ودفئها والخير العميم الذي يأتي منها والفوائد الكثيرة التي تصدر عنها وأنها وراء تهيئة الانسان لكشف ومعرفة كثير من المظاهر الضارة له وعمله لردها وتجنب كثير من أشرارها فهي مرحلة تمثل درجة متصاعدة فى سلم العقيدة والخروج من دائرة العقيدة الوثنية الى دائـرة الأختزال والاقتـراب من التوحيد وفى هذا يقول العقاد : (وتستدعي ديانة الشمس .. أن يـرتفع العقـل البشـري بفكـرة الخلـق مـن أفـق الأرض القـريـب الى الآفـاق الـعليـا فى السَمٰوَات ،فتتسع دنياه وتتعاظم فيها دواعي الحركة والسكون والحيـاة والموت ويقترب من الأوج الذي يستوعب فيه الكون بنظرة شاملة ، ويلتمس له سبباً واحداً «للحصول» كما حصل بعد ان أصبح الكون كله فى حاجة الى التعليل)[١٤] .

ولم تقتصر عبادة الشمس فى العراق ولا فى مصر إنما كانت قوة باهرة أثارت إنتباه الانسان ودفعته الى التفكير وحفزته على المضي فى كشف سرها ومصدر قوتها فكانت قد برزت قوة خارقة فى الحضارة الهندية فهم (يذكـرون إله النـار ، وإله النور ، وإله الريح وإله البحار ويجمعونها فى ديانة شمسية تلتقي بأنواع شتى من الديانات)[١٥] .

وفى الصين فأن عبادة الشمس وما ينتج عنها من نور كانت وراء العقائد الصينية وارتبطت عبادة الشمس بعبادة الأسلاف والأبطال وكأن عظمـة أولئك الأسلاف تشبه عظمة الشمس وأهميتها ولهذا (تتمشى عبادة العناصر الطبيعية جنباً الى جنب مع عبادة الأسلاف والأبطال فالسماء والشمس والقمر والكواكب آلهة معبودة أكبرها إله السماء «شانج تي» ويليه إله الشمس .. فبقية الاجرام السماوية فالعناصر الأرضية)[١٦] .

ويبدو أن (ظاهرة الشمس) كانت من أبرز الظواهر المؤثرة فى حياة الانسان حيث صارت قوة معبودة حيثما وجد الانسان القديم . ويظهر أن الانسان وهو يختار آلهته الصغيرة فى الأرض فى ضوء حـاجاتـه أخذ يـربط بين هـذه الآلهة الصغيرة المتناثرة حوله وقوى اخرى اكبر منها تؤثر فيها وأن هذه القوى تتمثل فى الشمس حيث أخذ الانسان يربط بينها وبين مظاهـر كثيرة تعيش عـلى الأرض بالقرب منه وتؤثر فى حياته فقد ربط الانسان بين المطر والشمس فشاهد أن المطر

لا يسقط في الغالب إلا عندما تحجب الشمس غيوم كثيفة .. وأن بزوغها يكون على حساب تبدد الغيوم وانقطاع المطر عنها كما ربط الانسان بين المطر ونمو النباتات وبين هذه النباتات وأثمارها وحاجته الى تلك الأثمار كما ربط بين هذه الأشجار أوراقها وأغصانها وأثمارها وتجمع الطيور عليها حيث فيها جانب من غذائه وشوائه كما ان في الشجرة ملاذ له من حيوان مفترس لا يقوى على تسلق الشجرة كما انها تارة خيمة يستظل بها من حرارة الشمس ومن أمطار سحابة ماطرة .. كل هذا جعل الانسان يعطي للشمس قوة وأبعاداً كبيرة مما زاد في تصوراته وعمق من مشاعره تجاهها .. فأصبحت الشمس إلهة في العالم القديم كله فقد عمت عبادتها .. (الأقطار الشرقية بين مصر وبابل وفارس والهند منذ ثمانية آلاف سنة أو تزيد .. كلها قد عبدت الشمس وميزتها بالعبادة في دور من الأدوار)[١٧] .

وفي قصة إبراهيم عليه السلام دلالة صريحة على أن الشمس كانت معبودة في الحضارات القديمة قبل نبوة إبراهيم الخليل «ع» . وأن حياة إبراهيم المتنقلة من بابل الى فلسطين ومنها الى مصر ومن هذه الى الحجاز تكشف أن إبراهيم عليه السلام كان قد اطلع على عبادة الشمس في هذه البلدان وأن حديثه مع الله الذي وضحته آيات من القرآن الكريم لم يأت اعتباطاً ولم يقع في ليلة واحدة إنما جاء بعد تفكير ومعاناة طويلتين .. لقد جاء في القرآن الكريم نص هذا الانتقال والتفكير لدى إبراهيم الخليل على الصيغة الآتية «... فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين ■ فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدن ربي لأكونن من القوم الضالين ■ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني برىء مما تشركون ■ إني وجهت وجهي للذي فطر السَمٰوات والأرض حنيفاً وما انا من المشركين ■ وحاجه قومه قال اتحاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون ■[١٨] .

إن قراءة ثانية لهذه الآيات الكريمة ومراجعة سريعة الى حياة إبراهيم الخليل عليه السلام ورحلته الطويلة بين بابل والكعبة تعطي الدلالات الآتية :

— أن عبادة الشمس والقمر والكواكب كانت العبادة السائدة في أيام إبراهيم الخليل وبخاصة في البلدان التي عاش فيها ومر عليها واستقر في آخرها في مكة .

- إن عبادة الكواكب والنجوم ابتدأت فى عبادة الكواكب الصغيرة وانتقلت منها الى عبادة الكواكب الأكبر حتى صارت الشمس هي مجمع الكواكب ومصدر النور ومحل القوة فى ذلك الكون . وان حركة الاعتقاد كانت تسير فى أيامه متجهة من الانسان الى الكواكب باعتبارها ظواهر مثيرة يشع منها نور يرفل بين أنظار الانسان هداية ومنفعة .
- إن عبادة الشمس جمعت فى قوتها مظاهر نافعة للانسان بحيث صارت مجمعاً وسبباً لمعظم منافعه وقوة لابعاد وإسقاط ما يضره . وتبدو هذه الملاحظة من سياق الآيات الكريمة حيث أن الايمان بالكواكب (الكوكب الأول والقمر والشمس) كان فى حالة البزوغ وأن الريب والقلق إنتاب إبراهيم عند أفولها مما يبين ان بزوغها كان نافعاً مثيراً للايمان وأن غروبها كان محفزاً للسؤال والريبة .
- إن عملية الايمان بالكواكب مشرقة والريب فيها وهي مغربة لم يحصل فى ليلة واحدة إنما مثل مرحلة طويلة فى عمر الانسان كان خلالها يبحث فى سر هذه الكواكب فى نورها وقوة هذا النور وكان بحثه ينصب على ماهية هذه القوة المتوهجة وهذا النور الساطع منها هل أنه نور نابع من ذات الكواكب أو أن هذا النور صادر اليها من قوة اخرى .
- وبقى هذا السؤال يلح على الانسان يقلبه ذات اليمين وذات الشمال فكان سؤاله هذا وراء البحث (عن القوة الخالقة الموجودة المؤثرة فى هذه الكواكب) أي البحث هل هذه القوة خالقة فى ذاتها مؤثرة أم هناك قوة فوقها هي التي أوجدتها وتسببت فى إشراقها وتلألؤ الضوء منها ..
- ويظهر أن الانسان توصل فى أيام إبراهيم عليه السلام الى ان الشمس أقوى من قوة القمر وأقوى من قوة الكوكب وأنها الإلهة التي عنها تصدر القوة ويصدر الخير وأن الشمس قد تربعت على عرش الربوبية زماناً طويلاً وأن إبراهيم عليه السلام وجدها كذلك وآمن بها مرحلة ولكنه ظل يبحث عن حقيقتها وماهيتها وهل انها الاله الذي يصدر عنه كل شئ .
- إن مواصلة إبراهيم الخليل السؤال عن هذه المسألة لازمه زمناً طويلاً وجمع حوله معلومات وتفاسير كثيرة كانت موضع نقاش وأخذ ورد مع نفسه ويظهر أن إبراهيم الخليل وهو يستقر هناك فى الحجاز يواصل تفكيره فى هذه المسألة ويضع لنفسه أسساً من أجل التوصل الى ماهية هذه الشمس وهل أنها القوة الخالقة أم أنها قوة مخلوقة ومن سياق الآيات يتبين أن غروب الشمس كان

الظاهرة التي استفزته ودفعته الى التفكير بأنها ليست قوة مستقلة وليست قوة متمكنة من ذاتها ولا قوة مؤثرة لوحدها إنما هي قوة مسيرة .. ومن هنا أصدر قراراً اقتنع به ، بأنها ليست إلاله وأن هناك إلهاً أكبر منها يتحكم فى مسيرتها فأعلن قناعتــه بأن هنــاك رباً أكبــر من الشمس فطر السَمٰــوَات والأرض وانه خالق كل شي .

— إن عبادة الشمس كانت نقطة لقاء بين التوحيد الذي توصل اليه الانسان وبين التوحيد الذي توضح فى الديانات السماوية .إن الشمس كانت قنطرة كبيرة توقف عندها الانسان طويلاً وبقى متمسكاً بها لا يرى فى الكون شيئاً أكبر منها ولا يتصور أن هناك قوة أكبر منها ولهذا توقف عندها أبو الأنبياء إبراهيم وقفة ليست بالقصيرة واستطاع العبور منها ومن فوقها الى حيث الوحدانية وعن هذه المعاناة يحدثنا العقاد قائلاً : (فكانت الشمس هي اكبر ما رآه وتوجه إليه بالعبادة ثم اصبحت الشمس رمزاً للخالق حين تجاوزها الانسان بنظره الى ما هو أعظم منهــا وأعلا «فهي القنطـرة الأخيرة بــين العدوتين ، عدوة التعديد وعدوة التوحيد»)[١٩] .

٣ - **الانسان يكشف الله فى الحياة والموت :**

وقفة الانسان التي مثلها إبراهيم الخليل عليه السلام أمام الشمس كانت وقفة طويلة . كانت تلك الوقفة تمثل وقفات كثيرة وقفها الانسان خاشعاً متصدعاً يبحث فى كنه الحياة وسرها .

عندما وضع إنسان الحضارات القديمة فى الشمس القوة والعطاء ونسب اليها بأنها وراء خير الانسان وبقائه فهي التي تمده بالنور والدفء وتسقط المطر عليه مدراراً فيجري بحاراً وانهاراً ويتسع بحيرات وغدراناً من الماء ينبت الزرع وعليه تعيش سائر الحيوانات .. إن هذه القوى التي نسبها الانسان للشمس وتلك النتائج التي ربطها بها هي التي دفعته لأن يجعل منها إلهة فوق كل آلهته . إلا أن تفسير الانسان هذا لم يكن مقنعاً له كل القناعة .. فكان لا يجد تفسيراً واضحاً لبعض المظاهر بالشمس ذاتها ومن تلك المظاهر التي لم يستقر على رأيّ فى تفسيرها غروب الشمس وأفولها فكان يتابع سؤالاً لا ينفك يرتسم امامه .. لمــاذا لم تبق الشمس مشرقة طوال حياته .. ولما كان غروبها يتسبب فى خلق ظلمة حالكة تأتي على كثير من منافع الشمس وخيراتها وتضع الانسان فى مواقف صعبة وفى مخاطر كثيرة لا تقل خطورتها عن الفوائد الجمة التي تأتي بها الشمس فى حالة شروقها

ولهذا نجد ان فكرة عبادة الظلمة ظهرت متزامنة مع عبادة الشمس وبعبارة اخرى أقرب للواقع أن عبادة الظلمة جاءت بعد ان عجز الانسان أن يقنع الشمس بالبقاء مشرقة مضيئة معينة له على كشف طريقه ومواصلة سعيه وتجنب أخطار الظلمة واسوائها . وعندئذ راح يتعبد الظلمة لا حباً بها وإنما خشية منها وخوفاً حيث ان الظلمة تأتي اليه بالخوف وتحول دون رؤية أعدائه من الحيوانات الكاسرة والتغيرات الطبيعية المدمرة .. إن حالة الظلمة وما تسببه من أذى ورعب وإفناء سواء على وقع حيوان وحشي أو حيات سامة فأن هذه الظلمة صارت قرينة الموت وصورة من صوره كما أن الشمس ونورها وبعث الحياة والحركة فى الانسان وفى النبات وفى الحيوان صار النور قرينة للحياة وساحة لنشاطها وديمومتها .

إن ظاهرة الحياة لم تستفز الانسان فى البدء إنما الذي استفز الانسان كان حالات الموت التي كانت تقع عليه .. إن سر الحياة ظل مدفوناً لم يكشفه الانسان إلا بعد ان وقف طويلاً أمام ظاهرة الموت .

لقد كان الأنسان ينظرللحياة نظرة عابرة يرى نفسه على هذه الأرض كما يرى الحيوانات والنباتات الأخرى ولم يتوصل الى كشف « سر » الحياة ولغزها إلا بعد أزمان طويلة .

لقد كان الانسان ينظر للحياة نظرة عابرة يرى نفسه على هذه الأرض كما يرى الحيوانات والنباتات الأخرى ولم يتوصل الى كشف «س» الحياة ولقرها إلا بعد أزمان طويلة .

لقد مات الانسان الأول ولم يحس أحد بموته حيث لم تكن هناك روابط تجمع بين الانسان والانسان الآخر كل كان يعيش لذاته كما أن الانسان الذي يرى الموت يحل على صاحبه لم يستطع تفسيره تفسيراً دقيقاً إنما كان يربط بين حالة الموت وبين العامل المباشر الذي كان وراءه فإذا كان موت الانسان بين فكي حيوان كاسر فأن تفسيره أن الموت يكمن فى أسنان ذلك الحيوان وإن هبت عاصفة هوجاء أو زلزال أو براكين أو حرائق أو فيضانات فانه يربط بين هذه الظواهر وقتلها للانسان .

حاول الانسان الأول أن يتجنب الحيوانات الكاسرة بيديه وبأسلحة أولية صنعها فى حينها كما انه حاول أن يحمي نفسه من أهوال الظواهر الطبيعية بشكل

أو بآخر وحاول ان يفسر قسوة هذه المظاهر تفاسير مباشرة واعتقد فى البدء أن تلك الظواهرتحمل فى طياتها قوة تستطيع بها أن تفتك به وتأتي على حياته ، فأبتدأ يتقرب منها ، ويتوسل اليها لعلها تكف عن أذاه فكان وهو يقدم ما يستطيع توسلاً وعبادة إلا ان قسوة تلك المظاهر كانت تلاحقه وتصيبه وتأتي على حياته . إلا أن الانسان لم يستطع أن يترك آثاراً تعبر عن معاناته تلك وتصوراته أمام تلك المظاهر التي كانت تقسو عليه وتسبب له الأذى والفناء ، لقد وجد المنقبون فى بعض الكهوف القديمة صوراً لحيوانات مرسومة على جدران تلك الكهوف ففسرها البعض بأنها تعبير عن خوف الانسان من تلك الحيوانات وأن رسمها فيه دلالة على محاولة الانسان التقرب من الحيوانات .. كما ان فيه تعبيراً عن شعور الانسان بأنه قادر ان يواجه تلك الحيوانات ويتغلب عليها . كما ان رسومها قد تدل على حاجة الانسان اليها اذ انها تمثل «الحيوانات التي كان الانسان يصطادها لأكلها»[٢٠] .

لقد بدأت فكرة الموت والاحساس بها بصورة أوضح وأدق عندما صار الانسان «اجتماعياً» وهذه الصيرورة لا ندري متى بدأت .. إن مقولة أرسطو «أن الانسان مدني بطبعه» مقولة تحتاج الى كثير من التدليل والتوضيح لأن الاكتشافات فى حياة الانسان وفى أصل الحياة تبين أن زمناً طويلاً مر على الانسان قبل أن يكون إنساناً اجتماعياً ، وعليه فأن بدء حياة الانسان الاجتماعية تبدأ عندما تكونت العائلة والتزم الرجل والمرأة بالتزامات متقابلة فكان نشوء العائلة بداية لنشوء المجتمع وليست فى متناول البحث معلومات توضح متى بدأت حياة العائلة وأين ولكن نستطيع القول أنه حيثما استطاعت المرأة أن تقيد الرجل بالتزامات وواجبات قبل الاقتران بها وموافقة الرجل على هذه الشروط وتلبيتها تكون العائلة قد بدأت ويكون المجتمع قد أخذ طريقه للظهور[٢١] .

عندما تَكَوَّن المجتمع البدائي البسيط هذا حيث تكونت نواته العائلة واطرافه المتمثلة بالعلاقات العائلية فى دوائر معينة صارت الحياة ذات أبعاد ومسؤوليات فيها روابط وعلاقات تسمح للنظر الى ما ينفع هذه المجموعة والنظر لما يصيبها من أذى ، ولما كان المرض والموت من الصور المؤذية فأن وقوعه كان يثير إحساساً به وإدراكاً لدلالاته بحيث أخذ الانسان يبحث فى ماهيته والأسباب الداعية اليه والقوى المؤدية لوقوعه .

توجه إنتباه الانسان الى الظواهر المباشرة التي تسبب وفاة من يعيش بالقرب منه فربط ربطاً ظاهرياً بين النتيجة وعاملها المكشوف فكان مرة حيواناً مفترساً وتارة صاعقة أو حريقاً أو بركاناً أو زلزالاً وبقى يبحث فى سر هذه المظاهر وهل انها تتحرك بذاتها وتحدث ما تحدثه بقوتها الذاتية أو أن هناك قوة تحركها وتدفعها لايقاع الأذى .. ظل آلاف السنين يعتقد بأن أذاه وموته من تلك المظاهر ولهذا عبدها وظل يعبدها ما دامت فى ذهنه ومعرفته هي القوى المؤثرة سلباً فيه .

والانسان وهو يبحث في معنى الموت وأسبابه ظل واقفاً أمام حالاته وصوره التي تتراقص أمامه يفسرها كما هي ولا يستطيع تحميل أية قوة خارج القوى والمؤثرات التي يأتي الموت من خلالها .

وعندما تعلم الانسان الزراعة (وتعلمه جاء متأخراً وبعد ان بقى آلاف السنين جاهلاً هذه الصنعة) وأن الانعطاف الهائل الذي صار فى عمر الانسان جاء متأخراً لم يتجاوز إلا أقل من واحد بالمائة من عمر الانسان الطويل ، أما كيف تعلم الانسان الزراعة فعلى ذلك آراء ونظريات كثيرة أشهرها أن الانسان وهو يتابع حركة الأحداث والظواهر وما ينفعه وما يضره ما يحتاجه وما عليه أن يحصل عليه ولما كان الطعام والشراب حاجات اساسية ظهرت مع ظهور الانسان فإنه لاحظ فى مرحلة متأخرة من حياته أن ما كان يجمعه من فاكهة ويلقي ببذورها على القرب منه فإن هذه البذور نبتت فصارت شجرة حملت ثماراً من ذات الثمار التي أكلها والقى ببذورها[٢٢] .. لم يفطن الى هذه الظاهرة كل إنسان إنما فطن اليها بعضهم تحت ظروف ومستلزمات متعددة أثارت إهتمام هذا البعض وراح يربط بين الشجرة وثمارها وبذورها والأرض وتربتها والماء المتساقط عليها وعبر معاناة وملاحظة وجمع للمظاهر وتفسير لها توصل الى معرفة الدرب نحو الزراعة .

فكانت الزراعة ميداناً للبحث فى الحياة .. فى حياة الشجرة وما تأتي به كما كانت الزراعة عامل استقرار للانسان وكان الاستقرار وراء تكوين العائلة والمجتمع فصارت الزراعة قوة لاقامة المجموع وتعاونهم فكانت البداية لظهور اللغات والبداية لقيام الحضارة فكان اجتماعهم عاملاً لدفع عجلة التقدم فى ميادين متعددة فصارت الحياة وماهيتها نقطة انتباه واهتمام كما ان الموت وفقدان واحد من الهيئة الاجتماعية الجديدة مدعاة للتفكير ومصدراً للتوقف فى تفسير هذه الظاهرة وتوضيحها[٢٣] .

لاحظ الانسان وهو يستقر فى بيت يحميه من كثير من الظواهر الطبيعية وأنه صار وأخوه الانسان قوة تستطيع مقاومة بعض الحيوانات الكاسرة وأنه تمكن من تجنب أضرار كثيرة ولكن على الرغم من ذلك فأن الموت كان يقع عليه او على أبناء جلدته ممن كان يعيش معهم يقع على الصغير وعلى الكبير وأن هذا الموت لم يكن بعد عملية هجوم من حيوان كاسر ولا من بركان متفجر مما دفعه الى التفكير فى أسباب هذا الموت وللتفكير فى مصدر الحياة .

وقف كما ذكرنا طويلا أما الشمس يحملها مسؤولية ما يصيبه من خير وشر ولكنه لم يستطع تحميلها سر حياته ولا وزر مماته ولهذا نجد ان غيابها الذي يعتبر ظاهرة مكشوفة قد حفز الانسان الى التفكير فى ماهية تلك القوة وتوصل عبر حوار طويل بأن قوتها من قوة أخرى خارجة عنها وعندما قرر أن قوة الشمس الهائلة «ربة الارباب» هي قوة هابطة عليها فصار منطقياً أمامه أن يفسر قوة الانسان خلقه وموته من قوة أخرى غير قوته وليست من قوة (تلك الآلهة) الكبيرة منها والصغيرة التي عبدها وتصور انها مصدر الخير والشر بالنسبة اليه ذلك عندما تأكد له بأن (إلهة الشمس) لم تكن قادرة على الحركة لوحدها وانه من باب اولى تكون مظاهر الحياة الأخرى وقوة الأرباب الصغيرة نابعة من قوة اكبر منها . أن فى حياة أبراهيم الخليل عليه السلام وهو يرى الشمس بازغة آفلة (بداية النهاية لايقاف (إلهة الشمس) فى مكانها والسعي لانزالها عن عرش الربوبية درجات والصعود فوقها درجات متصاعدة والدوران حولها فى كل الاتجاهات بحثاً عن سر هذه الحركة فيها وعن القوى المحركة لها والذهاب فى تفسير ذلك مذاهب عدة ، وقد توسل إبراهيم عليه السلام الى ربه أن يحسم هذا الموقف ويهديه الى الطريق الموصل الى الاستقرار والايمان .

ويبدو ان إبراهيم «ع» قفز الى مسألة الحياة والموت وغاص فى كنهها ووقف عندها وقفة طويلة جمع خلالها كل أقوال من سبقه فى هذه المسألة ولم يطمئن قلبه .

إن مسألة الحياة والموت بوجهيها المتقابلين المتناقضين كانت قد استحوذت على فكر الانسان واهتماماته ، ومما يدل على ذلك أن الحضارات القديمة حفظت لنا أخباراً وقصصاً وأساطير عن هذه القضية تبين أن الانسان فى فجر حضارته وعندما ابتدأ يعي ما يحيط به أو بعضه ويدرك ما يصيبه أو شيئاً منه راح يفكر فى هذه المشكلة ويسعى لسبر غورها ووضع التفاسير لها ، ففى أسطورة الخليقة

البابلية محاولة قديمة لتفسير سر الحياة ومدلولاتها ، وخلاصة هذه الأسطورة (إن أصل الأشياء وهي مؤلفة من عنصرين ، من الماء العذب «العنصر المذكر» ومن الماء المالح «العنصر المؤنث» وقد جسم البابليون هذين العنصرين من الماء وجعلوهما إلها وإلهة ، وهما «أبسو» و «تيامه» عدّوهما أصل الآلهة الأخرى وأصل جميع الأشياء . فتكون هذه المادة الأولى عند البابليين ذات صفة ثنائية أي كانت مادة وإلها في الوقت نفسه . وعلى ذلك فالمادة أزلية أي أنها وجدت منذ الأزل ولم تخلق ، وكانت إلها في الوقت نفسه ، ونجد هنا اختلافاً جوهرياً بين العقيدة البابلية والأديان السماوية ولا سيما ما نصت عليه التوراة والقرآن حيث وجود الله أزلي يسبق وجود المادة وهو الذي خلق المادة)[٢٤] . ويلاحظ أن في قصة الخليقة البابلية تشابهاً مع ما جاء في القرآن الكريم من أن الماء هو أساس الحياة حيث وردت في القرآن الكريم «وجعلنا من الماء كل شئ حي» . كما ان في الأسطورة البابلية هذه براعة في تفسير سبب الحياة والقوة التي جعلت الماء بقسميه العذب والمالح في قوة الخلق وذلك باعتبارهما إلهين ، واحد إله مذكر ، والأخرى إلهة ، وأن هذه الألوهية الثنائية كانت وراء عملية الخلق ، حيث لا توجد ظاهرة حية إلا من تفاعل ظاهرتين أو قوتين متعارضتين .

وقصة الخليقة في الحضارة المصرية وفي الحضارة الهندية توضح أهتمام الانسان بظاهرة الحياة والبحث في أغوارها ، وعندما لم يتوصل الى قرار حاسم في تفسيرها ذهب الى تقديس الانسان والى عبادة الموتى بحيث صارت هذه العبادة (أثبت العبادات وأعمها وأقواها وأبقاها ... فأن عناية المصري بتشييد القبور وتحنيط الجثث .. لا تفوقها عناية شعب من الشعوب)[٢٥] .

إن اسطورة الخليقة المصرية تبين أهمية الحياة وتكاثرها ووقوف الانسان عند هذه الحالة مبهوراً مقهوراً ، مما يدل على أثر الحياة في عقيدة الانسان ، لقد كان (للخصب شأن في ديانة مصر القديمة ، فهم يرمزون الى الكون كله ببقرة تطلع من بطنها النجوم أو بامرأة تنحني على الأرض بذراعيها ويسندها «شو» إله الهواء بكلتا يديه ، وأقدم ما تخيلوه في أصل العالم المعمور أنه عيلم واسع من الماء طفت عليه بيضة خرج منها رب الشمس وأنجب أربعة من الأبناء هم «شو» و «تفنوت» القائمان بالفضاء و «وجب» رب الأرض و «توت» رب السماء ، ثم تزاوجت السماء والأرض فولد لهما «أوزيريس» و «ايزيس» و «ست» ، «ونفتيس» فهم تسعة آلهة في مبدأ الخليقة نشأوا من تزاوج الأرض والسماء)[٢٦] .

وفى قصة الخليقة الهندية شبه بقصته الخليقة المصرية ، حيث تقول (فالحياة خرجت من بيضة «ذهبية» كانت تطفوا على الماء فى العماء والاله الأكبر كان ذكراً وأنثى فهو الأب والأم للاحياء ، كما جاء عن «رع» فى بعض الاساطير المصرية ، وبناء العالم من صنع بناء ماهر فى أساطير مصر والهند على السواء ، وتتفق مصر وبابل والهند على أن الاله الأكبر قد خلق الأرض بكلمة ساحرة فأمرها بأن توجد فبرزت على الفور الى حيز الوجود)[٢٧] .

ويلاحظ أن فى حكايات الخليقة القديمة البابلية والمصرية والهندية ، أن الماء كان المجال الذي خرجت منه صور الحياة ، مما يؤكد أن هذه المادة كانت الأساس لكل الأحياء ، وفى ذلك مصداق لقوله تعالى حيث جعل من الماء كل شئ حي .

إن اهتمام الانسان بذاته دفعه الى الأهتمام بسر هذه الحياة ، وعندما كان يشاهد أن الموت يقع على أخيه الانسان وأن هذا المتوفى يتفسخ ويذهب جسده ويتفتت ، كان يحزن لهذا المصير ، فراح يفتش عن وسيلة يحمي بها نفسه من هذا المصير المؤلم ، فلم يوصل الى طريقة يحمي بها نفسه ، فكان الموت يأتيه ليلاً ونهاراً وعبر حوادث طبيعية ، وفى ناب حية أو بين فكي حيوان كاسر وقد يأتيه بغتة وهو مسجى على فراشه .،، مما حار فى مصيره هذا وظل يبحث عن حجة يوضح فيها هذه النهاية فلم يصل الى شئ يقنعه ، وبقى يقدح زناد تفكيره فتوصل بعد لأي طويل الى ان للانسان روحاً وأن هذه الروح لا تفنى بموت الانسان إنما تفارقه الى عالم آخر أو تظل تسبح فى عالم الأرواح حتى تعود ثانية الى جسده عندما يبعث مرة ثانية، وهذا التفسير كان محاولة لمجابهة المصير القاسي الذي يؤول اليه الانسان عندما يموت ، ولما لم يستطع أن يجد وسيلة أو علاجاً يصد به غائلة الموت فما كان منه إلا أن ابتداع مسألة الروح وجعلها تفترق عن الجسد وتختلف عنهَ لكي تنفصل عنه فى حالة الموت وتخرج من دائرته وتستقل عنه لتبقى حية ، وذلك فى عملية خروج من الطريق المسدود والقبر المظلم الذي ينتهي اليه الانسان . ولذلك فأن (عقيدة الأرواح) قد انتشرت وشاعت فى الحضارات القديمة وتصاعدت قوتها وتعددت صورها بتقدم وتطور تلك الحضارات (فكان المصريون من أعرق الأمم التي آمنت بالبعث والثواب والعقاب بعد الموت .. وقالوا أن الروح تتشكل بجميع الأشكال ولكنهم لم يقولوا بتناسخ الأرواح)[٢٨] .

ومما يشير الى اهمية ظاهرة الحياة والموت فى حياة الانسان ، قصة

«گلگامش» المشهورة التي أساسها جزع الانسان من الموت ومحاولته إيجاد وسيلة أو مادة يغالب بها هذه الظاهرة ، وأن الخلاصة المركزة لقصة «گلگامش» هي (إن گلگامش بطل من أبطال العراق القديم وواحد من ملوك الوركاء ، وأن گلگامش هذا كان قد اشتهر بحكمته وخبرته ومعرفته بأخبار الأزمان الغابرة . وكان على أتم ما يكون من الصورة والخلق فقد صنعته الآلهة أحسن صنعة وأجمل مثال قوي الجسم هائل الخلقة جسيم التركيب ثلثاه إله وثلثه الباقي بشر . لقد استبد گلگامش هذا وأخذ بالعنف أهل الوركاء واضطهدهم «فلم يترك ولدا لأبيه ولم يترك الزوجة لحبيبها» فاستغاث الناس بالآلهة فاستمعوا لشكاتهم واستمع «آنو» أبو الآلهة البابلية لشكواهم وخاطب الآلهة ... لقد خلقت گلگامش فاصنعوا غريما ونظيراً له ، فصنعوا بطلاً قوياً هو «إنكيدو» وكان هذا مارداً يغطي جسمه الشعر وشعر رأسه كالمرأة ، وكان وحشاً لا يعرف البشر ولا حياة البشر ، يرعى العشب والنبات مع الغزلان ويرد الماء مع وحوش البرية . وبينما كان يرد الماء مرة رآه أحد الرعاة فهالته خلقته وشكله فقص هذا الراعي على أبيه ما شاهده فنصحه أبوه أن يذهب الى گلگامش ويخبره بخبر هذا الوحش .. فلما سمع گلگامش خبر أنكيدو من الراعي قال : إنطلق أيها الراعي واصطحب معك بغيا ، وعندما يأتي الوحش لورد الماء فلتخلع ثيابها ولتعمل على إغوائه وستتبدل وحشيته . عمل الراعي بما أمر به فوقع انكيدو فى حبائل المرأة وعاش معها ستة أيام وسبع ليالي وتغير حاله من بعد ذلك وذهبت وحشيته ونفرت عنه الغزلان والوحوش التي كانت تألفه ، وبقى مع المرأة البغي وارتمى عند قدميها ، واصطحبته الى مدينة الوركاء وطلبت منه أن ينازل گلگامش ويتغلب عليه ، وقيل گلگامش تحدى أنكيدو فنشبت بين الاثنين معركة عنيفة وبعد جهد تمكن گلگامش من انكيدو وطرحه على الأرض وأقر انكيدو بتفوق غريمه واعجب البطلان كل منهما بالآخر فصارا صديقين حميمين ...... وبعد صحبة طويلة ومشاركة بين گلگامش وانكيدو مات انكيدو فحزن عليه گلگامش حزناً بليغاً وصار ينوح عليه ويندبه ليل نهار حتى انه أبى أن يودعه اللحد معللاً نفسه بعودة صاحبه للحياة وبعد أن يئس دفنه دفناً يليق به ..وقد تملك الخوف من الموت گلگامش ، وراح يفكر بوسيلة للتخلص منه .. وهنا ذكر قصة جده «أوتو _ نبشتم» الذي يعيش فى بقعة نائية فى البحار البعيدة وكان قد حصل على الحياة الخالدة ، فعزم گلگامش على شد احرحال الى جده مهما كلفه الأمر ليسأله عن سر الحياة الخالدة ، فرحل رحلة طويلة وشاقة عبر خلالها جبالاً وطرقاً وعرة مملوءة بمخلوقات غريبة ، ووصل الى حيث يقيم جده فوجد على حراسة مقامه ،

إنساناً مركباً من بشر وعقرب ، وبعد تردد استمع اليه حراس هذه البوابة وأدخلوه الى بستان إشجاره تحمل الجواهر والدرر وأشاروا له الى مكان عند الساحل حيث تقيم إحدى الالهات فيدخل گلگامش فيبث شكواه الى صاحبة «الحانة المقدسة» ويطلب منها أن ترشده كيف يصل الى اوتو ـ نبشتم فتنصحه صاحبة الحانـة بالعدول عن مسعاه وتقول له : «الى اين أنت تسعى يا گلگامش ؟ فالحياة التي تبغي لن تجد . إذ أن الآلهة لما خلقت البشر ، قدرت الموت من نصيبهم واستأثرت بالحياة . فيا گلگامش لتكن بطنك ملأى ولتكن مبتهجاً ليل نهار واجعل كل يوم من حياتك يوم فرح وسرور وارقص والعب واسبح فى الماء ودلل الطفل الذي يمسك بيدك وافرح الزوجة التي بين احضانك ، وهذا هو نصيب البشرية. ومع ذلك فقد ألحف گلگامش فى السؤال فأرشدته صاحبة الحانة الى ملاح أوتو ـ نبشتم ؟ فذهب گلگامش الى الملاح الذي اقتنع بأن يصحبه معه فى سفينته وقد مخرت بهما فى «مياه الموت» الى أن وصلا الى الساحل الذي يعيش فيه أوتو ـ نبشتم فيسأله هذا عن سبب مجيئه ويعجب لما شاهده على گلگامش من الحزن والأسى فيجيبه گلگامش بما حل به ويقول له «يا أوتو ـ نبشتم كيف لا تذبل وجنتاي ويمتقع وجهي ويحزن قلبي وتتبدل هيأتي فأن صاحبي وأخي الصغير انكيدو وصاحبي الذي تغلب على جميع الصعاب قد أدركه مصير البشر فبكيته ولم يهن على دفنه بالقبر حتى وقع الدود على وجهه فأفزعني الموت حتى همت على وجهي فى البراري فالنازلة التي حلت بصاحبي تثقل كاهلي ، صار صاحبي الذي احببت ترابا ، وبعد حوار بين گلگامش وجده سأله گلگامش : كيف صار خالداً وهو مثله بشر بل يبدو أضعف منه .... رد عليه أوتو ـ نبشتم قائلاً : يوجد نبات شوكه مثل شوك الورد ينبت فى غور البحر فأن ظفرت بهذا النبات حصلت على تجديد الشباب والحياة ، فربط گلگامش برجله حجارة ثقيلة وغاص فى أعماق البحر ووجد هذا النبات العجيب وعزم على أخذه الى مدينته لينميه ويكثره ويستفيد منه الناس ، فسر گلگامش وشرع يسير الى مدينته ، وفى الطريق شاهد بركة ماء فنزل فيها ليستحم ويزيل عنه عناء السفر ، وبينما كان فى الماء شمت الحية شذى ذلك النبات العجيب فاختطفته وحصلت بواسطته على قدرة تجديد الشباب إذ كلما أدركها الهرم نزعت عنها جلدها فتجدد شبابهـا ، فجلس گلگامش وبكى وعاد الى مدينته وقد اعتقد بتعـذر الحصول عـلى الحياة الخالدة)(٢٩) .

إن قراءة ثانية لملحمة گلگامش تبين النقاط الآتيـة :

— إن الانسان فى الحضارة العراقية القديمة كغيـره من إنسان الحضـارات

القديمة الأخرى اهتم بمسألة الحياة والمحافظة عليها والسعي للوصول الى مصدر يبقى على حياته خالدة .

- إن ظاهرة الموت كانت الناقوس الذي هز الانسان ودفعه الى التفكير بالحياة وحمله للتفتيش عن سر هذه الحياة فيه ، وأن الموت هو النهاية التي حفزت الانسان الى الانتفاض على هذه النهاية والعمل على درئها .
- إن اهتمام الانسان فى سر الحياة واجهاد نفسه فى ملاحقة هذا السر ومتابعة حياته منذ الولادة وحتى القبر وعدم قدرته على التحكم بهذه الدورة التي يمر فيها ، جعله يفسر كنهها خارج ذاته ويضع لهذه الدورة الحياتية قوة وسبباً فى جهة مستقلة عنه :
- إن صفة الخلود مستحيلة على الانسان وأن محاولاتـه لا بد أن تصـطدم بجدار لا يقوى على اختراقه وأنه ينتهي الى حفرة يوارى فيها وأن الخلود من صفات الآلهة فقط ، وأن تركيب گلگامش الذي كان ثلثاه من صفات الآلهة وتكوينها لن يستطيع المحـافظة عـلى ثلثه الآخـر الذي لم يكن من صفات الألوهية . وهذا يعني أن الخلود لمن صفاته كلها صفات إلهية .
- فيتبين من ملحمة گلگامش أن «الوحدانية» لم تكن بعد قد تركزت وما زالت عقائد الانسان موزعة على آلهة متعددة على الرغم من توصل إنسان ما بين النهرين الى اعتبار (آنو) أبا الآلهة ، إلا أنه لم يستطع تجريد الآلهة الأخرى من صفات الخلود ، ذلك أن مرحلة التوحيد لم تكن بعد قد تركزت أركانها .
- إن ملحمة گلگامش هي من صنع الانسان نفسه وهي تعبير عن آلام وآمال الانسان فى تلك المرحلة ، وليست من صنع قوة اخرى ، فهو الذي وضـع فصول هذه الملحمة وشخوصها ، وهو الذي أنطق تلك الشخوص وهو الذي تحدث عن لسان الآلهة وأنطق الأشجار والحيوانات ورسم صورة الانسان المركب من بشر وعقرب وهو الذي أنطق «صاحب الحانة المقدسة» كما انه هو الذي سأل أتو ـ نبشتم وهو الذي أجاب عنه ، وإذا صح أن الأخير قد رد عليه فأنما كان رده باعتباره إنساناً يستطيع أن يتحدث الى إنسان آخر وعليه فأن حديثه يقع فى دائرة البشر وبين أشخاص فهو ليس حديثاً من إله الى إنسان .

وعليه فأن قصة گلگامش هي حصيلة إدراك الانســان وتصوراتـه لمعنى الحياة ولظاهرة الموت كما كان يراها فى أيام صدورها عنه .

وقد بقيت معاناة الانسان مستمرة وهو يقف أمام ظاهرة الموت عاجزاً أعزل وبقى كذلك حتى ظهرت الديانات السماوية فكانت مسألة «الحيـاة والموت» هي المسألة التي دفعت أبا الانبياء إبراهيم عليه السلام أن يتوسل الى الله لكي يخبره عن كيفية الخلق .. (وإذ قال إبراهيم ربي أرني كيف تحيي الموتى ، قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ، قال فخذ اربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم أدعهن يأتينك سعياً وأعلم أن الله عزيز حكيم)[٣٠] .

إن قراءة ثانية لهذه الآية الكريمة ووضعها فى السياق من الآيات التي جاءت قبلها والتي وردت بعدها تعطي المعاني والدلالات الآتيـة :ـ

— إن موضوع «الله» جلت عزته ، وقدرته على الخلق والاحياء ، الموت والفناء ، مسألة قد انتشرت وصارت موضع نقاش وجدل ، قبل ابراهيم وفى ايامه . وأن هذه المسألة صارت بؤرة جدل ومحطة تعارض واختلاف بحيث صارت قضية الموت والحياة هي الوحدة القياسية التي بها يستدل على وجود الله ، وقد وردت آيات أخرى قبل أن يطرح إبراهيم الخليل (ع) سؤاله هذا تشير أن (موضوع الخلق وماهيته) كان يضغط على عقول الناس ويستثير اهتمامهم حيث جاء فى الآية السابقة لتساؤل إبراهيم الخليل (الآية ٢٥٩) والتي نصها (أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم ، قال بل لبثت مائة عام فأنظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس ، وأنظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً ، فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شى قدير)[٣١] .

إن مراجعة هذه الآية وربطها فى الآية (٢٦٠) تؤكـد أن موضـوع الموت والحياة كان الموضوع الأهم الذي وقف الانسان أمامه طويلاً باحثاً عن أسراره وعن دلالاته وأنه قد توصل الى جواب بأن الله هو الخالق والقادر على كل شيُ يحيي ويميت .

— ويلاحظ إن المحاجة بظاهرتي الحياة والموت كانت متزامنة مع المحاجة بظاهرة الشمس التي بقيت (القوة الظاهرة المعبودة لدى الانسان زمناً طويلاً) حيث وردت فى (الآية ٢٥٨) من سورة البقرة فكرة الحياة والموت والسؤال عنها مع السؤال عن ظاهرة الشمس كيف تشرق وكيف تغيب ، إذ جاء فى نص (الآية

٢٥٨) (الم تر الى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحي ويميت ، قال أنا أحي وأميت قـال أبراهيم فـإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين) .

— إن تصاعد النقاش فى مسألة الموت والحياة وحول ظاهرة الشمس يدل على أن هذه القضايا كانت تستأثر بأهتمام الأنسان وكانت تشغل باله وأن جدله فيها يدل على مرحلة متقدمة فى حضارة الأنسان وزيادة معارفه وإدراكـه حيث حصر أهتمامه فى هذه المسائل الكبيرة وتجاوز القضايا الصغيرة التي سبق أن اهتم بها وعبدها بحيث لم يبق أمامه إلا قضية الشمس وماهيتها ومصدر الضوء والقوة فيها أي مسألة النور والظلمة إلى جانب المسألة الكبيرة المؤرقة للأنسان وهي مسألة الموت والحياة .

— إن طبيعة الحوار بين الله سبحانه وخليله إبراهيم «ع» كانت طبيعية تعتمد على الحس والأدراك فعملية الطيور الأربعة والعمل على ذبحها وتقطيعهـا وجمعها ومن ثم توزيعها أجزاء على جبال متفرقة ثم الطلب الى هذه الأجزاء وتحول تلك الأجزاء المعجونة الممزوجة إلى طيور أربعة كما كانت قبل عملية المزج ومجىء هذه الطيور مشياً وسعياً لئلا يختلط الأمر بين هـذه الطيور والطيور المحلقة فى الجو ، أريد بذلك تقديم أدلة محسوسة مادية على طبيعة القدرةالألهية الخالقة القادرة على كل شئ ، مما يدل على إن المرحلة الحضارية كانت فى هذه الحدود وأن الأنسان كان فى حاجة الى دليل محسـوس لكي يحسم هذا الأمر وينتقل من موقع السؤال والريبة الى موضـع الأستقرار واليقين .

— إن تقديم الله سبحانه وتعالى هذا الدليل المادي المحسوس على قدرته للاحياء كان بسبب عجز الانسان وفشله فى الوصول الى تفسير مقنع عن ماهية الحياة وسرها وخالقها ، وأن هذه الصعوبة كانت أمام الانسان وهو فى حالة تقدم حضاري وفى حالة قوة وتطور ، فقد عجز جلجـامش الملك عن معرفـة سر الحياة ، كما عجز هذا وهو بثلثي الاله عن معرفـة هذا السر ، كمـا عجز الآخرون عن معرفته حتى أن الأنبياء منهم كانوا فى حالة من الحيرة والعجز عن أدراك كنه الحياة وتفسيرها ، ومن هنا كان رجاء إبراهيم وسؤاله ولهذا جاء جوابه سبحانه وتعالى ليقنع الانسان ويقطع عليه طريق الشك والريبة ،

فقدم إجابته صريحة مكشوفة محسوسة فهى وإن كانت جواباً لابراهيم فأن إبراهيم كان يمثل أعلى مرحلة من مراحل التقدم والتطور للانسان فى زمانه .

— إن قراءة ثالثة للآيات (٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠) التي أتينا على ذكرها تبين بجلاء أن موضوع الحياة والموت هو الذي أوقف الانسان طويلاً وأن هذه الظاهرة دفعت به الى التفكير وظلت ملازمة له فكانت وراء معاناته وتفكيره وانتاجه لأكثر من مقولة واسطورة وملحمة وتفسير وبقى سابحاً فى لجتها يغور فى أعماقها ويسبح على سطحها ويعلو فوق أمواجها ويحط ثانية فى دوامتها ، وبقى فيها غارقاً سابحاً محلقاً متلهفاً ظمآناً يشرب ماءها ملحاً أجاجا حتى جاء جوابه سبحانه وتعالى واضحاً مكشوفاً الى نبيه إبراهيم «ع» . ولما كان إبراهيم عليه السلام نبياً ورسولاً ومن أولى العزم (وأبو الأنبياء) فأن قصته هذه تتابعت أخبارها فى التوراة والأنجيل وتوضحت جلية صريحة فى القرآن الكريم مما يشير الى انها آية لكل الانبياء ودليل لهم وحجة لتوضيح هذه المسألة وحل النزاع والجدل بشأنها .

ثانياً : صور ومراحل العقيدة الدينية :

١ - الوثنية والطوطمية :

فى البدء كان الله ، وسيبقى ، الأول والآخر واحداً خالقاً واجب الوجود وعلته .

لقد عبر سبحانه عن ذاته وقدرته بأن خلق السَمٰوَات والأرض وما فيهما .. لقد خلق النبات والحيوان والانسان وقد بقيت هذه الموجودات خرساء لم تستطع أن تتحدث عن نفسها أو عن خالقها زمناً طويلاً .. لقد تحدث الانسان وحده وما زال بعد أن ظل كغيره من المخلوقات قروناً لم يستطع التعبير عما يرى ويسمع ، ويذهب العلماء الى أن ملايين من السنين مرت على الانسان وهو يعيش حياة بدائية لم نعرف عنها شيئاً حيث مرت عليه (حقب طويلة مجهولة فى عصور ما قبل التاريخ الطويلة)[٣٣] .

ان تاريخ العقيدة عند الانسان تاريخ متأخر قد إبتدأ فى فترة لاحقة من عمره المديد الذي كان أغلبه دون عقيدة .

إذ أن حياة الانسان البدائية غير المرتبطة بعقيدة أو استقرار قد شغلت (زهاء ٩٨٪ من حياة البشر فى حين أن عمر الحضارة الناضجة لا يتجاوز ٥ آلاف أو ٦ آلاف عام)[٣٤] .
لقد بدأ الانسان يتحدث عن ذاته ويقف على حاجاته ويحس بما يحيط به فقامت صلات إيجابية أو سلبية بينه وبين ما يحيط به فكانت هناك تأثيرات متقابلة بين الانسان ومحيطه ، كما كانت هناك حالة من الصراع والتعارض بين الانسان وبيئته مرة يتغلب على بعض عناصرها وقواها ومرات ينهزم أمامها أو يقع فريسة لها .

هذا الصراع بقى محتدماً ولم يستطع الانسان أن يعبر عن معركته هذه بلسانه أو فكره إلا بعد مروره على حقب طويلة استطاع بعدها أن يقف على

ما يفيده وما يضره وتمكن أن يعبر عن ذلك بأشارة أو كلمة أو بسلاح أو بوسيلة أخرى لكي يقول شيئاً عن معركته ومعاناته .

كان طريقه للوصول الى ما يهمه ويؤثر فيه يتناسب مع حاجاته وطبيعته التي تحس بتلك الحاجات فراح يربط بين احساسه وحاجته للشئ وبين هذا الشئ وعملية الاحساس والمقارنة والربط تمثل مرحلة متقدمة فى تطور الانسان وتدرجه فى الاحساس بما يؤثر فيه ودرجة متقدمة فى إدراكه لهذه المحسوسات وربط مفاصلها وأجزائها مع بعضها .

لقد توصل الانسان الى إدراك بعض المظاهر وصلتها به وتأثيرها عليه فحينما كانت هناك ظاهرة أو قوة تتقدم إليه ، ضارة أو نافعة ، تحدث تغييراً أو أثراً مؤذياً أو مريحاً فأن هذه الظاهرة التي تكررت أمامه وأعادت تأثيرها النافع أو الضار مدعاة للتوقف عندها والتفكير فى ماهيتها .

إن عملية الاحساس بالشئ هي عملية مركبة تقوم على ركنين أساسيين .. الأول الانسان بتكوينه الذي يتألف من غرائز وشعور بالاحساس بالشئ ، أذى أو رحمة - حاجة تدفع اليها دوافع داخلية تحمله على الحركة للحصول على شئ يحسن بالحاجة اليه ، والركن الآخر الظواهر والحاجات والقوى التي تحيط به .. تتحرك نحوه ذاتياً أو يحس بأهميتها فيتقدم صوبها ، وأن عملية التفاعل بين هذين الركنين كانت مستمرة زادت من احساس الانسان بما يحس وعمقت إدراكه وربطت بين الظاهرة وأثرها ، ومن هنا بدأت العلاقة بين الانسان وهذه الظواهر وكانت هذه الظواهر كثيرة ومتعددة إلا أن أثرها يمكن تقسيمه الى مجموعتين اساسيتين .. المجموعة الأولى الظواهر النافعة والثانية الظواهر الضارة .

لقد ابتدأ يتقرب من الظاهرتين كُلٍ بطريقة تتناسب مع مصلحته ، مع الظواهر النافعة راح يتقرب منها لكي تكون قريبة منه ولكي تواصل عطاءها له ولكي تظل تمده بما يحتاج إليه ، ولهذا نجد أن تلك المظاهر كانت كثيرة متمثلة بكل ما كان يحتاجه ويحس بأهميته وفائدته له ، ولهذا كثرت الظواهر النافعة وتعددت ، ولما كان الانسان عاجزاً عن توفيرها أو خلقها أو إحضارها عندما يريد ، كما كان الوصول إليها يمر عبر معاناة وجهاد وصعوبات فإنه اضطر أن يتقرب الى

تلك المظاهر لكي تظل على مقربة منه تمده بما يحتاج ، ولهذا نجد أن آلهة الانسان القديم كثيرة متعددة بلغت العشرات بل المئات (ويوشك فى هذا الدور أن يكون لكل أسرة رب تعبده أو تعويذة تنوب عن الرب)[٣٥] .

إن عملية الوعي الديني بدأت ساذجة بدائية مرتبطة بحاجات الانسان ، بما ينفعه وما يضره كما ذكرنا سابقاً ، وقد تطورت هذه العقائد بتطور الانسان وتقدمه فى سلم الحضارة ، وبعد أن كان اهتمامه بالمظاهر النافعة ، فأنه تحرك فى مواجهة المظاهر المؤذية حاول مقاومتها بما يستطيع ورد غائلتها بما يملك من قوى ولكنه توصل الى انه غير قادر على رد كثير من هذه القوى الضارة المعادية له مما حمله على ابداع وسيلة الدين عن طريق التقرب منها وعبادتها وتصويرها بصورة معينة أو نحتها بأشكال تشبهها أو الرمز اليها برموز تدل عليها والتقرب اليها لعلها تكف عن أذاه . ولما كانت المظاهر النافعة والضارة كثيرة ، لهذا تعددت الآلهة (وقد بلغ عدد الآلهة مبلغاً بحيث تبلغ معجماً كبيراً)[٣٦] .

وعند متابعة الديانة فى الحضارة العراقية القديمة نجد (جداول بأسماء آلهتهم الكثيرة) نظمت الى مجاميع وذكرت علاقاتها بعضها ببعض وقد قسموا الكون الى مناطق يحكم فى كل منها إله أو مجموعة من الآلهة . وكذلك خصصوا لشؤون الحياة المختلفة ولظواهر الطبيعة آلهة بيدها نظامها وأسبابها)[٣٧] .

ومما يشير الى أثر المظاهر السلبية فى منشأ العقيدة عند الانسان أن (الآلهة المصرية) كثيراً ما تمثل بهيأة كائنات مركبة مثلاً من جسم إنسان ورأس حيوان فالاله «ختوم» بهيأة كبش و «هورس» بهيأة صقر ، و «نوبيس» ابن آوى و «سوبيك» التمساح ، و «هاثور» البقرة ، وقد يكون لبعض الآلهة البابلية حيوانات مقدسة .. كما أن الآلهة البابلية تشبه فى بعض صفاتها بالحيوانات كأن يقال للاله الفلاني قوة الثور أو أنه عجل الاله الفلاني وللآلهة الفلانية خصب البقرة)[٣٨] .

لقد كثرت آلهة الانسان وتعددت وظلت تتكاثر بتكاثر حاجاته ولهذا نجد أن الانسان عبد الشجر والحيوانات ومظاهر الطبيعة والأحجار ، وهذه المرحلة هي

التي نطلق عليها مرحلة الطوطمية وهي غارقة في القدم وفي التعدد ، وكلما تقدم الانسان خطوة في مدارج التطور واستطاع أن يربط بين الحاجات بعضها بالبعض وعندما عرف علاقة هذه الحاجة به وأدرك طبيعة هذه الحاجة والعوامل الموحدة لها والمؤثرة فيها بقاء أو فناء ، كثرة أو تقليلاً ، نفعاً أو ضرراً ، فأنه ابتدأ يختصر هذه الآلهة ، يجمع بعضها الى البعض ويوحد فيما بينها ، فصارت عملية دمج واختزال بقيت سائرة بحيث انتهت تلك الكثرة الكاثرة الى عدد محدود تجمعت في كل واحد منها قوى متعددة وتأثيرات مختلفة وفوائد جمة أو أضرار عدة ، ولهذا صار عدد الآلهة يحسب على عدد أصابع اليدين وقد يقل عنها .

عملية الأختصار هذه مرت بفترات طويلة ولم تجر هذه العملية على وتيرة واحدة وعلى نسق واحد في جميع الحضارات والشعوب حيث بقيت شعوب حتى وقت قريب تعبد آلهة كثيرة فالطوطمية ما زالت بقاياها ماثلة في قارات افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية وفي الجزر النائية .

إن عملية الاختزال مرت بخطى بطيئة ، إلا انها متصاعدة في الحضارات والشعوب القديمة كالحضارة المصرية والعراقية والايرانية والهندية وأن أكثر الحضارات اختزالاً وأسرعها حركة نحو الأختزال والتوحيد هي الحضارة العراقية والمصرية كما أشرنا الى ذلك .

٢ - الثنوية :

لقد انتشرت الديانة الوثنية في الحضارات القديمة ، وظلت هذه مستمرة حتى بعد ظهور الديانات السماوية حيث نجد مظاهر الوثنية قائمة في مناطق كثيرة من العالم حتى يومنا هذا .

إن مرحلة انتشار وتعدد الآلهة قد وصل في الحضارات القديمة (العراقية والمصرية والايرانية والهندية واليونانية) مرحلة الاشباع حيث وصلت الآلهة المعبودة العشرات بل المئات ، حيث عبد الانسان مظاهر الطبيعة والحيوانات والنباتات والأحجار وكثيراً من الحاجات التي كان يحس بأهميتها له ، كما عبد ما

يضره وما ينفعه . وبعد أن وصلت هذه المرحلة الى قمتها ، بدأت مرحلة توقف ، ومن ثم ابتدأت عملية اختزال واسقاط لعدد من الآلهة ، كما ابتدأت عملية دمج بين عدد من الآلهة وجمعها فى إله واحد كبير .

إن عملية الأختزال والدمج هذه مشت بصورة بطيئة إلا انها متواصلة حتى انتهت الى مرحلتين ، مرحلة الثنائية ومرحلة التوحيد .

إن المرور فى طريق الأختزال والانتهاء الى الثنائية والتوحيد لم يسر بوتائر منظمة ، ولم يمر على جميع الحضارات بطريقة واحدة ولا بأسلوب واحد إنما كانت هناك وسائل ومسالك ومراحل ونتائج متعددة ، حيث نجد أن حضارات انتهت فيها العقيدة الى الثنائية وتوقفت عندها وأخرى عبرت مرحلة الثنائية وراحت الى التوحيد ، وحضارات بقيت على وثنيتها أو أن خطوطاً طويلة أو قصيرة خرجت من الوثنية وانتهت عند أسوار الوحدانية ولم تستطع الدخول فيها ، كما أن بعضاً من هذه الفروع بقيت مراوحة عند أعتاب الثنوية ، تارة تأخذ بها وتارة تتراجع فتضيع فى دائرة الوثنية .

إن عملية الأختزال واسقاط الآلهة الصغيرة وعملية الأندماج بين الآلهة ، كانت نتيجة لعوامل متعددة يمكن حصرها فى النقاط الآتية :

— تطور مدارك الانسان ووصوله الى مرحلة يستطيع التمييز بين الأشياء ومعرفة العلاقة بين النتائج والأسباب .. إن مدارك الانسان تتطور نتيجة التفاعل مع البيئة التي يعيش فيها ، قوى الانسان الداخلية ، عقله ، غرائزه .. هي ميدان الاحساس والوعي .. حواسه وسائل اتصاله مع ما يحيط به ، هذه الحواس تنقل الى المخ ما تراه وتسمعه وتلمسه وتحس به والمخ يفسر ويميز مقدرة الانسان على التمييز كانت قدرة بسيطة ، وكانت المؤثرات التي تحدث أذى أكثر وقعاً من غيرها ، وتلك التي تسبب راحة ، إشباعاً لغريزة او تطميناً من خوف أو أماناً من خطر فأن مثل هذه الوقائع تزيد من الاحساس وتجعله مرهفاً والاحساس هذا عملية إدراكية تزداد عمقاً وسعة بتتابع الوقائع والأحداث والمؤثرات ، مما يؤدي الى إتساع وتعميق دائرة الادراك .

— وعندما كانت مدارك الانسان محدودة واحاسيسه مباشرة فأن كل مظهر يؤثر فيه سلباً أو إيجاباً ، كان يرى فيه قوة تؤثر فيه ، فأتجه الى التقرب من كل هذه المظاهر وعبادتها . وبينما الانسان ينصب آلهة داخل كل حاجة فأنه كان يدرك أهمية هذه الحاجة عن طريق الاحساس بنفعها أو ضررها وبعد أزمان طويلة استطاع أن يميز بين تلك المظاهر المؤثرة فيعطى لبعضها حجماً أكبر من غيرها ، وبعد زمن .. صار يربط بين هذا المظهر وما يسببه من نفع وأذى ، وهو يواصل عملية التلقي والتفاعل كان يفتش عن عوامل «التأثير» فى هذا المظهر أو ذاك ، وتوصل بعد معاناة وطول تفكير عبر إحساسات متصلة بأن مصدر القوة فى هذه الظاهرة ، هذا العامل أو ذاك ، هذه القوة أو تلك . إن عملية الربط بين الظاهرة المؤثرة وعناصر القوة فى هذه الظاهرة ، دفع بالانسان الى الغور فى أعماق تلك المظاهر فاستطاع أن يتوصل الى أن بعضاً من تلك المظاهر لا تستطيع أن تقف على قدمها ولا أن تؤثر لولا وجود «قوة أخرى» تقع عليها أو تحيط بها أو تصب فيها وهكذا بدأت عملية تفسير للمؤثرات وعملية ربط بين نتائجها والقوى المحركة فيها .

— لقد توصل الانسان الى ان هذه الشجرة التي كان يحصل منها على بعض غذائه ويستظل بظلها من حرارة الشمس ويصيد من أغصانها طيوراً يأكلها ويتسلق على ساقها ، ويقيم بين فروعها هرباً من حيوان كاسر ، هذه الشجرة المباركة ، أدرك بأنها لولا المطر الساقط عليها لما نبتت ، ومن ثم أدرك بأن هذا المطر لا يسقط فى الغالب إلا عندما تغيب الشمس وتحجب بسحابة كثيفة ، فراح يربط بين الشمس وسقوط المطر ، وحينما توصل بشكل بدائي لهذه العلاقة بين الشمس والمطر والشجرة .. وقف أمام الشمس يبحث فى سرها ، وبينما عيونه شاخصة فى السماء كان يهبط الى الأرض فيجد أن الشجرة غائرة فى أعماق التربة وأنها لولا هذه لما استطاعت العيش ، ومن هذا الحوار الداخلي بين الانسان وإدراكه وبين الانسان وحاجاته أصدر جملة أحكام جعل للظواهر درجات واحدة اكبر من الأخرى وجعل قسماً من هذه الظواهر فى القمة من حيث الأهمية وانزل عدداً منها دونها . وبعد عملية التوزيع هذه راح يسحب من هذه الظاهرة قوتها ويضعها فى ظاهرة اوسع منها وأقوى ، وهكذا أحاط الانسان نفسه بدوائر كبيرة ، وضع فى محيط كل دائرة عدداً من الآلهة الصغيرة وجعلها تدور فى أفق الدائرة الكبيرة وفى محيطها .

كان الانسان فى مركز هذه الدوائر ، يقف مرة ، ويدور حول ذاته مرات ، ينظر الى هذه الدوائر الكبيرة ويحاول أن يجمع فيما بينها عن طريق سحب الدائرة الكبيرة الى الدائرة الأصغر منها أو بالعكس ، دفع الدائرة الصغيرة الى الدائرة الأكبر منها فى محاولة للابقاء على المؤثرات الأقوى والأكبر وقد استطاع تقليل عدد الدوائر .

— تطور الانسان وقدرته على إبداع وايجاد بعض ما يحتاجه ..

إن حركة الانسان وتفاعله مع الحياة ليست عملية أحادية الجانب .. إنما حركته حركة فى كل الأتجاهات ومع جميع المظاهر ، فحينما كان الانسان يرى ويميز بين المظاهر المؤثرة فيه ، ويقف على العلاقة بين المظهر وقوته ، ويربط بين هذه المظاهر فيما بينها ويميز بين المظاهر الأكثر قوة وتأثيراً وتلك الأقل فأنه كان يتابع تلك المظاهر ويسعى الى سبر غورها ويعمل على ايجاد وسيلة يستطيع بها توفير ما يحتاجه وما تعطيه تلك الظاهرة .

— إن متابعة الانسان وتفكيره هذا ، وعبر مراحل طويلة استطاع أن يتوصل الى أن الاحتفاظ ببعض الحاجات يغنيه عن الحركة وملاحقة ما يسد به رمقه وعطشه ، فعندما توصل الى أن باستطاعته أن يحتفظ بالماء على مقربة منه وببعض الثمار والحيوانات ، فأن هذه المرحلة على بساطتها تعتبر تغيراً أساسياً فى سلم تطوره بحيث جعل الانسان قادراً على الاستقرار ولو لفترة قصيرة تغنيه عن اللهاث وراء حاجاته ، وكانت هذه الفترات القصيرة من استقراره فرصاً للتفكير ومناسبة للربط بين المظاهر .. وبينما كان يلقى ببذور ثماره ، شاهد أن شجرة تنبت عنها تشبه الشجرة التي حصل منها على ثماره ، وإذا بهذه الشجرة الجديدة تحمل ثماراً لا تختلف عن ثمار الشجرة الأولى .. فانتبه الى ذلك ويبدو انه استطاع أن يربط بين الأشياء ويتوصل الى أن البذور يمكن أن تحمل اليه إنبات شجرة تعطيه ثماراً وتغنيه عن الحركة والتجوال ، وهكذا توصل الى الزراعة ، وعندما وصل الى هذه المرحلة فى خطوطها الأولية ، فأن هذه العملية تعد اكبر انقلاب حدث فى عمر الانسان حيث ان الزراعة جعلته يستقر فى مكان معين ودفعته لبناء سكن يلتجئ اليه ، وحفزته الى تدجين بعض الحيوانات للاستفادة منها فى أعماله الزراعية ، ولكي يستفيد منها أيضاً فى غذائه حيث لم يعد فى استطاعته الابتعاد كثيراً

عن حقله المزروع ، كما أن الزراعة تطلبت وجود عائلة ونواة لمجتمع صغير وأن قيام هذا المجتمع مكنه من مواجهة متطلبات العملية الزراعية ، كما مكنته من صد هجمات الحيوانات الكاسرة ، كما أن تعاونه الاجتماعي هذا جعله يقف بوجه بعض التقلبات الجوية ويحمي نفسه منها .. كل هذا مكنه من الاستقرار والتفكير والربط بين النتائج والمظاهر وعوامل القوة فيها بحيث صار بأمكانه التمييز بين المهم والأهم ، بين المفيد والأكثر فائدة ، بين المضر والأكثر ضرراً كما تمكن من إدراك العلاقات بين المظهر ونتائجه وبين هذا المظهر وذاك ، وأدرك وهو فى عملية التفاعل مع الأشياء وعبر عملية الانتاج الزراعي أن فى إمكانه الأستغناء عن كثير من الحاجات حيث يستطيع زراعتها وانتاجها بنفسه ، كما أن إنتاجه لبعض حاجاته ، وسد هذه الحاجات لما يحس به اقنعه بأنه يستطيع الاستغناء عن عدد من الحاجات التي كان يشاهدها أثناء تجواله ويجد فيها لذة او قدرة لاشباع جوعه ونهمه ، وإذا به عبر إنتاجه لبعض المزروعات يستطيع أن يسد بها رمقه ويغني نفسه عن كثير من الحاجات الأخرى ، ومن هنا بدأت عملية سقوط ربوبية تلك الحاجات واندثارها . ومن خلال الربط بين المظاهر ونتائجها وعبر العملية الانتاجية توصل الانسان الى تمييز عوامل وقوى أساسية وإسقاط عوامل وقوى كان يعتقد أنها عوامل وأسباب رئيسية إلا انه تأكد من عدم أهميتها وتأثيرها فأسقط هذه العوامل وركز انتباهه فى المظاهر الأقوى .

وعبر عملية التفسير والربط تبين أن بعض المؤثرات والمظاهر تتحرك بتأثير مظاهر أخرى أقوى منها فصارت عملية سحب وإدماج لهذه المؤثرات الجزئية وشدها فى عجلة المؤثرات الحقيقية .

— من كل ما مرّ بنا نجد أن الآلهة الكثيرة التي مثلتها المرحلة الوثنية قد اختزلت ، وهذا الأختزال كان يتناسب مع درجة الحضارة فكلما تقدمت هذه الحضارة وتطورت ، زادت مدارك الانسان وتعمقت بحيث يؤدي الى تقليل الآلهة عن طريق الاسقاط أو الادماج ، ولما كانت الزراعة أوسع وأعمق مرحلة تغيير مرت فى حياة الانسان فأن معظم التغييرات الحضارية تأثرت بها وجاءت متوافقة مع متطلباتها وصار ما يتصل بالزراعة ونجاحها وما ينتج عنها هي مراكز العبادة ومصادرها ، ولذلك فأن جمعاً للآلهة فى الحضارات

الزراعية العراقية والمصرية مثلا تبين عملية الأختـزال فى الآلهة وانتقـال الانسان من مرحلة التعدد الكبير فيها الى مرحلة الجمع والاختصار والابقاء على الآلهة المؤثرة فى العمليـة الزراعية . ففى الحضـارة العراقيـة (كانت السماء بوجه عام على رأس الظواهر الطبيعية ، فالسماء والأرض تؤلفـان الكون ... فكان الاله (آنو) الممثل للسماء على رأس الآلهة البابلية .. ويمثل (آنو) أصل السلطة فى الكون ويأتي بعده فى الدرجة الاله الذي يمثل الجو والهواء وهو (إنليل) ويمثل هذا القوة ، وإذا كانت السماء أصل السلطة فأن الجو والهواء القوة المنفذة . وبعـد ذلك يأتي العنصر الثـالث المرئي وهـو الأرض وما فيها من قوة مولدة ، فجسمت بهيأة إلهة سميت بأسماء كثيرة لا تحصى ... والأرض عدا أنها مصدر الخصب والانبات فأنها مصدر الماء ، فكان الماء عنصراً مهماً من قوى الطبيعة التي جسمت على هيأة آلهة ، وقد دعى «أنكى» . أي سيد الأرض ـ أي أنه العنصر المذكور فى قوى الأرض المولدة وَوصِفَ أنكى بالحكمة والدهاء وقوة الخلق ، مما هي صفات الماء التي يشعر بها من يمارس شؤون الارواء مثل سكان العراق القدماء[٣٩] .

ونظرا لعلاقة الزراعة وعملياتها المختلفة ببعض الحيوانات نجد أن الانسان يتوصل تدريجيا الى تدجين بعضها واستغلالها في الزراعة ، كما توصل الى أنها تقدم له ما يحتاج من الحليب ومن اللحوم التي كـان يتنقل من مكـان الى آخر لصيدها .

إن الفوائد التي يجنيها من هذه الحيوانات جعلته يميز بـين الحيوانـات النافعة له من تلك الضارة ، وأن يميز بالدرجة هذه الحيوانات النافعة بعضها عن البعض ، ولهذا راح يتقرب ويتعبد الحيوانات الاكثر نفعا وفائدة ، ولهذا نرى (أن الالهة البابلية .. تشبه في بعضَ صفاتها بالحيوانات كأن يقال للاله الفلاني «قوة الثور أو أنه عجل الاله الفلاني ، وللالهة الفلانية» «خصب البقرة»)[٤٠] .

ونجد عملية الاختزال في الآلهة المصرية قد تأثرت هي الاخرى بـالعملية الزراعية ، حيث تقلصت أعدادها عن طريق السقوط والدمج ، وكان للقوى المؤثرة في الخصب والانتاج الزراعي النصيب الاكبر في التربع على عروش الربوبية ، فقد كان (للخصب شأن .. في ديانة مصر القديمة ، فهم يرمزون الى الكون كله ببقرة تطلع من بطنها النجوم أو بامرأة تنحنى على الارض بذراعيها ويسندها «شو» إله

الهواء بكلتا يديه ... وأصل العالم المعمور أنه عيلم واسع من الماء طفت عليه بيضة خرج منها رب الشمس ... وقد فعل غربال الزمن فعله في تصفية هذه العقائد وتوحدت عبادة الشمس بمعناها وتعددت بأسمائها ومواعيدها وجمعت بينها كلها عبادة «آمون» ثم عبادة «آتون»[٤١] .

إن اختزال الالهة المصرية الى الالهين «آمون» و «آتون» هو اختزال لكثير من الالهة ، وقد توقف الانسان طويلا عند هذين الالهين وبقي يتصور القوة فيهما ويعطي لهما كل ما يصيبه ويقع عليه ، وعبر تصوراته هذه كان يحاول أن يدفع بواحد من هذين الالهين ويعطيه زمام المسؤولية لوحده ، ولما كان آمون يمثل الارض وقوتها وآتون يمثل السماء وما فيها من مظاهر القوة فأن الصراع كان محتدما بينهما ويلاحظ أن الصراع هذا بين آمون وآتون كان مركزه عقل الانسان ووجدانه فهو الذي يعطي لآمون قواه وهو الذي يفسر قوة آتون ، ينزلها تارة على شكل ضوء أو شمس دافئة أو مطر أو نجوم أو رياح ويلقي بها على الارض فتحييها تارة وتغرقها تارة وتحرقها حينا وتملأ ساحاتها نباتا وحيوانات ومرة يتفجر آمون براكين وزلازل وحرائق وهكذا كان الصراع بين هاتين القوتين مستمرا والانسان هو الذي يصدر أحكامه على هذه القوة أو تلك بالنجاح أو الاذى ، بالانتصار أو الخسران ، بالفائدة أو المضرة ، وبعد صراع دام اعتبر الانسان (عبادة آتون) هي الأهم وأن قوة آتون هي الاكبر والانفع ، حتى صارت (عبادة آتون أرقى ما وصل إليه البشر من عبادات التوحيد في القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، فلم يكن المراد بآتون قرص الشمس ولا نورها المحسوس بالعيون ، ولكن الشمس نفسها كانت رمزا محسوسا للاله الواحد المتفرد بالخلق في الارض والسماء)[٤٢] .

وعلى ذات الطريق فأن الانسان في مصر وهو يكتشف الزراعة ويمارسها يدرك أهمية بعض الحيوانات في غذائه وفي أعماله الزراعية فيسعى الى تدجين بعضها لاستغلالها في سد حاجاته مما دفع الانسان لأن يعطي لهذه الحيوانات أهمية خاصة ويدفع بها في سلم أهتمامه وعبادته ، «فنجد الالهة المصرية كثيرا ما تمثل بهيأة كائنات مركبة مثلا من جسم إنسان ورأس حيوان ... بهيأة كبش وبهيأة صقر وابن آوى والبقرة»[٤٣] .

إن عملية الاستقرار واكتشاف الزراعة وعملية الربط بين المؤثرات وتمييز الاقوى منها كانت تسير بخطى متفاعلة مع الانسان وكانت هناك حالات من الفعل ورد الفعل والتفاعل الدائم بين الانسان ومحيطه ، كانت هذه العمليات تعمق من

إدراكه وتوسع من معارفه مما أدى الى أن تتجمع الالهة في العراق وتتمثل في المظاهر الحيوية والاساسية المؤثرة في الانسان .

ومن متابعة القصص والاساطير والروايات والوقوف عند الآلهة التي مثلت عقائد الانسان في العراق نجد أن القوى التي تجمعت فيها عقائد الانسان تمثلت بالعناصر والمظاهر والقوى الآتية :

(١ ـ كان في البدء عنصر الماء الذي أزليا وإلها في الوقت نفسه ..
٢ ـ تولد من عنصر الماء عنصر آخر هو عنصر الارض والسماء متحدتين ، وكانت الارض والسماء إلهين كذلك .
٣ ـ وتولد من السماء والارض المتحدتين عنصر غازي هو الهواء المتمدد الذي فصل بتمدده السماء عن الارض ، وجسموا الهواء وجعلوه إلها هو الاله «إنليل» ..
٤ ـ وتولد من الهواء القمر ، ومن القمر ولدت الشمس وجسموا كلا من القمر والشمس وعدوهما إلهين .
٥ ـ وبعد إنفصال الارض عن السماء نشأت أنواع الحياة الأخرى من نبات وحيوان وإنسان على الأرض ، وقد تصوروا أن أصل الحياة والاشياء من اتحاد الهواء والتراب «الارض» ، «الماء» بمساعدة الشمس وهذه هي نظرية العناصر الاربعة)[٤٤] .

إن مرورا سريعا على هذه القوى تبين كيف اختصر الانسان في العراق آلهته الكثيرة الى هذا العدد المحدود منها . إن عملية الاختزال هذه تدل على ما يأتي :ـ

- إن الانسان جمع وأدمج اكثر من إله صغير في إله أكبر منه بعد أن تبين له أن أثر ذلك الاله الصغير كان قليلا أو صار غير ذي بال بالمقارنة الى قوة وتأثير الاله الاكثر قوة وتأثيرا .
- إن الانسان وهو يقف جامعا مميزا هذه القوى إنما يجمعها ويميزها نتيجة لادراكه لأثرها وتأثيرها في حياته وبقائه . كما أن لها تأثيرا في رزقه وفي عوامل ديمومته وإفنائه .

- إن عناصر الحياة .. حياته وحياة الاحياء المحيطة به من نبات وحيوان تعتمد على أربعة عناصر هي الهواء والماء والتراب والشمس فمن اتحاد وتفاعل هذه

العناصر كانت الحياة ، ويلاحظ أن هذه العناصر الاربعة هي ذاتها التي قالت بها الحضارة الاغريقية ولكن بعد زمان ليس بالقصير عن اكتشاف سكان العراق الاقدمين لها(٤٥) .

- إن توصل الانسان في العراق القديم الى هذه النتيجة كان نتيجة معايشة طويلة مع مظاهر الطبيعة وممارسة دائمة مع آثارها ، كان الانسان يمر خلالها بعمليات تطور متصاعدة بحيث تعمقت مشاعره ومداركه ووصل إلى درجة مكنته من اعتبار هذه القوى أساسا ومصدرا لكل الأحياء .

- إن اعتبار هذه القوى مصدرا لحياته وحياة سائر الأحياء جاء نتيجة اهتمام الانسان بسر حياته والقوى المؤثرة فيها والعوامل المسببة لتوقفها وفنائها ، إن الانسان وهو يفكر في ذاته ، في مصدر الحياة فيه ، في ظاهرة الموت التي تقع عليه .. دفعته الى تمييز العوامل والقوى المسببة لهذه الحياة فكانت تلك العناصر وراء حياته ووراء جميع ما يحتاجه للابقاء على ذاته حيا ولهذا عبد هذه القوى واعتبرها آلهة كبيرة .

- وبقى الانسان يدور حول هذه العناصر ، يبحث فيها ، ويكشف أبعادها ، ويغوص في أعماقها ، ويفتش عن مصادر القوة فيها فكان نتاج رحلته أن هذه العناصر متكافئة في أهميتها متساوية في تأثيرها ، لايمكن إسقاط أي منها ولا يمكن لواحدة منها أن تحل مكان الاخرى وتغني عنها ، لذلك بقيت هذه العناصر مهمة ومقدسة لدى الانسان القديم .

الا أن الانسان دخل حوارا فيما بينه وبين هذه القوى في محاولة لتنصيب واحدة منها فوق الاخرى أو رفعها الى درجة يصدر عنها الفعل والتأثير على العناصر الثلاثة الباقية ولما كانت هذه العناصر الاربعة واقعة بين الارض والسماء ومتمثلة على السماء والارض فقد قسم الانسان هذه العناصر الاربعة الى مصدرين .. الى السماء ، والى الارض ، (فكانت السماء أصل السلطة فأن الجو والهواء القوة المنفذة ... والارض وما فيها من قوى مولدة ... وأنها مصدر الخصب والانبات .. وأنها مصدر الماء)(٤٦) .

وحكاية التقسيم الثنائي لعناصر الحياة الذي توصلت إليه الحضارة المصرية قد تقسم الى قوتين هما (السماء ، والأرض) ثم (تزاوجت السماء والارض ... وتوحدت عبادة الشمس وجمعت بينها عبادة آمون ثم عبادة آتون)[٤٧] مما يبين أن التقسيم الثنائي صار صفة غالبة للديانات القديمة التي ابتدأت وثنية وتطورت وكثرت وتوقفت بعدئذ ثم عادت تتساقط وانتهت الى هذه الثنوية .

والذي ركز الثنوية وجعلها تستقر زمانا طويلا .. ظاهرتا النور والظلمة .. حيث أن ظاهرة النور مرتبطة بالشمس والظلمة مرتبطة بها أيضا وأن الانسان على الرغم من توسله بالشمس أن تبقى مشرقة لم يستطع إقناعها بذلك ، ولهذا أحس بأن الظلمة قوة أو ظاهرة مؤثرة في حياته لا يمكنه طردها أو التحكم بها ولهذا أحس بحاجته الى التوسل إليها وعبادتها وربط كثير مما يصيبه من أذى وأضرار بها فاضطر الى اعتبارها قوة مؤثرة .

- ولما كانت الشمس في السماء وهي أي السماء مركز للنجوم والكواكب والقمر والشّمس ومصدر لكثير مما يحتاجه ، فأن الشمس اعتبرت اكبر معبر واكبر ظاهرة لهذه السماء فجعلها هي القوى المعبودة ، ومن هنا كان النور المنبثق منها إلها عليه أن يتعبده ولما كانت الارض هي التي يعيش عليها الانسان وينبت فوقها النبات الذي يحتاجه ويعيش على أديمها الحيوان الذي يأكل من لحمه وهي التي يتحرك فوقها والتي يحل عليها الظلام فأجتمعت عناصر ومؤثرات كثيرة في الارض دفعته الى تقديسها ، ولما كانت الظلمة تحول دون حركته على هذه الارض فقد صارت الظلمة قوة معطلة لكثير من المظاهر والفوائد المتمثلة على الارض ، ولهذا اعتقد بأهمية الظلمة فراح يتقرب منها لكي تغرب ويستطيع بزوالها أن يمارس نشاطه وبقية حياته .

هذا التأثير للنور والظلمة للسماء والارض للشمس وشروقها للشمس وهي تغرب وراء ثنائية العقيدة بين النور والظلمة .

والى جانب تأثير هاتين الظاهرتين (النور والظلمة) فأن الظاهرة الاكثر تأثيرا والاقوى في نشوء العقيدة الثنوية هي (ظاهرتا الموت والحياة) .

- إن موضوع الحياة والموت قد هز الانسان وأوقفه طويلا أمام هـذه اللوحة العجيبة ، كان الموت مرعبا وصورته بشعة حيث يتحول الانسان الى جيفة متفسخة يأكلها الدود . فكان وهو يشاهد هذا المصـير المأسـاوي يبحث في طريقة يرد بها هذا الغول الكاسر فلم يستطع التوصل الى طريقة يبقى فيها على حياته فتوقف ثانية عند سر الحياة يبحث في طلاسمه فلم يتوصل الى ما يمكنه من التصرف في هذه القوة والابقاء على ذاته متمثلة به . ومن هنا راح يبحث عن مخرج يتخلص به من هذه المعاناة وذاك المصير المخيف في محاولة ليكشف سر الخلود في أعماق البحر أو في أعالى الجبال أو في جذور النباتات أو ثمارها وفي الاحجار والمعادن فاقتنع بعد رحلة طويلة بأن الخلود قضيـة مستحيلة وأنها من صفات الالهة فحسب ، وبعد هذه النتيجة حاول أن يخرج تفاسير يخفف بها عن مشاعر الاسى والخوف التي تراكمت فوق رأسه فصار يضع نظريات يقول فيها .. إن الموت ليس نهايـة الحياة ، وإن الحيـاة لا تنعدم إنعداماً كليا بعد الموت «وإنما الموت عندهم إنقسام الكائن الحي الى جزئين وانفصال أحدهما عن الآخر وهما الجسد والروح فبالموت تنفصل الروح عن الجسم وتنتقل الى طور جديد من الوجود إذ تنحدر الروح بعد وضع الجسم في القبر الى عالم الارواح وتعيش هناك»[٤٨] .

إن إبداع الانسان هذا وتقسيمه وجوده الى جسد وروح لم يكن خاصا في الحضارة العراقية إنما ظهر في الحضارة المصرية أيضا حيث (شاعت فيها عقيدة الارواح ... ورمزوا للروح تارة بزهرة وتـارة بصورة طائـر بوجـه آدمي وتارة بتمساح أو ثعبان وقالوا إن الروح تتشكل بجميع الاشكال)[٤٩] .

وفي الحضارة الهندية نجد المحاولة في الخروج من حصار الموت ومأساته وتفسير الدولاب الذي يدور فيه الانسان من الولادة الى الموت تفسيرا فيـه من المؤشرات ما يدل على أن هذه الحضارة هي الاخرى سعت الى هذه الثنائية بين الجسد والروح بين الحياة والموت فقد قالت الديانة البوذية (ان الناس يؤمنون بالثنائية فيؤمنون بأن الشئ إما كائن وإما غير كائن ... والفرح الصادق هو فرح الرضوان الذي يتاح للانسان في هذه الحياة فيبلغ به ملكوت «الزفانا» الارضية في انتظار الزفانا الصمدية وهي السكينة وبينها وبين العدم فرق كبير لأنها هي وجود يفنى في وجود ... بهذه ينجو الانسان من رباط ذلك الدولاب الدائر بالولادة والموت

والتجدد في حياة بعد حياة وجثمان وراء جثمان فيدخل في «الزفانا» ولا يولد بعد ذلك ولا يموت)[٥٠] .

هذه المحاولات التي انصبت على التفريق بين الجسد والروح كانت نتيجة لظاهرة الموت وعدم قدرة الانسان على الامساك والابقاء على حالة الحياة بالنسبة اليه .. فأخذ يبحث في سر القوة المؤثرة في حياته وفي لغز القوة المسببة لوفاته فتوصل في مرحلة من مراحل حياته المتطورة أن حياته في القوى النافعة والموثرة فتوقف مرة أن هذه القوى متمثلة في أربعة عناصر هي (الشمس والماء والهواء والتربة) واختزل الانسان هذه العناصر المسببة للحياة الى عنصرين كما أشرنا الى ذلك وظل يدور حول هاتين القوتين مرة يقسم هذه القوى ويضعها في السماء والارض ومرة يحاول أن يجد قوة فوق هاتين القوتين فعمل في البدء على تغليب قوة السماء على الارض وحاول أن يغلب مرة قوة الارض على السماء .. الا أنه لم يستقر على واحدة من هاتين القوتين فكان يعود مستسلما لهاتين القوتين في درجة واحدة من الايمان والاقتناع أو على درجات متفاوتة بخصوص قوتيهما ، ويعود في مرات أخرى الى الوقوف عند السماء ليجعل منها القوة الماسكة بكل شئ والقوة التي تصدر عنها الحياة وما يتعلق بها .

إن صعود (آنو) الى مرتبة (أبى الآلهة) وأنه في السماء وعلى رأس الألهة جميعا وبيده السلطة كان محاولة شجاعة للخروج من طوق الثنائية والوقوف عند تخوم الوحدانية .[٥١] والشئ نفسه مرت به الديانه المصرية حيث انتهى الصراع بين السماء والارض .. بين آتون اله السماء وآمون إله الأرض بعد صراع طويل كان ساحته فكر الانسان ووجدانه ، وأن هذا السبق للاله آتون إنما (جاء بعد تمهيدات دينية وسياسية تهيأت لمصر)[٥٢] . إن هذه التمهيدات الدينية والسياسية إنما هي تغييرات حضارية توصل إليها الانسان واستطاع خلالها أن يتوصل الى أن الاله آتون هو الاقوى وهو الاكثر قوة وتأثيرا ويستحق أن يتربع على كرسي الوحدانية فصار آتون (هو الحي المبدئ للحياة الملك الذي لا شريك له في الملك خالق الجنين وخالق النطفة التي ينمو منها الجنين نافث الانفاس الحية في كل مخلوق ... تسبح باسمه الخلائق على الارض والطير في الهواء)[٥٣] .

إن هذه الصفات التي منحت للاله آتون إنما منحه إياها الانسان نفسه بعد

بحثه ومعاناته وكشفه لمصادر القوة وفعلها في إله السماء آتون الذي هو الشمس لا في قرصها ولا في نورها المحسوس ولكن بما ترمز إليه من قوة للقوى التي أوجدتها وجعلت فيها هذه الظواهر(٥٤) .

إن صورة الاله آتون وخصائصه وقواه التي حفظتها لنا النقوش والتماثيل وأوراق البردي تبين أن الديانه المصرية خرجت من نطاق الثنوية الى الوحدانية واذا ما تذكرنا بأن النبي موسى (تربى بمصر في كنف الوحدانية ونشأ في أعقاب المعركة بين آتون وآمون واستعد للنبوة في هذه البيئة الموحدة .,. فيما بين القرن الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد أي في الجيل الثاني لانتشار التوحيد بالبلاد المصرية .... فمن المحقق أن بني إسرائيل قد أخذوا كثيرا من عقائد المصريين وشعائرهم)(٥٥) . مما يوضح العلاقة بين الديانة الوثنية وتطورها الى الثنوية ومنها الى التوحيد والصلة بين الديانات السماوية الموحدة وتطور الانسان ووقوفه عند أبواب التوحيد ليكون مستعدا وقادرا للتفاعل مع الديانة الجديدة في مدلولاتها الموحدة التي أنهت عملية الشتات والتوزع عند شاطئ الوحدانية السماوي .

٣ ـ الثنوية مدلولاتها وأسسها العقائديه :

الثنوية أو الثنائية تعني مرحلة متطورة من مراحل العقيدة فبعد أن عبد الانسان عشرات الآلهة توقف عند قوتين اعتقد أنهما أساس الخير والنفع له كما أنهما مصدر الشر والأذى عليه .

إن رحلة الانسان بين الوثنية والثنوية كانت رحلةً طويلة شاقة معقدة لم تمر على مسالك معبده ولا مشت على أرض سهلة إنما كانت خطواتها تصعد جبالا وتهبط وديانا وتغور في داخل الارض وتحلق في أعالي الاجواء وتحط على جناحي نحلة وتقف على خرطوم فيل وتشرب من ماء عذب ومن ملح أجاج ، تمسك بالريح نديا ويعصف الريح بالانسان ويلقي به في بيداء قاحلة ، يتسلق شجرة يأكل من ثمارها ينام في ظلها وتأتي حية سامة فتقضي عليه ويحمل أقدامه في مغارة يأكل مع الوحوش ما تأكل من صغار الطير ومن بقايا فريسة نتنة ويصعد يحمل جوعه وعطشه يبحث عن مستودع يرى فيه حاجاته فيطمئن إليها ولا تلبث أن تأتي ريح عاتية أو فيضان فيذهب به وبحاجاته ، كان يستجدي ضوء القمر ولمعان النجوم

ودفء الشمس واشراقتها فوضع كل آماله فيها ولكنها كانت تصد عنه غاضبة وتغور في بئر لا تعود إليه إلا بعد ظلمة حالكة يقع خلالها فريسة خوف وأهوال تنصب عليه من كل فج عميق .

كان الانسان يبحث في ذاته ويلمس حاجاته ويحس بوقعها يقرعه ، يئن له فيطلق للريح رجليه بحثا عن زاد يشبع به جوعه وماء يطفئ به عطشه ومأوى يسكن إليه وهكذا بقي يلهث وراء كل شئ يتوسل الى حاجاته فعبد عشرات بل مئات الآلهة فوصل الى قمة الهرم ، وكان بين قمته وقاعدته حيطان كثيرة تسلق على كل منها اكثر من إله بقيت صغارها عند حافة الهرم واستطاعت بعضها أن تصعد درجات منه وبقيت في منتصف الطريق عشرات من آلهة تمكنت أن تتسلق الى نصف الطريق بين القمة والقاعدة ، وعند هذه المسافة جرت مبارزة عنيفة بين صغار الألهة وكبارها ، بين آلهة أبناء وأحفاد وأخرى حملت لقب الابوة والارومة وهكذا دخلت آلهة في آلهة وتساقطت أخرى وتصاعدت مجموعة وانتهى المطاف الى أن تتوزع القوة الكبيرة المتعددة الجوانب قوتان متقابلتان متضادتان .. قوة النور وقوة الظلمة وهذه هي الثنوية . يقول فيها الامام الرازي (واعلم أن الثنوية يقولون للعالم الاهان أحدهما خير وعسكره الملائكة ، والثاني شرير وعسكره الشياطين ، وهما يتنازعان أبدا كل شئ في هذا العالم ، فلكل واحد منهما تعلق به .. والخواطر الداعية الى أعمال الخير إنما حصلت من عساكر الله والخواطر الداعية الى أعمال الشر إنما حصلت من عساكر الشيطان)[٥٦] .

ويفسر القاضي عبد الجبار المعتزلي الثنوية فيقول (.. فالعالم مركب من شيئين نور وظلمة قديمين كانا ولم يزالا ، لهما قدرة خلق الاشياء من خلال القدم الذي يتصف به التضاد الوجودي ، وأولى عناصر المادتين الاوليتين النور والظلمة إن كلاهما حساس بصير الا أنهما يختلفان في النفس والصورة متضادان في العقل والتدبير)[٥٧] .

ويعرف جميل صليبيا الثنوية بأنها (المبدأ الثنائي في تفسير العالم وخلاصة مقولته أن ثمة إلهين قديمين إله الخير وإله الشر ولكل منهما فاعلية وقد اشتهرت هذه المقولة عند المجوس التي اعتبرت «يازدان» فاعلا للخير و «أهرمان» فاعلا للشر)[٥٨] .

وحول إله النور وإله الظلمة قامت آراء وتعددت أفكار وتوزعت مذاهب

وفلسفات (فاعتبر النور جوهرا يستقطب الصفات الايجابية فهو فاضل حسن ... وأن أفعاله بالضرورة تعد مظهرا إيجابيا لصفاته ، فكل خير وصلاح وسرور من فعل نفسه الخيرة الكريمة ... مقابل جوهر الظلمة الذي يكون وعاء لصفات متضادة تماما عن جوهر النور نحو النقص والكدرة)[٥٩] .

ويضيف القاضي عبد الجبار المعتزلي حول إلهي النور والظلمة قائلا (وزعموا أن كل واحد منهما خمسة أجناس وهي من النور .. النار ، النور والريح والماء والخامس هو الروح وهو النسيم ، النسيم يتحرك في الابدان ... والابدان أربعة في الظلمة هي الحريق والظلمة والسموم والضباب وروحها الدخان)[٦٠] .

لقد اختزلت الديانة الوثنية في كل الحضارات القديمة أو في معظمها الى عدد محدود من الآلهة هي الاكثر قوة وتأثيرا في الانسان وحياته والاكثر نفعا أو ضرراً له .

وقد عمد الانسان كما مر الى دمج بعض الآلهة في بعضها أو اختزالها وإسقاطها ، وظلت عملية الدمج والاختصار سائرة حتى توقفت الآلهة عند أربعة أو خمسة مظاهر مؤثرة مثل النور .. والحرارة والماء .. والتراب وتوزعت هذه الاخيرة إلى قوتين أو مظهرين هما النور والظلمة .

ولما كان النور مرتبطا بالدرجة الاولى بالشمس وحالة بزوغها وأن مكان هذه الشمس في السماء ، اعتبرت معظم الديانات بأن إله النور يقوم فيها ، وذهبت بعض العقائد إلى أن السماء بكل ما فيها من كواكب ونجوم هي مركز إله النور . ولما كان الانسان يعيش على الارض وهو الذي يدرك هذا النور ويحس به وبأهميته وأنه هو الذي يقع عليه أثر غروب الشمس وحلول الظلام ، وأن حياته في حالة الظلمة تتجمد عن الحركة ، نومه يكون خلالها وفاعليته تتوقف الى حد كبير ، كما أن أخطاراً كثيرة تحل فيه لا يقوى على صدها ولا يهتدي إلى مصادرها ، كما يصعب عليه التحرك بمرونة عند مداهمتها إياه ، ولهذا اعتبر هذه الظلمة وما يترتب عليها حالة ضارة ومؤذية ، اعطاها قوى شريرة لا يستطيع ردها فأكسبها قوة ألوهية وصار يتعبدها .

ولما كان الانسان يتابع حركة النور وحلول الظلام فأنه أدرك بأن الظلمة تنقشع عند شروق الشمس ، وبذلك تبدأ الحياة تدب على الارض وتسير حركته وحركة الاشياء في دوران مستمر ، لهذا ربط بين الحياة وبزوغ الشمس وحركتها واعتبر الظلام نتيجة لاحقة لغروب الشمس ، وبذلك اعتبرها هي القوة الاعظم وأعطاها مكانة وأهمية أكبر من مكانة الظلمة ، وأن الاخيرة نتيجة لها وليست سببا ، إنما السبب الفاعل هو الشمس ذاتها ، ومن هنا نجد أن معظم الديانات القديمة قد منحت الشمس أو النور مكانة متميزة عن الآلهة الاخرى ، حتى أن بعض الديانات اعتبرت الشمس كبيرة الآلهة .

ولم تتوقف المعركة بين النور والظلمة بتربع الشمس على عرش الالوهية لأن الظلمة كانت تؤلف نصف عمر الانسان وتشغل حياته .. ولما كانت الاحكام على أهمية النور وخطورة الظلمة هي أحكام الانسان على هاتين الظاهرتين فأن الانسان هو الذي يصدر أحكامه ويميز ما يمر أمامه ويعطي بهذه الظاهرة حجما واهمية معينة وقد يزيد من حجمها وأهميتها وقد ينقص أو يذهب الى ظاهرة أخرى يضع فيها أهمية جديدة كبيرة أو صغيرة .. لهذا نجد الانسان وهو يدور في فلك ظاهرتي النور والظلمة يقف مرة ويصدر قرارا بأن هذه الظلمة تؤلف نصف الحقيقة ولولاها لما كانت حالة النور ـ فالضد يظهر حسنه الضد ـ وظل ينفخ في الظلمة ويسحب لها علامات وأدلة ونتائج تصدر عنها ، وبذلك وضع مكانتها على درجة واحدة من قوة النور وبقي يروح ويجئ بين هاتين القوتين واضعا فيهما مصدر معظم ما يصيبه من نفع أو أذى .

لم يستقر الانسان على قرار ، فهو في مواقف متعددة وقرارات متفاوتة ، لا يلبث أن يصعد مرة أخرى الى السماء ويقف على مقربة من الكواكب والنجوم والشمس فيرى فيها معظم عوامل الخير والحياة له . ويجد أنها السبب في تكاثر الغيوم وسقوط الامطار وهبوب العواصف وحركة الهواء وحلول الدفئ ، فأذا بها تضم بين جنبيها عناصر الحياة الاساسية (الماء ـ الهواء ـ النور) ولم يبق من عناصر الحياة في ساحة الظلمة الا التراب الذي يمشي عليه الانسان ، ولذلك نرى الانسان يرقى الى حيث السماء العليا ويضع فيها معظم مصادر حياته وخيره والنور الذي يكشف ظلمته .

وعندما صعد الانسان في تفكيره الى حيث ظاهرة النـور وعناصر الحيـاة الاخرى ابتدأ يبحث في حقيقتها ، ويسبر غورها ويتساءل عن ما هيتها .. وقف طويلا أمام اكبر مظاهر هذه القوى وأبرز عناصرها (الشمس) وتساءل ... هل أن هذه قائمة بذاتها ؟ وهل أن النور الصادر عنها يصدر من قوة ذاتية أو أن ما فيها من حركة وإشعاع إنما يقع عليها .. وما هي الا قوة متلقية .. لقد شغلت هذه الفكرة الانسان زمانا طويلا ، وأرقته أياما وليالى متصلة . فوقف طويلا مطمئنا الى قوة الشمس الذاتية والى حركتها ومظاهر النور القادمة منها ، فشد إليها الرحال وظل واقفا عند أسوارها يتوسل إليها متعبدا مقتنعا بأنها وراء ما ينفعه ويفيده ، وكادت الشمس أن تستقر على عرش الوحدانية ، الا أن هذا الاستقرار بدأت تدب فيه عوامل الحركة والاهتزاز ، واذا بالانسان يبدأ بسبر غور هذه الالهة المتوهجة ، وقد لخص لنا القرآن الكريم موقف إبراهيم عليه السلام من هذه المسألة كما مر بنا أعلاه ، وبذلك صعد الانسان فوق شهاب الشمس وامتطى صهوتها وأنزلها من عرش الربوبية وآمن بقوة أخرى اكبر من قوة الشمس هي التي أوجدتها وحركتها ووضعت فيها قوة الدفء وشعاع الضوء .

لم يكن صعود الانسان فوق الشمس سهلا ، ولم يقع خلال قفزة واحدة ، إنما جاء نتيجة معاناة وتفكير وتطور وتقدم في مدارك الانسان ومعارفه ولم يستطع أن يجزم القول في ذلك حتى توضحت هذه المسألة وغيرها في الديانات السماوية .. حيث تمثلت بصورة دقيقة في نبوة إبراهيم عليه السلام وقد بقيت الثنوية قائمة الى جنب محاولات التوحيد هذه ، كما بقيت الوثنية منتشرة وسط حركات الثنوية والتوحيد الاخرى .

وهكذا نجد الثنوية مرت بمراحل طويلة ومعقدة ، ولم تقف عند قطبيها (النور والظلمة) إلا بعد عمليات كثيرة ومركبة في سلم التطور بين الوثنية والوحدانية .

وعلى الرغم من مرور الثنوية في معظم الديانات القديمة ، إلا أن هذه الثنوية بقيت متمثلة ، قوية .. في الديانات الايرانية القديمة ، ... فعلى الرغم من بروز حركات التوحيد في الديانة المصرية والعراقية ، وعلى الرغم من ظهور الديانات السماوية الموحده ، فأن العقيدة الثنوية بقيت راسخة في الحضارة الايرانية ،

حيث قالت بها وتمسكت بمبادئها كل الديانات التي ظهرت في المنطقة الايرانية ...

فالمرقونية .. (أثبتوا أصلين قديمين متضادين ، أحدهما النور والآخر الظلمة واثبتوا أصلا ثالثا هو المعدل الجامع وهو سبب المزاج)(٦١) . وفسرت المرقونية وجود المعدل بقولهم (وإنما أثبتنا المعدل لأن النور هو الله تعالى لا يجوز عليه مخالطة الشيطان ، وأيضا فأن القديمين يتنافران طبعا ويتمانعان ذاتا ونفسا فكيف يجوز اجتماعهما وامتزاجهما فلا بد من معدل يكون منزلته دون النور وفوق الظلام فيرفع المزاج معه)(٦٢) .

ويشير ابن النديم الى أن المرقونية اختلفت عن الزرادشتيه بوجود (الكون الثالث) حيث يقول (زعمت أن الاصلين القديمين النور والظلمة ، وأن ها هنا كونا ثالثا مزجها وخالفها)(٦٣) .

وذهبت الديصانية إلى ما ذهبت إليه المرقونية وبقية الديانات الايرانية حيث ادعى مؤسس هذه الديانة (ابن ديصان) .. (أن النور خالق الخير والظلمة خالقة الشر ... وأن النور حي حساس والظلمة موات)(٦٤) ، وذهبت الديصانية إلى ما ذهبت إليه المرقونية من وجود المعدل حيث قالت (إن الكونين النور والظلام قديمان ومعهما شئ قديم ثالث لم يزل خلافهما وخارجا عن خارجهما وهو الذي حمل الكونين على المشابكة والامتزاج ، ولولا ذلك المعدل بينهما لما كان في جوهرهما الا التباين والتنافر)(٦٥) .

ورددت الديانة المزدكية ما قالت به الديانات الايرانية من العقائد الثنوية (كقول كثير من المانوية في الكونين والاصلين)(٦٦) . وميزت المزدكية بين إله النور وإله الظلمة فقالت (والنور يفعل بالقصد والاختيار والظلمة تفعل على الخط والاتفاق والنور عالم حساس والظلام جاهل أعمى)(٦٧) .

لم تقل المزدكية بوجود المعدل ، إلا أنها اعتبرت النور قوة فاعلة واعية حساسة أما الظلمة فقوة جاهلة عمياء تفعل على الخط والاتفاق ، مما جعلها أن لاتركن الى وجود المعدل حيث هناك فروق أساسية بين إله النور وإله الظلمة وكأن إله الظلمة حالة لاحقة ونتيجة تابعة لاله النور .

أما الزرادشتية فهي الديانة الرسمية للدولة الساسانية والتي استمرت حتى سقوطها وعايشت أو تنافرت مع جميع الديانات الاخرى الثنوية ، تفاعلت معها ، أخذت منها وأثرت فيها ، وظلت الديانة الرسمية زمنا عدا فترات محدودة تغلبت فيها المانوية مرحلة والمزدكية فترة معينة . والزرد شتية .. (اثبتوا أصلين اثنين مدبرين قديمين يقتسمان الخير والشر ... يسمون أحدهما النور والثاني الظلمة)[٦٨] . لقد تولى زرادشت تصفية العقائد الثنوية وتلخيصها وصبها في قوالب محدودة حيث جمع ما كان في عقائد الامة الفارسية وثبتها ، وردد الخرافة الثنوية حول نشوء فكرة الخير والشر التي مؤداها (إن هرمز وأهرمان مولودان لاله قديم يسمى «زروان» ويكنى عن الزمان .. وأنه اعتلج في جوفه وليدان ، فنذر السيادة على الارض والسماء لاسبقهما الى الظهور ، فاحتال أهرمان بخبثه وكيده حتى شق له مخرجا الى الوجود قبل «هرمز» الطيب الكريم ، فحقق لأهرمان سيادة الارض والسماء ، وعز على أبيهما أن ينقض نذره فأصلحه بموعد ضربه لهذه السيادة ينتهي بعد تسعة الآف سنة .. يعود الحكم بعده لاله الخير خالدا بغير إنتهاء ، ويؤذن له يومئذ في القضاء على إله الشر وتبديد غياهب الظلام)[٦٩] .

وصعدت الزرادشتية الى السماء وهبطت الى الارض وفسرت قوتي الخير والشر على أساس ممالك وقوى جبارة فزعموا (إن مملكة النور ومملكة الظلام كانتا قبل الخليقة منفصلتين وأن هرمز طفق في مملكته يخلق عناصر الخير والرحمة .... وأهرمان غافل في قراره السحيق ، فلما نظر ذات يوم يستطلع خبر أخيه راعه اللمعان من جانب مملكة أخيه فأشفق على نفسه من العاقبة وعلم أن النور يوشك أن ينتشر ويستفيض فلا يترك له ملاذاً يعتصم به ويضمن فيه البقاء .. فثار وثارت معه خلائق الظلام وهي شياطين الشر والفساد ، فاحبطت سعي هرمز وملأت الكون بالخبائث والارزاء .. وران هذا البلاء على الكون حتى كانت معركة (زرادشت) فكان البشير بانتهاء زمان وابتداء زمان ولكنه لم يختم صراع العدوين اللدودين بل آذن بتحول النصر من صف الى صف يتراجع الشر والظلام عن مملكة الخير والنور وسيدوم هذا الصراع اثنى عشر ألف سنة ، ينجم على رأس كل ألفٍ منها بشير من بيت زرادشت فيعزز جحافل هرمز ويوقع الفشل في جحافل أهرمان ، وتنقضي المدة فينكص أهرمان على عقبيه مخلدا في أسفل سافلين لا فكاك له أبد الابيد من هاوية الظلمات وسجن المذلة والهوان)[٧٠] .

أما المانوية التي وضع أسسها «مانى» الذي ظهر زمن الملك سـابور ابن أردشير الذي تولى الملك سنة ٢٤٢ ميلادية[٧١] فقد تأثرت بالزرادشتية والمسيحية والديصانية حيث .. (أخذ من ابن ديصان مذهبه وخالفه في المعدل)[٧٢] ، ووضع دينـا بين المجـوسية والنصـرانية وادعى النبـوة (وأنه الفـارقليط وأنـه خـاتم النبيين)[٧٣] . وركز ماني العقيدة الثنوية وأن العالم مركب (من أصلين قديمـين أحدهما نور والآخر ظلمة وأنهما أزليان ... ولم يزالا قوتين سميعين بصيرين ... ولم يذهب ماني الى ما ذهبت إليه المارقونية والديصانية من وجود عالم ثالث واكتفى بالقول ـ إن مبدأ العالم كونان أحدهما نور والآخر ظلمة كل واحد منهما منفصل عن الآخر ... وذلك الكون النير مجاور للكون المظلم لا حاجز بينهما ـ ..)[٧٤] .

وقال ماني بالحلول ويبدو أنه أخذ هذه الفكرة من الفلسفة الهندية عندما نفى الى هذه البلاد ، ومن المحتمل أنه أخذها من ابن ديصان الذي أدعى ـ أن نور الله قد حل في قلبه ـ ... وقد ذهب ماني للقول (بالحلول والتناسخ فزعم إن النفوس لا تموت وأنها في الترديد منقلبة الى شبه كل صورة هي لابسة ودابة قبلت فيها ... وعن طريق الحلول والتناسخ ألغى ماني فكرة الميعاد واليوم الآخر والحساب فيه والثواب والعقاب)[٧٥] .

إن المانوية لم تقل بوجود المعدل الثالث ولم تصعد من درجة إله النور على حساب إله الظلمة ، إنما جعلت لكلا الالهين قوة متساوية ، وعليه فأن المانـوية ركزت مبدأ الثنوية تركيزا قويا وأبعدت أية فكرة سابقة حاولت الفصـل بينهما وإيجاد قوى خارجة عنهما أو قوى فاصلة بينهما في محاولات لاظهار أن إله النور يتميز من إله الظلمة أو يقع في مكان أعلى من منافسه .

كانت المانوية حركة سرية منظمة قوية استفادت من الـديانـات الثنويـة السابقة بحيث ثبتت فكرة الثنوية وعمقها وأخذت بالحلول وقطعت طريق الميعاد واسقطت فكرة المعدل ولم تقل بامتياز إله النور على إله الظلمة لا في القدم ولا في القوة ولا في الدرجة استمرت المانوية تعمل في إيران بالرغم من اضطهاد الملوك الساسانيين لها ، وعند انتشار الاسلام بقيت هذه الحركة نشيطة استطاعت أن تستقطب أعدادا كبيرة من الفرس الذين رفضوا الدخول في الاسلام واعتبـروا المانوية ديانة قومية لهم وتراثا فكريا وحضاريا يقف بوجه الاسلام ، ولهذا نجد أن

المانوية تنشط في جميع المجالات ويتصاعد نشاطها في القرن الاول الهجري وتصل درجة الخطورة في النصف الثاني من القرن الهجري الثاني مما حمل الخليفه العباسي المهدي أن يولى شخصيات إدارية مسؤولية ملاحقة المانوية والقضاء عليها ، كما طلب من رجال الفكر أن يتولوا الرد عليها وتفنيد أقوالها ، ونجد في كتابات المعتزلة ردودا بليغة ودراسات مطولة ردوا بها على مقولة الثنوية وبخاصة المانوية بحيث صارت الزندقة هي الايمان بالمانوية والعمل بها ، وأن مقياس الحكم بالزندقة أو البراءة من هذه التهمة هو في ضوء الايمان أو عدمه بالمبادئ المانوية وأن الحكم ببراءة المتهم بهذه التهمة يكون في التبرؤ من ماني والكفر به (والبصق على صورته)(٧٦) .

مما ذكرنا تتوضح النقاط الآتية :

١ - أن العقيدة الثنوية تركزت في المنطقة الايرانية وظلت مركزة فيها زمنا أطول بكثير مما توقفت عنده هذه العقيدة في الديانات والحضارات الأخرى .

٢ - إن الديانة المرقونية والديصانية قالت بوجود إلهين وذهبت إلى القول بوجود «المعدل» أو «الفاصل» أو «الكون الثالث» في محاولة للفصل بين إله النور وإله الظلمة ، ويبدو أنها أحست بوجود فوارق بين هذين الالهين فرأت أن في القول بوجود المعدل الفاصل بينهما يعطي انطباعا بتمييز إله النور من إله الظلمة كما أن فكرة المعدل فيها دلالة على وجود قوى فاصلة بين القوتين كما فيه إشارة الى أن هذا المعدل قد يكون هو القوة الموجدة لهما ، الا أن هذه الناحية لم تبرز بالشكل الذي يجعل فكرة الوحدانية تتركز وتطغى على عقيدة الثنوية .

٣ - إن الزرادشتية هي الديانة الرسمية التي جمعت ولخصت كل المقولات الثنوية الايرانية وأنها حاولت أن تعطي «للاله زوران» صفة الاسبقية فأطلقت عليه إسم الزمان أو الكون ودفعت إلى أن إله النور وإله الظلمة مخلوقان عنه وأن هناك صراعا بين هذين الالهين استطاع إله الظلمة أن يفوز بخبثه وأن إله النور سينتصر بعد زمان ليس بالقصير ودفعت الزرادشتيه إله النور درجات فوق إله الظلمة واعتبرت عبادته وتقديسه

مقدمة ، وأن إلهة الظلمة تظل قوة يتقدم الانسان إلى عبادتها تجنبا لشرها وذلك عن طريق تقديس النار والتشبث بهـا ففي ذلك إبعـاد لقوة الظلمـة وإسقاط لتأثيرها .

٤ - إن المانويه حركة رجعية في سلم التطور الثنوي حيث رفضت القول بوجود الاله السابق لالهي النور والظلمة كما استبعدت وجـود المعدل أو الكـون الثالث ، كما لم تعط لاله النور أية ميزة على إله الظلمة ولهذا فهي الديانة الثنوية الصرفة التي ركزت هذه العقيدة وثبتتها وصارت المانـوية ديـانة تتعارض والديانات السماوية الموحدة وتحارب مبدأ التوحيد فيها محاربة لا هوادة فيها ، كما أنها أسقطت المحاولات التي حاولتها الديانات الثنـوية السابقة لها والتي دفعت بأله النور درجات فوق إله الظلمة بحيث تـوقفت الثنوية المانوية عند إلهي النور والظلمة وصـارت فلسفة جـامعة وعقيـدة مستقطبة لكل الذين رفضوا الديانات السماوية وبخاصة الاسلام ، وصارت إلى جانب بعدها الديني حركة سياسية ، حركة معارضة للحضارة العربية الاسلامية القائمة على مبدأ التوحيد ...

إن تركز الثنوية في الحضارة الايرانية وتشبث كل الديانات التي قامت فيها بمبدأي النور والظلمة مسألة تحتاج الى وقفة طويلة وتتطلب سؤالا .. لماذا بقيت الثنوية راسخة في الديانات الايرانية ؟ ولماذا لم تتطور فكرة الوحدانية وتثبت على الرغم من قدم ظهور هذه الفكرة حيث أن الديانة الايرانية القديمة قـد ابتدأت بالايمان بوجود قوة سابقة لاله النور واله الظلمة حيث كانت هناك (عبادة مترا) إله النور ، وتسميه الاله (أسورا) أو (أهورا)[٧٧] . كما أن قولهم «بزوران» أبو الالهين إله النور والظلمة قد ابتدأ بزمن ليس بالقصير وعنه صدر أو تولدت قوتا النـور والظلمة[٧٨] . لقد عايشت هذه المسألة زمنا طويلا وأنا أحاول سبر غورها والبحث في كنهها وما زلت أطيل الوقوف عندها ولكني لم أصل بعد الى جواب يقطع في الرد عليها وتوضيحها .

لقد تجمعت ملاحظات وتفاسير وانطباعات حول هذه القضية ، سطرتها عبر فترة طويلة ، وكلما حاولت الاطمئنان إليها شعرت بأنها لا تؤلف بمجموعها ردا دقيقا ومقنعا لهذه المشكلة ، سأعرض الملاحظات والانطباعات التي تجمعت واني

لمدرك بأنها في حاجة الى توثيق أدق وإلى تفسير أعمق سأذكرها لعلها تثير لـدى القارئ انتباهه وتحفزه ليضيف إليها ويزيد عليها ...

١ - إن بقاء العقيدة الثنوية في الديانة الايرانية هذا الزمن الطويل إنما حصل لأن الديانات السماوية الموحدة ظهرت في البلاد المجاورة لايران ولم يظهر أي منها في إيران ، فقامت مواجهة بين مبدأ الوحدانية في تلك الديانات والثنوية الايرانية أخذت طابع التحدي والمجابهة بحيث اعتبرت الثنوية الايرانية في حالة دفاع أمام تقدم مبدأ الوحدانية .

٢ - ارتبطت الكيانات السياسية القديمة بالعقائد الدينية ارتباطا وثيقا ، فلما كانت الديانة الزرادشتيه هي الديانة الرسمية وأن الملك الساساني هو المسؤول عنها فأن قوته وبقاءه وسلطانه يتمثلان في التشبث بها والحفاظ عليها .. وعندما ظهرت الديانات الموحدة ارتبطت الدولة التي قامت في أعقابها بهذه العقيدة ، وعندما دعت النبوة أو السلطة الدينية الجديدة أصحاب العقيدة الثنوية بترك عقيدتهم هذه والايمان بمبدأ الوحدانية شعر هؤلاء بأن تركهم للثنوية واخذهم بالوحدانية يعني سقوط سلطانهم ونفوذهم وضياع هذا السلطان وسقوطه تحت ظل السلطة الدينية الجديدة ، ومن هنا قامت عملية مواجهة ساخنة بين مبدأ التوحيد والثنوية زاد من تشبث أصحاب هذا المبدأ بعقيدتهم دفاعا عن كيانهم وحضارتهم وسلطانهم .

٣ - إن ارتباط السلطة بالدين في إيران كان ارتباطا وثيقا ، وأن من مصلحة هذه السلطة أن تبقى على عقيدة الثنوية لكي يبقى الصراع بين قوة الخير وقوة الشر وأن لهاتين القوتين إلها يعبر عنهما وأن وجود إله واحد يفصل بين هذين الالهين ويحكم في النزاع القائم بينهما يسقط أهمية وجود الملك ، إذ بوجود الاله الواحد المتحكم بشؤون القوتين المتضادتين الخير والشر لا يبقى لسلطان الملك ووجوده أهمية .. إن وجود اله الشر لابد منه بوجه إله الخير لكي تبقى عملية السلطة مستمرة لمحاسبة ما يصدر عن هذا الاله الشرير في حين لو انتهت سلطته وغاب وجوده وتحكم إله الخير فالمفروض أن هذا الاله لا يصدر منه إلا ما ينفع الناس ويعطي العرض لحياة الرفاهية والاستقرار بحيث ما يصدر عنه كفيل بسعادة الانسان وإغلاق لكل أذى وإبعاد لكل

سوء وعندئذ ينتفي دور «الملك» وسلطانه إذ ليس لوجوده من أهمية أو أثر ، ولهذا نجد أن الملكية الايرانية وقفت بوجه محاولات التوحيد وتسليم زمام الامر لاله واحد هو إله الخير لكي يبقوا على مراكزهم ومصالحهم ....

وعندما ظهرت الديانات السماوية الموحدة وتقدمت إلى داخل إيران نجد أنها بقيت واقفة عند حدود الثنوية ولم تستطع الانتقال بها الى الوحدانية حيث أحس الملوك بأن دخولهم في الوحدانية يكون على حساب سلطانهم .. كان ذلك واضحا عندما تقدمت المسيحية وكان ذلك أوضح عندما تقدم الاسلام وأرسل الرسول محمد (ص) رسائله فما ما كان من كسرى الا أن مزق رسالة الرسول وضرب بها الأرض متصورا بأنها تريد إنزاله عن عرشه .

٤ ـ إن الديانات السماوية قبل الاسلام وبخاصة اليهودية والمسيحية قد ابتعدت قليلا أو كثيرا عن مبدأ الوحدانية الذي كان الاساس لبروزها ... إن انحرافات أساسية قامت في دائرة اليهودية حيث ردد البعض منهم القول بأن العزير ابن الله .. وفي هذا القول خرق رئيسي لمبدأ الوحدانية وأنه وإن جاء بصيغة البنوة لله فأن هذه تشكل بداية لاختراق مبدأ الوحدانية والرجوع الى الثنوية بشكل أو بآخر أو الى تزعزع مبدأ الوحدانية وتحريكه عن مرتكزه الرئيس كما أن التحريفات الاخرى التي وقعت على التوارة والتي جاءت في التفسير له في تلمود بابل وتلمود القدس واضفاء صفات غير بشرية على أنبياء بني إسرائيل وصفات استثنائية على شعبهم أثار الشعوب الاخرى وجعلها ترفض هذا الموقف ودفعها ان تتمسك بعقيدتها الثنوية السابقة ولا سيما في إيران وهي تعيش مجاورة لافكار اليهود لاسيما بعد أن جاء نبوخذنصر بأعداد كبيرة منهم الى مدينة بابل وكانت الدولة الساسانية وعقيدتها على مقربة من هذه اليهودية المحرفة ، مما ركز مبادئ الثنوية وجعلها تقف رافضة مبدأ الوحدانية الذي كان يمشي على رجلين مشلولتين ... والامر تضاعف عندما ظهرت المسيحية وبدأت فكرة الاقانيم الثلاثة وإذا بالاله الواحد الذي جاءت المسيحية لتأكيده يصير آلهة ثلاثة فعندما تحركت المسيحية ودخلت العراق ومنها الى ايران تفاعلت مع العقيدة الثنوية فاستغلت المانوية المسيحية ونقلت عنها بعضا من أفكارها ووجدت في مقولة الاقانيم فرصة لتثبيت ثنائيتها وأنها أكثر قربا من الوحدانية التي

جاءت بها المسيحية الحقيقية من المسيحية المحرفة فأولى بالمانوية أن تبقى عند ثنائيتها من أن تصير وحدانية تنتهي الى ثلاثية ، أما بالنسبة الى الزرادشتية فكان إنحراف المسيحية هذا حجة لها لرفض هذه المسيحية الثلاثية وأنها بثنائيتها اكثر انسجاما مع تاريخها وفلسفتها التي امتدت بين قطبي النور والظلمة والتي دفعت مرات إله النور درجات فوق إله الظلمة وفي ذلك اقتراب من مبدأ الوحدانية اكثر قربا وتشبها بالوحدانية مما آلت إليه المسيحية .. هذا إلى جانب أن الموقف الرافض من الزرادشتيه والسلطة القائمة عليها أنها تعتبر تمسكها بعقيدتها إبقاء على قوتها وسلطتها ونفوذها كما أشرنا الى ذلك .

٥ - والذي عمق فكرة الثنوية وعقائدها في ايران أن الثنائية قائمة في كل شئ أمام الانسان فهناك الخير والشر .. النور والظلمة .. الحق والباطل العدل والظلم .. الصالح والطالح .. اللذة والالم .. الحب والكراهية العقاب والثواب .. العطاء والسلب .. الليل والنهار ، وأن هذا التناقض قائم ومتحرك يراه الانسان في كل المظاهر المحيطة به التي يمتد إليها بصره وسمعه وحسه ، وأن عملية الفصل هذه تقوم في إدراك الانسان وفي وعيه ، ولهذا نجد أن الصراع بين هذه الظواهر المتعارضة لن ينتهي الى نتيجة تسقط فيها إحدى قوتي الصراع وتظل قوة أو ظاهرة واحدة .. النور والظلام في فلك يسبحان لم ينتحر الظلام حتى يومنا هذا ولم يتغلب أي منهما على الآخر .. كذا الامر في بقية المتناقضتان ولهذا وجدت الثنوية في هذا التعاقب والتعارض والتناقض ما يسوع لها تشبثها في الابقاء على مقولتها في هاتين القوتين .

- وإذا ما وقفنا أمام الانسان نفسه وهل أنه مخير أو مسير فأن الانسان نفسه يجيب عن ذلك إجابات متعددة ، تارة يعتقد بأنه مخير هو الذي يتحكم في فعله ويصدر عنه ما يريد وما يشاء وتارة يعلن بأنه مسير ولا يقوى على رد ما يقع عليه ولا تحقيق ما يريده ، وعبر هذا التشتت دخل الانسان في دائرة مغلقة أخرى .. هل أن ما يصيبه من خير هو من إله الخير الاله الواحد القهار ؟ وأن ما يصيبه من شر هو من (الشيطان) وما هو هذا الشيطان ، هل هو قوة ثانية قادرة خالقة ، أو قوة مرسلة من

الله تحمل شيئا من قوته وسلطانه أو أنها النزعة الشريرة في الانسان ومن أين هذه النزعة هل هي نزعة يستطيع الانسان التغلب عليها ، ايجادها أو إسقاطها .. وعبر هذا الحوار كان الانسان ينتهي الى شواطئ متعددة ، كان منها القول بأن للشيطان سلطاناً مؤثراً بحيث دفع قوة الشيطان هذه إلى درجة من درجات التأثير ذكرته بأله الظلمة أو إله الشر الذي تقول به العقائد الثنوية.

٤ ـ التوحيد:

أ ـ بين الوثنية والثنوية العامة والتوحيد:

المسافة بين الوثنية والتوحيد طويلة استغرقت من عمر الانسان المدرك معظم حياته.

إن مسألة العقيدة من اكبر المسائل التي شغلت فكر الانسان وما زالت تشغله حتى اليوم وسوف تبقى مؤثرة فيه ما بقى على هذه الأرض.

إن عقائد الانسان هي من نتاج تفكيره فهو الذي يضع «للظاهرة» أهميتها ويمنحها القوة والتأثير ويحدد أبعاد ونواحى هذه التأثيرات ووقعها على حياته سلبا أو أيجابا منفعة أو مضرة.

وعبر مسيرة الانسان الطويلة شاهد مظاهر كثيرة نافعة أو ضارة تقرب منها لكي تظل تمده بنفعها أو تكف أذاها عنه.

وكلما تقدم الانسان درجة في سلم التطور فان تطوره هذا يسير عبر عملية جدلية مستمرة بين حسه وإدراكه من جهة والمظاهر وآثارها من جهة اخرى وأن احساسه وادراكه يزدادان إرهافاً وعمقا بتوالى عمليات التفاعل بينه وبين المؤثرات المحيطة به.

لقد كانت المظاهر المؤثرة في الانسان كثيرة تقرب منها جميعا وتوسل بها بطريقة أو أخرى تتناسب واهميتها وتصوره وادراكه بأن هذه الظاهرة تستحق

هذا الحجم من الأهتمام والتقدير لكي تبقى على خيرها ونفعها له وفي سبيل أن توقف أذاها وشرها عنه.

لقد تقرب الانسان من المظاهر المفيدة كما تقرب من المظاهر المؤذية واتبع وسائل في الاقتراب منها تتناسب وإدراكه ومدى تأثير تلك المظاهر .

لقد كبرت أهمية الاشياء التي ابتدأ يحس بحاجته اليها وتعددت تلك الحاجات كما كبرت وتنوعت المظاهر التي صارت تضره وتؤذيه .

كانت مدارك الانسان تتسع وتتعمق تدريجيا فصار يربط بين الظاهرة وفوائدها وبين الظاهرة وعوامل قيامها وعلاقتها مع ظواهر أخرى قريبة منها أو بعيدة وقد تعمقت مداركه واتسعت وهو يغذ السير في درب طويلة مشاها بخطى وئيدة .

وكلما قطع الانسان شوطا في سلم التطور تبينت له خصائص جديدة في تلك المظاهر المؤثرة فأخذ يوزع خصائص هذه المظاهر وآثارها في ضوء فوائدها وأضرارها وكان مركز التوزيع إحساسه وإدراكه بالنفع أو الخسارة التي تسببها تلك المظاهر فجمع تحت قائمة المظاهر النافعة مجموعة كبيرة كما وضع تحت قائمة المظاهر الضارة مجموعة أخرى كبيرة .

لقد وضع الانسان لكل ظاهرة نافعة قوة وتأثرا ووجد أن في تصوير هذه الظاهرة أو تمثيلها على شكل معين والاقتراب منها وعبادتها كفيل بالابقاء على خيرها أو إسقاط شرها ولهذا صار لكل مظهر نافع إله كما كان لكل مظهر ضار إله .

لقد تعددت الالهة وكثرت حتى صارت في الديانة العراقية القديمة والمصرية وغيرهما مجموعة من الالهة يزيد على الآلاف وفي هذا يقول العقاد «وصل عدد الارباب فيها أوفر عددا من أن ينتظمها اتفاق لانهم ارتفعوا بعددها الى أربعة الآف وقرنوا بها أندادا لها من الشياطين والعفاريت تبلغ هذا العدد أو تزيد»[٧٩] . وعن هذه الكثرة في الآلهة التي عمت الديانات القديمة يقول ليو ونبهايم «لقد تم حفظ عدد كبير منها في نصوص لاهوتية مثل قوائم الآلهة المشتملة على الفين الى ثلاثة

الآف اسم ، بينما كانت القوائم الاخرى مشتملة على أشخاص باعداد هائلة بحيث أنها تحتوي على إسم الاله»[٨٠] .

وكلما تعمق وتركب إدرك الانسان وزادت خبرته وتوسعت معارفه فأنه ابتدأ يميز بين المظاهر المؤثرة فيه فأخذ يحدد لكل ظاهرة أثرا معيناً ويعطي له درجة محددة من حيث الأهمية والتأثير ، كما أنه تمكن من تحديد العلاقة بين الظاهرة وحاجته إأليها واستطاع أن يربط بين الظواهر بعضها بالبعض الآخر فتبين له أن هناك مظاهر قوية مؤثرة تأثيرا بالغا وهناك مظاهر صغيرة الاهمية قليلة التأثير كما توصل الى أن بعضا من المظاهر الصغيرة يمكن الاستغناء عنه وأن هذه الظاهرة الكبيرة أو تلك تضم تحت جناحيها قوة وتأثيرا يمكن التعويض بهما عن تأثير المظاهر الصغيرة .

وعبر عمليات المقارنة والتدقيق توصل الانسان الى معرفة أن عددا كبيرا من المظاهر الصغيرة هي نتيجة فعل وتأثير المظاهر الكبرى فابتدأ الانسان عملية اسقاط واختزال لتلك المظاهر الصغيرة كما ابتدأ عملية جمع ودمج بين هذه المظاهر الصغيرة وربطها في ظاهرة كبيرة ومن هنا ابتدأت عملية بروز المظاهر الكبرى التي اكتسبت الوهية تتناسب وأهميتها وبقيت عملية الاسقاط والاختزال والدمج تسير متوافقة مع مدارك الانسان ومعارفه بحيث انتهى الى ان يجعل عبادته في مظاهر أربعة هي الماء والهواء والشمس والتراب فهي مصدر الخير له وأن زوالها أو حركتها المضادة تسبب الشر وأدرك بأن حياته وديمومتها رهينة بهذه العناصر الاربعة كما توصل الى ان هذه العناصر أساس حياته ووراء ظهور الاحياء كافة من نباتات وحيوانات وأن في هذه الاحياء مصادر عيشه وعناصر حياته وبقائها .

إن الانسان هو الذي يحكم على الاشياء يميزها ويفسرها ويضع حجم تأثيرها وهو الذي يضفى عليها صفات القدسية والتأثير وهو الذي يصدر قراره بأن عليه أن يقترب منها ويتعبدها عليه فأن العقيدة من اختراعه وأن الايمان بهذه الظاهرة أو تلك من إبداعه فلولا الانسان لما كانت العقيدة ولما كان الايمان ولبقيت المظاهر على حالتها ولما حملت أي مدلول أو صفة أو تسمية ، الانسان هو الذي وصفها وهو الذي أعطاها ما شاء من أسماء وتأثيرات .

وبقى الانسان عند تلك العناصر الاربعة يدور حولها ، يفكر فيها ، يسبر غورها في محاولة لاتخاذ قرار في تمييز واحد منها من بقية العناصر ، وقد ظل يفكر في قوة وتأثير كل عنصر على انفراد فكان يصدر قراره بأن الشمس هي العنصر الاقوى ويعود فيرى في الماء العامل الأهم في حياته ويقف عند الأرض وترابها فيراها مصدر رزقه وأساس ديمومته ويصعد متشبثا بالجو والهواء فيرى فيه موضع حياته وأساس بقائه وبقى يدور حول ذاته ويدير هذه العناصر الاربعة فيها فلم يستطع أن يتخذ قرارا في تفضيل واحد منها بصورة مطلقة ودائمة .

وبينما الانسان يفكر ويحلل استطاع أن يوزع هذه العناصر الى مركزين أساسيين عناصر قائمة في السماء وأخرى مستقرة على الأرض فجعل في السماء الشمس واعتبر الهواء ساقطا من السماء واعتبر في الارض التراب وأن الماء مستقر فيها ونابع منها وبذلك وزع العناصر الاربعة الى مجموعتين عنصرين وضعهما في السماء وعنصرين تركهما على الارض .

وبينا الانسان موزع تلك العناصر الاربعة الى مجموعتين متساويتين راح يفكر في أي منهما أهم واكثر تأثيرا في حياته فتوصل مرة الى أن السماء «وهي تضم الشمس والهواء أهم من الارض التي تضم التراب والماء» وعاد مرة أخرى يساوي بينهما ويجمع فيما بينهما ويقرر «أن الارض والسماء تؤلفان الكون وأن هذا الكون وحدة متداخلة متماسكة تجمع العناصر الأربعة مادتها وقوتها»[٨١] .

وعاد في مرحلة من حياته يمنح الماء أهمية متميزة إذ لولاه لما كانت الحياة ، ولما كان الماء جاريا على الأرض فقد سحب اهتمامه إليها واستقر عندها وانقطع فترة عن السماء .. إلا أن هذا الانقطاع كان قصيرا فلم يلبث أن عاد الى السماء حيث وجد أن الماء يسقط عنها مطرا وأن الشمس تتحرك على امتدادها والهواء يأتي عنها فهي بذلك مصدر ثلاثة عناصر من العناصر الاربعة الأساسية فصارت السماء مركز آلهته «فكان الاله آنو الممثل للسماء وعلى رأس الالهة البابلية ويمثل السلطة في الكون»[٨٢] .

ويستقر الانسان زمنا طويلا في السماء وهو يمشي على الأرض ينزل الشمس من عليائها ينصبها إلها أكبر من كل آلهته ويعتبرها رمزا للسماء والخير والدفء

والنور وعاملا أساسيا في حياته ، وراح يربط بينهما وبين تأثيرها على معظم الظواهر الحياتية ، على النبات والحيوان وعليه فمنحها لقب كبيرة الآلهة ـ ولهذا نجد الشمس إلهة عظمى في الحضارات القديمة وعن هذه الالهة يقول ليو وبنهايم «وكان ـ شماش ـ من بين الآلهة اللامعين الاوائل ويسمى ـ أوتو ـ في السومرية ومن أصلها ـ سواين نانا ـ بالسومرية ـ وهما إله الشمس وإله القمر وكان لكل منهما مركز رئيس في بلاد ما بين النهرين .... إن ـ شماش ـ كان ذا مركز مهم ذلك أنه لم يكن إله الشمس فحسب بل كان علاوة على ذلك حاكم السماء والارض وكان مختصا بحماية الفقير والمخطئ وموهوبا بتكهنات الغيب لارشاد وحماية البشر ولم يتورط ـ شماش ـ في أمور اسطورية غير حاذقة وأنه حتى في الاساطير أتخذ دور الحاكم»[٨٣] .

ولما كانت السماء مركز الشمس والشمس اكبر المظاهر فيها كما أنها اكثرها قوة وتأثيرا فيه حيث منها الحرارة وبسبب غيابها تكون البرودة ، بشروقها ينتشر النور وبغروبها تحل الظلمة عند احتجابها بالغيوم تسقط الامطار وعندها تنمو الاعشاب والاشجار وفي دفئها يتحرك الانسان وينشط وعند غروبها يحل الليل فيستقر ويأخذ قسطا من الراحة ليعود مع شروقها نشيطا متفاعلا ، هذه التثيرات المباشرة في الانسان جعلته يركز اهتمامه في الشمس ويمنحها صفات وألقابا ويضع فيها كل أو معظم القوى والتأثير على حياته سواء أكان هذا التأثير ايجابيا أم سلبيا ومن هذين التأثيرين المختلفين الايجابي والسلبي للشمس ابتدأت فكرة الثنوية الجدلية بعد زمن طويل من ابتداء الثنوية العامة الساذجة المتمثلة بتوزيع المظاهر الى مؤثرات احادية الجانب أي أن لكل ظاهرة أثرا إما نافعا وإما ضارا ، هذا التقسيم الثنائي للمظاهر افرز مجموعتين مجموعة نافعة وأخرى ضارة وأن كل ظاهرة لها خصوصية واحدة «كما أوضحنا ذلك أعلاه» .

إلا أن تحميل الانسان للشمس تأثيرين متناقضين يشكل مرحلة انتقالية كبيرة وأساسية في تفكير الانسان وفي عقائده .

إن ربط ظاهرة النور والظلمة بالشمس هي بداية الثنوية الجدلية ونعني بالثنوية الجدلية أن الشئ يتسبب فى حدوث أمرين مختلفين أي ان الشئ الواحد يحمل بذور أو جذور نقيضه . ابتدات هذه الفكرة بسيطة حيث شاهد الانسان

وعلى مدى سنوات عدة أن النور يشرق مقترنا بـالشمس وأن الظلمة تقـع عند غروبها فقرر أن الشمس هي مصدر النور وأن غيابها سبب الظلمة الا أنه بقى حائرا كيف تكون ظاهرة واحدة سببا لظاهرتين متناقضتين تناقضا كليا إذ كيف يجوز أن تكون الشمس سبب النور والضوء وكيف ذاتها تكون سبب الظلمة أي كيف لا تقوى على طردها وإسقاطها والابقاء على النور حالة دائمة ومستمرة .

ب - الثنوية الجدلية والتوحيد

المرحلة من الثنوية العامة الساذجة الى الثنوية الجدلية لم تقع بين عشية وضحاها إنما بقى الانسان عشرات بل مئات السنين يعـطي لكل ظاهـرة صفة واحدة أما صفة نافعـة أو ضارة وقـد تجمعت لديه مجـاميع كبيـرة وزعها الى مجموعتين رئيسيتين ولم يتمكن من العبور الى الثنـوية الجـدلية بحيث يعـطي للظاهرة الواحدة تأثيرين متناقضين إلا بعد عملية تطور طويلة وانتقال حضاري كبير وتغيير أساس في إدراك الانسان وفي تمييزه للاشياء . إن الشمس هي التي أعطت الفرصة للانسان لان يربط بها ظاهرتي النور والظلمة ولما كانت الشمس في السماء فقد اعتبر السماء إله النور ، ولما كانت الظلمة تحل على الارض فقد اعتبر الارض مركز الظلمة وقبل ان يتوصل الى اعتبار النور والظلمة مرتبطتين بالشمس فقد اعتبر الأرض مركز الظلمة ومحل إلهتها .

ولما كان النور أفيد للانسان من الظلمة وأقـوى تأثيـرا منها فقـد اعتبر الشمس الالهة الاولى وأنها أقوى من إلهة الظلمة وراح يرفع من إلهة الشمس درجات على حساب إلهة الظلمة كاد أن يصل الى الوحدانية أي يجعل من الشمس الخالق للنور والمصدر للحياة وأنها أبو الالهة ، ودخل في نقاش وحوار وأصـدر تسميات لالهة الشمس والهة الظلمة اعتبر مرة الشمس إله الخير وان هذا الاله حي وحساس وأن إله الظلمة موات لا يحس وحاول أن يجعل بين الالهين عالما ثالثا يفصل بينهما لكي لا يختلط الخير بالشر أو النور بالظلمة لكي يفسر عملية التتابع بين الخير والشر .. بين النور والظلمة وأن هناك مسافة تفصل بينهما يقيم عليها عالم آخر . وفي سبيل أن يدفع الانسان باله النور فوق إله الظلمة ويبعده عنها راح يرفعها في سلم السموات العلا ويضفي عليها صفات خاصة ودلالات معينة بحيث صار إله النور قريبا من إله الديانات السماوية الموحدة . وعن هذا التصعيد يقول

العقاد «في الحضارات القديمة في الدول قد عمت الاقطار الشرقية بين مصر وبابل وفارس والهند منذ ثمانية الآف سنة أو تزيد وكلها قد عبدت الشمس وميزتها بالعبادة في دور من الادوار»[٨٤] . ويضيف العقاد موضحا كيفية وصول الشمس الى مركز الوحدانية في الديانة المصرية حيث يقول «وفي مصر كانت الشمس رمزا محسوسا للاله الواحد الاحد المنفرد بالخلق في الارض والسماء»[٨٥] . ونرى أن الشمس تصل الى مركز الربوبية في الديانات القديمة وتتربع على عرشها طوال فترة تعتبر من أكثر الفترات تقدما وإشراقا[٨٦] .

لم يستطع الانسان أن يفسر كيف أن الشمس مصدر النور وأنها سبب الظلمة لذلك منح الشمس لقب إله النور ومنح الظلمة الحالة على الارض لقب إله الظلمة وعندما رفع الانسان الشمس الى أعلى الدرجات فأن ذلك كان محاولة منه لتفسير أن النور هو بسبب الشمس وأن الظلمة هي نتيجة لغيابها وفي مرات محدودة وغير دقيقة أعتبر أن الظلمة هي بفعل الشمس ذلك عندما منح الشمس صفات الربوبية حيث أن هذه الصفة تعني بشكل أو بآخر أن الشمس وراء الظاهرتين وبقى يراوح في مكانه ولم يستطع حسم هذه القضية وتفسيرها تفسيرا مقنعا إلا في نبوة إبراهيم الخليل عليه السلام[٨٧] . حيث توصل بفضل إجابات الله سبحانه وتعالى وتوضيحاته بأن الشمس التي تشرق وتسبب النور وتغرب فيحل الظلام أن هذه الحركة في الشمس ليست حركة ذاتية إنما هي بقوة واقعة عليها محركة لها هي قوة الله سبحانه وتعالى .

إن محور تفكير إبراهيم الخليل عليه السلام قد انصب على كيف للشمس أن يصدر عنها النور وكيف تصدر عنها ذاتها الظلمة .. إن هذا السؤال يمثل مرحلة حضارية متطورة كان إبراهيم عليه السلام يمثل أعلى مراحلها فلقد تساءل الانسان كثيرا ووقف طويلا وحاول أن يجد تفسيرا لهذه الظاهرة وأمثالها فلم يستطع وعندها من الله على خليله حيث كان جوابه أنه وراء حركة الشمس وأنه السبب في إشراقها وفي غروبها فمنه النور وهو الذي يحدث الظلمة .

أذن حالة التنافر والتعارض التي تصدر عن الشمس وبسببها وتوقف الانسان عند هذه الظاهرة ، كانت هذه المرحلة تمثل مرحلة «الثنوية الجدلية» التي اعتبر الانسان فيها أن ظاهرة واحدة تتسبب في ظاهرتين متناقضتين ولما لم يستطع

تفسير ذلك تفسيرا مقنعا وبقى يروح ويأتي دون أن يتوصل الى قرار حاسم يطمئن إليه فأن هذه الازدواجية في التأثير بقيت ترهق الانسان وتدفعه لايجاد صيغة يفسر بها قيام هذه النتائج المتعارضة الصادرة من موقع واحد .

ويبدو أن الانسان لم يستطع حسم هذه القضيـة على الرغم من رواحـه وقراره بأن الشمس هي اكبر الالهة وأنها تتسبب في الظلمة والنـور وأنها الاله الاوحد فكانت حيرة إبراهيم عليه السلام فرصة انتقل بها الانســان من إلباس الشمس تاج الالوهية الى اسقاط هذا التاج عنها والعبور الى مصدر ومركز الخلق الله سبحانه وتعالى .

عليه كانت الثنوية الجدلية هذه قنطرة التوقف الطويلة الواعية التي عبر منها الانسان من الثنوية الى الوحدانية وأن هذا العبور جاء بوحي وإلهام ومنة من عند الله وقد حمل إبراهيم الخليل عليه السلام شرف هذه المهمة حيث انتهت عملية الدوران واللهاث بين قطبي الثنوية والانسحاق تحت عجلتيها والوصول الى شاطئ الوحدانية الا أن المعركة بين الوحدانية والثنوية الجدليـة والثنويـة العامـة قد استمرت حتى في عصر الوحدانية الذي ابتدأ في الديانات السماوية والذي أخذ صورة دقيقة موضوعية مزودة بالحجة والدليل في نبوة إبراهيم عليه السلام .

ج - ظاهرة الموت والحياة وأثرها في الانتقال الى الوحدانية :

الوحدانية مرحلة متقدمة في سلم العقيدة وهي أعلى مراحل التطور في هذا الميدان . والطريق الى الوحدانية مشى على رقاب الوثنية كما دار بين رحى الثنوية . والانسان هو الذي أبدع عقائده ، الوثنية من صنعه والثنوية من إبداعه والتوحيد كان يدور في ذاته يصعد به فكره الى السماء ويهبط الى الارض مرة يمسك بالشمس يراها إلهه الاول والاكبر وتارة يطحن بين فكي نورها وظلمتها وبقى موزعا نصفه مع النور ونصفه الآخر مع الظلمة .

لم تكن رحلته الى الوحدانية سهلة ولم تمشِ على أرض معبدة ولم تجر بخط مستقيم ولم ترق الى السماء بعمود واحد ولم تهبط من السموات الى الأرض على

سلم تتابع الخطى إنما كانت رحلته هذه شاقة تدور برأسه وتتحرك أمام أنفاسه وتتوقف عند لهاثه وتطير بجناحين بين السماء والأرض فكانت الوحدانية تجميعاً للوثنية فى إله واحد وكانت الثنوية توزيعاً للوثنية فى إلهين وكانت المعركة بين الثنوية والوحدانية مستمرة وبقيت المعركة بين الثنوية والوحدانية متجددة .

إن الانسان هو الذي وضع في الآلهة ألوهيتها مثلها بصور وتماثيل متناسبة مع احساسه وتصوراته ولما كانت هذه الآلهة قد نالت درجة الالوهية لتأثيرها في الانسان سلبا أو ايجابا فانه عمد الى تشكيلها وتصويرها بصور معبرة عن ذاته وهواجسه وحاجاته وأن أفضل صورة يشكل فيها هذه الآلهة أن تكون شبيهة به حاملة صفاته وخصائصه وبعضا من الصفات والملامح التي يرى فيها قوة وتأثيرا عليه فكانت الاوثان والاصنام ساذجة بسيطة في البداية ثم صارت معبرة عن حاجات الانسان ورغباته ومحتوى لظواهر وقوى تؤثر فيه ومن ثم تطورت الى أشكال وهيآت شبيهة بالانسان أو قريبة الشبه منه . فالانسان يعبد ذاته ويسعى وراء تمجيدها وبقائها ويربط بين مصلحته والظواهر والمؤثرات الفاعلة فيه .

وعندما انتهى الانسان من توزيع آلهته على مجموعتين نافعة وضارة وحينما توصل الى أن النور أكبر الآلهة وأن الظلمة تليه وعبد الشمس لأنها مصدر النور وسجد للظلمة خوفاً منها ورعباً وظل مطحوناً بين هاتين الظاهرتين وصعد من خلالهما إلى أنه تكون الشمس هي مصدر النور والظلمة وحينما وقف حائراً كيف تكون الشمس مصدراً لظاهرتين متناقضتين وبقى يفكر فى هذه المسألة انتقل منها إلى الوحدانية عن طريق الكتابة بقلم الرحمن بأن هذه الشمس ما هي إلا شمعة صغيرة زيتها من نور الله وحركتها من حركته وإشراقها من فيضه وظلمتها بحكمة منه .

لم تكن ظاهرتا النور والظلمة الظاهرتين الوحيدتين اللتين أرقتا الانسان إنما كان «لظاهرتي الحياة والموت» حصة أكبر فى إرهاقه وفى حيرته وتفكيره .

كان الانسان يرى أخاه الانسان يموت أمامه فكان يفتش عن سبب الموت فوجده فى أنياب حيوان وحش أو فى سم أفعى قاتلة او فى زلزال مرعب أو فى صاعقة محرقة أو فيضان مدمر فكان يربط بين حالة الموت وهذه القوى والمظاهر .

وحينما كان يفكر في سر الحياة فيه وفي الاحياء لم يستطع أن يقف على هذا السر وعندما سعى لايجاد وسيلة أو دواء أومادة يستعين بها على استمرار الحياة وتجددها لم يستطع أن يتوصل الى ذلك .

لقد اهتم الانسان كثيرا بظاهرة الموت وهي تتجدد أمامه صباح مساء وتتكرر في كل ساعة ، راح يجمع الاسباب المؤدية إليها فجمع عددا كبيرا من الاسباب وصنفها الى درجات ووضع قسما منها في القمة ووزع البقية بين القمة والقاعدة . الا أن الانسان لاحظ أن الموت يقع على أخيه وعلى الاحياء من حوله من دون سبب واضح بغير هجوم من حيوان أو تأثير من ظاهرة طبيعية فوقف طويلا أمام هذه الحالة باحثا عن أسباب حدوثها فلم يجد لها تفسيرا وعاد يفكر في الحياة وسرها ، أسبابها ومصدرها لعله يكشف من خلالها سبب الموت وعلته وبقي يدور حول قطبي هذه الظاهرة ولم يتوصل الى شئ يطمئن إليه وينهي قلقه وحيرته .

إن تجدد ظاهرة الحياة والموت استرعت انتباه الانسان كثيرا وتساءل كيف يقع الموت على الأحياء وهذه ظاهرة سلبية مناقضة كل التناقض لظاهرة الحياة .. كيف يجوز أن تمر على ظاهرة واحدة حالة متناقضة كل التناقض عن الحالة الأصلية أي كيف تنتهى حالة الاحياء والانسان منها الى حالة نقيضة لها ؟

لقد أرقت ظاهرة النور والظلمة الانسان كثيرا كما أرقت ظاهرة الحياة والموت الانسان اكثر وأعمق لان أثر النور والظلمة يقع على الانسان وهو الذي يفسره ويعطي له أبعاده يستفيد من النور ويسعى لرد غائلة الظلمة وقد توفق كثيرا في الاستفادة من حالة النور كما تمكن من صد أسواء الظلمة والتغلب على كثير من أخطارها الا أن الانسان لم يستطع التغلب على ظاهرة الموت كما أنه عجز عن تفسير سر الحياة وأن حالة الموت التي تتمثل أمامه حالة إفناء تامة لا تبقى له شيئا ولا تترك له أثرا ولا تمنحه فرصة للاستفادة مما توصل إليه وعمل له حالة الموت إنهاء للانسان استفزت قواه وأبقته حائرا لا يقوى على رد غولها المخيف ، حاول أحدهم أن يبحث عن سر الحياة لعله يجده في حجر أو نبات أو حيوان وقد وصفوا له نباتا يعيش في أعماق البحر وعندما وصل الى ذلك النبات بعد رحلة شاقة تركه على مقربة منه فجاءت الحية فسرقته أكلته فصارت تعيش زمنا طويلا تبدل جلدها كل عام وصاح مناد أن الخلود من صفات الالهة وأن الانسان خلق ليموت ، كان نداء

قاسيا مرعبا وظل هذا النداء ملازما للانسان في حضارته التي قامت هنا في العراق وهناك في مصر وهنالك في الهند والصين وغيرها وكانت محاولاته في تفسير هـذه الظاهرة المتناقضة تفسيرا مختلفا وكانت محاولاته للابقاء على الحياة فاشلة كما كانت تفاسيره في تفسير حالات الموت متعددة والنتائج المترتبة عليه بعـد وفاتـه مختلفة .

وقد بقيت مسألة الموت والحياة من اكبر القضايا التي فكر فيها الانسان وبقى أمامها حائرا يقلب صفحاتها من اليمين الى الشمال ومن الشمال الى اليمين وتاه في متاهات كثيرة وضاع في تفاسير شتى .

وبقيت القضية المرسومة أمام الانسان والتي لا تتزحزح عن تفكيره هي قضية كيف تحدث حالة الموت في ظاهرة الحياة .

لقد توصل الانسان بشكل أو بآخر الى أن الشمس مصدر النور وأن الظلمة هي بسبب الشمس وعلى الرغم من أن هناك نتائج مرتبطة بالشمس حيث أن النور يأتي عند شروقها والظلمة تحل عند غروبها فكان من السهولة الربط بين ظاهرتي النور والظلمة بالشمس ورغم هذه السهولة فأن الانسان احتار كيف تكون ظاهرة إيجابية مشرقة كالشمس وراء حدوث الظلمة وكيف لا تقوى الشمس على البقاء مشرقة فتحول دون حدوث الظلمة هذا التساؤل على الرغم من شرعيته حيث أن ارتباط ظاهرتي النور والظلمة بالشمس كان واضحا وكان مكشوفا وكان يتكرر كل يوم وعليه فأن الحيرة والتساؤل عن ظاهرتي الموت والحياة وهي أقسى بدرجات من تلك الظاهرة وليست من جهة واضحة ترتبط بها كما هو الامـر في الشمس فأن مسألة الحياة والموت كانت اكثر تعقيدا وأشد إرهاقا وأعمق تأثيـرا ولهذا بقى الانسان أمامها مفكرا ولا يزال .

لم تستطع الديانات القديمة الاجابة عن هذا السؤال اجابـات مقنعة ولم تستطع الحضارات تلك أن تحسم الامر في هذه القضية ويبدو أن الانسان بقى حائرا لم يصل الى جواب مقنع بشأنها حتى مناجاة إبراهيم الخليل عليه السلام حيث سأل ربه متوسلا أن يريه كيف يحيي الموتى فكانت قصة الطيور الاربعة مما يدل على أن هذا الموضوع لم يستطع الانسان إثباته بالبرهان العقلي ولا تفسيره

بالمنطق ولا الوقوف على كنهه بالحجـة والدليل وأن إبـراهيم كان يمثـل المرحلة الفاصلة بين الانسان وهو يعبر عن رأيه وخبرته ومعارفه الذاتية ويجيب عن هذه المسألة وغيرها من خلال ما توصل إليه وما انتهى عليه وأن هذا الانسان الذي كان إبراهيم الخليل نهايته او قمته لم يستطع الاجابة عن هذا السؤال حتى جاء جوابه سبحانه وتعالى عبر تجربة مادية عملية مرئية تمكن فيها من موت الطيور الاربعة ومن ثم عجنها وتوزيعها الى جهات أربع فجاءت تلك الطيور ماشية حية لكي يكون الجواب بأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يحيي ويميت وبيده الخلق وهو على كل شئ قدير .

إن قصة إبراهيم عليه السلام هذه تؤكد الدلالات الآتية :ـ

- أن الانسان لم يستطع بالعقل والمنطق الجدلي واستعمال الفكرة من البرهنة على وجود الحياة ومعرفة سرها وكيفية حدوثها وما يرتبط بها .

- ان الله هو الذي أجاب عن سؤال الانسان في كيفية حدوث عملية الموت والحياة وهذه الاجابة لم تكن بالكلمة فحسب إنما بالتجربة المادية الملموسة لان الدليل العقلي للحياة وعليها لا يقوى على حمل الحجة الدالة على الحياة ذلك لان الدليل العقلي هو نتاج مكن الانسان وهذا الفكر ليس بالقوة والسعة والعمق الذي يستطيع بها أن يدرك سر الحياة الذي هو صفة خاصة بالله سبحانه وتعالى .

- ومما يؤكد تعذر التوصل بالعقل البشري والحجة النابعة من إدراك الانسان أن الانبياء وهم أعلى درجة من بقية الناس وقد أعدوا إعدادا خاصا لتحمل أمر الله ومسؤولياته لم يستطع أي منهم إدراك سر الحياة أو إدراك الله والوقوف على ماهيته بالقول أو الحجة الفكرية لاستحالة عقل الانسان نبيا كان أو غير نبي من إدراك كنه الله تعالى مما أدى الى أن تكون تجربة الطيـور الاربعة تجربة مادية لكي يقوى إبراهيم الخليل عليه السلام على تصورها وإدراكها .

- والامر ذاته يتكرر عندما طلب النبي موسى عليه السلام أن يرى الله جهرة فرد عليه سبحانه وتعالى أن ينظر الى الجبل فأن رآه مستقرا أو يتحرك عن موقعه ففي ذلك آية من آياته . كان طلب موسى رؤية الله طلبا فيه شجاعة ويمثل حاجة

الانسان في تلك المرحلة من أن يرى الله الذي ابتدات الديانات السماوية تعطيه مفاهيم وأبعاداً وتربط به جلت قدرته كل شئ وأن جوابه سبحانه الى موسى بتحريك الجبل وخسفه معاني تقول لموسى ولغيره من الانبياء وللناس جميعا بأن رؤية الله لا يمكن أن تكون حيث أن الانسان بعقله وحواسه وإدراكه لا يمكن أن يصل الى هذه الرؤية فهناك بحار من المسافات بين إدراك الانسان وماهية الله سبحانه وتعالى .

- إن مثال إبراهيم عليه السلام وقصة موسى دليل على أن الانسان مخلوق من مخلوقات الله وأنه على الرغم من أنه أفضل مخلوقاته وأقواها فأنه يظل نتيجة من نتائجه وأثرا من آثاره سبحانه ويظل غير قادر على فعل ما يفعله الله بخصوص الاحياء والافناء وبخصوص خلق المتناقضات المطلقة مثل النور والظلمة فالحياة والموت من اختصاصه وحده وحلول الظلمة والنور من قدرته ولهذا فأن البرهنة على وحدانيته ووجوده جاءت عبر عملية وتجربة متعلقة بالحياة والموت فهي التجربة الاساسية التي لم يكن غيرها تجربة قادرة على تصوير ظاهرتي الحياة والموت حيث لو عمد الانسان الى القيام بهذه التجربة دون إرادة الله وتعليمه فذبح أربعة من الطيور وصرهن الى بعض وجعل على كل جبل منهن جزءا ودعاهن فأن تلك الاجزاء سوف لن تتحول الى طيور تتحرك مشيا أو تطير محلقة .

- ولو حاول الانسان إجراء هذه التجربة مئات المرات لما استطاع أن يبعث الحياة في تلك الاجزاء التي وزعها على جهات أربع حتى لو كان هذا الانسان نبيا فأنه هو الآخر لايقوى على بعث الحياة في تلك الطيور المذبوحة فتأتي إليه بعد توزيعها ماشية أو طائرة مما يؤكد أن قضية الموت والحياة من عند الله وهي واحدة من أهم خصائصه سبحانه وأنه لم يشرك بها أحدا .

- إن تجدد ظاهرة الحياة والموت وتمثلها على المسرح كل لحظة دليل على وجود قوة خالقة للحياة سالبة لها وعليه فأن عملية إحياء الموتى وبعث الحياة في الاحياء قبل حياتهم وبعد موتهم دليل مادي مرسوم أمامنا يتتابع شريطا مستمرا يدل على وجود قوة محدثه له فاعلة فيه .

- ولما كان الانسان خليفة الله على الارض واعظم مخلوقاته عليها لم يستطع أن يعرف سر الحياة ولم يتمكن أن يكتشف هذا السر أو يبدع وسيلة للحفاظ عليه ولم يتمكن من إيجاد طريقة يصد بها غائلة الموت عنه وعن أبنائه وأن تكرر هذه الظاهرة دليل على وجودها أولا ودليل على وجود قوة مسببة لها في يدها الحياة والموت وأن عدم قدرة الانسان على ذلك بالرغم من محاولاته المتكررة بهذا الشأن التي استمرت آلاف السنين والتي عبرت قصة چلچامش عن واحدة من محاولاته كما عبرت عنها محاولات الانسان في مصر عبر عمليات التحنيط الدقيق وبناء الاهرامات الضخمة فأن هذه المحاولات وغيرها عجزت عن الاحتفاظ بالحياة وعودتها فكانت هذه المحاولات وفشلها وقيام حالة الموت والحياة متسارعة في مجال آخر وبقدرة من الله دليل على أن هذه الظاهرة هي من قوة أخرى غير قوة الانسان خالقة لهذه الظواهر كلها .

- إن ظاهرتي الموت والحياة وارتباطهما كنتيجة بسبب وبقوة هي قوة الله أوسع دليلا وأكبر برهانا على وجوده سبحانه وتعالى من ظاهرتي النور والظلمة وتعاقبهما فأذا كانت هاتان الظاهرتان بسبب حركة الشمس حول ذاتها وحركة الارض حول الشمس فأن الله هو الذي خلق الارض وخلق الشمس وجعل حركتها وحركة الارض سببا في تعاقب النور والظلمة .

- إذن الدليل المادي الذي يؤكد عبره سبحانه وتعالى قوته أن هناك ظواهر كثيرة يقع أثرها على الانسان ولا يقوى الانسان على صدها ولا على احداثها أو تغييرها وأن هذه الظواهر المؤثرة دليل على أن هناك قوة أوجدتها لايمكن رؤيتها وإنما يمكن ملاحظة آثارها ونتائجها في الاحياء والاشياء القائمة على مقربة من الانسان وأن أقوى هذه المظاهر هي ظاهرة الموت والحياة وأن تكرارها دليل على وجود قوة وراءها .

مما جاء أعلاه يتبن أن التوحيد توقف طويلا قبل أن يستقر عند ثنائية النور والظلمة وعند ثنائية الموت والحياة وكانت هذه الوقفة طويلة متشبثة باحثة عن سر هذه الثنائية ولم يستطع الانسان الخروج منها بقرار واضح حتى كانت وقفة إبراهيم عليه السلام حيث ابتدأت الاجابة عن هذا السؤال من عنده تعالى فكانت البداية لظهور التوحيد السماوي .

ثالثا : الله في الديانات السماوية .. التوحيد الخالص ..

الانسان هو الذي صعد الى السماء وهو الذي غار في الارض وطاف بين السماوات والأرض بحثا عن الله .

والانسان هو الذي اكتشف (القوى المؤثرة) في حياته فوجدها مرة في بعض المظاهر النباتية والحيوانية ووجدها حينا في حاجاته كما رآها في مظاهر تتفجر من باطن الارض وأخرى تتساقط من السماء ، وتارة وجدها في نواح ضارة له وأخرى نافعة كما وجدها في النور والظلمة في المتناقضات كلها فكان يتقدم بحركة صوب تلك القوى يرسمها أو يمثلها وينصبها آلهة يعبدها .

الانسان هو الذي يقرر نفع أو أذى تلك القوى في ضوء إدراكه وما تسببه تلك القوى من آثار عليه مؤذية أو مفيدة .

عليه فأن الانسان هو الذي اكتشف تلك القوى ونصبها آلهة فوق رأسه ولم يكن هناك مخلوق سواه قد توصل الى قرار كقراره هذا حيث أن النباتات والحيوانات على اختلاف درجاتها لم تتوصل الى ما انتهى اليه الانسان وأنها لم تبدأ بعد ولن تبدأ في سلوك الطريق التي مشى عبرها الانسان .

فالعقيدة الدينية هي خصوصية من خصائص الانسان ، ولذلك فأن الانسان يؤلف نصف العقيدة وتؤلف القوى المؤثرة نصفها الآخر ولولا الانسان لما كان للنصف الآخر هذا أثرا ولما اكتسب أية صفة مؤثرة .

كانت رحلة الانسان بين اللاعقيدة وبدء الايمان بقوى مؤثرة رحلة طويلة أخذت من حياته معظم تلك الحياة ولم يبدأ «عصر العقيدة» الا في الحقبة الاخيرة من عمره على وجه هذه الارض .

وكانت سفرته في ركاب الوثنية طويلة ابتدأت منذ فجر حياته العقلانية عندما أدرك وأحس وراح يربط بين الظاهرة وأثرها ويحلل عناصر القوة فيها ويعين أسباب قوتها ويحدد درجة هذه القوة ، ومن هنا ابتدأت قافلته تسير على ظهر هذه الارض

وتطير بجناحي عقله وإدراكه في أعالي الجو وبقى الانسان ماشيا على الارض وطائرا فوقها يتقرب من جميع ما يراه ويلمسه ويحسه من تأثير فيه ، يتقرب منه متوسلا ومتعبدا .

وكانت رحلته من الوثنية الى الثنوية هي الاخرى طويلة شاقة «كما مر بنا» حيث تراوحت مشيته بين الوثنية والثنوية زمنا طويلا لم يستقر عند واحدة منهما إنما كان يقفز من هذه الى تلك ويعود الى حيث ابتدأ وهكذا في حركة صاعدة هابطة مجنحة غير مستقرة .

إن الثنوية مرحلة متقدمة على الوثنية وكانت البوابة التي ولج منها الانسان الى فناء الوحدانية . ومن نافلة القول أن نكرر أن الانسان هو الذي ركب رجليه وشد على يديه جناحي حمامة أو صقر أو غراب فطار بها الى حيث يشاء فهو الذي كان «يحط» على هذه الظاهرة وتلك القوى فيمنحها حجما وتأثيرا ويشد أعصابه واهتماماته إليها ويقف عندها ساجدا مكبراً . وبقى يمشي على رجلين اثنتين واحدة تدوس على الظلمة وأخرى تمسح على بريق الضوء وأشعته برفق زمنا طويلا وظل يروح ويجئ في مشيته العرجاء هذه حتى وصل الى مرحلة أدرك خلالها بأن الظلمة التي يدوس عليها والنور الذي يلامسه برفق هما ظلمة ونور من مصدر واحد هو الشمس ولما كانت هذه الشمس في السماء وظلمتها تحل عليه في الارض كما أن نورها يشرق عليه في النهار ، داس برجليه على الظلمة وصعد بعقله الى الشمس يستجلى قوتها ويستجدي نورها أن يظل مشرقا فلم يستطع ، فتوقف عند الشمس إلهة كبرى كان يتمنى أن تظل زاهية مشرقة ولكنه لم يكن قادرا على أن يحصل منها على هذا الرجاء فراح يدفع بالشمس قليلا أو كثيرا جهة الارض أو ذات اليمين والشمال ويصعد فوقها قوة أخرى الا أنه لم يقو على عملية التصعيد هذه إذ كثيرا ما يهبط مسرعا الى الشمس ويعطيها كل معتقداته ويضع فيها نوره وظلمته .

إن الحوار الذي أرهق الانسان لم يستطع الوصول الى درجة يقتنع فيها ويحسم الأمر بين إلهى الظلمة والنور فقد منح كلا من هاتين الظاهرتين قدسية واهمية ونصب لهما إلهين متجاورين متقابلين متكافئين متناقضين . ولم يستطع الانسان حسم هذا الامر حتى ظهور الديانات السماوية حيث أن الديانات ركزت مفهوم الوحدانية تركيزا دقيقا وجاءت بالادلة العقلية والتجارب الواقعية والشواهد

المادية لاثبات هذه الوحدانية . وقد كانت معجزات الانبياء أمثلة وأدلة وشواهد على وحدانية الله وقدرته . وقد اختلفت هذه المعجزات وتنوعت متناسبة مع التطور الحضاري للانسان وطبيعة الفترة الحضارية ودرجة التطور الفكري والمادي التي كان عليها الانسان وعلاقته بالنبي الذي جاء مرسلا لهدايته وتقريب مفهوم الوحدانية له وإثباته وتصويره وتقريبه من خلال تلك المعجزات .

ويبدو أن موضوع الظلمة والنور بقى قويا ومؤثرا حتى بعد ظهور عدد من الانبياء ويظهر أنه بقى كذلك حتى ظهور خاتم الانبياء والرسل محمد (ص) حيث نجد لهاتين القوتين أثرا واضحا وتأثيرا بينا في عقيدة الانسان هنا أو هناك من هذه الأرض ..

ومن متابعة معجزات الانبياء يبدو أن النبي إبراهيم عليه السلام كان قد وقف على ثنائية النور والظلمة وتساءل عنها ووقف باحثا في حالة التناقض بينهما وحاول الاجابة عن هذه المسألة ولكنه لم يستطع .. كانت مسألة غروب الشمس أي حلول الظلمة مسألة محيرة له وقد تجسدت هذه الحيرة في توسله وتذرعه الى الله عندما قال (فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الصالحين)[٨٨] .. كان وحي الله لخليله يتلخص في أن الظلمة والنور من حركة الشمس .. والشمس وحركتها من فعل الله فهو الذي خلقها وجعل فيها ما هي عليه وهو الذي خلق الفلك الذي تتحرك فيه وخلق الأرض وجعلها تدور حول نفسها وحول الشمس وبذلك صار تتابع الليل والنهار أي تتابع الظلمة والنور .. إذن قوة الشمس وحركتها ليست قوة ذاتية إنما هي متحركة بقوة واقفة عليها مسيرة لها هي قوة الله الواحد الاحد وهذه الشمس وغيرها من الشموس والنجوم والكواكب والارض وما عليها من خلقه واحدة من الوسائل التي يعبر الله سبحانه بها عن قوته ومشيئته . ولم تنته حيرة إبراهيم في حسم مسألة النور والظلم وربطهما بالشمس واعتبار هذه الشمس واحدة من مخلوقات الله حيث نجد إبراهيم الخليل عليه السلام يقف متوسلا أن يريه الله ـ كيف يحي الموتى ـ وعندما يعاتبه سبحانه وتعالى بقوله «أو لم تؤمن» أي أو لم تؤمن بعد يا إبراهيم بأن الله هو الخالق وهو القادر على الاحياء والافناء ، يرد بقوله : إني مؤمن ولكن ليطمئن قلبي . فكانت «قصة الطيور الأربعة» جوابا ماديا على قدرة الله في إحياء الموتى ، ويبدو أن مسألة الموت والحياة كانت أكثر إرهاقا للناس واكثر إزعاجا وإثارة للشك

والسؤال ، فتكرم الله سبحانه على خليله فأراه تجربة عملية مادية في كيفية إحياء الموتى وبذلك اطمأن قلب وعقل إبراهيم الخليل .

إن الدلالة الاعجازية فى قصة الطيور الأربعة «إضافة الى ما ذكرناه أعلاه» أن الانسان لم يستطع عبر حياته السابقة وحتى أيام إبراهيم الخليل عليه السلام أن يبرهن على قدرة الله فى كيفية إحداثه للموت والحياة .. وأن الانسان طوال عمره الطويل حتى نبوة إبراهيم عليه السلام لم يستطع ان يجري تجربة كتلك التي أشار اليها سبحانه وتعالى .. وأن الانسان لو جرب تلك التجربة قبل أن يوحى بها الله لما استطاع أن يبعث الحياة فى أي طير من تلك الطيور .. كما أن إبراهيم عليه السلام قبل هذه التجربة وبعدها لم يستطع إحداث مثلها حيث أن تلك التجربة جاءت بأمر من الله سبحانه وأن أي إنسان وحتى نبيه إبراهيم عليه السلام لا يستطيع القيام بها والحصول على ذات النتائج حيث ان إجراءها فى معزل عن إرادة الله وتوجيهه ومنه وقدرته لا تستطيع أية جهة او قوة أن توقع الحياة وتبعث الحركة فى تلـك الطيور التي ذبحت وعجنت وصرت الى بعضها ووزعت على أجـزاء حيث أن بث الحياة فيها خصوصية من خصائص الله وحده لا شريك له .

إن عجز الانسان قديماً وعجزه فى الوقت الحاضر يتمثل فى عدم استطاعته الابقاء على حياته ومغالبة الموت وإيقاف زحفه . لقد بذل الانسان ما يستطيع من جهد فى سبيل أن يتوصل الى علاج أو وسيلة يستطيع بها الابقاء على حياته فلم يتمكن ، كما ان محاولاته فى إيقاف الموت وصد غائلته باءت بالفشل .. أضف الى ذلك أن الانسان وقف حائراً وهو يفشل المرة تلو الأخرى وهو عاجز عن بث الحياة فى الحجيرة الحية التي عمل على تحضيرها فى المختبر ، لا سيما وانه علم تركيب هذه الحجيرة ونسب العناصر المكونة لها وكان عجزه هذا على الرغم من التقدم العلمي الذي وصل اليه والتطور الهائل الذي انتهى اليه فى الوسائل والمعدات وفى القوى المحركة .. إن عجز الانسان عن ايجاد الحجيرة الحية حيوانية أو نباتية جعله واقفاً فى مكانه طوال هذه المدة من تجربة إبراهيم الخليل عليه السلام حتى اليوم حيث أن تلك التجربة كانت صريحة واضحة وأن الله سبحانه وتعالى بعث الحياة فى تلك الطيور وجعلها تتحرك ماشية على اقدامها لكي يتابع الانسان حركة الاحياء ومسيرة هذه العملية خطوة خطوة .. فكانت «معجزة» دالة على وجود الله وقدرته ودليلاً على أن الانسان الذي ادرك هذه التجربة وتصورها وآمن بها عندما

رآها بعينه وأدركها بعقله ـ أنه عاجز ـ عن الاتيان بمثلها ، ومن هنا كانت عملية إنتقال الانسان من الأدلة المادية والأمثلة المشاهدة والتفاسير العقلانية الى مرحلة إثبات الله وإدراك حقيقته وقدرته عبر معجزاته ومن خلال أنبيائه .

الله حقيقته وصفاته فى الديانات السماوية :

الديانات السماوية من عند الله .. الأنبياء رسله الى البشر لهدايتهم وتعليمهم وهؤلاء الرسل والأنبياء كلهم من البشر حيث أن الانسان هو وسيلة الدين وهو غايته فلا بد أن تكون الوسيلة من طراز الغاية وكذلك الغاية من نوع الوسيلة .

إن الله سبحانه وتعالى حينما يكلف واحداً من أنبيائه ورسله بحمل الرسالة يهئ ملائكة تحمل اليهم تعاليمه وأوامره وهداياته ، هؤلاء الملائكة يخلقهم سبحانه على هيأة تستطيع فهم وحمل رسالته كما تستطيع نقل وتقديم وتوضيح هذه الرسالة لنبيه . إن طبيعة الله الخاصة المتميزة عن سائر مخلوقاته ، تجعل من الصعوبة أن يتحمل الانسان إدراك أو استيعاب أو حمل ما يريده الله بصورة مباشرة ، ولذلك خلق سبحانه وتعالى عدداً من ملائكته وكلفهم بمهمة توصيل رسالاته الى انبيائه ، وهؤلاء الرسل يقومون بمهماتهم على الوجه المرسوم والدقيق بحيث ينقلون ما يؤمرون بنقله بأمانة ودقة .

وعليه .. لما كانت الديانات السماوية من عند الله ، وكان الأنبياء من اختياره حيث أنه أدرى وأعلم بمن هو أهل لحمل رسالته وأن الملائكة المكلفين من عنده بنقل هذه المسؤوليات فلا بد أن يكون «الله» فى جميع الديانات السماوية على صيغة واحدة وعلى شاكلة متشابهة .

إن قراءة لصفات الله سبحانه وتعالى فى الكتب السماوية الباقية حتى يومنا هذا تبين أن حقيقة الله ، وكنهه . وصفاته واحدة فى جميع الكتب السماوية فلو قرأنا هذه الصفات عنه جلت قدرته فى الديانة اليهودية .. فى التوراة وأسفاره المتعددة ، وفى المسيحية وأناجيلها الكثيرة وفى القرآن الكريم لوجدنا أن تلك الصفات واحدة وإذا ما صادف أن صفة لا تدل على الوحدانية وخصوصية لا تؤكد قدرته على كل شئ فيجب الحكم بأن هذه الاشارة قد جاءت طارئة فى كتاب

الله هذا أو محشورة بشكل أو بآخر من عند الانسان وليس من عند الله تعالى إذ كيف يجوز أن تكون صفات الله التي يعبر عنهـا سبحانـه وتعالى غـير متوافقـة ومتطابقة هناك في التوراة وفي الانجيل وهنا في القرآن الكريم ، كما أنه لا يمكن أن تذكر صفات في هذه الكتب السماوية لنبي أو انسان هي ذاتها صفات الله حيث أن صفاته سبحانه وتعالى خاصة به ولا يجوز مشاركة أحد له فيها .. فاذا ما ظهرت عبارة في واحد من اسفار اليهودية او في انجيل من أناجيل المسيحية فيجب الحكم بأن هذه الصفة زجت في ذلك السفر او هذا الانجيل زجاً وهي من عند غير الله اما عن القرآن الكريم فأنه قد تعهد سبحانه وتعالى بحفظه عندما قال : «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» .. وعليه فلا يمكن أن نجد في القرآن الكريم صفة لمخلوق تشبه صفة من صفات الله وخصائصه الأساسية وبخاصة صفته في الخلق ، في الاحياء والافناء وقدرته على كل شئ .

إن قراءة في الاصحاح السادس من سفر التثنية تبين صفات الله التي هي ذاتها الصفات المتواترة في بقية الاصحاحات بحيث لو جمعنا هذه الصفات الى بعضها لكانت هي ذاتها الصفات المـوجودة في الانـاجيل وهي ذاتهـا الصفات الموجودة في القرآن الكـريم .

آ ـ الله في اليهودية

اليهودية والنصرانية والاسلام هي الديانات التي لها كتب سماوية تعبر عنها ، أما كتب وتعليمات وآراء الأنبياء والرسل الآخرين فلم تكن لها كتب خاصة بها ، وقد ذكرت أخبار أولئك الأنبياء والرسل في الكتب السماوية الثلاثة المشار اليها .

وقد احتفظ القرآن الكـريم بمعلومـات واخبار كثيـرة عن كافـة الرسـل والانبياء ، حتى أولئك الـذين كانت لهم كتب سمـاوية والتي تمثلت في التـوراة والأنجيل .

ولما كانت الكتب السماوية من الله سبحانه أرسلها عن طريق ملائكته الى أنبيائه فلا بد أن يكون الله جلت قدرتـه في هذه الكتب إلهـاً واحداً ذا صفـات

متشابهة ، إذ لا يمكن أن يكون الله المعبر عن ذاته وصفاته فى التوراة هو غيره فى الأنجيل وغيره فى القرآن .

وإن كانت هناك من صفات فى التوراة او الأنجيل تختلف عما ورد فى القرآن الكريم فلا بد من الحكم بأن هذا الخلاف ناجم من تغيير او تحريف قد حصل فى التوراة او فى الأناجيل وذلك بفعل الانسان أما أصل ما جاء فى التوراة والانجيل والقرآن عن ذات الله وصفاته فهي صفات مشتركة واحدة ، والذي يحملنا على الأخذ والاعتماد على ما جاء فى القرآن الكريم هو أن الله سبحانه وتعالى تعهد بحفظه وأن هذا القرآن واحدٌ ولم تظهر كتب أخرى تحمل هذا الاسم وتضم بين دفتيها سوراً وآيات تختلف عن القرآن الكريم فى حين أن التوراة موزع على اسفار خمسة وهناك توراة كتبت فى اللغة العبرية وأخرى فى اللغة السامرية ، كما ترجمت مجموعة التوراة العبرانية الى الغة اليونانية وسميت بالتوراة اليونانية ، وكل من هذه يختلف عن الآخر فى أمور كثيرة[٨٩] .

والأمر ذاته بالنسبة الى الأناجيل فهناك مجموعة منها يزيد عددها وينقص فتارة تقف الأناجيل عند أربعة هي (انجيل متي ، انجيل مرقص ، انجيل لوقا ، انجيل يوحنا)[٩٠] وتارة يزيد هذا العدد حيث (أن الأناجيل كانت كثيرة جداً) اكتفينا بالأربعة المشار اليها[٩١] والى جانب ذلك هناك رسائل كثيرة تزيد على ثلاث وعشرين رسالة تتحدث عن مسائل دينية وأن هذه الأناجيل والرسائل متباينة مع بعضها وهناك زيارات فى هذه على تلك تتصل بمسائل رئيسية .. كل هذا يدفعنا الى الرجوع للقرآن الكريم والاستناد اليه واعتماده المصدر الرئيس لكل الديانات وبخاصة معرفة الله وصفاته التي جاءت واضحة فى آياته .

إن صفات الله فى اليهودية وفى النصرانية والاسلام واحدة وابرز هذه الصفات هي الوحدانية والحياة والقدرة على الخلق وانه سبحانه وتعالى خلق كل شئ وانه ليس كمثله شئ ولا يحده مكان ولا زمان ، الى جانب الصفات الاخرى والأسماء الحسنى التي حفظتها لنا الكتب السماوية .

إن الله فى التوراة العبرانية المكونة من أسفار (التكوين ـ الخروج ـ اللاوين «الأحبار» ـ العدد ـ التثنية)[٩٢] ، يضم الصفات الآتية :ـ

١ ـ ان الله واحد لا شريك له .
٢ ـ وأنه لا يرى ولا يقدر أحد أن يراه .
٣ ـ وليس كمثله شئ .
٤ ـ ولا يحده مكان ولا زمان)[٩٣]

إن هذه الصفات الأربع هي الرئيسية وأن أهمها هو مبدأ الوحدانية وقد أكدت الأسفار الخمسة على هذا المبدأ وكررته فى نصوص كثيرة

وحول هذا الركن الأساس جاء فى الاصحاح السادس من سفر التثنية ما نصه : (إسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك ولتكن هذه الكلمات التي أنا أوصيك بها على قلبك وقصها على أولادك وتكلم بها حين تجلس فى بيتك وحين تمشي فى الطريق وحين تنام وحين تقوم واربطها علامة على يدك ولتكن عصائب بين عينيك واكتبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك)[٩٤] . وتوضح أسفار التوراة بقية الصفات الأساسية المتعلقة بالوحدانية وعدم وجود شريك له ومن هذه النصوص ما يأتي :

(الرب هو الاله ليس آخر سواه)[٩٥] وقال داود عليه السلام (يا رب لا إله غيرك حسب كل ما سمعناه بآذاننا)[٩٦] وقال أشعياء (أنت هو الاله وحدك لكل ممالك الأرض)[٩٧] وفى سفر الملوك الثاني (أنت هو الاله وحدك لكل ممالك الأرض .. أيها الرب إلهنا خلصنا من يده فتعلم ممالك الأرض كلها أنك أنت الرب الاله وحدك)[٩٨] ، وقد أعلن الله نفسه هذه الحقيقة فقال (أنا الأول وأنا الآخر ولا إله غيري)[٩٩] ،.. وقال (أنا الرب وليس آخر لا إله سواي)[١٠٠] ، وقال (أنا هو وليس إله معي)[١٠١] .

وبخصوص عدم وجود شبيه لله ذكرت الأسفار أحكاماً كثيرة لتنقية الله سبحانه عن الشبيه والمثل ، فقال الله مخاطباً بني اسرائيل مستنكراً عليهم

الاشراك به وتشبيهه قائلاً (بمن تشبهونني وتسوونني ، وتمثلونني لنتشـابه .. اذكروا هذا وكونوا رجالاً رددوه فى قلوبكم أيها العصاة أذكروا الأوليات منذ القديم لأني أنا الله وليس آخر الاله وليس مثلي)[١٠٢] .

وتحدثت التوراة عن استحالة رؤية الانسان لله ، وحينما طلب موسى من الله أن يراه متوسلاً (أرني مجدك) رد عليه سبحانه وتعالى (لا تقدر أن ترى وجهي لأن الانسان لا يراني ويعيش)[١٠٣] .

كما اوضحت الأسفار أن ليس كمثله شئ .. يقول موسى عليه السـلام .. (ليس مثل الله)[١٠٤] .. ويقول سليمان (أيها الرب إله إسرائيل لا إله مثلك فى السماء والأرض)[١٠٥] .

وبخصوص أن الله لا يحده مكان ولا زمان تبين التوراة أن الله موجود فى كل مكان وأنه منذ الأزل والى الأبد يشمل بقدرته وعنايته وعدالته كل الكون فى كل مكان وكل زمان ومن نصوص التوراة فى هذا المعنى (العلى إله من قريب ولست إلها من بعيد ؟ إذا اختبأ إنسان فى أماكن مستترة أفما أراه أنـا ؟! أملأ أنـا السموات والأرض)[١٠٦] . ويقول الله تعالى (فى كل مكان عينـا الرب مـراقبتين الصـالحين والطالحين)[١٠٧] . ويقول داود (أين أذهب من روحك ، ومن وجهك أين أهرب ؟ إن صعدت الى السموات فأنت هناك إن فرشت فى الهاوية فها أنت إن أخذت جناحي الصبح وسكنت فى اقاصي البحر فهناك أيضاً تهديني يدك وتمسكني يمينك فقلت .. إنما الظلمة تغشاني فالليل يضئ حولي . الظلمة أيضاً لا تظلم لديك والليـل مثل النهار يضئ ، كالظلمة هكذا النور)[١٠٨] .

والى جانب هذه الصفات الرئيسية الأربع هناك صفات أخـرى جاءت فى التوراة يمكن جمعها وتلخيصها فى الصفات الآتية :

تقول التوراة .. إن الله تعالى :ـ

١ ـ إله واحد
٢ ـ موجود فى كل الوجود .

٣ ـ وليس كمثله شيً ، وأنه تعالى متصف بكل كمال ، ومنزه عن كل ناقص .

ومن صفاته الحسنى ما يأتي :

٤ ـ الله كامل

يقول داود عليه السلام «الله طريقه كامل» (من ١٨ ـ ٣٠)

٥ ـ الله عالم بكل شيً

«الرب إله عليم» (صموئيل الأول ١ : ٣٠)

٦ ـ الله قادر على كل شيً

يقول الله تعالى «أنا ظهرت لابراهيم واسحق ويعقوب بأني الاله القادر على كل شيً (خروج ٦ : ٢)

٧ ـ الله عظيم وقوي وجبار

يقول ارميا «لا مثيل لك يا رب عظيم أنت عظيم اسمك فى الجبروت» (ارميا ١ : ٦)

٨ ـ الله قدوس

«إني قدوس» (اللاوين ١١ : ٤١)

(٩ ـ ١٢) الله بار وصالح وصادق وأمين ووفي ومحسن

«فاحص القلوب والكل الله البار» (مزمور ٧ : ٩)

«احمدوا الرب لأنه صالح» (١ أخ ١٦ : ٣٤)

«انا الرب متكلم بالصدق (١ أش ٤٥ : ١٩)

«فاعلم ان الرب إلهك هو الله ، الأله الأمين الحافظ العهد والاحسان للذين يحبونه ويحفظون وصاياه الى ألف جيل» (التثنية ٧ : ٩)

«ليس الله انساناً فيكفي هل يقول ولا يفعل ؟ او يتكلم ولا يفي» (العدد ٢٣ : ١٩)

١٣ ـ الله رؤوف رحيم «الرب إله رحيم رؤوف بطيً الغضب وكثير الاحسان والوفاء» (خروج ٣٤ : ٥)

١٤ ـ الله جميل «واحدة سألت الرب وإياها التمس : أن أسكن فى بيت الرب كل أيام حياتي لكي أنظر الى جمال الرب» (مزمور ٢٧ : ٤)

١٥ ـ الله هو الخالق وحده للكون والبشر وهو إله الخليقة ومالكها والمتسلط عليها «فى البدء خلق الله السموات والأرض» (تكوين ١ : ١)

١٦ ـ الله هو الحي الباقي «إن العلي متسلط فى مملكة الناس» (دانيال ٤ : ١٧)
١٧ ـ الله هو الذي يعطي ويمنع «إن يد إلهنا على كل طالبيه للخير وصولته وغضبه على كل من يتركه» (عزرا ٨ : ٢٥)
١٨ ـ الله هو الذي يبارك ويلعن «قد جعلت قدامك الحياة والموت البركة واللعنة فاختر الحياة لكي تحيا أنت ونسلك» (التثنية ٣٠ : ٢٠)
١٩ ـ الله يحفظ الانسان ويحميه «الله لنا ملجأ وقوة عونا فى الضيقات وجد شديداً لذلك لا تخشى ولو تزحزحت الأرض ولو انقلبت الجبال الى قلب البحار» (مزمور ٤٦ : ١ ـ ٢)
٢٠ ـ الله هو القاضي ويقضي بالعدل «لا تهاب وجه انسان لأن القضاء لله» (التثنية ١ : ١٧)
٢١ ـ الله حكيم «ليكن اسم الله مباركاً من الأزل والى الأبد لأن له الحكمة والجبروت» (دانيال ٢ : ٢٠)
٢٢ ـ الله قديم «فى البدء خلق الله السموات والأرض . وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وريح الله يرف على وجه الحياة» (لتكوين ١ : ٢)
٢٣ ـ الله قائم بنفسه يقول موسى عليه السلام «إني بإسم الرب انادي اعطوا عظمة لالهنا هو الصخر الكامل صنيعه . إن جميع سبله عدل . إله أمانة لا جور فيه صديق وعادل هو (التثنية ٣٢ : ٣ ـ ٤)
٢٤ ـ الله مريد يقول الله فى التوراة «إذا سنت سيفي البارق وأمسكت بالقضاء يدي أرد نقمة على أضدادي وأجازي مبغضي» (التثنية ٣٢ : ٤١)
٢٥ ـ الله حي
٢٦ ـ الله متكلم يقول الله تعالى فى التوراة «أنظر الآن : أنا . أنا هو . وليس إله معي ... أنا أميت وأحيي . سحقت واني اشفى وليس من يدي مخلص إني أرفع إلى السماء يدي وأقول حي أنا إلى الأبد» . (التثنية ٣٢ : ٣٩ ـ ٤٠)
٢٧ ـ الله سميع
٢٨ ـ الله بصير «وراء الرب الهكم تسيرون وإياه تتقون ووصاياه تحفظون وصوته تسمعون وإياه تعبدون وبه تلتصقون» (التثنية ١٣ : ٤)
٢٩ ـ الله رحيم وغفور «الرب . الرب . إله رحيم ورؤوف بطئ الغضب وكثير الاحسان والوفاء ، حافظ الاحسان الى ألوف غافر الاثم والمعصية والخطية ولكنه لن يبرئ ابراء» (خروج ٣٤ : ٦ ـ ٧)

٣٠ - الله ذو هيبة ورهبة «تزلزلت الجبال من وجه الرب» (سفر القضاة ٥ : ٥)
٣١ - صفات الله ثابته يقول الله عن نفسه «انا الرب لا أتغير» (ملاخي ٣ : ٦)[١٠٩]

ب - الله في المسيحية

الله في المسيحية هو الله في اليهودية ، صفاته هي ذاتها التي جاءت في التوراة والفرق بين صيغة الصفات التي جاءت في الأناجيل عن التي وردت في أسفار اليهود ان الله [«تعالى» متصف بكل كمال ومنزه عن كل نقص .. والفرق بينهم وبين اليهود في صفات الله ان اليهود يذكرون الصفات بالايجاب والنصارى يذكرون بعض الصفات بالسلب .. يقول اليهود الله ثابت ، ويقول النصارى الله غير متغير ، يقول اليهود الله قوي ويقول النصارى الله غير عاجز][١١٠] .

إن حقيقة الله وصفاته في المسيحية كما يلخصها «حبيب جرجس» عميد الكلية الاكليريكية القبطية في كتابه خلاصة الاصول الايمانية في معتقدات الكنيسة القبطية الارثوزكسية ما نصه «الله روح بسيط ، غير محدود ، أزلي ، أبدي غير متغير ، قادر على كل شيْ ، موجود في كل مكان ، غير منظور ، خالق كل موجود ، وهو تعالى قدوس في ذاته وصفاته . عظيم في جوده وحكمته وعدله ورحمته وطول أناته»[١١١] .

ويقول الكاثوليك عن صفات الله مثل ما يقول الارثوذكس ، يصف أحدهم وهو الاب يوسف لويس الله بقوله «الله روح محض سرمدي ، كلي الكمال ، خالق السماء والارض ، سيد ورب الكل ، ... الله موجود في السماء ، وعلى الارض وفي كل مكان . هل يرى الله كل شيْ ؟ نعم الله يرى كل شيْ ، يرى الماضي والحاضر والمستقبل حتى غوامض الافكار واخفاها»[١١٢] .

واذا ما رجعنا الى الاناجيل الاربعة .. متى ومرقص ولوقا ويوحنا .. والى الرسائل التي تسمى بالعهد الجديد فنجد أن كل ما جاء في التوراة عن ذات الله وصفاته جاء في هذه الرسائل وتلك الاناجيل حيث يردد المسيح «أن الله واحد» ويتلو ما جاء في الاصحاح السادس من سفر التثنية (إسمع يا اسرائيل الرب الهنا رب واحد فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك)[١١٣] .. وجاء في إنجيل مرقص إن عالما من علماء بني إسرائيل سأل المسيح عيسى عن الوصية الأولى في التوراة فأجاب السيد المسيح «إن الوصية الأولى في التوراة هي - اسمع

يا اسرائيل الرب الهنا رب واحد ـ وان العالم لما سمع الاجابة من المسيح نطق قائلا ـ جيدا يا معلم بالحق قلت لان الله واحد وليس آخر سواه»[١١٤] .

ويرى عيسى عليه السلام ان الله لا يمكن رؤيته ، يروي يوحنا في انجيله ان المسيح عيسى خاطب اليهود بقوله «والاب نفسه الذي أرسلني يشهد لي لم تسمعوا صوته ولا أبصرتم هيئته وليست لكم كلمته ثابتة فيكم لان الذي ارسله هو لستم أنتم تؤمنون به»[١١٥] ، وأنه صرح بقوله عن الله «لم تسمعوا صوته قط ولا أبصرتم هيئته» وهذا يعني ان الله لا يرى ، ويؤكد هذا قول يوحنا «الله لم يره أحد قط»[١١٦] . وفي الرسالة الاولى من بولس الى تيسوثاوس عن الله تعالى (المبارك العزيز الوحيد ملك الملوك ورب الارباب الذي وحده له عدم الموت ساكنا في نور لا يدنى منه الذي لم يره أحد من الناس ولا يقدر أحد أن يراه الذي له الكرامة والقدرة الابدية)[١١٧] . ويلخص علماء النصارى ذات الله وصفاته بقولهم «إن الله متصف بكل كمال ومنزه عن كل نقص وان الله عبر عن نفسه بالآلفاظ التي تقرب ذاته الى عقول البشر ... ويقولون» انه كائن بذاته الموجود الواجب الوجود وأنه الحي الحقيقي ومصدر كل حقيقة وأن فيه الكفاية الذاتية والسرمدي الذي لا يتغير في مواعيده وأنه كما هو الان فهو كذلك الى الابد وانه يعمل كل شئ حسب مشيئته»[١١٨] .

أما عن صفات الله التي توحي (بالتشبيه) (والتجسيم) فان هذه الصفات جاءت في الكتب السماوية من أجل تقريب صفات الله لعقول البشر وفي هذا يقولون «في معنى أن الله يحزن ويندم وينسى ويمكر ويغضب ويفرح.. ذلك تعبير من الله باللغة التي تقرب ذات الله من عقول البشر»[١١٩] .

وقال اللا هو تيون كما قال الربيون إن الله لا يرى ففي تفسير الآية العشرين من الاصحاح الثالث والثلاثين من سفر الخروج يقول الله لموسى «لا تقدر أن ترى وجهي لان الانسان لا يراني ويعيش» .. يقول اللاهوتيون في تفسيرها «ان العين البشرية لا يمكنها أن تشاهد جوهر الله ، ولا يستطيع العقل الفاني أن يحتمل نور مجد الله المكشوف»[١٢٠] .

إن الصفات الاساسية لله في المسيحية هي الوجود والعلم والحياة (الله ذات وموصوف بالوجود والعلم والحياة ... اي أن اسم الله تعالى صار صفة الوجود ثم الحقوا بصفة الوجود صفتى العلم والحياة)[١٢١] .

وفسر الكاثوليك هذه الصفات بقولهم (إن الله موجود والوجود هو الله ولا إنفصال بين الله وصفة الوجود بل الله هو نفسه صفة الوجود ويطلقون عليه أقنوم الوجود أي أن اسم الله صار صفة الوجود)[١٢٢] .

وعندما قالت النصارى بأن المسيح عيسى هو ابن الله تطور الأمر حتى قالوا ان الآلهة ثلاثة منفصلة ومتعددة وهي الاب والابن وروح القدس (وقررت الكنائس الشرقية أن الله واحد ولكن ظهر للناس في جسد المسيح وقبل ظهوره كان لقبه «الاب» وبعد تجسده صار لقبه «الابن» وبعد قتله وصلبه صار لقبه «الروح القدس» وسموا كل مرحلة لله «أقنوما» وسمى الغربيون كل إله مستقل «أقنوما» والأقنوم في الأصل كلمة سريانية تساوي شخص[١٢٣] .

وقد فسرت الارثوذكسية مسألة الاقانيم قائلة « إن الله واحد وقد نزل من السماء وحل في بطن مريم العذراء وخرج بعد تسعة أشهر طفلا هو يوسع المسيح ثم كبر ، ولما بلغ الثالثة والثلاثين تقريبا قتل ثم صعد الى السماء كما كان وقبل حلول الله في البطن يسمى اقنوم الاب ، وبعد خروجه من البطن يسمى اقنوم الابن ، وبعد قتله وصعوده يسمى اقنوم الروح القدس . فالاقانيم على مذهبهم مراحل لذات واحدة وتسمى أقانيم التجسد ويستدلون على مذهبهم بقول بولس "الله ظهر في الجسد" »[١٢٤] .

ويرى الكاثوليك «إن الالهة ثلاثة متعددون ومنفصلون ومتميزون ، الاب الابن الروح القدس ولكل إله عمل محدد في الكون والاقانيم على مذهبهم ذوات متعددة واشخاص مستقلة وتسمى أقانيم التعدد»[١٢٥] .

إن مسألة الاقانيم وفكرة الاب والابن وروح القدس جاءت بها الكنائس المسيحية سواء الشرقية منها أو الغربية ويبدو أن هذه جاءت تفسيرا لولادة السيد المسيح تلك الولادة الخاصة التي لم تكن بعد عملية زواج شكلية فحاولوا تفسير ذلك فركبوا هذا المركب الصعب من أجل تفسير تلك الولادة ، وكان باستطاعتهم أن يقفوا عند وحدانية الله وقدرته على كل شيء وأنه عندما أراد أن يكون لمريم ولد نفخ فيها من روحه وقال كن فكان كما كان الامر في خلق أدم حيث هو الاخر خلق من دون زواج ، ونسى هؤلاء أن الله خالق السموات والارض وما فيهما قادر أن يخلق المسيح على هذه الطريقة أو على أي طريقة أخرى فدخلوا في دائرة التجسيد التي أوقعتهم

في التثليث وظلوا في هذه البؤرة وقد عمل البعض منهم على دفع تهمة التثليث هذه بالقول بأن هناك إله واحد وأن هذا الابن لا يختلف عن بنوة كل الناس إلى الله وان روح القدس هي روحه التي ينفخها في روح الاحياء .. وبقيت فكرة التثليث تدور في صلبان المسيحية وتمر في طقوسها وعباداتها بحيث ابتعدت فكرة التوحيد ونسى هؤلاء بأن خلاصة ما ذهبت اليه الديانات السماوية ومنها المسيحية هي الوحدانيه ، تمسكوا بطقوس التثليث بحيث صارت طقوسهم في هذا الميدان ركاما عاليا فصل بين الوحدانية التي جاءت بها المسيحية وبين ماهم عليه حيث أن العمل بطقوس معينة واستمرار العمل بها جيلا بعد جيل يفرز معتقدات تكون بديلة عن العقيدة الام فتركن العقيدة الاصلية ويتمسك بالعقائد الفرعية . إن الاناجيل لا يمكن أن تحمل فكرة التثليث وهي مرسلة من الله فان كانت هناك نصوص تذهب هذا المذهب فيجب الحكم عليها بأنها لم تكن من عند الله أما اذا ما وجدت بعض النصوص تحمل معنى من معاني الابوة فأن هذا جاء من تأويل القوم ومن تفاسيرهم التي وضعوها دفعاً (للتهمة) التي تصاعدت من هنا وهناك معرضة بعفاف وحرمة السيدة مريم وكان دفاعهم بالتجسيد خطأ أكبر من التهمة وكان باستطاعتهم أن يتمسكوا بقول الله وبقدرته إن أراد شيئا يقول له كن فيكون .

ج ـ الله في الاسلام :

الاسلام خاتمة الرسالات ، جمع الله في كتابه كل ما ذكره عن ذاته وصفاته جلت قدرته ، وكانت صفة الوحدانية هي البارزة التي أكد عليها سبحانه صراحة وضمناً في عشرات من الآيات .

وإلى جانب الوحدانية فقد حمل القرآن بقية صفاته سبحانه وتعالى كما حددها في عدد كثير من آيات الكتاب العزيز ، ومن اشهر الخصائص التي ركز عليها القرآن الكريم هي :

١ ـ « أن الله واحد لا شريك له
٢ ـ أنه لا يرى ولا يقدر أحد أن يراه
٣ ـ ليس كمثله شئ
٤ ـ لا يحده مكان ولا زمان »[١٢٦]

وعن هذه الصفات كانت السور والآيات قد حملت تـأكيد هـذه المعاني ، فبخصوص الوحدانية كانت سورة الاخلاص «قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد» ، وبخصوص هذه الصفة فأن القرآن في معظم أحكامه كان يؤكد على الوحدانية وأن أية مخالفة قابلة للعفو ولاعادة النظر الا مخـالفة الشرك فأن الله سبحانه لا يغفر لمرتكبها «إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر دون ذلك لمن يشاء» ، وكانت الدعوة للايمان بالله واحدا هي الهدف الرئيس في الرسالة الاسلامية ، وقد جاءت عشرات من الايات تؤكد ذلك موزعة عـلى معظم السور القرآنية .

أما بشأن الصفات الثلاث الرئيسية الأخرى ، فأن الله سبحانه قد أكد على عدم استطاعة الانسان رؤيته وأن ورود بعض الآيات التي تحمل معاني الرؤية فأن تفسيرها هو أن هذه الرؤية من باب انتظار النعمة والرحمة ، ففي قولـه «وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة» فأن تفسيرها هو رؤية ولمس رحمته ونعمته وليست رؤيته سبحانه ، ويؤكد الله استحالة هذه الرؤية بقوله «لا تدركه الابصار» .

أما عن صفته الثالثة والتي مؤداها أن «ليس كمثله شئ» فالله يثبت ذلك بقوله «ليس كمثله شئ وهو السميع البصير» ـ الشورى/١١ ـ .

وبصدد أن الله لا يحده مكان ولا زمان يوضح سبحانه ذلك بقوله «وهو الله في السموات وفي الارض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون» ـ الانعام ـ/ ٣ ـ .

إن قراءة للقرآن الكريم وجمعا للصفات التي وصف الله بها ذاته ومن تجميع الاسماء التي سمى الله بها ذاته القدسية يمكن جمع عشرات الصفات والاسماء لله تعالى ، من هذه الصفات أن الله تعالى :

[١ ـ إله واحد .
٢ ـ الله حي .
٣ ـ الله قادر على كل شئ .
٤ ـ الله قديم .
٥ ـ الله حكيم .
٦ ـ الله عالم بكل شئ .
٧ ـ الله قدوس .

٨ ـ الله سلام .
٩ ـ الله مهيمن .
١٠ ـ الله بار وصالح وصادق وأمين ووفي ومحسن .
١١ ـ الله سميع عليم بصير متكلم غفور رحيم .
١٢ ـ الله مريد .
١٣ ـ الله جميل .
١٤ ـ الله كامل .
١٥ ـ الله عظيم وقوي وجبار .
١٦ ـ الله هو القاضي ويقضي بالعدل .
١٧ ـ الله هو الذي يحيي ويميت .
١٨ ـ الله هو الذي يعطي ويمنع وهو الذي يبارك ويلعن .
١٩ ـ الله هو الخالق وحده للكون والبشر وهو إله الخليقة ومالكها والمتسلط عليها .][(١٢١)]

ومن الآيات الكريمة التي حملت بعضا من هذه الصفات الآية «فاطر السموات والارض . جعل لكم من أنفسكم أزواجا . ومن الانعام أزواجا . يذرؤكم فيه ليس كمثله شئ وهو السميع البصير . له مقاليد السموات والارض . يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . إنه بكل شئ عليم» الشورى / ١١ .

ومن الآيات التي حملت عددا من صفاته «الله لا إله الا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الارض من ذا الذي يشفع عنده إلا بأذنه يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشئ من علمه الا بما شاء وسع كرسيه السموات والارض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم» البقرة / ٢٥٥ .

ومن الآيات التي تحمل جانبا من صفاته جلت قدرته «هو الله الذي لا إله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والارض وهو العزيز الحكيم» الحشر / ٢٣ ـ ٢٤ .

إن صفات الله هذه عبر عنها سبحانه أحيانا بعبارة وتارة بكلمة واحدة كما جاء في سورة الحشر في الآيتين ٢٣ ، ٢٤ بحيث كانت كل كلمة تحمل دلالة عن صفة

معينة لله تعالى مثل ـ الملك . القدوس . السلام . المؤمن . المهيمن ـ وهذه الكلمات الدالة على الصفة يمكن أن تعتبر من أسماء الله الحسنى وقد وردت هذه الاسماء في آيات كثيرة معبرة عن صفاته وخصائصه سبحانه وتعالى منها : الرحمن الرحيم الخالق البارئ المصور ، وأن كلا من هذه الاسماء تدل على خاصية من خصائص الله وموضحة لقدراته .

وبخصوص صفات الله وأسمائه فأن هذه الصفات والاسماء جاءت بصيغ وأسماء تحمل السامع على تصوير الله على شكل مجسم يشبه الانسان أو يشبه المعاني التي تدل عليها تلك الصفات . وأن هذا التشبيه الذي ينسحب من تلك التسميات والصفات انما هو تشبيه على صيغة المجاز من أجل تقريب قوة الله الى مدارك الانسان لكي يسهل عليه تصوره والاحاطة بشئ من قدرته وصفاته .

ومن هنا كان موضوع الآيات المحكمة والآيات المتشابهة الذي جاء في الآية الكريمة «هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات» . والمقصود بالآيات المحكمة هي الآيات الواضحة الصريحة التي لا تقبل تأويلا ولا تتحمل تفاسير متعددة. أما الآيات المتشابهة فهي التي فيها مجال للتأويل وللتفسير متعدد المعاني . والآيات الدالة على التشبيه هي التي جاءت في معرض الوصف لله تعالى والتي توحي بالتجسيم والتشبيه وتحديد الملامح والجوارح والصورة لله ، بحيث ذهب البعض إلى تأويلها وتصوير الله سبحانه على أشكال متعددة وكأنهم نسوا أو تناسوا قوله تعالى (ليس كمثله شئ) .

ومن الآيات التي كانت مجالا للتشبيه والتجسيم قوله تعالى (يخافون ربهم من فوقهم) «النحل / ٥٠» فالمجسمة صوروا هذه الأية بأن الله فوقهم على هيئة مادية وانهم تحته كما يكون قاع الغرفة بالنسبة إلى سقفها ، أما الموحدون فيفسرون هذه الآية بأن الله من فوقهم بانه تعالى هو القوى المتعالى المهيمن .

ومن الآيات الاخرى التي جرت الى التشبيه والتجسيم قوله (ويبقى وجه ربك) «الرحمن / ٢٧» فتصور هؤلاء بأن لله وجها كما للانسان أو للمخلوقات الاخرى وجه وراحوا يضعون في هذا الوجه الحواس التي جاءت في اسماء الله وصفاته كالسمع والبصر فكانت له آذان وعيون وغير ذلك بحيث غالوا في التشبيه حتى جعلوه سبحانه وتعالى على صورتهم .

وفي قوله تعالى «الرحمن على العرش استوى» راح فريق من المشبهة يرسمون لله صورة مجسمة وعرشا يجلس عليه تماما كما هو عرش السلاطين والملوك ، مع العلم أن التفسير لهذه الآية المتوافق مع قوله تعالى «ليس كمثله شيْ» أن الاستواء على العرش هو القدرة والهيمنة لله في أن يرى ويحكم ويتحكم وهو على كل شيْ قدير .

إن فريقا من الغلاة دخلوا في هذه الدائرة الخطيرة عن طريق التأويل لعدد من الآيات فقد شبهوا الله بتشبيهات كثيرة وجسموه على صور وأشكال متعددة وجعلوا لله بعدا وعرضا وحواسا وأجزاء وأنزلوا هذه الصفات من عليائها المطلق الى الارض وأخذوا يشبهون الله بالانسان تارة وبمظاهر الطبيعة تارة أخرى .. ولم يقف الامر عند هذا الحد إنما راحوا يشبهون الانسان بالله ويعقدون مقارنات وتشبيهات بين البشر وبينه سبحانه ، وكان المجسمة والمشبهة قد زلت أقدامهم وسقطوا في حفرة التشبيه والتجسيم التي أبعدتهم كثيرا عن درجة الوحدانية الخالصة التي أكد عليها القرآن الكريم[١٢٨] .

إن حركة هؤلاء المشبهة والمجسمة كانت تعتمد على عدد من الآيات التي تحمل في طياتها مجالات للتشبيه والتجسيم ، وقد وقف المعتزلة من هؤلاء وقفة جريئة واضحة ورفضوا أن يكون لله أية صورة أو تشبيه بأي جسم مادي ، وكانوا يعتمدون على قوله «ليس كمثله شيْ» «لا تدركه الأبصار» وخلاصة ما كانوا يرددونه في هذا الشأن قولهم «إن الله واحد ليس كمثله شيْ وهو السميع البصير ، وليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة ولا لحم ولا دم ولا شخص ولا جوهر ولا عرض ولا بذي لون ولا طعم ولا رائحة ولا بذي حرارة ولا رطوبة ولا يبوساً ولا طول ولا عرض ولا عمق ولا اجتماع ولا افتراق ولا يتحرك ولا يسكن ولا يتبعض وليس بذي أبعاض وأجزاء وجوارح واعضاء وليس بذي جهات ولا بذي يمين وشمال وأمام وخلف وفوق وتحت ولا يحيط به مكان ولا يجري عليه زمان ولا تجوز عليه المماسة ولا العزلة ولا الحلول في الاماكن ولا يوصف بشيْ من صفات الخلق الدالة على حدوثهم ولا يوصف بأنه متناه ولا يوصف بمساحة ولا ذهاب في الجهات وليس بمحدود ولا والد ولا مولود ولا تحيط به الاقدار ولا تحجبه الاستار ولا تدركه الحواس ولا يقاس بالناس ولا يشبه الخلق بوجه من الوجوه ولا تجري عليه الآفات ولا تحل به العاهات ... لم يزل أولا سابقا للمحدثات موجودا قبل المخلوقات ولم يزل عالما قادرا حيا ولا يزال كذلك لا تراه العيون ولا تدركه الابصار ولا تحيط به الاوهام

ولا يسمع بالاسماع . شئ لا كالاشياء عالم قادر حي لا كالعلماء القادرين الاحياء . وأنه القديم وحده ولا قديم غيره ولا اله سواه ولا شريك له في ملكه ولا وزير له في سلطانه ولا معين على إنشاء ما أنشأ وخلق ما خلق ، لم يخلق الخلق على مثال سبق وليس خلق شئ بأهون عليه من خلق شئ آخر ولا بأصعب عليه منه ولا يجوز عليه اجترار المنافع ولا تلحقه المضار ولا يناله السرور واللذات ولا يصل اليه الاذى والآلام ليس بذي غاية فيتناهى ولا يجوز عليه الفناء ولا يلحقه العجز والنقص ، تقدس عن ملامسة النساء وعن اتخاذ الصاحبة والابناء[١٢٩] .

هذا التجريد الذي ذهبت اليه المعتزلة إنما جاء ردا على المشبهة والمجسمة والمولدة التي ظهرت في الحضارة الاسلامية كما سبق أن ظهرت في اليهودية وفي المسيحية فعندما قالت اليهود العزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله فأن أقوالهم هذه هي تشبيه لله بالانسان وأنه في هذا بمثابة الاب لعدد من الابناء .. يقول الله في أقوالهم هذه «وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون»[١٣٠] . وعندما ذهبت النصرانية الى التثليث ومنحوا لكل من الاقانيم الثلاثة صفات الربوبية رد عليهم القرآن الكريم «قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغني له ما في السموات وما في الارض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون»[١٣١] .

وعندما استفحل خطر المشبهة والمجسمة هؤلاء والمعطلة والمولدة كان رد المعتزلة وغيرهم من الفلاسفة والفقهاء ردا يتناسب وخطر هذه الاتجاهات التي تنتهي إلى الشرك وتعدد الألهة وضرب مبدأ الوحدانية .

رابعا : معجزات الأنبياء ودلالاتها على وحدانية الله وقدرته :

الانبياء والرسل الذين أرسلهم الله سبحانه إلى البشر لهدايتهم كثيرون . ولقد حفظ لنا القرآن الكريم عددا منهم ولم يأتِ بأخبار ومبادئ وحياة أعداد كبيرة منهم (ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً)[١٣٢] .

والكتب السماوية الباقية ثلاثة هي التوراة والانجيل والقرآن الكريم ، جمعت التوراة أخبار ومبادئ وأنباء أنبياء بني إسرائيل وكانت حصة نبوة موسى

الحصة الكبرى في هذه التوراة الى جانب تفاصيل وحياة بقية أنبيائه أما الانجيل فقد كان امتدادا للتوراة وقد جمع طرفا كبيرا من أخبار أنبياء بني إسرائيل الى جانب المعلومات والتفاصيل المتعلقة بالسيد المسيح .

أما القرآن الكريم فقد جمع أخبار وحوادث وتفاصيل عن كل الانبياء الذين سبقوا الرسول محمد(ص) والذين جاء ذكرهم فيه .

وقد لخص القرآن مبادئ وأصول ما سبقه من الديانات حيث كان غرضها جميعا التوحيد ووضع حلولا وتشريعات للناس تمكنهم من ممارسة حياتهم على هذه الارض بحدود تحقق الحرية والعدالة والرفاه لهم . وتجعلهم على قناعة باليوم الآخر حيث الحساب فيه بالثواب أو العقاب .

والى جانب هذه التفاصيل التي ضمها القرآن الكريم عن الانبياء والرسل السابقين فانه قد فصل القول في نبوة موسى وأنبياء بني إسرائيل ونبوة عيسى على الرغم من أن أخبارهم قد جمعت في التوراة والانجيل .

إن القرآن الكريم قد حفظ جميع المعجزات التي من الله بها على أنبيائه بصورة دقيقة وواضحة بحيث تشكل بمجموعها ـ سفراً كاملا عن تلك المعجزات ودلالاتها والعبرة منها ـ .

لقد من الله على أنبيائه بالمعجزات لكي يسهل عليهم مهمة اقناع شعوبهم للايمان برسالاته ، ولما كانت حياة الانبياء ممتدة على فترات طويلة وكانت عبر حضارات متعددة فأن تلك المعجزات جاءت متوافقة مع المراحل الحضارية المختلفة ومع المستويات الفكرية التي كان عليها الناس ، كل مجموعة بحسب إدراكها وقدراتها .

إن احتفاظ القرآن الكريم بكل هذه المعجزات ياتي لأن الله أراد ان يكون الاسلام خاتمة الرسالات السماوية وان الله قد فرض على المسلم أن يؤمن بالاسلام ويؤمن في ذات الوقت بجميع الانبياء والرسل . ولذلك ذكر القرآن الكريم معجزاتهم لتكون حجة على صحة نبواتهم كما كانت تلك المعجزات حجة لهم على شعوبهم ، وقد حفظ سبحانه الرسالات السابقة بحفظه القرآن الكريم حيث قال (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) .

سنقف عند القرآن الكريم نقرأ فيه أخبار الانبياء السابقين ومعجزاتهم ذلك لان القرآن قد تعهد الله سبحانه بحفظه ولم يعط هذه الخصوصية لكتاب سماوي غيره ، هذا الى جانب أن الكتب السماوية الاخرى قد أصابها التغيير والتحريف بحيث صار من الصعوبة بمكان الركون اليها واعتماد المعجزات فيها والاستدلال منها عما تحمل من دلالات وأبعاد .

إن المعجزات هي خوارق خص الله بها انبياءه ، حدثت لهم بقوة الله وبقدرته في مسائل ومجالات لا يستطيع الانسان ان يقوم بها أو يأتي بمثلها وقد جعل الله لكل نبي معجزة أو أكثر وذلك بحسب الظروف والتحديات وطبيعة المرحلة الحضارية .

إن تلك المعجزات كانت خارقة باهرة للانسان بحيث لو حاول أن يأتي بواحدة منها لما استطاع مهما بذل في سبيل ذلك من الجهد .

إن جمعا لمعجزات الانبياء التي حفظها لنا القرآن الكريم والوقوف عليها واحدة واحدة وتبين أبعادها ودلالاتها في ضوء ما تحمله تلك المعجزات من مفارقات وخوارق وما تفرزه من دلالات ، سنأتي على هذه المعجزات عبر الانبياء الذين جاءت المعجزات لهم كما ذكرها القرآن الكريم على اعتباره الرسالة السماوية الجامعة والخاتمة لكل الديانات (والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون)[١٣٣] ... تؤلف حججا مقنعة لتطمئن قلوبهم وتهتدي أقوامهم .

ولما كان الانسان هو وسيلة الديانات السماوية وهو غايتها ، فان كل المعجزات كانت تتصل به وتدور حوله وتتفاعل معه ، إذ هو الهدف من حدوث الاية ومن المجئ بالمعجزة كما أنه المجال الذي تقع عليه تلك المعجزة وتتفاعل معه بشكل أو بآخر .

ولما كان الانسان هو الجهة المعنية من المعجزة والمفسر لها والمتاثر بها فان تلك المعجزات جاءت في المجالات المتعلقة بالانسان ومن أهمها :ـ

- المعجزات المتعلقة بظاهرتي الموت والحياة ، تلك الظاهرة التي لم يستطع الانسان ان يجد لها تفسيرا دقيقا ولم يستطع ان يكشف سر الحياة في ذاته ولا في الاحياء كما أنه لم يستطع صد غائلة الموت التي تزحف عليه وتأتي على

حياته وحياة أبنائه ، ولذا سنجد عددا من المعجزات تتصل بظاهرة الموت والحياة اتصالا مباشرا وعلى صيغ وصور متعددة .

- معجزات متعلقة بالظواهر المتناقضة المتمثلة في الانسان وفي الظواهر الطبيعية الاخرى مثل النور والظلمة ، الخير والشر ، المنفعة والمضرة ، الحق والباطل الصحة والمرض ، السعادة والشقاء .. حيث وقف الانسان عاجزا عن تفسيرها وبقي حائرا في كيفية حدوثها وخروجها من ظاهرة واحدة . كما انه لم يستطع تحضيرها على الرغم من محاولاته الكثيرة الاحتفاظ بما ينفعه ودرء ما يضره . لذا جاءت معجزات الانبياء متعلقة بهذه المتناقضات مفسرة لها وموضحة لكيفية حدوثها .
- ولما كان الانسان هو محور المعجزة والغاية من حدوثها وأن عقل الانسان وإدراكه هو مجال الحكم والتمييز على قيام هذه المعجزة ، فأن عددا من المعجزات كانت متعلقة بالعقل وإدراكه وكيفية مواجهته بمسائل تحمله على الاقتناع بوجود قوة خالقة قادرة مدركة اكبر منه وأقدر على خلق التحدي وهز إدراكه وحمله على الاقتناع بأن هناك عقلا كليا وقوة خارقة وراء ظواهر الحياة كلها .

معجزة آدم عليه السلام :

آدم أبو البشر خلقه الله من تراب ، نفخ فيه من روحه فقال له كن فكان [ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون ■ والجان خلقناه من قبل من نار السموم ■ واذ قال ربك للملائكة أني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون ■ فأذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ■ فسجد الملائكة كلهم اجمعون ■ الا ابليس أبى ان يكون مع الساجدين ■ قال يا ابليس ما لك الا تكون مع الساجدين ■ قال لم اكن لا سجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ■]سورة الحجر / الايات من ٢٦ ـ ٣٣

ويتضح ان الله عبر عن آدم بالانسان ـ ولم يسمه أدم .. لان الصفة الاساسية له ان يكون انساناً .. كأي أنسان ..

وآدم هذا الذي استحق لقب أبي البشر قد خلقه الله كما خلق سائر

المخلوقات ، خلق سبحانه السموات وما فيها ، خلق الارض ومن عليها ، كانت الارض جزءا من السماء . من الشمس أو أي نجم آخر وفصل الله بينهما حيث يقول (او لم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شئ حي أفلا يؤمنون)[١٣٤] .

يذهب علماء الحياة والفلك والاجناس إلى وضع أرقام عن بداية الخليقة على هذه الارض فيذهبون إلى عصور سحيقة لا تقل عن عشرات أو مئات الملايين من السنين ، وأن الحياة بدأت على الارض منذ قرون بعيدة وأن تطورات وتغييرات حدثت على هذه الاحياء ، النباتية منها والحيوانية ولا زالت عملية التغيير والتطور مستمرة بحيث يرسم هؤلاء صورا وتغييرات كثيرة عن عملية التغيير هذه ونحن لا اعتراض لنا على أقوالهم فسواء كانت هذه الاحياء التي نراها اليوم كما كانت منذ أن خلقها الله أو أنها تغيرت تغييرات كثيرة فاننا من المؤمنين بأن الله موجود وأنه خلق هذه الاحياء ولا ضير إن كان قد خلقها وطورها الى ما هي عليه او أنه سبحانه قد خلقها جاهزة كاملة كما نراها اليوم .

والامر ذاته بالنسبة الى آدم فسواء كان آدم هذا الذي استحق لقب أبي البشر كما هو عليه حفيده في الوقت الحاضر أو أنه قد تغير تغييرات أساسية حتى وصل الى ما وصل اليه حيث كانت قصته مع حواء التي تحفظها الكتب السماوية .

إن المهم في مسألة آدم ، أن الله هو الذي خلقه فأن كان قد خلقه على صيغة ثم طوره فان هذا التطوير هو عملية مكملة لعملية الخلق التي مصدرها الله ، ولذلك فأن آدم من صنع الله خلقه وطوره أو خلقه على صيغة أرادها له فكان كما هو عليه فاستحق تحمل مسؤولية خلافة الله على الارض .

إن آدم لكي يكون نبيا لابد أن يكون إنسانا ولكي يكون انسانا لابد من وجود مواصفات فيه تميزه عن غيره من المخلوقات ، ولما كان الانسان الذي نراه اليوم والذي تجمعت صوره وهيكله فكان على شاكلة الانسان الذي نراه فأن هذا المخلوق يتميز عن سائر المخلوقات بتكوينه الجسمي المتميز عنها وبخاصة تركيب مخه وقوة هذا المخ على الوعي والادراك والتعبير عما يريده الى جانب انتصاب قامته وتوزيع أصابع يديه الى غير ذلك من الخصائص التي اختلف فيها عن سائر الحيوانات .

إن الميزة التي تفوق فيها الانسان وتميز عن سائر الحيوانات هي إدراكه والتعبير عن هذا الادراك . وعملية التعبير هذه لكي تكون محددة ومعبرة عن أمور يحس بها ويدركها لابد من وجوده أولا كوحدة نوعية حية مدركة معبرة ولابد من وجود إنسان آخر من أجل التفاعل معه والتعبير واياه عما يحس ويريد ، ولهذا فأن آدم لا يمكن أن يكون نبيا ما لم يكن انسانا ولا يمكن أن يكون انسانا فاعلا ناطقا حاملا لمسؤولية مالم يكن هناك بشر من حوله يتحدث اليهم ويتحدثون اليه ، يعمل معهم ويتفاعلون معه ولهذا فأن معجزة آدم باعتباره أبا الانبياء وأبا البشر ستكون متعلقة بكونه إنسانا مدركا وانسانا ناطقا .

يقول الله عز وجل في آدم (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الارض خليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال اني اعلم ما لا تعلون)[١٢٥] .

إذن معجزة آدم أن الله خلقه انسانا وجعله خليفة له في الارض وأعطاه هذه المسؤولية على الرغم من معرفته بأنه سيفسد في الارض ويسفك الدماء اذ أن هذه الخلاقة في الارض من قبل الانسان لا يمكن ان تكون الا عبر هذا السفك للدماء وذلك الافساد . لأن حياة الانسان صراع في داخله وصراع مع بيئته وصراع مع أخيه الانسان وهذا يتطلب مجابهة عنيفة وتتساقط جراءه دماء ونتابع صور الحياة فاسدة وصالحة ، وهذا هو قانون الحياة على الارض .

وفي هذه الاية والايات الاخرى المكملة لها يقدم الله للانسان خاصية أساسية يستطيع بها أن يتولى هذه الخلافة ، وهذه الخاصية هي الادراك والتعبير .. يقول سبحانه وتعالى في ذلك (وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبؤوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين)[١٢٦] (قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم)[١٢٧] .. (قال يا آدم انبئهم بأسمائهم فلما انبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم اني أعلم غيب السموات والارض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون)[١٢٨] .

إن معرفة آدم للاسماء وعلم الغيب هي صفات لا يقوى الانسان على القيام بها لولا إرادة الله وقدرته .

إن معرفة الاسماء التي امتحن الله بها ملائكته فلم يستطيعوا معرفتها ، وعندما طلب من آدم ترديدها وعرضها تمكن من ذلك ، فـأذا كان الملائكة لم يستطيعوا النطق والتعبير ومعرفة تلك الاسماء فهذا يعني أن الذي أنطق آدم وعلمه تلك الاسماء هو الله سبحانه وتعالى ، فلو بقي آدم أي زمن لما استطاع النطق بكلمة بدليل أن كل الحيوانات التي خلقت قبل آدم وفي زمنه وبعده لم تستطيع حتى هذه الساعة النطق بكلمة واحدة .

وإذا ما احتج أصحاب نظرية التطور بأن الذي أنطق الانسان هو عمليات التغيير والتطور التي حدثت للانسان عبر الاف السنين فلماذا لم تحدث هذه الظاهرة لاي حيوان آخر على الرغم من حالات التطور والتغيير التي حصلت عليه ، هذا مع الاشارة الى ان علماء الحياة يقررون بأن تركيب الانسان البيولوجي يشبه في مراكز ساسية منه تركيب عدد من الحيوانات .. فلماذا لم يقع على تلك الحيوانات تغييرات وتبدلات تصل الى ما وصل اليه الانسان ؟

ان أصحاب نظرية التطور القائلين بان الانسان تطور عن الحيوان مطالبون اكثر من غيرهم في تفسير عدم حدوث مثل هذا التطور على حيوان آخر .

إن محاولة أصحاب نظرية التطور الخروج من هذا الحصار بدعوى وجود (حلقة ضائعة في سلسلة ذلكم التطور) فأن القول بذلك يحتاج الى أدلة وحجج كثيرة لتفسيره وإثباته .

إن القول بوجود حلقة ضائعة هو عود الى الوراء وضياع في خضم الجهل في كيفية تفسير تطور الانسان من الحيوان وصعوده على اكتافه .

إن الوقوف عند الحلقة الضائعة يدفع بنا الى الاعلان بأن الله هو الذي خلق كل الاحياء وجعل لكل نوع منها خصائص معينة وخلق الانسان على صورة تمكنه من الادراك والتعبير عما يريد وهذا الادراك والتعبير عنه هو المعجزة الكبرى لآدم التي تحدى بها الله سائر مخلوقاته وتحدى بها أبناء جلدته حيث أن حديثه وإدراكه لمعاني الاشياء وتحديد مسميات لها كان المعجزة التي تحداهم بها .

إن الكلام معجزة آدم العظمى فلو بقى الانسان دهرا أو دهورا متتالية ، لما استطاع النطق بكلمة .. إن الله سبحانه وتعالى أعد الانسان على شاكلة معينـة وتركيب خاص بحيث جعله قادرا على النطق .

إن وضع اسم لكل مسمى مسألة من أعقد المسائل في تاريخ الانسان حيث أن الانسان لن يصل الى هذه المرتبة الا بقدر من الله حيث نشاهد أن كل مخلوقاته لم تستطع بعد النطق بكلمة واحدة وذلك لان الله لم يشأ ذلك .

إن القول بأن الانسان تعلم الكلمات والنطق بها عبر دهور طويلة من التطور في تكوينه الذهني ونتيجة تفاعله مع البيئة وتكوين الفاظ عبر عملية التفاعل بين الاصوات والمؤثرات في البيئة وبينه فأن هذه التطورات والتغيرات لم تكن مؤثرة لولا كون عقل الانسان وقدراته الذهنية مخلوقة بشكل متهيئ لقبول تلك التأثيرات والتطورات ، والا فلماذا لم تؤثر البيئة وأصواتها ومؤثراتها التي تقع بذات القوة على الحيوانات الاخرى .

إن خلق الانسان في الصورة التي خلقه الله عليها كانت الاساس في حالة الفعل ورد الفعل والحصول على المسميات والاصوات ، وهذا الاستعداد كان ميزة ميز الله الانسان عن سائر الحيوانات .

من هذا يتبين ان النطق بكلمة يعبر بها عن شئ داخلي أو عن تأثير خارجي كان خاصية بشرية لم تمنح للملائكة ولم تعط لاي مخلوق سوى الانسان ولهذا عجزت الملائكة عن معرفة الاسماء واعتذرت تردد (قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم) .. مما يؤكد ان النطق ومعرفة الاسماء والابلاغ عنها هي من عند الله عز وجل وأن الملائكة لم تستطع الاجابة لانه سبحانه لم يعلمها بعد .

إن التعبير اي اللغة هي معجزة آدم لآن هذه تعني جملة أمور أبرزها ،

- أن الانسان حينما يصل الى مرحلة النطق فأن هذه المرحلة تعتبر حدا فاصلا بين الانسان وكل المخلوقات .
- إن القدرة على الكلام تعني ادراك الانسان وقدرته على اختيار الحروف التي

يؤلف منها الكلمة وأن يكون لهذه الكلمــة معنى معين يختلف عن الاخــرى باختلاف حروف الكلمتين كما ان تركيب جملة من كلمتين أو أكثر فأن معاني هذه الجمل تختلف باختلاف عدد كلماتها كما تختلف بحسب ترتيب ووضع هذه الكلمات قياسا الى جمل أخرى . أضف الى ذلك أن تكوين كلمة من عدد من الحروف ذات معنى محدد هو نتاج عملية عقلية مركبة معقــدة خاصــة بالانسان ولم تكن ولن تكون في سواه .

عليه فأن تكوين معنى للكلمة ومعاني للكلمات في جملة معينة تختلف عن معنى لجمل أخرى ، هو نتاج عملية عقلية متطورة خاصة بالانسان وأن التعبير عنها أعلى درجات التطور في هذا الميدان .

- لهذا فأن معجزة آدم هي «اللغة» وهذه اكبر المعجزات وأعظمها ، خصَّ الله بها الانسان وهيأ له من العوامل ما مكنه من الوصول اليها . هي تعبير عن أن الانسان الناطق المفكر هو المعجزة الكبرى والدليل الاعظم على وجود الله حيث أن كل المعجزات جاءت في سبيل إقناعه وحمله على الايمان بالله ، فقبل أن تأتي هذه المعجزاة لتكون واسطة اقناع له فأنه بتكوينه وبمواصفاتــه التي كان أبرزها النطق والتفكير هي المعجزة الدالة على وجود الله وهي البــداية التي تنطلق منها كل المعجــزات وتعود اليهــا اذ لولا الانســان لما كــانت مشكلة العقيدة ، ولما كانت قضية الشك في وجود الله أو اليقين به لان الانسان المتكلم هو الذي حرك كل هذه المسائل وفجر جميع القضايا المتعلقة بوجود الله . فلولا الانسان لما كانت هناك الوثنية ولا الثنوية ولا التوحيد ولما احتاجت المخلوقات الاخرى الى العقيدة ، ولولاه لما برزت مسألة التناقض بين النور والظلمة ولا قامت مشكلة الحياة والموت فلو كانت الارض بدون انسان وبقيت آلاف السنين لم يستطع حيوان من حيواناتها ولا شجرة من أشجارها أن تعبر بشيءٍ عن كل ما يحيط بها من تغييــرات وظواهــر ومتناقضــات ، لم يستطع حيــوان من الحيوانات أن يعبر عن تفكيره بموقف في ظاهرة الموت والحياة التي تمر عليه كما ولم يستطع الوصول الى عقيدة أو القيام بطقوس دينية تدفعه الى التقرب من هذه الظاهرة أو تلك ، ولو بقي الانسان غير مدرك وغير قادر على التعبير عما يدرك لبقى كسائر الحيوانات لم يتوصل الى إدراك الله ولا التشبث بالعقيدة أو بأية قوة أخرى ، ولهذا فان الانسان المدرك الناطق هو المعجزة الكبرى ، ولما

كان آدم هو واحدا من أرقى البشر في التفكير والنطق كانت معجزته في هذا المجال .

لقد أشرنا اكثر من مرة الى ان مسألة الحياة والموت هي التي استفزت الانسان وأوقفته طويلا ودفعته للتفكير في هذه الظاهرة وجرته الى الايمان بقوى مختلفة حتى كانت قصة ابراهيم مع الطيور الأربعة التي أشرنا اليها كثيرا فان هذه المعجزة أخذت مداها المعقد والواسع عندما وصل الانسان الى مرحلة متطورة من الوعي والادراك أي أن هذه المعجزة لم تكن لولا وجود الانسان القادر على إدراكها والتعبير عنها فلولا الانسان لما كانت هذه المعجزة .

- عليه فأن إدراك الانسان ووعيه والتعبير عن ذلك هو الذي يعطي للمعجزة قوتها وأبعادها ، لذلك فأن كل المعجزات جاءت لاحقة لوجود الانسان وعليه فأن الانسان هو المعجزة الام وسائر المعجزات توابع تدور حوله .

ولما كان الانسان هو مستقر كل المعجزات ومستودعها ، وسيلتها وغايتها إذن نطق الانسان وإدراكه لها هو المعجزة الكبرى إذ بدون هذا الادراك والتعبير عنه لايمكن ان تكون هناك معجزة . وبما أن المعجزة هي أداة من الادوات التي وضعها الله بين يدي أنبيائه من أجل معرفته والايمان به ، إذن فلولا الانسان لما كانت مسألة الالوهية ولا صارت قضية مؤرقة لها كل هذا الاثر والتأثير .

- ولما كانت نبوة آدم هي الاولى فلا بد أن تكون معجزته اكبر المعجزات وأن معجزات الانبياء من بعده تنبع منها وتستقي من معينها حيث أن المعجزة قضية خارقة يصنعها الله من أجل حمل الانسان على الاقتناع بوجود قوة خالقة تستطيع أن تعمل ما تشاء فأن هذه المعجزة الخارقة لا يكون لها دوي وتأثير إلا من قبل الانسان فهي إن سقطت من السماء أو خرجت من داخل الارض أو تمثلت بدك الجبل أو بعودة الحياة للطيور فجاءت ماشية أو في إحياء الموتى أو إبراء المرضى فان الانسان هو الذي يرى هذه الظواهر ويحكم عليها ويتأثر بها ويستدل منها على خالق الخارقة وفاعل المعجزة .

- ومما يؤكد دور الانسان في إعطاء المعجزة حجمها وبعدها أن الانسان هو المخلوق الوحيد المطلوب منه الايمان بهذه المعجزة وعليه فان الانسان هو الغاية من عملية الخلق كلها . هو الغاية من إرسال الديانات السماوية ، هو الغاية من وجود الحياة على هذه الارض .

- نخلص من ذلك أن معجزة آدم عليه السلام هي في «آدميته» وهذه الآدمية تميزت عن سائر مخلوقات الله من الملائكة وبقية الاحياء بالقدرة على النطق والتفكير واهمية هذه القدرة أنها خاصة بالانسان وأن الانسان بتكوينه هذا الدليل الاكبر على وجود الله حيث أن كل المخلوقات وسائر الظواهر لم تستطع إدراك الله ولا التعبير عن هذا الادراك .. إن عدم تكرار هذه الميزة على أي من مخلوقاته تعالى دليل عملي ومنطقي على أن قدرة الانسان على التفكير والنطق ليست من عنده وأنها من قوة هي قوة الله .

- إن الله فضل آدم بمعجزته هذه أي بآدميته على سائر المخلوقات وحتى على الملائكة (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين)[١٣٩] .

- وقد برر إبليس عدم السجود لآدم بأن الله خلقه من نار وخلق آدم من طين (قال ما منعك الا تسجد إذ أمرتك قال انا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين)[١٤٠]

إن رد الله سبحانه وتعالى على إبليس بعد أن احتج الاخير بأنه لا يسجد لمخلوق من طين وإصرار الله على ذلك يعني أنه فضل آدم المخلوق من طين على إبليس المخلوق من نار وهذا التفضيل مصدره أن حالة إبليس المخلوق من نار حالة واحدة لا تقبل التحول الى ظاهرة تستطيع الادراك والنطق إذ أن كون حالة من الحالات مخلوقة من نار فذلك يعني استحالة صيرورتها حالة حية تستطيع أن تتصف بصفات متعددة وتحمل خصائص ومظاهر مختلفة . إن حالة البقاء على بعد واحد أو الانقلاب على هذه الظاهرة الى ظاهرة لا تحمل عوامل الديمومة هي التي تصدر عن المادة المخلوقة من نار حيث أن حالة الاشتعال في المادة لا تسمح بالتحول الى جسم حي فهي اما أن تبقى مشتعلة و في حالة نفاذ جذوتها تتحول الى رماد ... إن كون الملائكة وابليس من مادة النار التي لها بعد واحد هو الذي جعل الانسان المخلوق من التراب والمهيأ أن يكون على حالة متعددة وذات أبعاد كثيرة هي التي اعطت للانسان هذه الافضلية على إبليس .

والذي ميز الانسان عن بقية المخلوقات المخلوقة من طين أيضا هي قابليته للادراك والتعبير كما أوضحنا ذلك أعلاه .

لقد أوضح سبحانه في عدد من الآيات طبيعة الانسان والمادة المخلوقة منها كما وضحت آيات أخرى طبيعة الملائكة والمادة التي خلقهم الله منها حيث جاء في سورة الحجر قوله ..

[ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون ■ والجان خلقناه من قبل من نار السموم ■ وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون ■ فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ■ فسجد الملائكة كلهم أجمعون ■ الا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين ■ قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين ■ قال لم أكن لاسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون][١٤١] .

إن قراءة فاحصة في هذه الآيات توضح المعاني والاعتبارات الآتية :

١ ـ إن الله سبحانه وتعالى بين في مقارنة دقيقة بين الانسان والملائكة حيث أوضح في هذه المقارنة جملة مسائل أهمها :ـ

- إن الانسان خلق من صلصال من حمأ مسنون .
- إن الجان خلقت من نار السموم .
- إن الملائكة والجان خلقوا من نار السموم .
- ان الله سبحانه قد خلق الجان والملائكة قبل خلق البشر .

٢ ـ ان الله هو الذي بعث الحياة في مادة (الصلصال) الذي سبق له أن خلقه حيث قال (فأذا سويته ونفخت فيه من روحي) .

٣ ـ ان الله فضل الانسان على الملائكة وطلب منهم السجود لآدم ويتبين من تسلسل الآيات أن الله سبحانه قد طلب السجود للانسان المخلوق من صلصال وقد جاءت كلمة إنسان في سياق عام تعني كل إنسان باعتباره وحدة نوعية للبشر حيث كان رد إبليس بقوله (لم إكن لاسجد لبشر خلقته من صلصال) مما يشير الى أن التفضيل كان للانسان عامة على الملائكة عامة . وجاءت عملية التفضيل هذه في قصة آدم عليه السلام وهو يعبر عن مفهوم الانسان في مرحلة من مراحله حيث استحق حمل المسؤولية فمن الله عليه بالنطق والتفكير .

٤ ـ لقد رفض إبليس السجود محتجا بأنه مخلوق من نار السموم فغضب الله سبحانه وتعالى عليه وطرده من رحمته (قال فاخرج منها فانك رجيم) .

٥ ـ إن تفضيل الله للانسان جاء للاعتبارات الآتية :

- ان الله سبحانه وتعـالى هو الـذي خلق الصلصال الـذي صنع منـه الانسان .. وهو الذي خلق نار السموم التي جاء منها الجان والملائكة ، ولهذا فكلا المادتين من صنع الله وفضله .
- ان الله سبحانه هو الذي بعث الحياة في مادة الصلصال عندما نفخ فيها وبذلك حملت هذه المادة إضافة جديدة من الله سبحانه وفضلا ، ولم يحدث جلت قدرته هذه العملية على نار السموم التي كانت منها الملائكة وبذلك قامت الحياة في مادة الصلصال ولم تقم في نار السموم ، والحياة حالة فاعلة متحركة فهي أفضل من حالة النار التي لا تتحرك حية ولا تؤثر إلا بقوة أخرى تحركها وتدفع بها الى التأثير .
- إن بث الحياة في الصلصال هو حالة تدفعها الى الحركة وهذه الحركة من عند الله ولكي تكون حركة منطقية ودائمة فلابد من توزيع وتحويل هذه المادة الجديدة إلى قوتين أو حالتين متناقضتين سلبية وإيجابية ، وأن من تفاعل هاتين الظاهرتين تكون الحركة والتطور والنمو .
- في حين أن حالة النار التي خلقت منها الملائكة والجن لايمكن أن تكون على حالتين متحركتين متفاعلتين ، إنما هي ذات بعد واحد ، وعندما تفقد جذوتها تصير شيئا آخر غير النار حيث أن الرماد المتبقي منها لا يحمل جذوة من نار سمومها .

٦ ـ لقد فضل الله الانسان المخلوق على هذه الطريقة على سائر مخلوقـاته من الاحياء والنباتات التي هي الاخرى مخلوقة من مادة الصلصال وبعد أن نفخ فيها سبحانه وهذا التفضيل والتمييز كان في جسم الانسان وتوزيع حواسه وهيئته وتركيب دماغه ، بحيث كان معدا للتطور والتغيير بحيث يصل الى درجة من الادراك والتمييز تفوق سائر المخلوقات كما أنه المخلوق الوحيد القادر على التعبير عما يحس ويريد وبهذه فضله على سائر مخلوقاته كما سبق أن فضله على ملائكته .

ويعلق الامام الرازي على معجزة آدم عليه السلام حيث علمه الله (الأسماء كلها) بقوله :

(إن الملائكة لما سألوا عن وجه الحكمة في خلق آدم وذريته وإسكانه تعالى إياهم في الارض وأخبر الله تعالى عن وجه الحكمة في ذلك على سبيل الاجمال بقوله تعالى (إني أعلم ما لا تعلمون) أراد تعالى أن يزيدهم بيانا وأن يفصل لهم ذلك المجمل .. وذلك

بأن علم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم عليهم ليظهر بذلك كمال فضله وقصورهم عنه في العلم ... قال الاشعري والجبائي والكعبي : اللغات كلها توقيفية بمعنى أن الله تعالى خلق علما ضروريا بتلك الالفاظ وتلك المعاني ، وبأن تلك الالفاظ موضوعة لتلك المعاني .. وأنه تعالى ما خلق هذا العلم في العاقل فلما لا يجوز أن يقال أنه تعالى خلقه في غير العاقل والتعويل على الاستعباد في هذا المقام مستبعد .. ولاشك ان ارادة الله تعالى وضع تلك الالفاظ لتلك المعاني سابقة على التعليم فكفى ذلك في اضافة التعليم الى الاسماء)[١٤٢] .

ويبين سيد قطب إعجازه سبحانه في تعليم آدم الأسماء قائلا (ها نحن أولاء نشهد طرفا من ذلك السر الالهي العظيم الذي أودعه الله هذا الكائن البشري وهو يسلمه مقاليد الخلافة ، سر القدرة على الرمز بالاسماء للمسميات وهي ألفاظ منطوقة رموزا لتلك الاشخاص والاشياء المحسوسة ... لو لم يوهب الانسان القدرة . على الرمز بالاسماء للمسميات والمشقة في التفاهم والتعامل حين يحتاج كل فرد لكي يتفاهم مع الآخرين على شيء أن يستحضر هذا الشيء بذاته أمامهم ليتفاهموا بشأنه ... الشأن شأن نخلة فلا سبيل للتفاهم عليه الا باستحضار جسم النخلة ... إنها مشقة هائلة لا تتصور معها حياة وان الحياة ما كانت لتمضي في طريقها لو لم يودع الله هذا الكائن القدرة على الرمز بالاسماء للمسميات)[١٤٣] .

معجزة نوح عليه السلام :

المسافة بين آدم ونوح طويلة وقد يكون الله سبحانه قد إرسل خلالها عددا من أنبيائه ورسله ، إلا أنه سبحانه لم يحدثنا عن اسمائهم وعن تفاصيل حياتهم ونشاطهم .

ويبدو أن الانسان بقى في دائرة نبوة آدم التي تعتبر النبوة الاولى في حياة الانسان والتي استهدفت حمل الانسان على الايمان بأله واحد هو الذي خلق كل شيء وجعل الانسان دليلا على خلقه وأساسا يستدل بعقله على وجود الله .

إن تحديد معجزة آدم عليه السلام باعتباره انسانا ، كان الخطوة الاولى لرفع الانسان درجة عن سائر المخلوقات ، وهذا الارتفاع لان الانسان يستطيع ان

يستطيع أن يعبر عن تفكيره ، وهذا التفكير والتعبير هو إعلان من الانسان عن فضل الله عليه وتعبير واعتراف منه بوجوده .

إن مهمة آدم هذه بقيت المهمة الرئيسية التي دعا اليها وبقيت محور كل الديانات السماوية وان الاضافات على هذه العقيدة كانت تأتي متناسبة مع عقل الانسان وادراكه وتطوره ،ويظهر ان هذه المسألة بقيت هي النقطة المركزية التي تدور عليها العقيدة السماوية حيث لا نجد إضافات ومبادئ وتفاصيل عليها حتى نبوة إبراهيم (ع) .

وعليه فأن معجزة نوح كانت متعلقة في الدعوة للايمان بالله والتهديد لمن لا يؤمن بمعاقبته عقوبة تتناسب ونكرانه ، ولهذا نلاحظ أن معجزة نوح متصلة بالدعوة للايمان بالله واظهار قوته وقدرته على العمل على الاحياء والافناء بصورة مكشوفة مادية مجسمة .

لقد خاطب نوح قومه ورد عليهم وبعد حوار بينهما كانت معجزته أن أنجاه الله ومن آمن به من الطوفان . لقد وضع سبحانه هذا الحوار وتلك المعجزة في الآيات الكريمة الآتية :
[لقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ■ قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين ■ قال يا قوم ليس بي ضلاله ولكني رسول من رب العالمين ■ أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون ■ أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون ■ فكذبوه فانجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بأياتنا انهم كانوا قوما عمين][١٤٤] .

لقد جاءت آيات أخرى في القرآن الكريم حول معجزة نوح تحمل ذات المعنى الذي جاءت به الآيات أعلاه من سورة الاعراف حيث يقول سبحانه :
[فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف واغرقنا الذين كذبوا بأياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين][١٤٥] .

إن هذه الآيات توضح (معجزة نوح عليه السلام) وهي تحمل في طياتها الدلالات الآتية :

١ - إن نوح (ع) دعا قومه إلى الايمان بالله وأوضح لهم ذلك بالحجة التي

تناسبهم ، وقد هددهم بعقوبات مختلفه إن هم ظلوا على كفرهم وعنادهم وحينما لم يستجب فريق كبير منهم حلت عليهم العقوبة .

٢ ـ إن الفيضان كان هائلا غطى اليابسة التي كانت محيطة بهم وأغرق كل شئ .. هذا الطوفان الهائل لا يمكن أن يكون إلا بفعل الله وقدرته وكان ذلك منه عقوبة للضالين المكابرين .

٣ ـ إن نجاة نوح ومن أمن بما دعا إليه كان بفضل الله وتوجيهه ، فهو الذي أشار الى نوح بأن يصنع الفلك حيث قال له [واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون][١٤٦] .. إن ذلك الفلك لا يمكن أن يكون واسطة لانقاذهم في ذلكم البحر الهائج لولا فضل الله وكرمه عليهم .

٤ ـ إن العقوبة بالغرق وقعت على كل من كابر ورفض الايمان بما جاء به نوح (ع) حيث أن هذه العقوبة وقعت على ابنه ولم تشفع له نبوة أبيه وتوسلاته ويوضح سبحانه هذه الناحية بقوله [ونادى نوح ربه فقال ربي إن ابني من أهلي وأن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ■ قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألني ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين ■ قال ربي إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم والا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين][١٤٧] .

٥ ـ إن الدلالة الكبرى من هذه المعجزة هي في كيفية مواجهة هذا الطوفان وما تعنيه هذه المواجهة .. إن دعوة الله نوحاً بعمل الفلك ، إنما هي دعوة لان يواجه الانسان ما يحيط به من صعوبات ومظاهر صاخبة وحالات شديدة بالايمان واستعمال العقل وإعداد الوسيلة المناسبة لمواجهة الخطر .. كان الله سبحانه قادرا أن يجمع قوم نوح ويغرقهم في نهر صغير ويجعلهم حطاما ، وكان باستطاعته جلت قدرته أن يصنع للمؤمنين رابية على مقربة من ذلك النهر يشاهدون منها أولئك المكابرين كيف يغرقون واحدا بعد الآخر أو يغرقون سوية .

٦ ـ وعبر معجزة نوح هذه يبين سبحانه وتعالى كيف أوحى لنوح في عمل الفلك وفي جمع قومه فيه وجمع ما يحتاجون اليه في حياتهم وجعل كل شئ من هذا يحمل عوامل الحياة والديمومة حيث قال سبحانه [حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين إثنين وأهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه الا قليل][١٤٨] .. إن وضع آدم وأهله وحمل (من كل زوجين اثنين) في سبيل أن يتكاثر قوم نوح وتتكاثر الاحياء من حيوانات ونباتات عبر

وجود زوجين اثنين من كل شيً ، إن الله سبحانه قادر أن ينجي نوحاً وحده وأن يجعل منه الحياة وتكاثرها كما في قدرته أن ينبت ما يشاء من النباتات ويحيي ما يريد من الحيوانات ، إلا أنه أوصى نوحاً بحمل عوامل التكاثـر ليقول للانسان بأن هذا التكاثر يكون من وجود هذه الثنائية الازدواجية في كل شيً ولأنه لا يريد أن يسقط الفترة الطويلة التي مرت على الاحياء من بدء الخليقة حتى أيام نوح حيث تطورت وتغيرت صورها كثيرا ، وذلك في سبيل ان تواصل الحياة مسارها في هذا الاتجاه وتتقدم صعودا في سلم التطور .

٧ - إن معجزة نوح بكل أبعادها تؤكد عـلى أمرين أسـاسيين ، الاول أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق المريد بيده كل شيً . والامر الثاني هو تحديد قانون السببية بحيث لا تكون نتيجة الا بسبب ولا حادثة الا بفعل ..

- فالفيضان ظاهرة كانت بسبب من الله وبأمره .
- غرق قوم نوح الضالـين كان بسبب ضـلالهم وكفرهم وكـان بتأثـير الفيضان الذي أغرقهم .
- ان نجاة نوح ومن آمن معه كان بسبب ايمانهم وبواسطة الفلك الذي صنعوه بأيديهم .
- إن الحياة لا تكون الا عبر تفاعل بين قوتين اثنتين عبر عنها سبحانه وتعالى (من كل زوجين اثنين) .. وذلك لتكون الحياة منطقية عقلانية وأن حركتها وتغييراتها متوافقة مع العلم والمنطق الذي يـدركه الانسـان ويضع أبعاده .

معجزات عاد وهود وصالح وثمود وشعيب

لقد تتابع إرسال الأنبياء والرسل من عند الله لهداية البشر . والقرآن الكريم يحفظ لنا حياة عدد من هؤلاء الرسل الذين أكرمهم الله وأعزهم بحمل رسالاته .

لقد بقيت دعوة آدم ونوح هي ذاتها محور دعوات الرسل من بعدهم حيث كانت دعوتهم الى الايمان بالله إلها واحدا .. ولم تزد رسالات البعض من هؤلاء الكرام على الدعوة للايمان بأله واحد حتى رسالة ابراهيم الخليل (ع) .

إن معجزات هؤلاء الرسل والانبياء «صلوات الله وسلامه عليهم» كانت متوافقة مع المرحلة الحضارية لظهورهم ومتساوقة مع المبدأ الرئيس والهدف المركزي لتلك الدعوات الا وهو (حمل الناس على الايمان بأله واحد) فكانت تلك المعجزات ظاهرة

بارزة تعبر عن قدرة الله على «الاحياء والافناء» ولهذا نجد آيات ومعجزات هذا العدد من الانبياء يتصل بهذه الناحية ويعبر عنها .

لقد أوضح الله سبحانه نبوة عدد من أنبيائه وآياتهم في عدد من السور وحصرها في آيات كريمة منها [وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم الا مفترون ■ .... قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين .. ■ فان تولوا فقد ابلغتكم ما أرسلت به اليكم ويستخلف ربي قوما غيركم ولا تضرونه شيئا إن ربي على كل شئ حفيظ ■ ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ ■ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد ■ واتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا أن عادا كفروا ربهم الا بعداً لعاد قوم هود ■ والى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الارض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب ■ قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا أتنهانا ان نعبد ما يعبد آباؤنا واننا لفي شك مما تدعونا اليه مريب ... ■ ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب ■ فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ■ فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز ■ وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ■ كأن لم يغنوا فيها الا إن ثمودا كفروا ربهم ألا بعدا لثمود][١٤٩] .

إن هذه الايات الكريمة من سورة هود نجد أمثالها في سورة الاعراف حيث تحدثت آيات من هذه السورة الكريمة بذات المعاني والعبارات التي جاءت في سورة هود .

إن مراجعة لهذه الآيات تعطي المعاني والابعاد الآتية :

١ - إن دعوة هؤلاء الانبياء الكرام كانت ذاتها دعوة آدم ونوح عليهما السلام و هي نفسها دعوة أنبياء آخرين جاءوا من بعدهم حيث كانت تأكيدا على ضرورة الايمان بالله وعبادته .. قال سبحانه [وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله

لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب اليم][150] .

واضح من هذه الاية وبخاصة النصف الاول منها أن نبوة ثمود وصالح وسواهم كانت الدعوة لعبادة الله .

٢ - إن المعجزة المثيرة والدافعة لهؤلاء الانبياء كانت (الناقة) قد خلقها الله وجعلها آية لانبيائه يوضحون من خلالها قدرة الله على الخلق والابداع . وفي هذه الآية جملة تحديات واعتبارات منها :

- أن مسألة خلق الناقة أو غيرها من المخلوقات عملية خاصة بالله ولا يستطيع أي مخلوق كما لا يستطيع الانسان أن يخلق مثلها أو أقل منها أو أكبر .
- أن في شكل وتكوين الناقة على ما هي من توزيع لاقسامها ومكوناتها إشارة الى التعارض وعدم التنسيق بين هذه المقومات والاجزاء من أجل إثارة الاعجاب والتعجب وحمل الانسان على النظر اليها بعين العقل وبصيغة التحدي ولاظهار عجز الانسان عن المجئ بمثلها ، ذلك في سبيل سحبه من خندق الشرك والعصيان الى شاطئ الايمان .

٣ - إن العقوبات التي حلت بقوم عاد وهود وصالح وثمود كانت لانهم (كفروا ربهم) (واتبعوا أمر كل جبار عنيد) حيث أن هذه العقوبات جاءت نتيجة كفرهم وعصيانهم ومخالفتهم .
وأن الذين نجوا من عقوبته سبحانه هم الذين آمنوا بالله وبما دعوا إليه من قبل أنبيائه .

٤ - إن طبيعة العقوبة وابعادها كانت شديدة واضحة لكي تبين قدرة الله وسلطانه على الذين عصوا أمره وخالفوا تعاليمه وجحدوا بوحدانيته ويصورّ سبحانه وتعالى عقوبات هؤلاء بالآيات الكريمة التالية من سورة الاعراف فيقول :

[وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا انكم إذن لخاسرون ■ فاخذتهم الرجفة فاصبحوا في دارهم جاثمين ■ الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين][151] .

٥ - من هذه الآيات الكريمة يتبين أن العقوبة كانت مباشرة ومكشوفة بحيث أخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ، إن حدوث مثل هذه العقوبة

بعد جملة تنبيهات وعدد من التحديات والوعيد بأنزال العقوبات على من يكفر ويكابر ووقوع ذلك فعلا أمام مرأى ومسمع السامعين والمخاطبين دليل على أن هذه العقوبات إنما مصدرها الله سبحانه وأنه وراء فرضها وإصابة هذا الفريق المعاند المكابر ونجاة المؤمنين العابدين .

٦ - إن صيغة العقوبة والمكافأة جاءت متشابهة لهؤلاء الانبياء بحيث تتكرر الصياغة مرات لتحمل صورة الثناء والعقاب بعبارة متشابهة مما يشير إلى أن المرحلة الحضارية التي كان عليها الانسان في أيام هذا العدد من الانبياء متشابهة ومتقاربة في درجات التطور فنقرأ في هذا المجال ثواب هود ومن آمن معه في هذه الصيغة (ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ)[١٥٢] . هي نفسها الصيغة التي جاءت فيها معجزة صالح ومن آمن معه حيث تقول آيتهم (فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز)[١٥٣] ، وتتردد صيغة العقوبة على من عصى وكفر بذات العبارات حيث جاءت صياغتها مكررة على الصورة الآتية (وأخذ الذين ظلموا الصيحة فاصبحوا في ديارهم جاثمين)[١٥٤] ، وجاء في سورة الاعراف عن عقوبة هؤلاء (فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين)[١٥٥] .

٧ - إن وحدة الصياغة في الدعوة للايمان بأله واحد التي تتكرر في عدد من دعوات الانبياء واستمرار تكرارها تأكيد أن مبدأ الوحدانية هو المبدأ المركزي الرئيس في الديانات السماوية ، وتكرار العقوبات على الذين لا يؤمنون بذلك دليل آخر على ان مبدأ الوحدانية هو الهدف المركزي من الديانات السماوية .. وان تكرار صور العقوبة التي قاعدتها نكران الوحدانية دليل آخر على مركزية مبدأ التوحيد وأنه العمود الفقري والقاسم المشترك لكل الديانات السماوية ، وأن ارتباط المعجزات كان بهذا المبدأ في سبيل حمل الانسان على إدراك أن الله سبحانه وراء تلك المعجزات وأنه عندما وضع تلك المعجزات وحركها وصورها وجعلها تمشي حية بارزة أمامه في سبيل إقناعه بأن وراءها قوة تحركها ليست قوة الانسان وليست قوة الطبيعة ولا قوة أي مخلوق آخر إنما هي من عند الله .

معجزات النبي ابراهيم عليه السلام :

بين نبوة نوح عليه السلام ونبوة أبراهيم الخليل (ع) فترة طويلة تقدم

خلالها الانسان خطوات في سلم الحضارة ووصل درجة متقدمة في مجال العقيدة .

وإن الفترة هذه ظهرت فيها حركات دينية وضعية وأخرى سماوية تقدمت فيها العقيدة الدينية تقدما كبيرا في تحكيم العقل واستعمال التجارب المادية والزحف نحو دائرة الوحدانية بخطى فكرية ومنطقية متتابعة .

أن الفترة التي سبقت ظهور نبوة ابراهيم الخليل (ع) كانت فترة دقيقة وقف الانسان عبرها وجهاً لوجه أمام العقائد القديمة حيث الوثنية المنتشرة في كل مكان والثنوية المتأصلة هنا وهناك ، وحيث الشمس تسمو عالية متربعة على عرش الربوبية هابطة الى فلك الظلمة سابحة في بحر الثنوية العميق .

أن الانسان بلغ قبيل رسالة إبراهيم مبلغا متقدما في الحضارة وفي العقيدة ، صار للعقل سلطان أكبر وراح يفتش عن أدلة منطقية ليثبت فيها وجود الله فعاد يجمع من حصاد العقائد القديمة لعله يصل الى سدرة المنتهى ويستظل بظلها قوة وارفة عالية ليس فوقها من قوة .

أن صعود الانسان بعقله الى السموات العلا كان يلتقي بقوى ومظاهر ونجوم وكواكب كثيرة ، كان يعمل على سبرها والوقوف على حركتها وفعلها والقوى المحركة لها ، وهل أنها قوة ذاتية أم ان قوة فوقها هي التي أوجدتها وحركتها .

لم يستطيع الانسان أن يستقر على قرار في هذا الميدان وبقيت أنباء الانبياء السابقين تدور من حوله معلنة عن وحدانية الله ، الا أن تفكيره وقدراته الذهنية كانت دون القدرة على استيعاب هذه الوحدانية وتصورها حيث أن حدود قدراته كانت دون سعة وعمق فكرة الوحدانية .

إن نداء الرسل والانبياء السابقين لابراهيم كان نداء مباشراً صريحا مكشوفا ، فقد خاطب الله بلسان آدم البشر مستدلا على وجوده ووحدانيته بفكرة الموت والحياة حيث خاطبهم (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فاحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون)[١٥٦] ، وعاد ودلل على وحدانيته بقوله (وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ■ قالوا سبحانك لاعلم لنا الا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم)[١٥٧] .

إن إقناع الناس بوجود الله وحملهم على الايمان به عبر ظاهرة الموت والحياة

كان محاولة متقدمة في توظيف العقل للايمان بالعقيدة ، إلا أن عدم تتابع ظاهرة الحياة والموت في دائرتها المتكاملة وعبر مراحلها الأربع وهي الحياة من بعد الموت والموت من بعد الحياة والحياة مرة أخرى من بعد الموت فأنها لاتتابع جميعها أمام الانسان ، ولهذا كان من الصعوبة تصورها وحمل الانسان بموجبها على الايمان حيث أنه لم يشاهد كيف انتقل الانسان من حالة العدم الى حالة الحياة ولم يشاهد حالات انتقل فيها الانسان من حالة الموت الى حالة الحياة ، لذلك فأن الدعوة للايمان بالله عبر هذه الدورة المتلاحقة الاطوار كانت ملاحقة صعبة .

وعندما واصل أدم والانبياء من بعده نوح والآخرون صلوات الله وسلامه عليهم في الدعوة للايمان بالله عبر مطالبة أقوامهم بالايمان بالله مطالبة مباشرة حيث كان خطابهم على الصيغة الآتية (والى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم الا مفترون)[١٥٨] ، ومثل قوله تعالى (والى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب)[١٥٩] ، إن مثل هذا النداء وهذه المحاجة كانت تتطلب درجة كبيرة من الايمان ومستوى متقدماً من الادراك ولم يكن الانسان أنذاك على تلك الدرجة المطلوبة من الايمان ولم يكن قد بلغ مرحلة متطورة من الذكاء بحيث بقيت مثل هذه النداءات غير مجدية في حمل القوم على الاقتناع والايمان بما يدعو إليه الانبياء والرسل مما يضطر هؤلاء الى التوسل بالله أن يكافئ الذين آمنوا بهم وبرسالاتهم وصدقوها ويعاقب الكافرين المعاندين فينزل الله رحمته لأولئك وغضبه على هؤلاء لعل في هذا الثواب وذاك العقاب فرصة لدفعهم وحملهم على التصديق برسالات الانبياء والايمان بأنهم مرسلون من عند الله وأن الله موجود وقادر أن يفعل مايشاء.

كما أن محاولة إقناع البشر بتعليم آدم الاسماء أي معرفتهم النطق وإدراكه لما يحسه ويحيط به فأن هذه الحقيقة تحتاج الى درجة عالية من التصور والتقدم لتكون حجة دافعة للاقناع وفرصة للانتباه والمرور عبرها نحو سلم الوحدانية .

إن استعمال العقوبة والمكافأة عبر حوادث مسألة مادية عقلية وأن بعدها المادي وتطبيقاتها العملية أوسع من أبعادها العقلية ، ولهذا بقيت حجج الانبياء السابقين تواكب مدارك الانسان وتسير معه بحيث لم تصل الى مرحلة الحجج العقلية المتطورة الا في مرحلة النبي إبراهيم علية السلام حيث تتابعت المعجزات

عليه مادية وعقلية بحيث تمثلت أمامه صور وأمثلة وآيات تحمل العقل والوجدان الى الركون اليها وأنها من صنع قوة هي فوق قوة البشر مجتمعة وفوق كل قوة أخرى .

لذلك يمثل عصر النبي ابراهيم (ع) عصر الانتقال الكبير من مرحلة الأيات والمعجزات ـ المادية العقلية ـ الى مرحلة المعجزات ـ العقلية المادية ـ ، ولذلك يعتبر عصر ابراهيم (ع) أعلى مراحل التطور في العقل الانساني وفي الحضارة الانسانية قياسا للفترات السابقة له . ان ابراهيم (ع) كان يمثل الانسانية في أعلى مراحل تقدمها آنذاك ، وقد عبر القرآن الكريم عن هذه المكانة المتقدمة وتمثيله للبشرية بقوله (ان إبراهيم كان امة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين)[١١٦٠] .

إن القرآن الكريم حفظ لنا حياة إبراهيم والآيات التي من الله بها عليه وكانت دليلا له وللناس جميعا على وجود الله ووحدانيته ، وهذه الآيات التي عبر الله من خلالها عن وجوده وقدراته ووحدانيته من أهمها :

١ ـ قال سبحانه وتعالى (وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فاتمهن قال إني جاعلك للناس إما ما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين)[١٦٠] ـ إن امتحان الله لابراهيم كان عبر الكلمة وهذا يشير الى أهمية العقل وإدراكه في عملية الابتلاء هذه إذ أن أي اختبار لا يقوم على الادراك لايمكن أن يكون إختبارا إيجابيا ولا اختبارا بين طرفين متقابلين يلتزم الجانب الممتحن بضرورة الاجابة عما يسأل .

- إن الآية الكريمة أعلاه تبين أن هذا الامتحان كان في تحميل إبراهيم مسؤولية (إمامة) الناس ، وأن هذه الامامة أو النبوة أو القيادة إنما هي حمل لأمانة الله ولرسالته إلى الناس لهدايتهم .
- أن الشرط لهذه الامامة هو الوعي والايمان وعدم الظلم ويبدوأن شرط العدل كان رئيسيا إذ كيف يجوز أن يتحمل إنسان مسؤولية النبوة وقيادة الامة مالم يكن عادلا ، ولهذا عندما استأذن إبراهيم (ع) ربه لتكون هذه الامامة في ذريته نبّه سبحانه وتعالى أنها لا ينالها من كان ظالما فقال (لا ينال عهدي الظالمين) .
- في هذا التأكيد ـ أن «المسؤولية ، الامامة ، القيادة» ليست وراثية إنما هي لمن يتصف بصفات معينة أبرزها في هذا الميدان الاستقامة والعدالة وعدم الظلم .

- وهذا التأكيد من الله سبحانه وتعالى على مواصفات الامام إلزام له ان يكون عادلا وأن يعمل بما ينزل إليه وما يؤمر به وأنه يفقد حقه في هذه المسؤولية عندما يظلم ويسئ استعمال هذه الامانة .
- إن هذا التمهيد الذي بدأت فيه نبوة إبراهيم يصور المرحلة الحضارية التي كان عليها المجتمع في أيام إبراهيم وأن سلوكه سلوكا عادلا وإسقاط المسؤولية عن أي من ذريته حتى عنه إذا ما ظلم فأن ذلك يعني إن آية النبوة كانت آنذاك العدالة ، ولما كانت العدالة التامة والعدالة النسبية مسألة مطلوبة من الانسان أن يتمسك بها في أي موقع من مواقعه ولم يستطع إنسان ذلك العصر إن يتحلى بها فأن (معجزة إبراهيم الاولى كانت في عدالته) وأن تمسكه بهذه العدالة وتطبيقه لشروطها كان يوحي للناس بصحة نبوته وأنه مرسل من عند الله ، ولهذا اتصف بهذه الصفات التي هي منةّ وكرم وفضل منه سبحانه .
- ويعتز سبحانه وتعالى بقيادة إبراهيم الخليل (ع) لعدالته فيقول فيه (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم)[١٦١] .. إذن مكانة إبراهيم العالية على قومه ورفعته درجات كان لتمسكه بالحق وتطبيقه مبادئ العدالة ويواصل الله سبحانه وتعالى أهمية العدل وخطورة الظلم مؤكدا قوله (لاينال عهدي الظالمين) واصفا الظالمين وخطورة أعمالهم وتخريبهم (وإذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد)[١٦٢].. من هذا يتضح خطورة الظلم وكيف أنه يفسد الارض ويهلك الحرث والنسل .. في كل ذلك تصوير من عنده تعالى لشروط النبوة والحدود التي يجب أن يتقيد بها والابعاد التي يتحرك داخلها ، ويؤكد سبحانه خطورة الظلم والظالمين قائلا (وإذا قيل له إتق الله أخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد)[١٦٣].
- إن تشديد الله سبحانه وتعالى على إقامة العدل ولا سيما عندما يكون الانسان في مراكز المسؤولية وبخاصة المسؤولة الكبرى مثل النبوة إذ لا تستقيم أية مسؤولية مع وجود الظلم وأن عدم تمسك من تكون بيده أية درجة من درجاتها لا يستحق البقاء متربعا على عرشها ، ويظهر أن مرحلة إبراهيم (ع) كانت في صراع حاد بين العدل والظلم ، بين الانسان وأخيه الانسان بخصوص تطبيق أسس العدالة وأن تلك

المرحلة كانت تتصف بتغلب مظاهر التعسف والاستبداد على ركائز العدل ولا سيما في المستويات المتقدمة ، ولهذا عندما اتصف إبراهيم بالعدل وهو في مركز النبوة كان علامة من علاماتها وكان في ذلك دليلا على أنه يحكم باسم الله ويتحصن برحمته .

٢ - ومن آياته سبحانه التي من بها على خليله عليه السلام قوله .. (ألم تر الى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فأن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين)[١٦٤] .. في هذه الآية الكريمة النقاط والابعاد الآتية :

- إن المناقشة في الله ، وجوده ، قدرته ، وحدانيته .. كانت قائمة في عصر إبـراهيم الخليل (ع) وأنهـا تمثل درجـة متقدمـة في الحضـارة وفي العقيدة .
- كانت مسألة الحياة والموت هي الظاهرة المؤثرة في الانسان والتي وقف عندها طويلا ولم يستطع تفسيرها وإدراك كنهها (وقد عـالجنا هـذه النقطة مرات في الصفحات السابقة) .
- إن مكابرة الخصوم بأنهم قادرون على (الاحيـاء والافناء) كمـا قال كبيرهم «أنا أحيي وأميت» فان ابراهيم (ع) لم يواصل النقاش معه في هذه المناسبة لانه أدرك أن هذا سوف لن يقدر على تقـديم أي دليل يبرهن فيه على قدرته في أنه يحيي ويميت ، وهذا الاهمال إنمـا جاء لاعتبارات آنية قدرها إبراهيم الخليل وراح يطالبه بالقيام بشئ أقـل صعوبة من مسألة الحياة والموت .
- إن مطالبة إبراهيم الخليل المكابرين والمنكرين أن يأتوا بالشمس من المغرب كان محاولة سريعـة لافحامهم وإسكـاتهم حيث أن الله يأتي بالشمس من المشرق كـل صباح ويـذهب بها من المغـرب فمطالبتـه بأحداث العكس أسقط في يد المكابرين وجعل كبيرهم يتوارى فارا من حراجة الموقف (فبهت الذي كفر) وبذلك تقدم إبراهيم خطوات في التدليل على وجود الله .
- إن محـاجة إبراهيم بهذه الاسس يدل على أن المرحلة التي عاش فيها كانت مرحلة دقيقة بلغ فيها النقاش حول مسألة الربوبية درجة متقدمة

ومعقدة وأن حجج إبراهيم هذه كانت دليلا على تقدمه هو الآخر وأن انفتاح المجال أمامه لتقديم مثل هذه التحديات كانت بمنة الله وكرمه لا سيما بخصوص قضية الحياة والموت التي سنأتي اليها .

- إن محاجة إبراهيم بالشمس يأتي بها الله من المشرق كانت تفنيدا للعقائد التي انتهت اليها الوثنية والثنوية من ان الشمس هي كبيرة الالهة وقد أخضع إبراهيم هذه الشمس والتغييرات التي تقع لها إلى قوة أخرى تسيرها وتحركها وتحدث ما يطرأ عليها من تغييرات وقد عبر الله عن ذلك بقوله (إن ربكم الله الذي خلق السموات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين)[١٦٥] . إن ما جاء في الآية أعلاه من سورة الاعراف والآية ٢٥٨ من سورة البقرة تبين أهمية ظاهرتي النور والظلمة التي كانت سائدة في تلك الحقبة الحضارية ، وكان تتابع هاتين الظاهرتين يثير في الانسان حيرة ويبعث فيه رغبة للوقوف على ماهية هاتين الظاهرتين والقوى الفاعلة فيهما . وكما ذكرنا في الصفحات السابقة أن الثنوية توقفت عند هاتين الظاهرتين فمنحت كلا منهما قوة خاصة بها فصار هناك إله للنور وآخر للظلمة .

- إن حوار إبراهيم ومطالبته الثنويين أن تشرق الشمس من المغرب أي أن تبقى الشمس مضيئة ومشرقة ما دامت هي الاله الاقوى والاول وعدم قدرة الانسان على التحكم بها بالرغم من توسلاته اليها أن تظل مشرقة ، دليل على أن قوتها ونورها وحركتها هابطة عليها من قوة خالقة لها مسيرة ومحركة ومدبرة لامرها . إن قول الله (إن ربكم الله الذي خلق السموات ... الخ) الآية ٥٤ من سورة الاعراف تؤكد أن موضوع النور والظلمة وتتابع الليل والنهار هو من قوة الله وبارادته .

٣ - ولما كانت مسألة الحياة والموت من اكبر المسائل التي أرقت الانسان وأوقفته متحيرا أمامها فأن هذه المسألة كانت محل حوار بين إبراهيم وبين ربه وقد من الله على إبراهيم أن يرى قوته سبحانه تتمثل أمام ناظريه بتجربة مادية متحركة .

لقد أثرت ظاهرتا الحياة والموت على الانسان تأثيرا كبيرا وكانت وراء

تطور عقيدته الدينية عبر مراحلها الطويلة المعقدة وقد تساءل الانسان عنها حيثما واجه نبيا يبلغه برسالة من ربه إذ لم تمر مرحلة من مراحل الانسان المدرك إلا وتوقف طويلا عند ظاهرتى الموت والحياة وقد احتفظ القرآن الكريم بآيات كثيرة تحمل تساؤل الانسان وحيرته منها (أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شئ قدير)[١٦٦] .

إن هذا يمثل حوارا حول ظاهرة الموت والحياة يلخص معاناة الانسان الطويلة حول هذه الناحية ، إنه تعبير عن حاجة الانسان وتحسسه أهمية هذه الظاهرة وعجزه عن تفسيرها .

- وعندما جاءت الديانات السماوية مؤكدة أن الله هو الذي يحيي ويميت وأن هناك يوما لبعث الحياة في الاموات حيث الحساب فأن الانسان ابتدأ يثير أسئلة كثيرة حول ذلك .
- ويبدو أن الله سبحانه وتعالى قد أجرى تجربة على البعض من المتسائلين والمتشككين فأماته مائة عام ثم بعثه من أجل تقريب قدرة الله هذه إليه ولمس خطواتها بيديه ، وهذه التجربة تكون مؤثرة في الشخص الذي تقع عليه ومؤثرة في الاشخاص الذين يعايشون هذه التجربة وتمر وهم أحياء ينظرون إليها من بدئها حتى نهايتها وأن من تتوفر له هذه المشاهدة والتجربة تكون أعدادهم قليلة ونسبتهم ضئيلة قياسا لمجموع الناس المتسائلين عن هذه المسألة الكبيرة .

لذلك بقيت عملية الموت والحياة تثير نقاشا وتدفع الى جدال ومجابهات ومواجهات ساخنة مما حمل إبراهيم الخليل (ع) أن يتوسل الى الله أن يريه وقومه هذه الظاهرة متلاحقة في فصولها بين الحياة والموت والحياة مرة أخرى فقال (وإذ قال إبراهيم ربي أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم)[١٦٧] .

إن مجيئ هذه الآية (٢٦٠) بعد الآية السابقة لها (٢٥٩) والآية (٢٥٨) يشير الى المعاني الآتيه :

- إن إبراهيم (ع) حينما احتج في الآية (٢٥٨) وهو يقول : إن (ربي الذي يحيي ويميت) ويرد عليه المكابر بأني (أنا أحيي وأميت) فأن سكوت إبراهيم عليه فترة وتحديه بالشمس أن يأتي بها من المغرب إنما لكي يترك له فرصة التفكير بظاهرة الحياة والموت طويلا وإحضاره بعد ذلك وجمهور من الناس ليشاهدوا كيف أن الله هو الذي يحيي ويميت وأن الانسان أعجز من أن يقوم بذلك .
- إن مجيئ الآية (٢٦٠) بعد الآية (٢٥٩) المتعلقة بكيفية إحياء الموتى عبر التجربة الخاصة التي حدثت لواحد من القوم حيث أماته الله مائة عام ثم بعثه لتكون التجربة الجديدة عامة شاملة مكشوفة يراها عدد كبير لا يمكن نكرانها ولا التشكيك بها .
- إن تجربة الطيور الاربعة هي تجربة على أحياء ماتوا ثم أحيوا ثانية كانت صريحة مكشوفة تتحرك على الواقع أمام الانسان فلا يستطيع المكابر نكرانها ولا المغالطة في تفسيرها .. إنها معجزة من الله بها على نبيه إبراهيم ليستدل بها على وجوده وقدرته ووحدانيته وبذلك كانت معجزة من أكبر المعجزات التي نقلت الانسان من مرحلة الشك والحيرة والتمزق بين قطبي الثنوية الى الوحدانية المستقرة (أنظر الملاحظات التي اتينا على ذكرها حول هذه المعجزة في الصفحات السابقة) .

٤ - ومن المعجزات التي من الله سبحانه بها على نبيه ابراهيم عليه السلام أن جعل النار عليه بردا وسلاما ، وفي هذا يقول سبحانه [قالوا احرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ■ قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم ■ وأرادوا به كيدا فجعلناهم الاخسرين ■ ونجيناه ولوطا الى الارض التي باركنا فيها للعالمين][١٦٨] .

إن هذه المعجزة هي واحدة من المعجزات التي قدمها الله لنبيه إبراهيم .. إن وضعها في السياق التي جاءت فيه المعجزات السابقة تعطي المعاني الاتية :

- إنها آية عملية مكشوفة قابلة للمشاهدة ومتمثلة أمام القوم حيث أعد الكافرون هذه النار وعزموا إحراق إبراهيم فيها ..
- إن الانسان في هذه المرحلة من حدوث هذه العملية كان قد توصل الى أن

النار تحرق كل جسم حي يوضع فيها أو تقع عليه وأن فعل المكابرين كان في سبيل الانتقام من إبراهيم واصابته بعذاب الحريق وموته .

- لقد منّ الله على خليله بأن جعل تلك النار (بردا وسلاما) وبذلك فشلت مؤامرتهم وكان فشلهم هذا دافعا للسؤال عن أسباب هذه النتيجة ، فلم يستطيعوا تفسيرها الا تفسيرا واحدا ، أن هناك قوة فوق هذه النار جعلتها لا تؤثر في إبراهيم وأن هذه القوة لابد أن تكون فوق كل قوة ، ومن هنا انفتح باب لهؤلاء المعاندين للايمان بالله وبقدرته .

- إن إجراء التجربة على إبراهيم نفسه كان ذا دلالة مهمة مؤداها أن يكون إبراهيم ذاته هو ميدان هذه المعجزة وليس مادة أو جهة أخرى من أجل أن يلمس الانبياء أنفسهم كيف تتمثل إرادة الله فيهم وتدفع الاذى عنهم ليزدادوا ثقة وإيمانا وحماسا واندفاعا في مهمتهم حيث أن وقوع أحداث المعجزة على النبي نفسه يثير فيه كثيرا من التصورات ويعمق من قناعته ويؤكد له بأن الانسان هو الوسيلة والغاية من المعجزة .

- إن هذه المعجزة هي شاهد على قدرة الله على الاحياء والافناء لا سيما وقضية الموت والحياة لازالت تضغط بقوة على تفكير الانسان وتدفعه للوقوف طويلا محاولا تفسيرها ومتشبثا في التحكم بها ، فكانت هذه التجربة جوابا على السؤال .. كيف يحيي الله الموتى ؟ ورداً على ما هية الله وقدرته وكيفية تنفيذه أمر الحياة والموت .. إن دخول إبراهيم الخليل في النار واشتعالها فيه من تحته ومن فوقه ومن حوله وعدم وقوع أي أذى أو ضرر عليه كان جوابا على ذلكم التساؤل بأن الله وراء كل شئ وخالق المخلوقات جميعا والمظاهر كلها بيده ملكوت كل شئ وهو على كل شئ قدير .

- إن معجزة إبراهيم هذه تحمل ردا عمليا على الثنوية التي قالت بوجود الهين إله النور والظلمة ودفعت بأله النور درجات وجعلته إلها متحكما .. ولما عبرت الثنوية عن عبادتها للنور بتقديس النار وإقامة معابد تشعل فيها وتتقدم جموعهم لعبادتها فأن تشبث الثنوية بالنار وتقديسهم لها وعصيانهم أية دعوة موحدة ورفضهم الايمان بأله واحد وتركيزهم على أن النار معبودة (مذ كانت النار).. جاءت معجزة إبراهيم هذه لتقول لهم أن النار لاتمتلك قوة ذاتية ولاتفعل فعلها إنما أثرها وحركتها وقوتها

من قوة خارجة عنها هي التي منحتها صفات النور والحرارة وأن هذه القوة قادرة على اخمادها وتحويل آثارها الى رماد .

- إن هذه الآية العظيمة تبين أن الثنوية كانت قوية وأنها ترفع أعلامها مكابرة معاندة وان معتنقيها لم توثر فيهم المعجزات التي تتابعت على الانبياء من قبل إبراهيم والمعجزات الاخرى التي حدثت له أيضا مما دفع هذه الآية أن توضع على خشبة التحدي والمجابهة من أجل إقناع أولئك المتشبثين بأله النور وقوة النار ، ومما يؤكد أن التمسك بأله النور وقوة الشمس والمظاهر المعبرة عن ذلك كان قويا ، قوله تعالى [إن ربكم الله الذي خلق السموات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين](١٦٩) .. حيث في هذه الآية الكريمة تأكيد من عند الله بأن تتابع الليل والنهار - الظلمة والنور ، ما يصدر عن الشمس والقمر والنجوم كله من عند الله ، وإذا كانت حركة الشمس والنجوم والقمر وترافق حدوث الليل والنهار صار حركة مألوفة لاتثيره الانتباه وقد استكان الانسان اليها واعتبرها ظواهر اعتيادية لاستمرار تكرارها فأن معجزة النار التي أحاطت بابراهيم كانت هزة قوية للانسان لدفع النار عن موقعها والنور عن سلطانه وفتح مجالات التفكير بالقوة المسيرة الخالقة لهذه الظواهر ولسائر حركاتها وآثارها .

٥ - ومن الآيات المعجزة في حياة إبراهيم عليه السلام أن الله سبحانه من عليه بغلام وأراه في المنام رؤيا يطلب فيها تعالى أن يذبح ولده ، وقد جاءت هذه القصة في سورة الصافات [فبشرناه بغلام حليم ■ فلما بلغ معه السعي قال يا بني اني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ■ فلما أسلما وتلّه للجبين ■ وناديناه أن يا إبراهيم ■ قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين ■ إن هذا لهو البلاء المبين ■ وفديناه بذبح عظيم ■ وتركنا عليه في الآخرين ■ سلام على إبراهيم ■ كذلك نجزي المحسنين](١٧٠) .

إن وقفة عند معجزة الفداء حيث أمر الله نبيه إبراهيم بذبح ولده إسماعيل تعطي الدلالات الآتية :

- أن هذه المعجزة جاءت عبر رؤيا رآها إبراهيم عليه السلام حيث رأى أنه يذبح ولده إسماعيل فاعتبرها أمرا صادرا من الله حيث أن الرؤيا هي درجة من درجات الوحي ووسيلة من وسائل الاتصال بينه سبحانه وبين أنبيائه .
- إن هذه المعجزة وأبعادها وقعت في الجهة المباشرة في الانسان الذي يتحمل شرف النبوة وليس في مظاهر أخرى خارجة عنه ، ولهذا فأن لها معان أساسية أبرزها أن تكون المعجـزة لاقناع النبي ذاتـه وإقناع المحيطين به وقيام علاقة جدلية بين المعجزة وعلتها الاولى وميدانها من أجل تفاعل هذه الاجزاء مع بعضها والوصول بـالانسان الى درجـة القناعة المادية والعقلية التامة .
- إن مطالبة إبراهيم عليه السلام ذبح ولده دون أن يوضح أسباب ذلك وبدون جريمة واضحة سبق لاسماعيل ارتكـابها إنمـا هو إمتحـان لابراهيم عليه السلام ، صعب .. إن هذه المطالبة تدريب للانسان على التضحية بأعز ما يملك ، إنها درس في الفداء في سبيل المبدأ والعقيدة وأن تنفيذ إبراهيم لها كان إعلانا منه عن إيمانه بالله وتمسكه بأوامره وإطاعته المطلقة له سبحانه .
- إن هذه المعجزة لم تكن معجزة خارج مشاعر الانسان وعاطفته وليست قائمة في بعدناء عنه وعبر مظاهر خارجية ، إنها مجابهة لعاطفة الحياة وعاطفة الابوة وأنها تعبر في حالة تنفيذها عن أعلى درجات الايمان بالله حيث أن تنفيذها هو معارضة لطبيعة الانسان ومجافاة لكل مقومات المنطق والغريزة فيه فلا يمكن قيامها الا من قبل إنسان يؤمن بالله إيمانا عاليا ويدرك قوته وهيمنته في الابقاء على حياته أو انهائها بلحظة وهذه أعلى درجات الايمان التي يجب أن تتمثل في الانبياء.
- إن هذه المعجزة تتصل بظاهرة الحياة والموت اتصالا مباشرا، فعلى الرغم من تجربة الطيور الاربعة التي ذكرناه فأن هذه الظاهرة كانت تلح على الانسان وكان سبحانه يرى حيرته فيها وتساؤله عنها فكان يقدم هذه الآية أو تلك توضيحا لها .. إن تنفيذ إبراهيم للرؤيا إنما هو نتيجة لايمانه العميق وإدراكه بأن الحياة والمـوت من عند الله وأنـه سبحانه قادر على موت ولده في أية لحظة يشاء فعليه أن ينفذ أوامره تدليلا على طاعته وإيمانه خيرا له من المخالفة وإيقاع الاذى عليه وتنفيذ

أمر الذبح أو الحرق أو الموت لابنه حيثما يريد سبحانه وتعالى .

- إن معجزات إبراهيم تدور حول مسألتين رئيسيتين الاولى ظاهرة الحياة والموت والاخرى ظاهرتا النور والظلمة ، وقد جاءت آياته تعالى لتبرهن بالتجربة والدليل والمشاهدة بأن الحياة الموت من عنده تعالى وتتابع النور والظلمة بقدرته ومشيئته .. وبذلك دفع إبراهيم الخليل بمعجزات الله له فكر الانسان صوب الوحدانية وكانت حياته وآياته مرحلة متقدمة في سلم الحضارة وتركيزا وتثبيتا لمبدأ الوحدانية .

معجزة يوسف عليه السلام :

إن معجزة يوسف عليه السلام من المعجزات التي تمثلت في شخصية يوسف نفسه وعبر حياته المباشرة ، في علاقته مع اخوته وأبيه وعـلاقته بـزوجة العزيز .

إن الجانب الاول من هذه المعجزة المتعلق بغدر أخوته وإلقائه في غيابة الجب وإنقاذه منها ومن ثم تقدمه ووصوله إلى درجة عالية ، وفي الطرف المقابل خسارة اخوته لفعلتهم الشنعاء وحزن أبيه وإصابته بالعمى ورجوع البصر إليه بعد أن استنشق ريح ولده .

لقد عبر القرآن الكريم عن هذا الجانب من المعجزة بقوله [لقد كان في يوسف وأخوته آيات للسائلين ■ إذ قالوا ليوسف وأخوه احب الى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين ■ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين ■ قـال قائـل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ■ قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ■ إرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ■ قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وانتم عنه غافلون ■ قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنـا إذن لخاسرون ■ فلما ذهبوا به واجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون][١٧١] .

إن دلائل الاعجاز في هذا الجانب من حياة يوسف وأبيه يتمثل في النقاط الآتية :

- إن عمل أخوة يوسف به هو إقرار من عند الله على أن الانسان كان ولا زال وسوف يبقى يحمل في داخله نزعة الخير ونزعة الشر وأنه منذ خلق على هذه الارض وسيظل يحمل هاتين النزعتين وأن ذكر قصة هابيل وقابيل في القرآن الكريم دليل على تقابل هاتين النزعتين وصراعهما وأن الله سبحانه وتعالى خلق الانسان على هذه الشاكلة وقرر منذ البدء تكوينه عليها حيث أجاب ملائكته وهم يحتجون عليه لاختياره الانسان خليفة له على الارض بقوله [وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون][١٧٢] .. في هذه الآية الكريمة تصريح من عنده تعالى بأن حياة الانسان على الارض ستكون فسادا وسفك دماء كما ستكون نبوة وهدى وبناء فليس عجبا أن يتآمر أخوة يوسف عليه .
- إن الله سبحانه قد هيأ ليوسف سيارة تقف عند الجب الذي دفع إليه ولولا قدرته لما تهيأ ذلك ولمات يوسف جوعا ، وقد يرد البعض بأن وقوف تلك السيارة كان مصادفة وأن وجود بئر ماء على طريق الراحلة لابد أن يدفع ببعض أو كل من ينتقل عبر المنطقة أن يتوقف للتزود من ماء البئر وقياسا على مقولة المصادفة فقد يصادف الا تمر قافلة ليوم أو بعض يوم أو لايام فيهلك الرجل جوعا ورعبا ، وقد (يصادف) أن تكون في البئر حية فتأتي على حياته وقد يكون فيها عقارب وآفات اخرى لا تبقى عليه ، ان مرور السيارة وتوقفها كان بأمر الله ونفحة من نفحاته ، حيث ان تتابع الاحداث ونتائجها تشير الى رحمته في قصة يوسف عليه السلام وفي مصيره .
- إن حزن أبيه عليه كان عظيما بالرغم من ان أباه كان نبيا مما يشير الى أن الانبياء بشر يصيبهم ما يصيب البشر من حزن وسعادة وأن الحزن الذي أصابه قد افقده بصره مما يبين عمق وسعة ذلكم المصاب الذي حل فيه .. إن ما أصاب يعقوب من جراء فقدان ولده يعبر عن نزعة الابوة وعاطفتها القوية التي هي وراء حياة الانسان وتحمله مسؤولية حمل أبنائه وتربيتهم وإعدادهم ، ومن هنا يتبين عظمة موقف النبي

إبراهيم عليه السلام عندما استجاب لامر الله فراح ينفذ ذلك بذبح ولده اسماعيل .

- لقد أكل الحزن عينى أبيه يعقوب وهدّ قواه وظل يحن الى عودته ويتمنى رؤيته ، وبعد زمن يرسل يوسف قميصه مع أخوته فيشم به ريح ابنه فيرتد إليه بصره ، وقد حفظ لنا القرآن الكريم هذه الواقعة بقوله [إذهبوا بقميصي هذا فالقوه على وجه أبي يأت بصيرا وائتوني بأهلكم أجمعين ■ ولما فصلت العير قال أبوهم إني لاجد ريح يوسف لولا أن تفندون ■ قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم ■ فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم اني أعلم من الله ما لا تعلمون][١٧٣] .

إن هذه المعجزة مثيرة من الله بها على يوسف وأبيه ، أراد بها سبحانه أن يبرهن للقوم المكابرين أنه قادر على كل شئ ، إن الحزن الذي ذهب ببصر يعقوب لم يقو يعقوب على إرجاعه كما لم يستطع الطب آنذاك على إرجاعه كما أن كل محاولات الآخرين لارجاعه باءت بالفشل وعندما أراد الله جعل من قميص يوسف وريحه قوة أعادت له بصره .. إن سياق هذه المعجزة في وسط قصة يوسف يشير الى أن الله أمسك بالانسان مرة أخرى وهزه هزات عنيفة لكي يذكره بقدرته وسحبه من دائرة الشرك والعناد الى دائرة الوحدانية فكانت ريح يوسف آية في ذلك .

- إن إنقاذ يوسف من غيابة الجب وصعوده درجات في الرزق وفي المسؤولية وعودة البصر الى أبيه ولقاءه مع أخوته ، ومن ثم اجتماعهم سوية بأبيهم يبين أن إخلاص الانسان وإيمانه وصبره وعمله الصالح له أجره في الدنيا وفي الآخرة ، وأن حياة يوسف وأبيه كانت مثلا لحياة الانبياء المؤمنين الصادقين فهي قدوة وأسوة حسنة .

.... أما معجزة يوسف الكبرى فكانت في قصته مع زوجة العزيز وقد حفظ الله لنا أخبارها جلية متتالية متتابعة في قوله :

[وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته اكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وكذلك مكنا ليوسف في الارض ولنعلمه من تأويل الاحاديث والله غالب على أمره ولكن اكثر الناس لايعلمون ■ ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين ■ وراودته التي هو في بيتها عن

نفسه وغلقت الابواب وقالت هيت لك قال معـاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون ■ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين ■ واستبق الباب وقدّت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً الا أن يسجن أو عذاب أليم][١٧٤] .

هذه هي معجزة يوسف الرئيسية ، إمرأة جميلة غنية زوجة العزيز تراوده عن نفسه ، تهئ كل مستلزمات الاثارة وإنجاح المراودة .. تغلق الابواب ، تخلي الدار من ساكنيها ، تبقى لوحدها تنتظر يوسف حتى (يبلغ) أشده ، تتقدم إليه تغريه بكل وسائل الاغراء المتمكنة منها تمسك بتلابيبه ، يتعوذ بالله من شرها ، يفر من شراكها ، تقد ثوبه من دبر ، يتذكر فضل الله عليه ورحمته به ، يستعين بسلطانه سبحانه لحمايته من غوايتها ، تواصل مكرها ، تطبق عليه من كل زاوية ، يقف حائرا يرى نفسه قاب قـوسين أو أدنى من الزلل في حبائلها (فقد همت به وهم بها) يرى برهان ربه ، يصمد نقيا مبرءا من سوءتها .

في هذه المعجزة دلالات كثيرة وعبر عظيمة منها :

- أن في سجل الانسان صفحات كثيرة مكتوبة بأقلام شتى توضح أن (ما اجتمع رجل وامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما) .. كان ذلك في قصـة الانسان وهو نبي ، وفي حياته وهو خليفة الله على الارض ، حيث تحمل حياة الانسان قصصا وصورا عن ذلك بحيث صار لقاء الرجل مع المرأة والمرأة مع الرجل مسألة وراء بقاء حياته وديمومة وجوده وتقدمه . وقد جاءت الحضارات والديانات لتنسيق هذه العلاقة ووضعها في حدودها المناسبة .
- إن صمود يوسف الصديق عليه السلام في وجه امـرأة العزيـز كان صمودا فوق طاقة الانسان وأعلى من إرادته ولولا فضل الله لما استطاع يوسف الخروج من هذه المحاصرة وأن نجاته كانت دليلا على وجود إرادة فوق إرادته وقوة محركة أعلى من قوته هي التي أنقذته .

إن ترتيب هذه القصة يبين أن الانسان وهو في مكـانة يـوسف (ع) ومنزلته لا يقوى ذاتيا على مغالبة غريزته وأنـه مضطر الى اشبـاعها

تحقيقا لآدميته وتسليما بأنه يحمل في داخله نزعات تدفع الى الخطأ كما تحمل نزعات خيرة .

- إن الله أراد بهذه الحادثة وضع الانسان في مكانه فبعد أن ميزه من سائر خلقه بالعقل والنطق فأنه أبقاه مشدودا الى غرائزه وأبقى هذه الغرائز قوية مؤثرة عليه وترك ساحة النزاع واسعة بين عقله وإرادته من جهة وهذه الغرائز من جهة ثانية .
- إن قصة يوسف (ع) كانت عبرة أراد الله بها توضيح حقائق وصفات عن الانسان منها أن الانسان على الرغم من إكرامه وجعل النبوة فيه لم يستطع وهو في أعلى الدرجات وأهمها إيمانا ووعيا أن يتغلب على غريزة واحدة من غرائزه فعلى الرغم من عظمة العقل ودوره في الوعي والادراك والتمييز بين الشر والخير والنافع والضار فأنه لا يستطيع التغلب على إغراء غاوية ولا مقاومة غريزة بوهيمية قائمة في ذاته ، مما يدل على أن الانسان مخلوق من قبل قوة أكبر منه خلقته على هذه الصفات ليظل واحدا من مخلوقاته مشدودا من رقبته برباط ممتد من السماء الى الارض يحركه سبحانه عندما يريد ويطلقه ليدور على نفسه وفي اتجاهات مختلفة ومن حوله قوى ومؤثرات تواجه حركته وتغير من اتجاهها .
- إن حركة الاحداث في هذه الحكمة الربانية توضح قوة الغريزة الجنسية في الانسان وأنها أقوى الدوافع التي تحمله للسقوط في بؤرة المنكر وفي ارتكاب الآثام وأن هذه الغريزة وأمثالها القائمة في الانسان وراء حركته صوب ما تدفع إليه وتدعو له بحيث يجد الانسان نفسه محمولة على يد عفريت مدفوعة بقوة هائلة تفتش عن مواطن تشبع الغريزة فيها نهمها وتسد رمقها وتطفئ ظمأها وهذه الدوافع تقابلها قوى خيرة تقف في وجهها ترد غلواءها تقاوم اندفاعها وبين هذه القوى وتلك الدوافع معركة دائمة ، هذه المعركة هي معركة الخير والشر الظلم والعدل وأن سلطان القوى الخيرة هو العقل والايمان وأن قوى الغرائز ودوافعها هي مستوطن الشيطان وأن هذا ليس له وجود إلا فيها يتحرك عبرها يتولد في رحمهايخرج شاهرا خنجر الغواية والزلل مواصلا دفعه وإسقاط الانسان في حومة الخطأ وإشعاله في اتون الغواية وأسوائها ، ويتحدث سبحانه وتعالى عن حركة الشيطان هذه داخل الانسان

ضاغطا عليه مسقطا إياه في دائرة السوء بقوله :

[يأيها الذين امنوا لاتتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فأنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكىٰ منكم من احد أبدا ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم][١٧٥].

- إن معجزة يوسف موضوع البحث تؤكد علىٰ ثنائية الحياة ، هذه الثنائية التي هي (قانون الحياة الابدي) حيث كل شئ يحمل نقيضه ولاشئ علىٰ هذه الارض حيا إلا ويحمل هذه الثنائية.. بهذه الثنائية فضل الله الانسان علىٰ الملائكة وبها كانت دورة الحياة منذ ان نفخ فيها الله حتىٰ يومنا هذا ،والانسان باق علىٰ حياته بهذه الثنائية نصفه يعمل للخير ونصف آخر يدعو للشر.. الخير ينبع من الشر او هو رفض له، والشر نقيض للخير وهو في صراع معه وان تغلب الخير يضع الانسان في الطريق الاقرب الىٰ الامان والتقدم والعطاء وتغلب الشر يجره الىٰ حضيض التخلف والعدوان.

- إن التغيرات في موقف يوسف التي عبرت عنها الآيات الكريمة تؤكد هذه الثنائية فهو يصمد بوجه إغراءات زوج العزيز بقواه الخيرة بعقله وإرادته وإيمانه وتذكره لنعم الله عليه وهو في ذات الوقت يعاني من ضغط دوافع الشر وضغوط الغريزة التي يمشي بين جدرانها الشيطان يدفع الىٰ ارتكاب الجريمة فكان يوسف عليه السلام يشاهد خطوات الشيطان تتحرك قوية فكان يستجير بالله ويتوسل إليه أن يصرف عنه السوء والفحشاء وعندما هدد الصديق عليه السلام من قبل إمرأة العزيز بأنها ستدفع به للسجن إن لم يستجب لرغبتها راح يستجدي رحمة الله ومنته مرددا (قال ربي السجن أحب إلى مما يدعوني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين)[١٧٦] .. إن حوار يوسف هذا يدل بصراحة ووضوح أنه عليه السلام كان يحس بأنه غير قادر على المقاومة وأنه يدعو ربه أن يصرف عنه كيدهن والا فسوف يصبو إليهن ويكون من الجاهلين .. هذه الآية الكريمة تبين حالة الانقسام في داخل كل إنسان حتى ولو كان نبيا وإقرار من نبي صديق بأنه غير قادر على المجابهة والمطاولة حيث أن دوافع الغواية أقوى من عوامل الارادة والخير ولا سيما دوافع وحوافز الغريزة الجنسية .

- وفي أبعاد هذه القصة عبرة شاملة أخرى ، أن الانسان سواء أكان

رجلا أم إمرأة وسواء أكان هذا الرجل نبيا أو غير نبي .. غنيا أو فقيرا .. ملكا أو عبدا ، ينقسم هذا التقسيم الثنائي والمرأة كالرجل في هذا الميدان تحمل في داخلها هذا التناقض وذاك الصراع بين قوى الخير وحوافز الشر فعندما انتشر خبر إمرأة العزيز راح نسوة المدينة يتحدثن عن قصتها وأخبارها ويشعن الفاحشة عنها ، وعندما علمت بحديثهن عملت على الانتقام منهن فأحضرت يوسف فـأذا كلٌّ منهن تسقط فريسة غوايتها وتتهاوى مسحورة بجماله وسلطانه والقرآن الكريم يجمع هذا الجانب من قصة يوسف بقوله [وقال نسوة في المدينة إمرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها في ضلال مبين ■ فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن واعتدت لهن متكأ وأتت كل واحدة منهن سكينا وقالت أخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم ■ قالت فذلكن الذي لمتتني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين][١٧٧] ..

مما يؤكد أن هذه الازدواجية قائمة في كل النسوة كما هي في كل الرجال فعلى الرغم من موقف نسوة المدينة وتعريضهن بامرأة العزيز فانهن سقطن بذات الشرك الذي سقطت به وكانت دوافع الغريزة وطغيانها قد تغلبت على قوى الخير وحالة الاستنكار التي كانت قائمة في حديثهن ، فعندما قامت عوامل الاغراء وانتشرت معالم الغواية وتحرك شيطان الغريزة أسقط من أمامه قوى الخير والايمان والارادة ، هذا على الرغم من أن النسوة تذكرن الله حينما رددن (وقلن حاش لله ماهذا بشرا) مما يبين أن هذا التذكر لله لم يستطع أن يقف حائلا دون سقوطهن .. إن حوافز الغريزة وسلطانها هو الشيطان الذي برز متساوقا مع خروج يوسف فكان أن أكبرنه وقطعن أيديهن ، هذا التقطيع كان نتيجة الذهول الذي أصابهن وزعزعة مكان العقل وابتعاده عن مستقره وحلول عنفوان الغريزة وطيشها بدلا عنه ..

- إن ثنائية الخير والشر في الانسان العقل والغريزة الايمان والفسق التقى والغواية الظلم والعدل هي حقيقة الانسان ومركز ديمومته وأن

الثنائية بين الرجل والمرأة هي الثناية العامة في واحد من مخلوقات الله وأن في كل طرف من هذه الثنائية أي (الرجل والمرأة) ثنائية أخرى حيث في كل منهما توزيع آخر بين قوى الخير والشر وأن في قوة الشر المتعلقة بالغريزة الجنسية هناك قوتان متقابلتان واحدة في الرجل وأخرى في المرأة ، كل منهما يغوي الآخر ويؤثر في الثاني في عملية تبادل في الاثر والتأثير بصورة دائمة وعليه فأن في هذا الجانب من حوافز الغريزة ، شيطانان واحد في المرأة وآخر في الرجل وأن كلا منهما يلاحق الآخر ويطارده والى جانب هذين الشيطانين قوى العقل والارادة وهذه القوى موزعة في الرجل والمرأة وهي في صراع دائم مع قوة الشيطانين السابقين . ولهذا نجد في الآية الكريمة (٢١) من سورة النور أنها جاءت بلفظة الشيطان مرتين مما يشير إلى وجود هاتين القوتين الداعيتين للفحشاء والمنكر في كل من الرجل والمرأة .. يقول جلت قدرته [ياإيها الذين آمنوا لاتتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فأنه يأمر بالفحشاء والمنكر ...][١٧٨] .

- مما جاء أعلاه يتبين أن مصدر الاعجاز في قصة يوسف عليه السلام هو في حالة التناقض القائمة داخل الذات الواحدة وأن الانسان على الرغم من قواه العقلية وإرادته لا يستطيع التحكم في هذا التناقض لانه تناقض حي فاعل مستمر يصح أن نسميه بالتناقض الجدلي الدائم . وأن هذا التعارض لايمكن التحكم به وتغليب جانب على الجانب الآخر بصورة دائمة ومطلقة إنما هناك عملية تبادل مستمرة بين قطبي هذا التناقض ، ومما يزيد المسألة تعقيدا وإعجازا أن هذه هي حقيقة الانسان وستبقى سواء أكان هذا الانسان نبيا أم إنسانا اعتياديا . ولما كان* موضوع الغواية الجنسية هو حصيلة غوايتين واحدة في الرجل وأخرى في المرأة فأن الحصيلة هذه كبيرة هائلة تفوق قوى العقل والارادة في كل من الرجل والمرأة .. إن قوة الغواية الجنسية متأتية من قوة كل منهما الذاتية مضافا إليها أن هاتين القوتين متعارضتين في الاساس وفي الوسيلة وفي الغاية ولهذا فأن تعارضهما يخلق قوة مضاعفة تزيد على قوة العقل في كل منهما وحتى في حالة اجتماعهما ، لأن حالة العقل وقوته في المرأة والرجل حالة ايجابية وأن هذه الحالة الايجابية لاتقيم تفاعلا بينهما بحيث تظل قوة كل منهما في حدود

عناصرها وقواها الذاتية ومن هنا تتغلب قوى الغريـزة عند الـرجل والمرأة لأن طبيعة كل منها متعارضة مع الأخرى .

إن هذا التناقض بين غريزة الرجل والمرأة يخلق حالة من التفاعل بينهما تسفر عنه قوّة هائلة تتحدى قوى العقل والارادة فيهما وتزعزعها عن مواقعها ...

إن هذا التعارض بين الغريزتين كان أساس التفاعل بينهما ومن هذا التفاعل كانت دورة الحياة في الاحياء كافة والانسان على رأسها .

إن حياة الانسان وحركته قائمة على أسس وعوامل كثيرة أبرزها حالة التناقض بين الرجل والمرأة بصورة عامة حيث أن تركيب كل منهمـا . يختلف عن الآخر اذ أن كل غريزة أو صفة لها تكوينها وتركيبها المتباين مع تكوين وتركيب الطرف الآخر بحيث أن كلا من الرجل والمرأة يؤلف وحدة سلبية أو إيجابية ، فعندما تكون خاصية معينة سلبية في الرجل فذاتها إيجابية في المرأة والعكس صحيح وهذه الحالة المتعارضة تكون في تركيب الرجل قياسا الى تركيب المرأة والخاصية التي تحمل بعداً إيجابيا عند الطرفين هي خاصية العقل والادراك والصفة التي تحمل تناقضا حادا هي الغريزة الجنسية ، ولما كانت هذه الغريزة قوية في كل منهما وتعتبر من أقوى الغرائز بحيث لاتزيد عليها قوة أية غريزة أخرى وأن ذلك التنافر بينهما يدفع كلاً منهما الى الاقتراب من الآخر وبذلك يقع التفاعل فيما بينهما بصورة مستمرة ، ومن هنا كان هذا التناقض وراء ديمومة الفاعلية في الانسان واستمرار الحياة نتيجة لهذه الجدلية القائمة بين قطبي الغريزتين .

إن قوة الدفع والجذب بين الغريزتين قوية وأن تفاعلهما يولد طاقة هائلة أقوى من قوة العقل وإرادته حيث أن قوة العقل في الرجل والمرأة قوة إيجابية ذات خصائص متشابهة في التكوين والتوجه والحركة وتجتمع القوتان مع بعضها اجتماعا ميكانيكيا يشبه عملية الجمع بين واحد الى آخر فتكون النتيجة اثنين كلا منهما يحمل مواصفاته وزخما مساويا لقوته وزخمه قبل اجتماعه مع الجانب الآخر في حين أن لقاء الغريزتين لقاء حيا جدليا تتولد منه قوة عظيمة تزيد عن قوة الغريزتين مجتمعتين بعشرات المرات ولهذا نجد أن نداء العقل الـذي يصدر عن الـرجل والمرأة يبقى يتعالى صراخا على الرغم من تـذكيره بـاللعنة والعقـاب

والخزي والسفه ، الا أن هذا الصراخ يظل صيحة في واد تتبدد صدى تعصف به زوبعة هوجاء .

وعندما تصل قوى الجذب والدفع بين قطبي الغريزة عند الرجل والمرأة غايتها تبدأ حالة من الانحسار يتبعها انفصال مؤقت يعود كل منهما الى مكانه فيبدأ سلطان العقل يشن حربا شعواء يلوم ويهدد ويتوعد ويتعهد بأنه سوف لا ولن يسمح لهذا الشيطان الرابض هنا في الغريزة الجنسية والجاثم هناك أن يتحرك ويكرر فعلتهما (السيئة) ، إلا أن سلطان العقل هذا لا يلبث أن ينسحب تدريجيا ويتوارى في زاوية حيث يبدأ قطبا الغريزتين في الرجل والمرأة الحركة صوب بعضهما فتبدأ حالة جديدة من حالات الفعل والتأثير تعصف بصولجان العقل وتدفع به ليتروى ثانية في زاوية بعيدة عن الفعل والتأثير .

إن قانون الحياة في هذا التناقض ، في ديمومة اللقاء المتفاعل بين المتناقضات ولولا ذلك لما ظهرت الاحياء على وجه هذه الارض .. إن قوة ضغط هذا التناقض بين الرجل والمرأة وراء استمرار وجود الانسان على الارض ولولا ذلك لتوقفت عملية الخلق والولادة وبقى كل في مكانه وعندما تنتهي حياته تكون النهاية .. وعليه فان مواجهة هذا التناقض بهذه الصورة الدقيقة والصريحة يشكل مدخلا لسبر هذه الظاهرة والوقوف على أبعادها ومن هنا تبرز قصة يوسف عليه السلام في حكايته مع زوجة العزيز معجزة لم تكن لولا فضل الله عليه ومنته .

إن يوسف الصديق عليه السلام اعترف بقوة فعل هذه الغريزة عليه وأعلن بأنه لا يستطيع مقاومتها لوحده وراح يتوسل الى الله أن يعينه على الانتصار عليها فكان يردد « ... والا تصرف عني كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين» وأن الله سبحانه وتعالى يعلن إقراره بقوة هذه الغريزة وضعف العقل والايمان في الحيلولة دون سطوتها عندما يبين أن يوسف الصديق كاد أن يسقط في حبائلها عندما يصفه قائلا (وهمت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) ..

ويوضح الله سبحانه في آيات أخرى سلطان الغريزة الجنسية على المرأة وان قوة هذه الغريزة أقوى من زمام عقلها وإرادتها ، ليست هذه القوة على المرأة فحسب إنما على الرجل والمرأة على حد سواء إذ يقرر سبحانه ذلك في قوله (يايها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع

خطوات الشيطان فأنه يأمر بالفحشاء والمنكر .. ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد ولكن الله يزكى من يشـاء والله سميع عليم) . هذه التزكية من الله جاءت بعد تقريره سبحانه بأن الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر وبعد تأكيده بأن كل إنسان معرض للسقوط في شراك هذا الشيطان ـ لولا فضل الله عليكم ورحمته ـ إذن هذا الفضل من الله والرحمة هي التي دفعت شر الشيطان وغوايته ولولاه سبحانه لسقط كل في ذلكم الفخ المنصوب في الانسان وعليه ..

- ومن هنا تكون معجزة يوسف هي في تزكية الله لـه من فعل شيطـانه وشيطانها وهذه التزكية هي التي انقذته ولولاها لما استطاع الخلاص منها ، ولما كانت عملية السقوط معدة لكل إنسان فأن نجاة يوسف منها كان إعلانا عن وجود الله ورحمته في إنقاذه .
- والدلالة الاخرى التي تثيرها هذه المعجزة آن الله سبحانه جعل واحدا من أحب أنبيائه مسرحا لها ، ذلك في سبيل أن يبين أهميتها وقوتها من أجل توجيه الانظار إليها وحمل الانسان التفكير بها والوقوف عندها لدراستها وسبر أعماقها ، إن قيامها تجربة حية متلاحقة في حياة نبي كان من أجل أن لا يمر الانسان عليها مرورا سريعا ولا ينظر إليها نظرة عابرة ولا يتوارى عن ذكرها والحديث بخصـوصها خجـلا حيث أن الانسان كان وما زال واقعا تحت طائلة هذه الغريزة ولكنه يغالط دوما وينكر قوتها وتأثيرها البالغ على حياته ويسعى الى إظهار قوتها باهتة متوارية خلف حجب من الحياء والرياء والخديعة فكانت قصة يوسف عليـه السلام كشفـا عن طبيعة الانسـان وحقيقته بخصـوص هـذه الغريزة ، ولما كان يوسف النبي على هذه الصورة فذلك إقرار بأنها على هذه القوة وهذا التأثير في كل انسان مما يستوجب مواجهتها إنطلاقا من حقيقتها وقوتها وتأثيرها ، وعليه فأن هذه المعجزة تشـير إلى أن القرآن الكريم وقصص الانبياء من قبله قد أقرت واعترفت بقوة الغريزة في حياة الانسان وأثر العامل الجنسي في حياته وفي الحياة العامة . وإذا ما تذكرنا بأن معجزات الانبياء كانت جوابا على مشكلة الحياة والموت والنور والظلمة فأن معجزة يوسف هذه وتخصيص معظم آيات سورة كبيرة من سورة القرآن الكريم يدل على أن هذه المعجزة تقف على قدم المساواة مع المعجزات المتعلقة بالحياة والموت وهي في الحقيقة معجزة

أكبر من تلك المعجزات لانها تفسر وتوضح كيف تقوم (معجزة الحياة) حيث أن لا حياة إلا بتفاعل قطبي الغريزتين المتناقضتين عند الذكر والأنثى في الرجل والمرأة بالنسبة للانسان إذ لولا هذا التناقض بين تركيب تانيك الغريزتين لما كانت الحياة ولما تتابعت حركتها متصاعدة .. ولهذا استحقت أن تكون حركتها وأبعاد قوتها وتأثيرها معجزة تتمثل أحداثها في حياة نبي وفي ذلك تصريح بأن كل إنسان نبيا كان أو غير نبي معرض لمواجهتها والسقوط تحت طغيانها .. ومن هنا فأن دراسة الغريزة الجنسية والوقوف على تأثيراتها مسألة مهمة لانها هي القوة الكبيرة التي تقف بوجه العقل والارادة وتشكل حالة الصراع العنيف بين القوى الدافعة للشر والقوى الواقفة بوجهه والمحفزة لعمل الخير ... ويبين الزمخشري أثر الغريزة في قصة يوسف عليه السلام حيث يقول (... فأن قلت كيف جاز على نبي أن يكون منه «هم» بالمعصية وقصد إليها قلت : المراد أن نفسه مالت الى المخالطة ونازعت إليها عن شهوة الشباب وقرمه ميلا يشبه الهم به والقصد إليه ... ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى هما لشدته لما كان صاحبه ممدوحا عند الله بالامتناع لان استعظام الصبر على الابتلاء على حسب عظم الابتلاء وشدته)(١٧٩) .

ويعلق سيد قطب على موقف يوسف الصديق عليه السلام بقوله : (ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ـ هو نهاية موقف طويل من الاغراء بعدما أبى يوسف في أول الامر واستعصم ، وهو تصوير واقعي صادق لحالة النفس البشرية الصالحة في المقاومة والضعف ثم الاعتصام بالله في النهاية والنجاة ... فذكر طرفي الموقف بين الاعتصام في أوله والاعتصام في نهايته مع الالمام بلحظة الضعف بينهما ليكتمل الصدق والواقعية .. وهو أقرب الى الطبيعة البشرية والى العصمة النبوية ، وما كان يوسف سوى بشر ، نعم إنه بشر مختار . ومن ثم لم يتجاوز همه الميل النفسي في لحظة من اللحظات فلما أن رأى برهان ربه الذي نبض في ضميره وقلبه بعد لحظة الضعف الطارئه عاد الى الاعتصام والتأبي)(١٨٠) .

معجزات موسى عليه السلام :

إن معجزات النبي موسى عليه السلام كثيرة وفي مجالات متعددة مما يشير الى أن الانسان بلغ مرحلة متقدمة في أيام النبي موسى عليه السلام .

إن كثرة الانبياء في الفترة التي تلت نبوة إبراهيم عليه السلام والتي تمثلت معظمها في بلاد الشام تبين أن هـذه المنطقة وصلت درجـة متطورة في مضمـار الحضارة ، كما أن كثرة الانبياء واقتران المعجزات بعدد منهم دليل على التناقض العنيف بين درجة الايمان وحالة الكفر ، وأن هذا التعارض إشارة صريحة إلى حدة التناقض من جهة والى التطور الكبير في مدارك الانسان ومعارفه بحيث أخذ يلح على أنبيائه أن يتقدموا بآيات تدلل على وجود الله ووحدانيته فكانت التحديات مستمرة والمعجزات متوالية وبقي هذا التنافر بين الحالتين قويا ومستمرا .

إن عدداً من الانبياء ظهر في بني إسرائيل ، وكان ذلك نعمة من الله أنعم بها على أنبيائه وحملهم مهمة هدايتهم وخاطب الله سبحانه بني إسرائيل بقوله (يابني إسرائيل أذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وإني فضلتكم على العالمين)[١٨١] .

إن هذا التفضيل لبني إسرائيل لم يكن بالصفة النوعية لهم كمجموعة من البشر حيث أن الله خلق الانسان وخصه بخصائص مشتركة وجعله وحدة نوعية متساوية من حيث الخلق والتكوين والخلقة والصورة .. وعليه فأن التفضيل الوارد في الآية الكريمة إنما هو في ظهور عـدد من الأنبياء من بينهم وتحميلهم شـرف رسالاته . فالتفضيل هو للانبياء أولا وللقوم الذين أرسلوا اليهم وهؤلاء يستحقون الفضل ويقاسمون النبي به عندما يؤمنون برسالته ويعملون على نشرها والدفاع عنها وإلا فأن هذا الفضل ينسحب عنهم ويظل فضلا خاصا بالنبي دونهم .

لقد منّ الله على بني إسرائيل بعدد من الرسل والانبياء إلا أنهم لم يسارعوا للايمان بهم ووقفوا منهم مواقف العناد والرفض ممـا جر عليهم الحكم بـالكفر والعناد واللعنة حيث قال تعالى فيهم (سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فأن الله شديد العقاب)[١٨٢] .

في هذه الآية الكريمة نقد صريح لبني اسرائيل لأنهم رفضوا آيات بينات

وبدلوا نعمة الله وكرمه فاستحقوا عقاباً شديداً ، وعندما قدم الانبياء آياتهم معجزات ظل اكثرهم على عنادهم وعلى عبادتهم الوثنية ، فراحوا الى العجل يصنعونه من الذهب ويقيمونه إلهاً في معابدهم ، فقال سبحانه فيهم [واذ قال موسى لقومه يا قوم انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم انه هو التواب الرحيم][١٨٣] .

ولم تجد معجزات موسى التي من الله بها عليه في حملهم على الايمان ومشاركته في حمل الرسالة ونشرها والجهاد في سبيلها ورد المنكر القائم في وجهها مما حمل الله سبحانه أن يسجل عليهم لعنته حيث قال (لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ■ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون][١٨٤] .

مما جاء أعلاه يتضح معنى تفضيل الله لبني إسرائيل أنه كان في منته عليهم بأرسال عدد من الانبياء لهدايتهم فكان هذا تفضيلا لانبيائه ولهم إن هم أسرعوا الى الايمان والعمل بتلك الرسالات ولما لم يعملوا بما جاءت رسلهم وسارعوا إلى محاربتهم والافتراء عليهم انصبت عليهم اللعنة واستحقوا التهديد بعقوبة شديدة وتبديل نعمة الله عليهم .

إن المعجزات التي من الله بها على نبيه موسى كثيرة أهمها :

١ - أنه سبحانه كلم موسى تكليما حيث قال (ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما)[١٨٥] .. في هذه الآية الاعتبارات والمعاني الآتية :

- ان الله سبحانه لم يكلم موسى بصورة مباشرة كما يكلم الانسان إنسانا آخر أي أنه سبحانه لم يتجسد على شكل معين ويتحدث إلى موسى إنما كان ذلك بواسطة ملك حمل كلام الله وتحدث به إلى نبيه إذ لو كان حديثه جلت قدرته مباشرة لما جاء موسى في موقف آخر وطلب أن يرى الله فرد عليه سبحانه «إنك لن تراني».
- إن حديث الله كان عن طريق الوحي، وهذا الوحي يحمله ملك يبعثه سبحانه وفي ذلك نعمة من عنده لهذا النبي ورفع لمقامه درجات بحيث يستطيع سماع قول الله وإدراكه وترديده.
- ولما كانت النبوة لا يمكن تبدأ والرسالة لابد ان تحملها كلمة فأن

الحديث بها والتحدث عنها يتطلب درجة من الادراك عالية بحيث تستطيع استيعابها والتحدث بها وإلا فليس هناك نبوة بدون رسالة ولا رسالة إلا عبر الكلمة ودلالاتها وليس للكلمة أن تعيش وتتحرك إلا في الانسان يعيها وينطق بها، ومن هنا فأن كلام الله مع موسى كان في سياق هذه العلاقات وتداخلها وتفاعلها..

- إن التعبير عن الكلمة والنطق بها وهي تحمل مبادئ ومعاني وأسساً لهداية الناس فأن هذا يعنى أن الهداية لا تكون إلا عبر هذه الكلمة المنطوق بها والنطق يجيُ من خلال الانسان والحديث مع الله يقع بين النبي والملك المرسل من عنده تعالى وهذا ما تعنيه الآية (وكلم الله موسى تكليما)..

- من هنا يتبين مرة أخرى أن كلام الانسان هو المعجزة وأن الانسان به تميز عن سائر مخلوقات الله وهذا يعيد إلينا معجزة آدم عليه السلام التي كانت معرفته بالأسماء نطقا ومعاني فبقيت هذه المعجزة الأولى من نوعها إذ لا تفوقها معجزة ولا تكبرها آية.. وحديث الله سبحانه مع أنبيائه هو المعجزة المميزة للنبي عن سائر الناس حيث ان حديثه سبحانه تعبير عن ذات الله وقدرته فهو على درجة عالية من الصياغة والدقة فلابد ان يرتفع النبي درجات عن سائر أبناء قومه لكن يدرك كلام الله ويستوعبه ويردده، ومن هنا كانت معجزة آدم عليه السلام التعبير ومعجزة موسى عليه السلام أن كلمه الله ومعجزة محمد صلى عليه وسلم القرآن لغة ومعنى، بمعنى أن معجزة الاسلام كانت الكلمة والانسان.

- ولما كانت رسالات الأنبياء محمولة عبر الكلمة ولأن ومهماتهم الدعوة بها والحديث عن دلالاتها وأن كافة المعجزات تأتي موضحة من خلال جملة عبارات فأن الكلمة هي التي تحمل أبعاد المعجزة وتوضحها، ولهذا كانت الكلمة وعيها والتعبير عنها المعجزة الأم لكل الأنبياء فلا معجزة بدون كلمة ولا نبوة بدون إنسان يعبر بالكلمة عنها، وفي هذا يصف الله سبحانه رسالة موسى فيقول (وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون) [١٨٦] هذا الكتاب هو جملة آيات مؤلفة من عدد من الكلمات وكل كلمة لها معنى تعبر به عن الرسالة ومبادئها.

٢ - والمعجزة الثانية التي من الله بها على موسى عليه السلام وأنصاره هي نجاته من ظلم فرعون وفي هذا يقول سبحانه (وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون إبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم)[١٨٧] . ويقول سبحانه في هذا المعنى (وإذ فرقنا بكم البحر فانجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون)[١٨٨] . وقال تعالى (وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون)[١٨٩] .

إن هذه الآيات الموضحة لنجاة موسى من ظلم فرعون تكشف عن المعاني الآتية :

- أن قدرة الله عز وجل فوق كل قدرة ، بيده الأمر وهو على كل شئ قدير فعندما استبد فرعون مصر وركب غروره واستل خنجر الظلم والاستبداد وساق معظم أبناء الشعب لخدمته وبناء الاهرامات لتحافظ على جسده واستل كل وسائل الظلم وغرسها حيث يريد ويشتهي فأن الله من على نبيه وأنقذه من جبروت فرعون وطغيانه .
- كان في يد فرعون كل عناصر القوة والملاحقة وكان موسى أعزل الا من رحمة الله فتغلب موسى وأنصاره على ما هم عليه من ضعف وتخلصوا من ظلم وأذى فرعون وذلك بقدرة الله . إن تقديم هذه الصورة تثير المقارنة بين قوة الملك وقوة واحد من الشعب ليست لديه القوة العسكرية ولا المال ليدفع بها ظلم الحاكم ورغم ذلك يستطع الفرار من قبضة ظلم الملك وتعسفه .
- إن الدلالة الاعجازية في هذه الآية تتوزع إلى جملة دلالات منها تصوير فداحة الظلم وقسوته وأنه يؤلف حالة مرفوضة ومستنكرة وأن على الانسان أن يرفضها ويدفع أذاها عنه فأن استطاع فبها والا فأن الله سيكون معه ناصرا يرد عنه ظلم الملك وجبروته .
- إن الظلم المسلط من سلطان جائر مشنقة معلقة على رأس الانسان الضعيف البرئ وأن هذه المشنقة معدة أن تسقط على رأس أي إنسان فتأتي على حياته ، إن الله يطالب الانسان بدفع هذه المشنقة عن رأسه وإسقاطها على رأس المستبدين به وأن عليه أن يواصل دفعها وصد أذاها وأنه سبحانه سيكون معه في حملها وإلقائها على رأس الباغين بأعوادها وعندما حقق الله سبحانه وعده أغرق فرعون وجنده في البحر

وانقذ موسى وأنصاره ففي ذلك علامة بارزة على وجود الله وقدرته في أن يكون بالمرصاد للظالمين المستبدين .

- إن في تفريق البحر إلى قسمين قسم هائج عميق صاخب الموج أغرق فرعون وآخر هادئ شواطئه ممتدة إلى عرض البحر فراشا ممدودا استقبلت موسى على الرغم من ضعفه وبساطة المركب الذي كان فيه قياسا الى الفلك العظيم الذي كان لفرعون وعسكره مما يؤكد أن الله هو الذي جعل البحر الواحد بحرين هذا ملح أجاج صاخب أغرق فرعون وذاك ماء فرات سلسبيل رسا تابوت موسى على ضفافه آمنا مستقرا .
- إن العبرة العظمى من إغراق فرعون ونجاة موسى هو أن الله حي قادر بالمرصاد للانسان فعندما يتولى مسؤولية ويبدأ يحارب الآخرين ويظلمهم فأن هذا الظلم يكون سيفا على رقبة الظالم وأن حصول هذه المعجزة بكل ما فيها من أبعاد ومفارقات هي دلالة على تقدير الله للانسان وتكريمه وأنه جاء بهذه الآية رفضا للظلم والأستبداد لكي يعلن بأن الظلم على الارض من أكبر الكبائر فاستحق غضب الله وعقابه والتعبير عن ذلك بمعجزة من معجزاته .

٣ - ومن معجزاته أن من الله عليه بضرب البحر بعصاه لينقسم الى قسمين فيكون القسم الذي هو فيه شاطئا رقراقا والقسم الآخر هائجا صاخبا،وفي هذا يقول سبحانه (فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطورالعظيم ■ وأزلفنا ثم الآخرين ■ وانجينا موسى ومن معه اجمعين ■ ثم أغرقنا الآخرين ■ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ■ وأن ربك لهو العزيز الرحيم) (١٩٠)

- إن هذه الآيات من سورة الشعراء هي تكملة للآيات ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ من سورة البقرة توضح كيف أن الله منَّ على موسى فانجاه من ظلم فرعون واغرق فرعون وأعوانه في البحر مما يؤكد أن هذا الانتصار من عند الله وذلك العقاب لفرعون جراء جوره واستبداده .
- إن معجزة موسى عليه السلام وهو يضرب بعصاه البحر فينفلق فيكون كل فرق كالطود العظيم ثم يمد الله يده فينقذ موسى فأن ذلك لايمكن أن الا بقدرة الله وإرادته وأن تتابع هذه العملية بدءا من فرار موسى

وملاحقة فرعون له وقيام موسى بضرب البحر بعصاه وإنفلاقه وغرق الفرعون ونجاته إن هي الا تجربة حية مرئية تبين لكـل من فرعـون وانصاره ولموسى وأعوانه بأن ما حدث كان من عند الله ويؤلف شهادة صادقة ومباشرة على وجود الله ووحدانيته .

- إن طلب الله من موسى أن يضرب بعصاه البحر وحدوث الانفلاق والغرق والنجاة كان إشارة من عنده بأن على الانسان أن يعمل ويقاوم ويجاهد يفكر ويتدبر ومن ثم يتوكل إن مطالبة الله موسى بضرب البحر لكي يبين للانسان بأن لكل نتيجة سببا ولكل حادثة محدثا وأن على الانسان أن يعمل . كان باستطاعته سبحانـه أن يفلق البحر الى قسمـين ويغرق فرعون بعد هذا الانفلاق أو قبله وكان يقدر على إنقاذ موسى قبل أن يضرب بعصاه إلا أنه أراد أن تكون معجزته متوافقة مع عقل الانسان ومع منطق الاحداث ومن ثم جعل النتيجة بصورة كبيرة لاتتناسب مع الوسيلة ولا مع قدرة الانسان لكي يسحب هذا الانسان المعاند المكابر من بؤرة الشرك والشك والعناد الى ساحـل الايمان والأمـان ، وكان قصده سبحانه أن يشاهد الطرفان قدرته وآياته وهي تتحرك في عصا موسى تشطر البحر شطرين وتغرق هذا الفريق وتنقذ الفريق الضعيف وتتمثل فصول هذه الآية بارزة متحركة قريبة من مدارك الانسان ومن تصوراته لكي يصعد درجات على سلم الوحدانية لعله يصل الى نهاية الدرب فيستظل بسدرة المنتهى .

٤ - تفجير الأرض عيونا دافقة بالماء .. ومن معجزاته جلت وعلت قدرته أن منَّ على موسى بأن يضرب بعصاه الحجر فتتفجر منه اثنتا عشرة عينا وفي هذا يقول سبحانه (وإذ استسقى موسى لقومه فقلنـا إضرب بعصـاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين)[١٩١] . وترد آية مـوسى هذه بـذات المعاني والدلالات في سورة الأعراف حيث يقول سبحانه (وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا أمما وأوحينا إلى موسى اذ استسقاه قومه أن إضرب بعصاك الحجر فانبجست منه إثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم وظللنـا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)[١٩٢] . في هذه الآيات الكريمـة معاني

وتصريحات مباشرة عن قدرة الله ووحدانيتـه ، يمكن متابعتهـا في النقاط الآتية :

- إن الاستسقاء حالة يتقدم فيها الناس متوسلين إلى الله أن يمن عليهم برحمة من عنـده فيسقط المطر عليهم مـدرارا ، وهذا النـداء يتعالى ممزوجا بالرجاء عندما يشعر القوم بأن الماء لديهم قـد شح وأنهم لا يجدون ما يسد حاجتهم وإرواء حيواناتهم وسقي مزروعاتهم وجفاف الأرض بما تنبت ، إن هذه الاستغاثة تتصـاعد في المنـاطق الجافـة البعيدة عن المياه والتي تعتمد على الأمطـار ، وعندمـا يستجيب الله سبحانه بعد نداء عبر وقفة عيـون الناس مشـدودة إلى السماء وإذا بالغيوم تزدحم والامطار تنهمر فأن رباطا من الايمان يبدأ بالامتداد من أفواه العطاشى وظمأهم إلى السماء حيث فضله ومنه وكرمه يتساقط عطاء منثورا ، وعندها ينعقد رباط من الايمان موثـوق بين الانسـان وخالقه .
- إن استسقاء موسى لم يكن عبر نداء موجه إلى السماء ، إنما كان خلال ضربة واحدة بعصاه لحجر صلب فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، إن هذه الاستجابه لنداء القوم وتفجر الصخور القاحلة الجرداء عيـونا دفاقة وبضربة عابرة من (عصا) صغيرة فأن في ذلك إعجـازا وأيما إعجاز ..
- إن العصا ليست وسيلة حفر لاستخراج الماء وأنها لا تقوى على ضرب حجر صلد فتفجر فيه ماء لأن قوة الحجر لا تتشقق وتتصدع إلا بحجر أقوى أو بمادة أشد منه بأسا وصلابة .
- إن تدفق الماء عبر عيون متعددة ومن خلال ضربة أو ضربات في موقع واحد حالة استثنائية لا يمكن صدورها في الحالات الطبيعية إذ لو كانت الأرض غنية بهذا الماء وأن ضربة واحدة تفجـر عيونـا منها لانتبـه الانسان الى ذلك ووجد طريقه إليها قبل أن يقف ملتاعا حائرا يتوسل الى الله أن يمده بقليل من الماء .
- إن ذهاب موسى بعصاه إلى الحجر يستسقي منه كان بأمر من الله ولم يتوجه بندائه إلى السماء حيث هناك من سبقه إلى مثل هذا الاستسقاء فمن الله عليه بنزول المطـر وقد يفسر البعض بـأن هذا النـزول جاء مصادفة كما يجئ مرات عند الاستغاثه والاستنجاد فأراد سبحانه أن

يكون الاستسقاء هذه المرة عبر عصا تضرب حجرا لتكون الاجابة دالة على رحمة الله وقدرته .

- وفي هذه المعجزة عبرة أخرى ، أن الله سبحانه أراد بها أن يمن على موسى ويثبت أقدامه ويضع المعجزة بين يديه لتكون حجة على المكابرين والمعاندين ونجد أن كفار قريش والمعاندين والمكابرين الذين وقفوا بوجه الأنبياء كانوا يطالبون أنبياءهم بأن يفجروا الأرض ماء دفاقا لهم مما يشير إلى أن هذه المطالبة كانت تعجيزية فكانوا يكررون التعجيز بها اعتقادا منهم بأن من الصعوبة بمكان أن يأتي هؤلاء الأنبياء صلوات الله عليهم بمثل هذه المطالبة .
- وفي هذه الآية مسألة أخرى، أنها تطوي بين جنباتها مبدأ السببية حيث كل نتيجة مرتبطة بسبب وكل حادثة لابد لها من محدث فالعصا هنا رمز للقوة والانسان في استعماله لها هو المكلف باستعمال القوة وأن حركة الانسان هذه وراء تحقيق النتيجة فحيثما وضع الانسان نفسه وهيأ العدة والقوة وأسبابها وباشر بتوظيفها فأن النتائج تأتي والمنافع تتحقق .
- إن الاعجاز المضاف إلى أسس التعلم والى إقرار مبدأ السببية الذي أشرنا اليه فأن المعجزة تكمن بأن ضربة بعصا لم تفجر عينا واحدة إنما فجرت عيونا في صخور سوداء تبدو قاحلة ليس فيها ما يحمل على الظن بوجود الماء .

٥ - ومن معجزاته المتساوقة مع المعجزة المتعلقة بالاستسقاء بضرب الحجر وتفجيره ماء نميرا ، الظلال الذي غطى موسى غماماً يصد حرارة الشمس ويتساقط منه المن والسلوى وفي هذا يقول سبحانه (وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)[١٩٣] . (وإذ قلنا أدخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين ■ فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم فانزلنا على الذين ظلموا رجسا من السماء بما كانوا يفسقون)[١٩٤] .

في هذه الآيات اعتبارات وصور عن قدرة الله عز وجل ومشيئته يمكن جمعها بالنقاط الآتية :

- إن الله قد من على موسى ومن معه من المؤمنين بأن أظلهم بسحاب دفع عنهم حر الشمس وهم يغذون السير عبر أرض جدباء قاحلة وأن ظهور هذه السحب في موسم غير موسمها وتحقيقها فائدة مباشرة هي دفع أذى الشمس عنهم وهم في مسيرتهم الطويلة يؤلف مكرمة تحمل دلالة معجزة .
- إن المن والسلوى لم تكن معروفة قبل هذه الحادثة وهي إذ تسقط من الغمام فالعادة أن يسقط من الغمام الماء أما أن يأتي عنه (المن والسلوى) فهذه مسألة تثير أكثر من سؤال وتبعث الحيرة وتدفع للتفكير فأذا كان الانسان قد اعتاد أن يشاهد الغيوم تسقط مطرا وفسر ذلك تفاسير كثيرة ومتباينة في كل مرحلة أعطى تفسيرا يتناسب وطبيعتها بحيث انتهت تفسيراته .. إن الله قد خلق الشمس وخلق الماء في المحيطات والبحار وأن حرارة الشمس تبخر ماء المحيطات فيرتفع ثم يتكثف عندما يلامس طبقات باردة فيسقط مطرا ، وسواء كانت هذه النظرية حديثة أم توصل الى ما يقرب منها قديما فان الانسان كان يشاهد الماء ساقطا ويراه ممتدا على اليابسة بحارا أو أنهار أو بركاً أو في داخل الأرض عندما يضرب بها تفتيشا عن ماء غار في أعماقها فأنه يستطيع أن يتصور سقوط الماء من السحاب وله أن يفسر ذلك وفي تفسيره جوانب كثيرة من الصحة ، أما والغمام يسقط منا وسلوى فهذا حمله الى فحص هذه المادة فوجدها حلوة المذاق غنية طيبة ليس في الارض شجرة أو مادة تشبهها وليس في السماء ما يدل على علاقة بها فكانت هذه محفزا له أن يفكر في كنهها ويظل متدبراً أمرها فلا يجد جوابا إلا الله قد بعثها ، وبذلك تدخل هذه المعجزة تحمل على رأسها علما مكتوبا بكلمات بارزة أن الله هو الذي أنزلها .
- إن مكرمة المن والسلوى تثير سؤالا وتجيب عنه فالسؤال .. كيف مكن الله سبحانه وتعالى الاحياء ومنها الانسان من الوصول إلى الغذاء الذي كان عامل حياته وبقائها لاسيما وفريق من الاحياء يظهر في صحراء قاحلة أو يعيش تحت الارض أو في أعماق البحار وفي نزول المن والسلوى على موسى وهو في صحراء لا تحمل شجرة هذا النوع ولم يسبق للسماء أن جادت بها يشكل جوابا أن الله هو الذي مد الاحياء بأسباب الحياة وقدمها إليهم ومكنهم من معرفتها وكيفية الاستفادة منها . إن إنزال

مادة ليس لها جذور في الارض ولا شبيه بالسماء هـو إعلان آن الله سبحانه خالق كل شئ وفي هذه دلالة مباشرة على أنه موجود وفي ذلك سحب للانسان من دائرة الشك الى مستقر الايمان حيث يرى ويلمس ويحس بقدرة الله متجلية هنا في مائه دفاقا وفي منه غذاء وفي عصاه قوة وسببا .

ويعلق سيد قطب على المعجزات الأربع بقوله (إن موسى وقومه أمام البحر ليس معهم سفينه ولا هم يملكون خوضه وما هم بمسلحين وقد قاربه فرعون بجنوده شاكي السلاح يطلبونهم ولا يرحمون ..... وقعت المعجزة وانكشف بين فرقي الماء طريق ووقف الماء على جانبي الطريق كالطود العظيم واقتحم بنو إسرائيل .. ووقف فرعون مع جنوده مبغوتا مشدوها .. وهو يرى موسى وقومه يعبرون الخضم في طريق مكشوف .. فخرج بنو إسرائيل من الشاطئ الآخر بينما كان فرعون وجنوده بين فرقى المـاء أجمعين وقـد قربهم الله لمصيرهم المحتوم)[١٩٥] .

٦ - ولما كان السحر منتشرا في الفترة التي كان فيها موسى عليه السلام ،فأن الله قد من عليه بمعجزة تغلب بها على فعل السحرة وقد حفظ القـرآن الكريم لناهذه المعجزة في آيات عديدة وفي اكثر من سورة من سوره منها (وجـاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ■ قال نعم وإنكم لمن المقربين ■ قالوا ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين ■ قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤوا بسحر عظيم ■ واوحينا إلى موسى أن ألقى عصاك فأذا هي تلقف ما يأفكون)[١٩٦]

إن في هذه المعجزة الدلالات الآتية :

- إن السحر يمثل مرحلة حضارية معينة عبر الانسان خلالها عن قدرته في القيام بأعمال خارقة تعتمد على السرعة وخداع البصر والشعـور بالتهويل في طبيعة الظاهرة المحدثة والشعور لدى البعض بالعجز عن القيام بمثلها .
- عندما اجتمع السحرة بحضور فرعون وألقوا بسحرهم أمر الله سبحانه نبيه موسى عليه السلام أن يلقي بعصاه فأذا هي حية تسعى تزحف على فعل السحرة وحبالهم وتأكلها جميعا مما حمل السحرة أنفسهم على

الاعتراف بقدرة عصا موسى وأن سحرهم لا يستطيع مغالبة هذه العصا البسيطة وقد اعلنوا إيمانهم بموسى وربه وبذلك سقط رهان فرعون وسحرته .

- إن تحول عصا موسى إلى حية تأتي على كل ما صنع السحرة لا يمكن أن يكون بفعل ساحر إذ أن السحرة الذين أحضرهم فرعون كانوا كثرة فليس من المنطق أن ينتصر ساحر واحد على سحر مجموعة كبيرة لهم خبرة واحدة ومعرفة متساوية في هذا الميدان ، إن إعلان السحرة اعترافهم بالهزيمة وإعلانهم الايمان برب موسى كان قناعة منهم بأن هذا الفعل ليس فعل ساحر إنما هو من قوة فوق هذه القوة وبذلك سجلت هذه المعجزة دليلا آخر على وجود الله ووحدانيته وقدرته .
- وفي هذه الآية رد على دعاوى المعاندين الذين فسروا معجزات موسى السابقة ومعجزات الأنبياء من قبله ومن بعده بأنها لا تختلف عن فعل السحرة فأن متابعة هذه المعجزة وهي تتمثل على مسرح كبير تشهده عناصر كثيرة وعبر تحديات سافرة بحضور حشد كبير من الناس أريد به أنه يرى فعل السحرة كيف يرتد على عقبيه مدحورا وكيف أن العصا المتجمدة البسيطة المشهودة تتحرك ثعبانا يلتهم مايسحرون.
- إن في هذه المعجزة جواباً على السؤال الكبير الذي ما انفك الانسان يسأله عن الحياة والموت (وكيف يحيى الله الموتى) فكانت هذة الخارقة جوابا مباشرا مشهوداً على قدرته سبحانه كيف جعل من العصاة المتخشبة حيوانا حيا يتحرك ويلتهم خصومه ويقضي عليهم · إنها آية صريحة حية متحركة معبرة عن وجود الله وقدرته وأنه سبحانه إذا أراد شيئا ان يقول له كن فيكون .

ويعلق سيد قطب على هذه المعجزة عندما يفسر قوله تعالى (فالقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين ■ ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين)[١٩٧]بقوله : (والتعبير يدل على أن العصا تحولت فعلا إلى ثعبان تدب فيه الحياة وأن يده حين نزعها كانت بيضاء فعلا ، يدل على هذا بقوله (فأذا هي) فلم يكن الأمر تخيلا كما هو الحال في السحر الذي لايغير طباع الأشياء إنما يخيل للحواس بغير الحقيقة.. ومعجزة الحياة التي تدب حيث لايعلم البشر معجزة تقع في كل لحظة ولكن الناس لايلقون لها بالالطول الألفة والتكرار أو لأنهم لايشهدون التحول على سبيل التحدي، فاما في

مثل هذا المشهد وموسى عليه السلام يلقى في وجه فرعون بهاتين الخارقتين فالأمر يزلزل ويرهب)[198].

ويضيف سيد قطب في مكان آخر موضحا أبعاد هذه المعجزة قائلا (وقعت المفاجأه المذهله التي لم يكن يتوقعها كبار السحرة فلقد بذلوا غاية الجهد في فهم الذي عاشوا به وأتقنوه وجاءوا بأقصى ما يملك السحرة أن يصفوه وهم جمع كثير محشود من كل مكان وموسى وحده وليس معه الا عصاه ثم إذا هي تلقف ما يأفكون واللقف أسرع حركة للأكل وعهدهم بالسحر أن يكون تخيلا ، ولكن هذه العصا تلقف حبالهم وعصيهم حقا فلا تبقى لها أثرا . ولو كان ما جاء به موسى سحراً لبقيت حبالهم وعصيهم بعد ان خيلّ لهم وللناس ان حية ابتلعتها ولكنهم ينظرون فلا يجدونها فعلا)[199] .

٧ - لم يقف عناد المعاندين من بني إسرائيل عند حد إنما راحوا يطالبونه بأن يروا الله سبحانه جهرة مما حمل موسى عليه السلام أن يقف متوسلا إليه يطلب رؤيته جلت قدرته وفي هذا الحوار معجزة تعجيزية من الله سبحانه أراد بها أن يوقف تيار العناد والريبة والتحدي الذي طبع بني إسرائيل بطابع ميزهم عن غيرهم إن في متابعة الآيات الكريمة التي ضمت هذه المطالبة ورده سبحانه عليها يكشف أبعاداً جسيمة لهذه المسألة .

لقد حفظ لنا القرآن الكريم كيف أن بني إسرائيل كانوا يلحون بالطلب من موسى ليهيئ لهم الفرصة لرؤية الله سبحانه (وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ■ ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون)[200] .

وعلى الرغم من الصاعقة التي حلت بالمكابرين من بني إسرائيل والموت الذي أصابهم وبث الحياة فيهم ثانية ، فانهم ظلوا على عنادهم وريبتهم مما حمل موسى عليه السلام أن يقف مناديا ربه ليتمثل له على شكل يستطيع رؤيته (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال ربي أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن أنظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين)[201] .. في هذه الآيات الكريمة دلالات إعجازية كثيرة أبرزها :

- أن المكابرين من بني إسرائيل لم يؤمنوا على الرغم من كثرة المعجزات التي من الله بها على موسى عليه السلام مما يدل على عنادهم من جهة وعلى أنهم والناس من حولهم كانوا قد بلغوا مرحلة من النقاش والحوار حول ذات الله وماهيته وقدرته بحيث صاروا يطالبون برؤيته جهارا لكي يطمئنوا إلى وجوده وحقيقته وهذه المرحلة هي امتداد لمراحل طويلة مضت على الانسان كان خلالها يفتش عن الله ويبحث في ماهيته وقدرته وقد بلغ في هذه الفترة مرحلة أراد أن يقف على ذات الله ليس كقوة فاعلة مؤثرة عامة إنما كقوة منظورة يستطع أن يراها ويميزها .
- إن العقوبة الصارخة في إسقاط الصاعقة على هؤلاء المكابرين وموتهم ومن ثم إحيائهم كان جوابا عمليا على وجوده سبحانه وقدرته ، فالصاعقة وهي تحرقهم وتأتي عليهم رمادا ثم يعودون إلى الحياة ثانية هي شهادة منظورة عملية على وجوده سبحانه وقدرته وهي جواب عملي على السؤال الملح الذي ما انفك يلقيه الانسان على نفسه وعلى الآخرين وخلاصته ماهو سر الحياة وما هو سر الموت لها فكان في هذا الحوار رد على هذه المعاناة ولكنهم ظلوا على عنادهم .
- وعندما يقف موسى عليه السلام يطالب ربه أن يراه يرد عليه سبحانه (لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فأن استقر مكانه فسوف تراني) ... وبعد هذا الحوار بين الله سبحانه وموسى عليه السلام يرد عليه تعالى (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا) فصعق موسى وخر مغميا عليه فلما أفاق أعلن إيمانه وتوبته . في هذه الآية دلائل إعجازية إضافيه كثيرة يمكن النظر إليها من جوانب متعددة وفي نقاط كثيرة تشكل مع بعضها توضيحا للمعجزات كافة وتعين العلاقة بين الله سبحانه وخليفته على الأرض ، ومن هذه الدلائل الاعجازية ما يلي ......
- إن الله سبحانه وتعالى رفض أن يستجيب لنبيه موسى وهذا الرفض فيه دلالة على أنه تعالى يطلب من نبيه أن يتذكر آياته ومعجزاته فيه وأن لا ينجر إلى موقف يكون على مقربة من بني إسرائيل وهم يشاهدون المعجزات تتوالى عليهم ولا تحملهم أية منها على الانتقال من دائرة الشك الى دائرة اليقين .
- إن جمعه تعالى بين هذه المطالبة ورفضها باسقاط الصاعقة على بني إسرائيل مرة وعلى دك الجبل دكا أراد في ذلك أن يقدم لهم دليلا عمليا

على وجوده وقدرته وأن بيده حياة الناس وزوالهم وبعث الحياة مرة أخرى وأن في دك الجبل وجعله قاعا عملية مشهودة لا يمكن حدوثها إلا بفعل رباني لا سيما وعبر حوار بينه سبحانه وبين نبيه لكي يقدم له دليلا ماديا ملموسا على قدرته .

- إن رؤية الله تتطلب أن يتهيأ الله سبحانه على شكل معين قريب من شكل معين قريب من شكل الانسان بحيث تستطيع حواسه رؤيته وهذا يتطلب أن يتحول الله سبحانه الى مادة ذات شكل وأبعاد تتناسب في حجمها وماهيتها وتكوينها من مدارك الانسان وهذا لا يتم الا بتحويله سبحانه على شكل يشبه الانسان أو يشبه أي مخلوق أو يستطيع الانسان رؤيتها وادراكها وهذا التشكيل عملية تعني التغيير في ذات الله وكينونته في سبيل أن يكون شيئا محدودا لكي يؤمن به الانسان ، إن حالة التغيير هذه في سبيل إقناع الانسان بوجود الله عملية تصعيد في ذات الانسان وقدراته الى ذات الله وحقيقته وهذه عملية لا يمكن حصولها حيث أن طبيعة الانسان تختلف عن طبيعة الله ولا يمكن لتلك أن تصل إلى درجة تقترب من ذاته سبحانه كما أن عملية التغيير هذه لا تتم الا بتجسيم الله على شكل محدد وإنزاله من عليائه الى درجة بمستوى إدراك الانسان وحواسه وهذه مسألة مستحيلة الوقوع لانه سبحانه لا يمكن تغييره وتشكيله وتجسيمه وتبعيضه لأنه (ليس كمثله شئ) .
- إن مطالبة الانسان برؤية الله جهرة لكي يؤمن به يعني ذلكم أن الايمان بالله سوف لايكون إيمانا بالادراك والوجدان إنما هو إدراك بالمادة والتجسيم وبذلك يفقد الايمان بعده الوجداني العميق ويفقد الادراك حيويته وفعله في التصور والوعي واستيعاب المنظور وغير المنظور وإيقاف العقل عند جدار الواقع وانحساره في زوايا محدودة مغلقة مما يتسبب في انكماشه وضموره وسقوطه وبذلك تفقد الحياة عوامل الحيوية والابداع وتهبط مكانة الانسان الفكرية من حركتها المتجهة إلى المطلق الى قوة مقيدة لا تستطيع أن ترى وتدرك الا ما يحيط بها وما تقع عليه حواسه .
- إن اشتراط الانسان رؤية الله سبحانه حتى يؤمن به هو تحويل للعلاقة بين الله والانسان الى علاقة ميكانيكية ذات بعد واحد حيث يتحول

الانسان الى آلة للالتقاط والرصد وجهاز للاستقبال وبذلك يقف العقل عند سقف معين وبين أرض محددة ووسط سور عال لايمكن الخروج منه . إن تحويل الانسان الى جهاز يتحرك حركات ميكانيكية تستقبل الشئ وترسل أبعاده وتحدد صورته وتجسم خطوطه هو إلغاء للعلاقة الجدلية بين الانسان وبين الله وصور الحياة المختلفة ، إن جعل العلاقة بين عقل الانسان والقوة الخالقة على شكل جهازين متقابلين يعكس كل جهاز ما فيه في الجهاز الآخر فأن مثل هذه النتيجة تؤدي إلى خراب الجهازين وتعطيلهما وسقوطهما ، إن جدلية العلاقة بين الانسان وخالقه تقوم على التناقض بين حقيقة الانسان وتكوينه وبين كينونة الله وطبيعته ، هذه الجدلية هي اساس فاعلية الانسان وحركته وديمومة نشاطه وسر ابداعه ، عندما تسقط هذه الجدلية تقف الحياة ، حيث لا قوة تحركها ولا غاية تهدف إليها هذه الحركة حيث أن الانسان هو وسيلة الحياة على هذه الارض وهو غايتها فعندما يصعد الانسان الى حالة يكون فيها قادرا على رؤية الله فذلك لا يتم الا عندما يصير الانسان من ذات الشئ والتكوين والشكل والماهية التي عليها الذات الالهية .

- إن تغيير الانسان صعودا الى حالة يستطيع بها رؤية الله أو نزول الله الى حالة يستطيع عبرها الانسان من رؤيته هي حالة تمسخ الانسان وتجعله شيئا آخر غير هذا المخلوق الذي خلقه الله على هذه الصيغة ، أن أي تصعيد به إلى درجة أعلى مما هو عليه هو إسقاط له عن حالته التي هو عليها أو هي تغيير جذري في ماهيته تدخله في عداد قوى وتشكيلات هي خارجة عنه مناقضة له منافية لطبيعته .
- إن صعود الانسان الى درجة يستطيع أن يرى فيها الله هي تحويل له من حالة البشرية الى حالة الملائكيه أي فقدان الانسان خصوصية الثنائية التي خلق منها وعليها وإسقاط لواحد من ركنيها والابقاء على ركن واحد وبذلك يصير الانسان ملكا وهذا الملك يستطيع رؤية الله ولكنه بذلك يفقد خلافته على الارض ويفقد فضله على الملائكة ويصبح حالة أحادية الجانب وبذلك تتوقف الغاية التي من أجلها قامت الارض وظهرت عليها الحياة .
- إن عدم أستجابة الله لمطلب موسى وهو نبي كان في سبيل بقاء الانسان غاية الحياة وعامل تجددها وتطورها والدليل الواعي الناطق على وجود

الله والاستدلال به عـلى حقيقته وأن يظـل الميدان الـذي تتمثل فيـه معجزاته سبحانه مستدلا بها على قدرته ووحدانيته .

- ولما كانت هذه المعجزات وسيلة يعبر سبحانه من خلالها عن حقيقته وقدرته وانها لولا الانسان لما صار لها هذا البعد الاعجازي ولما كانت تجارب عملية يحكم عليها بالاعجاز حيث أن الانسان هو الذي يراها ويعيها ويحكم عليها بأنها معجزة فلولاه لما كانت هذه المعجزة ، ولمـا كانت المعجزات كلها من الله وأنه أراد بها الاستدلال على وجوده وأن الانسان هو الجهة المستريبة بذات الله والجزعة والمطالبة باثباته فان تلك المعجزات لم تكن لولا وجود الانسان وعليه فان هذا الوجود يؤلف المعجزة الاعظم وأن هذه المعجزة تفقد خصائصها عندما تخرج من مكانها صعودا الى ذات الله أو سقوطا عن آدميتها وبذلك فـأن عدم الرؤية هو إبقاء للانسان عند حدوده ليظل معجزة بذاته وحقلا لمعجزات الله على ذاته .

- لقد من الله سبحانه وتعالى على الانسان فجعله خليفة على الارض ومن عليه أن جعل انبياءه ورسله من بين بني الانسان وأمـده بمعجزات وآيات كثيرة من أجل إقناعه وحمله على الايمان به سبحانه وتعالى . وبقي معه يجيبه بصورة مستمرة على سؤال ونداء ينبعث من داخل الانسان يطالبه بمعرفة الله سبحانه وتعالى وكان الله يجيب الانسان على سؤاله بالآية والمكرمة والمعجزة الخارقة من أجل أن يقرب الى ذهنـه الوهيته وقدراته لكي يواصل الايمان به والسير على هديه فكانت النبوة ومعجزاتها وآياتها حججا وأدلة وشـواهد عـلى ذات الله لكي يقترب الانسان منه ويبقى على صلة به الا أنه من عظيم حكمتـه أبقى هذه العلاقة علاقة جدلية حية متحركة لا تستقر عند قرار ولا تطمئن عند حالة ولا تستكين لمعجزة وكان ذلك حكمة من عنده تعالى ليبقى الانسان فعالا مفكرا متحركا في كل الاتجاهات لكي يواصل عملية الابداع ورفد الحياة بعطاء يبقى على حيويتها وتطورها . إن الدوران حول ذات الله والبحث في ماهية الايمان به والشك في هذا الايمان والرجوع الى اليقين والانتقال الى حالات عدم الاستقرار والبحث الدائم في كنه الحياة وسر الوجود ، هذه الفاعلية المستمرة كانت لان حالة البحث في ذات الانسان وحقيقته ، مآله ومصيره علاقته بالله وفي اليوم الآخر حسابه عقابا أو

ثوابا الجنة والنار كل ذلك كان يمور في داخل الانسان ويتعـالى فكرا وسؤالا وحيرة وجوابا وحلا ونقضا لهذا الحل ، هذه الحركة الدائمة هي مبرر وجوده وهي التي تعطيه صفة الخلافة على الارض وأن حالة اليقين التام بكل تلك النواحي والنوازع والمخـاوف والآمال والصـور تسقط هذه الخلافة وتلغي ضرورتها .

- إن رؤية الله المباشرة تعني المطابقة بين الانسان وبين الله وهذه تسقط المسافة بينهما وتطوي الضرورة التي قامت من خلق الانسان على هذه الارض . إن الحكمة من خلق الانسان ليكون شاهدا على وجـود الله وحقيقته ، وهذه الشهادة لا تكون الا بين جهتين كل لها بعدها وحقيقتها وتكوينها المختلف عن الآخر إذ لا شهادة صحيحة دقيقة من الانسان على نفسه إنما الشهادة منه على آخر وحتى في حالات الاعتراف من قبل الانسان على ناحية وصفات فيه فان هذه الحالة تقـع عندمـا ينقسم الانسان إلى شخصين شخص راض عن جانب منه وآخر يحمل صفات مرفوضة ، وبذلك يبدأ الاعتراف من نصف الانسان على نصفه الآخر أو من انسان يضع نفسه في حالة ينظر بها الى نفسه وشخصيته في حالة مرفوضة ، عليه فأن رؤية الله التي طالب بها موسى تجعل منه جهة أو حالة من ذات الله وطبيعته وبذلك تنتهي شهادة الانسان واستقلاليته وكونه وسيطا بين الله وبين حقيقته ومخلوقاته .
- إن الله سبحانه وتعالى يؤكد في كثير من آياته بأنه غنى عن العالمين وأنه خلق الانســان لكي يعبده ويؤمن بـه ، ولهذا كـان محور الـديانـات السماوية كلها الايمان بالله إلها واحدا ، هذا الايمان لا يتم الا بوجود الحقيقه الالهية مستقلة كل الاستقـلال عن سائـر المخلوقـات ومنها الانسان فاذا ما وصل الانسان الى حالة يستطع بها رؤية الله فأن ذلك يعني صعوده وحلوله في ذات الله أو نزول الله وحلوله في ذات الانسان وهذه تنفي الوحدانية وبذلك تنتفي الضرورة لوجود الانسان وسيلة لعبادته وميدانا لمعجزاته الدالة على حقيقته الازلية .
- إن غايته سبحانه من خلق المخلوقات وعلى رأسها الانسان ليعبدوه فأن هذه العبادة لايمكن أن تكون وسيلة للثواب أو العقاب والانسان على درجة تامـة من القدرة لمعـرفة الله ورؤيتـه وإدراكه والاحســاس به وتجسيمه حيث أن مثل هـذه القدرة لـلادراك مستحيلة لأن وصـول

الانسان إليها يتطلب تغييرا في تكوينه ومداركه وتشكيله بحيث يكون على شاكلة هي من ذات الله وبذلك تنتفي الضرورة لمعرفة الله والحاجة للتوسل إليه حيث يكون الانسان والله من مادة واحدة وعلى شاكلة متشابهة فلا ضرورة لان يعبد الله ذاته ولا حاجة لان يجعل الله من ذاته شيئين واحد عابد والآخر معبود .. إذن لكي تبقى العلاقة بين الانسان والله علاقة خالق بمخلوق وعابد بمعبود يجب أن تظل المسافة طويلة بين الله والانسان لكي يكون لهذه العبادة غاية ولكي يكون للعصيان والايمان درجات من الثواب والعقاب .

- إن الله سبحانه وتعالى قادر أن يجعل من نفسه شيئا منظوراً من قبل الانسان أو يصعد من الانسان درجات بحيث يستطيع أن يرى الله جهرة ولكنه بذلك يقرر إنهاء الحياة على الأرض وينهي المهمة التي خلق الانسان من أجلها وبذلك تنطوى صفحة هذا الوجود وتندثر المسافات وتسقط الحجب وتتداخل الامور مع بعضها فتصير الى حالة من الوحدانية التامة . والحكمة البالغة من الابقاء على المسافات طويلة بين الله والانسان هي في سبيل الابقاء على حركة الانسان الواعية المفكرة المتدبرة في أمر الكون في السموات والارض في الانسان في حياته في طبيعة الاحياء في كل ما يحيط به وهذه الحالة تظل على فعلها وحركتها ما بقيت المسافات ممتدة من السماء الى الارض بين الانسان وخالقه لكي يظل يسعى للوصول الى السماء ويصعد إليها بقواه الذاتية ويحفر في باطن الارض ويكشف ما فيها بقدراته الخاصة وتتوقف كل هذه الحركات عندما يصل الانسان الى حالة يكون فيها قادرا على رؤية الله حيث أن هذه الرؤية كما ذكرنا تعني التداخل والتشابك بينهما وبذلك تسقط المسافة فتنتفي الحاجة الى الحركة بحثا أو إيمانا أو ريبة أو تساؤلا ...
- والحكمة الاعظم أن الله سبحانه وتعالى على الرغم من إرساله الرسل وتحميلهم رسالات سماوية عظيمة تحل معظم مشاكلهم وتجيب عن كل أو معظم تساؤلاتهم وعلى الرغم من المعجزات العظيمة المادية المشهودة في سبيل إقناع الانسان وإيمانه بوجود الله فأنه سبحانه وتعالى لحكمة إرادها أبقى الانسان في حالة سؤال وحيرة في شأن الايمان لكي يبقى على حركته وفعله ودورانه الدائب في ذاته وحولها وفي الارض وما فيها

وفي السموات وما عليها والانسان بهذه الحركة استحق خلافته على الارض وهو إذ يواصل فعله ونشاطه فهو بين قطبين متباعدين متفاعلين قطب يجره للايمان بالله يستقر عنده يحس بالسكينة فيه والاطمئنان وقطب آخر يجره الى الشك في ذلك والخروج من دائرة الايمان الى حالة من التمزق والتشرذم والاندفاع والرضا والغضب والهيجان يدفع به في صحراء قاحلة حيث رمال الشك جدباء تشعل ظمأه للايمان حرقة ودخانا يتصاعد في سماء لهيبها بركانا يتعالى الى السموات العلا يستظل بردا يتساقط مطرا يروي شجرة الشك في ذاته فتعود أزهار الايمان يانعة فواحة من جديد ولا تلبث إلا موسما ربيعيا يغتاله موسم حار عاصف يذر أغصانه وأوراقه في متاهة لا يرى فيها ظلا لشجرة ولا ماء ينبت وارفة يستظل بظلها هذه الرحلة الدائمة بين صحراء الشك وجنة الايمان باقية هي سر هذه الحياة وعامل بقائها وتطورها واندفاعها إذا ما تغلب واحد من قطبي الرحى وأسقط غريمه فان الحياة تقف على رجل واحدة لا تلبث أن تغور في رمال الصحراء عطشى ذابلة أو تصعد الى السموات في إيمانها فتستقر عند سدرة المنتهى وبذلك تنتفي الحياة وتنتهي . إن حالة التناقض المستمرة عند الانسان الايمان بالله ووحدانيته المطلقة التفكير بهذه الوحدانية التفسير لها حالات الريبة والشك التي تواجه الانسان هي سر بقاء الحياة على ما هي عليه مشرقة مظلمة لذلك وافق سبحانه وتعالى أن يسمع الانسان صوته عبر واحد من ملائكته كما وافق أن يرى الانسان قدراته متجلية في الانسان ذاته وعلى مقربة منه في ذوات بني جلدته وفي غيرهم وأجاب عن كثير من اسئلته وحل كثيرا من عقده وأوضح عددا من الأسرار المحيطة به في سبيل جره الى دائرة الايمان ولكنه أبقى هذه الدائرة واسعة لا يستطيع الانسان أن يقف على عمقها ويسبر أغوارها ويرتفع منها الى حيث يحتضن قدرة الله بيديه ويرى بعينيه هذه القدرة لانه إذا ما فعل ذلك وضع الانسان في دائرة واحدة هي دائرة اليقين وقطع كل الروافد الموصله به إلى دائرة الشك وبذلك يعود الانسان ذا بعدٍ واحد وهذا البعد الواحد لا يصلح للخلافة ولا يتمكن من قيادة المعركة على الأرض ولا يتميز عن الملائكة وبذلك يعود ثانية الى السموات العلا في جنة كل أشجارها مباحة له وليس هناك من شجرة ملعونة عليه أن يتجنبها .

يعلق الامام الرازي على طلب النبي موسى عليه السلام رؤية الله سبحانه قائلا :

(وقد اتفق على أنه سبحانه ليس بجسم ولا متحيز ومع ذلك فأنا نذكر تقسيما حاصراً يبطل مذهبهم على جميع الوجوه فنقول أما أن يعتقدوا كونه متحيزا أولا فان اعتقدوا كونه متحيزا أبطلنا قولهم بأقامة الدلالة على حدوث الاجسام وحينئذ يبطل كل ما فرعوا عليه ، وإن اعتقدوا أنه ليس بمتحيز فحينئذ يبطل ما يقوله بعضهم من أن الكلمة اختلطت بالناسوت اختلاط الماء بالخمر وامتزاج النار بالفحم لان ذلك لا يعقل الا في الاجسام فاذا لم يكن جسما استحال ذلك ثم نقول للناس قولان في الانسان منهم من قال إنه هو هذه البنية أو جسم موجود في داخلها ومنهم من يقول إنه هو جوهر مجرد عن الجسمية والحلول في الاجسام)[٢٠٢] .

ويضيف الامام الرازي على هذه المسألة ويوضح أسباب استعظام رؤية الله بقوله :(فان قال قائل فما السبب في استعظام الرؤية ؟ الجواب في ذلك يحتمل وجوها أحدها ـ إن رؤية الله تعالى لا تحصل إلا في الآخرة ـ فكان طلبها في الدنيا مستنكرا . وثانيا إن حكم الله تعالى أن يزيل التكليف عن العبد حالما يرى الله فكان طلب الرؤية طلبا لازالة التكليف وهذا على قول المعتزلة أولى لان الرؤية تتضمن العلم الضروري والعلم الضروري ينافي التكليف . وثالثها ـ أنه لما تمت الدلائل على صدق المدعي كان طلب الدلائل الزائدة عنتا والمعنت يستوجب التعنيف ، ورابعها ـ لا يمتنع أن يعلم الله تعالى أن في منع الخلق عن رؤيته سبحانه في الدنيا ضربا من المصلحة المهمة . فلذلك استنكر طلب الرؤية في الدنيا كما علم أن في إنزال الكتاب من السماء وإنزال الملائكة من السماء مفسدة عظيمة فلذلك استنكر طلب ذلك والله أعلم)[٢٠٣] .

ويقف سيد قطب من هذه القضية وقفة يقول فيها : (إنها الوهلة المذهلة وموسى يتلقى كلمات ربه ، وروحه تتشوف وتستشرف وتشتاق إلى ما يشوق فينسى من هو وينسى ماهو ويطلب مالا يكون لبشر في هذه الارض وما لا يطيقه بشر في هذه الارض .. يطلب الرؤية الكبرى وهو مدفوع في زحمة الشوق ودفعة الرجاء ولهفة الحب ورغبة الشهود حتى تنبهه الكلمة الحاسمة الجازمة (قال لن تراني) .. ثم يترفق به الرب العظيم

الجليل فيعلمه لماذا لن يراه .. إنه لا يطيق (ولكن أنظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني) .. والجبل أمكن وأثبت ، والجبل مع تمكنه وثباته أقل تأثرا واستجابة من الكيان البشري ومع ذلك فماذا ؟ .. (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا) فكيف كان هذا التجلي ؟ نحن لا نملك أن نصفه ولا نملك أن ندركه ولا نملك أن نستشرفه الا بتلك اللطيفة التي تصلنا بالله حين تشف أرواحنا وتصفو وتتجه بكليتها إلى مصدرها)(٢٠٤) .

ويضيف سيد قطب تعليقا آخر في مكان من تفسيره الضخم (في ظلال القرآن) حيث يفسر قوله تعالى (لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في انفسهم وعتوا عتوا كبيرا) .. (إن المشركين لايرجون لقاء الله أي لا ينتظرون هذا اللقاء ولا يحسبون حسابه ولا يقيمون حياتهم وتصرْفاتهم على أساسه ومن ثم لا تستشعر قلوبهم وقار الله وهيبته وجلاله فتنطلق ألسنتهم بكلمات وتصورات لا تصدر عن قلب يرجو لقاء الله ... فقد كانوا يستبعدون أن يكون الرسول بشر وكانوا يطلبون لكي يؤمنوا بالعقيدة التي يدعوهم إليها أن تنزل عليهم الملائكة تشهد بها أو أن يروا الله سبحانه وتعالى فيصدقوا .. وهو تطاول على مقام الله سبحانه تطاول الجاهل المستهتر الذي لا يحس جلال الله في نفسه ولا يقدر الله حق قدره)(٢٠٥) .

معجزة أهل الكهف :

في القرآن الكريم سورة باسم (سورة الكهف) تحكي قصة فتية آووا إلى كهف وظلوا فيه زمانا امتد أكثر من ثلاثمائة سنة وهم أحياء على الرغم من انقطاع الماء والطعام عنهم والآيات الكريمة التي حملت هذه المعجزة هي :

(أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من اياتنا عجبا ■ إذ آوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا ■ فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا ■ ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا امدا ■ نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا جربهم وزدناهم هدى)(٢٠٦) .. وقوله تعالى (وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد

ومن يظلل فلن تجد له وليا مرشدا ■ وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا ■ وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منـه وليتلطف ولا يشعرن بكم احدا)[٢٠٧] . وقوله تعالى (ولبثوا في كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا ■ قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض أبصر به واسمع مالهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحدا)[٢٠٨] .

إن متابعة لهذه الآيات الكريمة تعطي المعاني والاعتبارات والصور الآتية :

- إن هذه المعجزة لم تقع على نبي إنما على فتيـة صالحـة أكرمهم الله لصلاحهم وتقواهم وأراد بها سبحانه أن يبين للمؤمنين الصالحين بأن رحمته وسعت كل شئ وأنه يشمل بها عبادة المتقين جزاء وفاقا عـلى تقواهم .

  ويعلق الامام الرازي على هذه المكرمة بقوله :

  (أن تظهر خوارق العادات على يد إنسان من غير شئ من ادعاوى فذلك الانسان إما أن يكون صالحا مرضيا عند الله وإما أن يكون خبيثا مذنبا والاول هو القول بكرمات الاولياء وقد اتفق أصحابنا على جوازه .... الـذي يدل عـلى جواز كـرامات الاوليـاء القـرآن والاخبـار والاثـار والمعقول)[٢٠٩] .

- إن الاعجاز في هذه الآية أنه سبحانه وتعالى أبقى الفتية الصالحة هذه أحياء في الكهف مدة ثلاثمائة وتسع سنين دون أن يكون لديهم طعام أو شراب وهذه الآية تشير الى أن الحياة في الاحياء من عنده سبحانه وأنه عندما خلق الاحياء ويسر لها ما تعيش عليه سواء من الأرض وما ينبت عليها ومن الحيوانات فأن هذه الاسباب من عنده تعالى فالذي يخلق الوسيلة للحياة أقدر على خلق الحياة والابقاء عليها بهذه الوسيله أو بدونها فأذا قررنا بأنه جلت قدرته خالق كل شئ فأنه يهئ لهذا الشئ المخلوق عوامل بقائه وديمومته فهو الذي يضع في السبب قوة التأثير وهو الذي يجعل في المستفيد من هذا الشئ القوة للاستفادة منه وعندما نسى الانسان هذه الحقيقة أو تناساها في بحران العادة والألفة وتكرار هذه الظاهرة أراد سبحانه أن يهز الانسان هزة تعيده إلى هذه الحقيقة

وتجيب عن أسئلة كثيرة كانت تتصاعد في ذاكرته مؤداها ما هي أسرار الحياة في الاحياء ؟ وما هي القوى والعوامل المؤثرة في ديمومتها وكيف تحمل هذه العوامل أسباب القوة والتأثير فكانت آية الكهف جوابا على هذه الأسئلة وهي إذ تـرد على السؤال الفـرعي كيف تكون القـوى والعوامل سببا في بقاء الحياة فانه في تضاعيف هذه المعجزة ردا على السؤال الكبير كيف يحيى الله الموتى وكيف يعيـدهم ؟ إنها معجـزة مركبة تحمل في طياتها معجزات متعددة وترد على اسئلة كثيـرة وأن مسرحها الانسان التقي الصالح .

- إن مكرمة الله سبحانه في أن يجعل معجزاته في أنبيائه كانت لانهم رسله الى الناس لهدايتهم ولكي تكون تلك المعجزات عامل إقناع وإرشاد لهم من أجل نقلهم من حضيض الشرك ودائرة الشك الى مستقر الايمان والاقتناع فانه عزت قدرته جعل هذه المرة معجزتـه هذه في عـدد من الاتقياء ليؤكد القيمة العالية للانسان وأنه حينما يؤمن ويتقي ويعمل عملا صالحا يصل الى درجة يستحق فيها أن يكون محلا لآياته وميدانا لمعجزاته وفي ذلك تشجيع للمؤمنين لمواصلة إيمانهم وتعميقه وتحفيزا للآخرين ليكونوا في الطريق نحو الايمان والتقى .

- إن السؤال الذي تثيره هذه المعجزة سؤال يمتد إلى كيفية التصديق بها وكيفية التدليل عليها عقليا وواقعيا فبخصوص التصديق فأننا نعتبر كل آية مذكورة في القرآن الكريم آية مصدقة وواقعية ولما كنا مؤمنين بالله وقدرته أن يقول للشئ كن فيكون فنحن نؤمن بأن الله قادر أن يعمل مثل هذه المعجزة ويعمل اكبر منها وإذا ما اعترض معترض بأن المهم إقناع غير المؤمنين بمثل هذه الأيات وحملهم على التصديق بها وأنهم ينطلقون من بداية هي عدم التصديق والأخذ بما جاء في الكتب السماوية ومنها القرآن الكريم وأنهم في حاجة إلى أدلة منطقية وأمثلة عملية وتصوير للتجربة يتساوق مع مداركهم ومع الواقع وطبيعة الاشياء فأننا نحس بأن الأدلة المنطقية والامثلة العملية المطلوبة لاثبات مثـل هذه الآيـة كثيرة ولكنها تستوجب الاتفاق على حد أدنى من الايمان بحيث يكون نقطة إنطلاق ووسيلة تجميع للادلة وحسم الخـلاف في هذا الميـدان وابتداء من هذا المنطلق فنقول أن هذه الآية إذا ما قورنت بآيات أخرى

ومعجزات حصلت قبلها وبعدها وشهد عليها شهود عيان فيمكن لتلك المعجزات السابقة واللاحقة أن تحتضن مثل قصة أهل الكهف وتجعلها واحدة من المعجزات الشبيهة بها ... ومن ناحية أخرى فأننا نشاهد في حياتنا الحاضرة صورا لمكرمات لا تقل إعجازا عن هذه المكرمة وهي لا تتوافق مع العلم ولا المنطق ولا يمكن الاتيان بأدلة عقلانية لاثباتها الا أنها تقع مشهودة أمام مرأى ومسمع الناس وأن تكرار حدوثها ومشاهدتها تحمل الانسان المتوازن على التصديق بها ولو أنه لا يملك تفسيرا لتوضيحها ولا يملك في ذات الوقت حجة لنكرانها . إن ما يفعله عدد من المتصوفة هنا وهناك من أعمال خارقة تظهر جلية لكل من يريد رؤيتها ومتابعة خطواتها فأن في مثل هذه المكرمات دليلاً عمليا على إمكانية حدوث مثل معجزة أهل الكهف .

- إن الشهود العيان على صحة هذه المعجزة إضافة لكونها وردت في القرآن الكريم أنها أقرت من قبل الفتية نفسها حيث أعاد الله لهم الحياة وجرى سؤال وحوار حول غيبتهم فظنوا أنهم لبثوا يوما أو بعض يوم وعندما طلب منهم سبحانه أن يخرجوا لشراء حاجات وجدوا أن عملتهم القديمة قد تغيرت وعاد سبحانه وذكرهم بأنهم لبثوا في غيابة الكهف ثلثمائة سنة وتسعاً وأن هذا التحديد بالسنوات إنما وقع عبر فترة معروفة آنذاك لمن كان معاصرا لبدء غيبتهم وتناقلوا خبرهم جيلا عن جيل بحيث كانت المدة بين دخولهم الكهف وخروجهم منه هي هذه المدة التي ذكرها القرآن الكريم ، إن هذا التحديد بالسنوات كان في ضوء الحساب الشمسي للسنة التي تقل أيام السنة فيها عن أيام السنة الميلادية وأن مجموع هذا الفرق في المدة هذه كان تسع سنوات شمسية على التقويم الآخر .
- وفي تضاعيف هذه المعجزة بعض النقاط تثير أسئلة تقف بعضها في وجه البعض الآخر ففي معرض هذه القصة أن الله سبحانه وتعالى يقول (وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد) هذه الآية تؤكد أن الشمس كانت تصل إليهم وانها كانت عامل أساس في الابقاء على حياتهم وأنهم كانوا يتحركون للاستفادة منها عبر فجوة تدخل أشعتها منها وهذه الفجوة تشير ضمنيا بأن

الهواء كان يدخل عبرها في سبيل أن يساعد بقائهم أحياء مما يؤكد أنه سبحانه وتعالى يريد أن يقول عبر هذه الآية الكريمة بأثر الشمس والهواء في الابقاء على حياة أولئك الفتية وكأنه يجيب على سؤال استنكاري خلاصته كيف يمكن الانسان أو لاي مخلوق أن يبقى على قيد الحياة دون ضوء الشمس وحرارتها ودون تنشق الهواء فكانت هذه الآية جوابا على مثل هذا السؤال وأن رحمته وهو يدارى عقول الناس ويتبسط معهم في الحوار ويقرأ ما يدور في عقولهم ونفوسهم فان سؤالا آخر يثار هو كيف استطاع أولئك البقاء على حياتهم دون غذاء وماء ؟ إن الرد على هذا السؤال هو أن المعجزة في هذه القصة هي قدرة الله على إيفاء هذه الفئة حيه على الرغم من عدم وجود الماء والطعام والا لما كانت معجزة .

- ويغلق الامام الرازي على هذه المعجزة قائلا : [قلنا أنه يستحيل أن تكون هذه الواقعة معجزة لاحد من الانبياء لان إقدامهم على النوم أمر غير خارق للعادة حتى يجعل ذلك معجزة لان الناس لا يصدقونهم في هذه الواقعة لأنهم لا يعرفون كونهم صادقين في هذه الدعوى الا إذا بقوا طول هذه المدة وعرفوا أن هؤلاء الذين جاؤا في هذا الوقت هم الذين ناموا قبل بثلاثمائة سنين وتسع سنين وكل هذه الشرائط لم توجد فامتنع جعل هذه الواقعة معجزة لأحد من الانبياء فلم يبق إلا أن تجعل كرامة للاولياء وإحسانا لهم][٢١٠] .

ويضيف سيد قطب في تفسيره على هذه المعجزة قائلا : [إن اليهود أغروا أهل مكة بسؤال الرسول صلى الله عليه وسلم عنها ... وأن أهل مكة طلبوا إلى اليهود أن يصوغوا لهم أسئلة يختبرون بها الرسول (ص) ....][٢١١] . وقد أجاب الرسول (ص) عن هذه القصة حيث من الله عليه بأن أرسل له جبريل وجاءت مفصلة في سورة الكهف كما أشرنا إلى ذلك في الآيات الكريمة الخاصة بهذه المعجزة .

ويعطي سيد قطب أبعادا لهذه المعجزة فيقول : [وهنا ينكشف العجب في شأن القلوب المؤمنة ، فهؤلاء الفتية الذين يعتزلون قومهم ويهجرون ديارهم ويفارقون أهلهم ويتجردون من زينة الارض ومتاع الحياة ، هؤلاء الذين يأوون إلى الكهف الضيق الخشن المظلم ، هؤلاء يستروحون رحمة الله ويحسون هذه الرحمة

ظليلة فسيحة ممتدة «ينشر لكم ربكم من رحمته» ولفظة «ينشر» يلقي ظلال السعة والبحبوحة والانفساح فأذا الكهف فضاء فسيح رحيب وسيع تنتشر فيه الرحمة وتتسع خيوطها وتمتد ظلالها .. إن الحدود الضيقة لتنزاح وان الجدران الصلدة لترق وأن الوحشة الموغلة لتشف فاذا الرحمة والرفق والراحة والارتفاق .. إنه الايمان ... وهم يقلبون من جنب إلى جنب في نومتهم الطويلة فيحسبهم الرائي أيقاظا وهم رقود - «وكلبهم» على عادة الكلاب - باسط ذراعيه بالفناء قريبا من باب الكهف كأنه يحرسهم وهم في هيئتهم هذه يثيرون الرعب في قلب من يطلع عليهم إذ يراهم نياما كالأيقاظ يتقلبون ولا يستيقظون وذاك من تدبير الله كي لا يعبث بهم عابث حتى يحين الوقت المعلوم ..... وفجأة تدب فيهم الحياة ... والفتية يستيقظون وهم لا يعرفون كم لبثوا منذ أن أدركهم النعاس .. ويلتفت أحدهم الى الآخرين فيسأل كم لبثتم ؟ كما يسأل من يستقظ من نوم طويل ولابد أنه كان يحس بأثار نوم طويل «قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم» ... إن أهل المدينة اليوم مؤمنون فهم شديدو الحفاوة بالفتية المؤمنين بعد أن انكشف أمرهم بذهاب أحدهم لشراء الطعام وعرف الناس أنه أحد الفتية الذين فروا بدينهم منذ عهد بعيد .... إن العبرة في خاتمة هؤلاء الفتية هي دلالتها على البعث بمثل واقعي قريب محسوس يقرب إلى الناس قضية البعث فيعلموا أن وعد الله بالبعث حق وأن الساعة لا ريب فيها وعلى هذا النحو بعث الله الفتية من نومهم وأعثر قومهم عليهم .... إن كل حركة وكل نأمة بل كل نفس من أنفاس الحي مرهون بأرادة الله ، وسجف الغيب مسبل يحجب ما وراء اللحظة الحاضرة وعين الانسان لا تمتد الى ما وراء الستر المسدل وعقله مهما علم قاصر كليل فلا يقل إنسان إني فاعل ذلك غداً وغداً في غيب الله وأستار غيب الله دون العواقب ..... فليفكر الانسان وليدبر ولكنه ليشعر أنه إنما يفكر بتيسير الله ويدبر بتوفيق الله وأنه لا يملك إلا ما يمده الله به من تفكير وتدبير ولن يدعو هذا الى كسل أو تراخ أو ضعف أو فتور بل على العكس يمده بالثقة والقوة والأطمئنان والعزيمة][٢١٢] .

معجزة النبي سليمان عليه السلام :

ما انفكت حكمته سبحانه وتعالى تقدم الخير للانسان وتضع بين يديه الآيات من أجل إقناعه بوجود الله ووحدانيته ، وكانت النبوة وسيلته سبحانه لتوضح هذه الحقيقة وسحب الانسان من بؤ - الشك الى شاطئ اليقين ، .

وعلى الرغم من الآيات المعجزات التي وضعها سبحانه بين يدي موسى عليه السلام الا أن القوم ظلوا على عنادهم وكفرهم فكان أمر الله أن تواصل النبوة هدايتها ودعوتها لاولئك المكابرين المعاندين .. يقول سبحانه في معرض مواصلته هذه الرحمة :

[ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين](٢١٣) . إن العلم الذي من الله به على داود وسليمان يتصل بالمعارف المتعلقة بالحياة بالانسان وطبيعته ، بالكون وعلاقته بالانسان ، وبالوسائل التي بها تكون الهداية بالله إلها واحدا قادرا ، وأن التفضيل من الله سبحانه لداود وسليمان كان بالعلم على كثير من عباده المؤمنين مما يوضح أن الانسان المؤمن العالم أعلى درجة من المؤمن غير العالم وفي ذلك دعوة صريحة لمواصلة العلم والايمان وأن العلم يتقدم على الايمان إذ به يتضاعف الايمان قوة ويتسع ويتعمق .

إن معجزة سليمان عليه السلام تتعلق بمنة الله عليه إذ علمه منطق الطير ووهبه من الفضل بحيث يستطيع أن ينال ما يريد وكانت قصة بلقيس ونقلها وعرشها من اليمن دليلا عمليا على كرم الله وفضله عليه ، وكانت معجزة نقله بلحظة مكرمة لسليمان بها دلل سبحانه على قدرته وأنه يقول للشئ كن فيكون .

لقد حفظ لنا القرآن الكريم هذه المعجزة بكل أبعادها وتفاصيلها في سورة النمل حيث جاء فيها [وورث سليمان داود وقال يأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شئ إن هذا لهو الفضل المبين ■ وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون ■ حتى إذا أتوا على وادي النمل قالت نملة يأيها النمل أدخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ■ ...... وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ■ لاعذبنه عذابا شديدا أو لاذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين ■ فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين ■ إني وجدت امرأة تملكهم واوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم ■ وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ■ .... إذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون ■ قالت يأيها الملأ إني ألقي إلى كتاب كريم ■ إنه من سليمان وأنه باسم الله الرحمن الرحيم ■ الا تعلو على وأتوني مسلمين](٢١٤) .. في هذه الآيات الكريمة من سورة النمل البدايات لمعجزة سليمان المتعلقة بنقل عرش بلقيس وقبل تنفيذ هذه المعجزة فانه سبحانه قد علم سليمان منطق الطير وحشر له جنودا من الجن والانس والطير فكانت هذه آيات معجزات

لنبي سليمان تحمل دلالات منها :

- إن تعليم منطق الطير آية غير مألوفة حيث أن أصواتها لا تؤلف جملا أو كلمات ذات معان ، قد تكون لاصواتها دلالة تدركها الطيور ذاتها كل يدرك أصوات نوعه وفصيلته أما أن تكون للانسان هذه القدرة فمسألة غير مألوفة ولا يمكن ادعاء أحد بها حيث أن تركيب الانسان خاص لا يتوافق وتركيب الطير وعليه فأن معرفة سليمان لمنطق الطير هي معجزة خارقة قدمها سبحانه لواحد من أنبيائه حجة له ومنة لتحمل قومه على الايمان .
- إن التصديق بهذه المعجزة صعب حيث أن ادعاء هذا النبي أو غيره بأنه يعرف منطق الطير لايمكن إثباته بالدليل المادي أو التجربة فاذا ما ادعى بأن صوت هذا الطير يعني هذه المعاني وأن الصوت الآخر يدل على هذه العبارة فليس من أحد يستطيع الشهادة على ذلك لأن طرفي التجربة هي النبي وصوت الطير .. إن التصديق بها يتطلب درجة عالية من الايمان ، ولهذا عندما سمع سليمان حديث النملة وهي تحث قومها على الدخول في مساكنهم تبسم سليمان ضاحكا وحده ولم يشاركه أحد من جنده بذلك ، ولهذا قال «ربى أوزعني أن أشكر نعمتك» .. إن التصديق بهذه الآية يقتضي إيمانا تاما بالله وقدرته ، فأذا ما توفر هذا الايمان فأن قدرته تعالى قادرة أن تفعل ما تشاء ، ويعلق الامام الرازي على هذه الآية بقوله : [فالمقصود منه تشهير نعمة الله تعالى والتنويه بها ودعاء الناس الى التصديق بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير - قال صاحب الكشاف : المنطق كل ما يصوت به من المفرد والمؤلف المفيد وغير المفيد ... وقالت العرب نطقت الحمامة ، فالذي علم سليمان عليه السلام من منطق الطير هو ما يفهم بعضه من بعض من مقاصده وأغراضه][٢١٥] .
- ويوضح الامام الرازي حديث النملة الذي سمعه سليمان عليه السلام [فالمعنى أنها تكلمت بذلك وهذا غير مستبعد فأن الله تعالى قادر على أن يخلق فيها العقل والنطق ... فأعلم أن النملة لما قاربت حد العقل لاجرم ذكرت بما يذكر به العقلاء ... «فتبسم ضاحكا من قولها» إنما ضحك لامرين أحدهما إعجابه بما دل من قولها على ظهور رحمته ورحمة جنوده وعلى شهرة حاله وحالهم من باب التقوى .. والثاني سروره بما آتاه الله

مما لم يؤت أحدا من سماعه لكلام النملة وإحاطته بمعناه][٢١٦] .

- وعن تحشيد الجند من الجن والانس والطير لسليمان فهذه (آية أخرى) تفتح الباب واسعا أمام المعجزة الرئيسية المتعلقة بالملكة بلقيس ونقلها وعرشها بلمح البصر .. إن كرم الله سبحانه بأن يجعل الجن والانس والطير جنودا لنبي فأن ذلك يعني أنه سبحانه أراد أن يمد سلطان هذا النبي إلى حيث تمتد الارض ويكون حكمه قائما على طول المسافة حيثما كان هناك إنس وطير ، ويوضح الامام الرازي أبعاد هذه الآية قائلا (... والمعنى أنه جعل الله تعالى كل هذه الاصناف جنوده ولا يكون كذلك بأن يتصرف على مراده ولا يكون كذلك إلا مع العقل الذي يصح معه التكليف ولذلك قلنا أن الله تعالى جعل الطير في أيامه حمالة عقل وليس كذلك حال الطيور في أيامنا وإن كان فيها ما قد ألهمه الله تعالى الدقائق التي مضت بالحاجة اليها أو خصها الله لمنافع العباد كالنمل وغيره)[٢١٧] .

- لقد أثارت هذه الآيات طعون الكفرة والملحدين حيث تعرضوا للنقد والتجريح على حديث النملة والهدهد مستنكرين إمكانية حدوث ذلك ونسى هؤلاء أو تناسوا أن الذي خلق السموات والارض وما عليها من أحياء قادر أن ينطق هذا المخلوق طيرا كان أو نملة ، إن المفارقة القائمة بين طبيعة هذه الطيور ونطقها كبيرة ولكنها تصير صغيرة سهلة على من يخلق كل شئ ولهذا أكدنا أن التصديق بهذه المعجزة يتطلب إيمانا عميقا بالله فاذا ما توفر ذلك حصل التصديق والا فان طبيعة الاشياء ومنطق العقل لا يستطيع قبولها . وعن عناد الكفرة والملحدين يرد الامام الرازي عليهم قائلا : [إن الملاحدة طعنت في هذه القصة من وجوه .. إن هذه الآيات اشتملت على أن النملة والهدهد تكلما بكلام لا يصدر ذلك الكلام الا من العقلاء وذلك يجر إلى السفسطة فانا لو جوزنا ذلك لما آمنا في النملة التي نشاهدها في زماننا أن تكون أعلم بالهندسة من إقليدس وبالنحو من سيبويه ... والجواب .. أن ذلك الاحتمال قائم في أول العقل وأن ما يدفع ذلك بالاجماع وعن البواقي إن الايمان بافتقار العالم الى القادر المختار يزيل هذه الشكوك .. الآية دلت على وصف الله تعالى بالقدرة والعلم ، أما القدرة فقوله (يخرج الخبء في السموات والارض) وسمو المخبوء بالمصدر وهو يتناول جميع أنواع الارزاق

والاموال واخراجه من السماء بـالغيث ومن الارض بالنبـات .. وأما العلم فقوله (ويعلم ما تخفون وما تعلنون) واعلم أن المقصود من هذا الكلام الرد على من يعبد الشمس وتحرير الدلالة هكذا : الاله يجب أن يكون قادرا على إخراج الخبء وعالما بالخفيات . والشمس ليست كذلك فهي لاتكون إلها وإذا لم تكن إلها لم يجز السجود لها ، أما أنه سبحانه وتعالى يجب أن يكون قادرا عالما على الوجه المذكور ، فلما أنه واجب لذاته فلا تختص قادريته وعالميته ببعض المقدورات والمعلـومات دون البعض ، وأما ان الشمس ليست كذلك فلأنها جسم متناه ، وكل ما كان متناهيا في الذات كان متناهيا في الصفات)(٢١٨) .

أما عن المعجزة الرئيسية التي من الله بها على نبيه سليمان وهي نقل بلقيس وعرشـها من بلاد اليمن الى الشام فأنها تأتي نتيجة منطقيـة للمعجزة الاولى التي أوضحناها حيث علم الله سبحانه سليمان منطق الطير وجعل الجن والانس والطير جنوده .. لقد حفظ القرآن الكريم هذه المعجزة في الآيات الكريمة الآتية : [قال يأيها الملأ أيكم يأتيني بعرشـها قبل أن يأتوني مسلمين ■ قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين ■ قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر ومن شكر فأنما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربي غني كريم ■ قال نكروا لها عرشـها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون ■ فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو واوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ■ وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين ■ قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قـالت ربي إني ظلمت نفس واسلمت مع سليمان لله رب العالمين](٢١٩) .

إن في هذه المعجزة أبعاد وصورا كثيرة تتزاحم مع بعضها كل صورة تشكل لوحة بارعة في معانيها ودلالاتها وفي أدناه جمع وتحليـل لهذه الصور والابعاد :ـ

- إن المنافسة بين العفريت من الجن وبين الذي عنده علم من الكتاب كانت حادة فقد تعهد العفريت أن يأتي بعرشـها قبل أن يقوم سليمان من مقامه ـ ويبدو أن هناك وقتا محددا لمقام سليمان يبدأ في موعـد

وينتهي عند ميعاد ـ وهذا الوقت قد يكون بين الصبح أو الضحى وبين الظهيرة أو بعدها بقليل أما الذي عنده علم فتعهد بنقل عرشها قبل أن يرتد طرف سليمان إليه ، وفي هذه المنافسة بين الجن والذي عنده علم هي منافسة بين واحد من قوى الجن وبين الانسان حيث أن الذي عنده علم لا يكون الا إنساناً كان السبق للانسان على الجن ، ذلك لآدميته وعلمه ، مما يشير الى أهمية العلم وفضله وسلطانه على غيره ... إن الذي سبب نقل العرش ليس الانسان ولا علمه إنما هو الله بأمره وقدرته وكان العفريت من الجن يستطيع أن يدعى بأنه قادر على نقل عرشها قبل أن يرتد طرف سليمان إليه لأن إلتزام العفريت بنقل العرش قبل أن يقوم من مقامه ، إن ذلك لم يكن إلا بقدرة الله سبحانه وتعالى ، وعندما دفع الله (الذي عنده علم من الكتاب) أن يتحدى بنقل العرش بين طرفة عين وانتباهتها . إنما كان ذلك بفضل الله وكرمه ، إلا أنه جلت قدرته حتى وهو يقدر الاشياء ويأمر بها يضع درجة متميزة للانسان ولعلمه على سواه .

- يعلق الامام الرازي على هذا النقل لعرش بلقيس السريع بقوله : (واختلفوا في غرض سليمان عليه السلام من إحضار ذلك العرش على وجوه «أحدها» أن المراد أن يكون ذلك دلالة لبلقيس على قدرة الله تعالى وعلى نبوة سليمان حتى تنضم هذه الدلالة إلى سائر الدلائل التي سلفت «وثانيها» أراد أن يؤتي بذلك العرش فيغير وينكر ثم يعرض عليها حتى أنها هل تعرفه أو تنكره ، والمقصود اختبار عقلها ، وقوله تعالى : «قال نكروا لها عرشها ننظر اتهتدي» كالدلالة على ذلك و«وثالثها» ... أراد أن يأخذه قبل إسلامها لعلمه إنها إذا أسلمت لم يحل له أخذ مالها ، «ورابعها» .. إن العرش سرير المملكة فأراد أن يعرف مقدار مملكتها قبل وصولها إليه)[٢٢٠] .

- وفي هذه المعجزة خوارق باهرة أبرزها كيف يجوز نقل بلقيس وحاشيتها وعرشها عبر هذه المسافة الطويلة بلحظة . إن الرد على ذلك أنها قدرة الله التي خلقت هذا الكون وحركت شموسه وكواكبه ونجومه حركة منظمة سريعة بحيث أن الارض تدور حول نفسها دورة كاملة خلال ٢٤ ساعة وتدور حول الشمس على الرغم من المسافة الهائلة بينهما خلال سنة واحدة فالذي يكور الارض ويدفعها للحركة بهذه السرعة الهائلة

قادر على أن ينقل عرش بلقيس بلمحة بصر . المسألة المهمة في هذا الأمر هي الايمان بوجود الله وقدراته فاذا سلمنا بذلك كان تسليمنا بهـذه المعجزة وغيرها تسليما رضيا مقنعا وإلا فالامر غير قابل للاثبات بعقل الانسان ومداركه .

- إن مصدر الاعجاز في هذه الآية هو حدوث النقل بالسرعة المشار إليها وبحضور شهود عيان من طرفي القضية ، سليمان وجنده .. وبلقيس وعرشها وحاشيتها هذه الحركة المشهودة المادية المحسـوسة كـانت شاهدا على صحتها ووقوعها وقوة لحمل العقل على التصديق لما يراه بعينيه ويلمسه بيديه ويحسه بحواسه المختلفة ، ومما يشير الى عملية الاحساس المادية قوله تعالى (فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو) من أجل أن تكون هي الشاهدة على تفاصيل هذه المعجزة حيث أنها أعرف بعرشها من غيرها ، زد على ذلك أن نقلها هي مع العرش من مكان الى آخر يختلف اختلافا أساسيا كان شاهدا ماديا آخر على وقوع هذه المعجزة .. أضف الى ذلك أن سليمان (ع) طلب منها أن تمارس عملا في جانب من جوانب عرشها حيث (قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها ، في سبيل جمع أبعاد وصور هذه المكرمة ووضعها بين يدي بلقيس لكي تستقر على موقف ترى فيه قدرة الله متجسمة متحركة فاعلة تحيط بها من جوانبها كلها .

- يوضح الامام الرازي جانبا من هذه المعجزة المتعلقة بنقل العرش على تلك الصيغة وبالسرعة الخاطفة فيقول (... وها هنا سؤال وهو أنه كيف يجوز والمسافة بعيدة أن ينقل العرش في هذا القدر من الزمان وهذا يقتضي إما القول بالطفرة أو حصول الجسم الواحد دفعة واحدة في مكانين ، (جوابه) إن المهندسين قالوا كرة الشمس اكبـر من كرة الارض بمائة وأربع وستين مرة ثم ان زمان طلوعها زمان قصير ، فاذا قسمنا زمان طلوع تمام القرص على زمان القدر الذي بين الشام واليمن كانت اللمحة كثيرة . فلما ثبت عقلا إمكان وجود هذه الحركة السريعة وثبت أنه تعالى قادر على كل الممكنات زال السؤال) .

- ويعلق سيد قطب على المعجزة في قسمها الاول وهو تعلم سليمان منطق الطير وتحشيد الجند له بقوله : [في هذا الشأن . بأنه نوع من إدراك لغـات الطير والحيوان والحشـرات عـلى طريقـة المحـاولات العلميـة

الحديثة ، وهذا إخراج للخارقة عن طبيعتها وأثر من آثار الهزيمة والانبهار بالعلم البشري القليل ! وأنه لأيسر شئ وأهون شئ على الله أن يعلم عبدا من عباده لغات الطير والحيوان والحشرات هبة لدنية منه بلا محاولة ولا اجتهاد وإن هي إلا إزاحة لحواجز النوع التي أقامها الله بين الانواع وهو خالق هذه الأنواع][٢٢٢] . وبخصوص تحشيد الجن والانس والطير جنودا لسليمان يدركون ما يطلب منهم يقول [أما الشق الآخر فكان تسخير طائفة من الجن والطير لتكون تحت إمرته وطوع أمره كجنوده من الانس سواء بسواء . والطائفة التي سخرها له من الطير وهبها إدراكا خاصا أعلى من إدراك نظائرها في أمة الطير ... يبدو ذلك في قصة الهدهد الذي أدرك من أحوال ملكة سبأ وقومها ما يدركه أعقل الناس وأذكاهم وأتقاهم ، وكان ذلك كذلك على طريق الخارقة والاعجاز .. ولكن هاتين الحقيقتين لا تمنعان أن تقع الخارقة عندما يريد الله خالق السنن والنواميس وقد تكون الخارقة ذاتها جزءا من الناموس العام الذي لا نعرف أطرافه][٢٢٣] .

أما بشأن الجانب الثاني من المعجزة وهو نقل بلقيس وعرشها فيقول : [وهذا الذي عنده علم من الكتاب كانت نفسه مهيأة بسبب ما عنده من العلم أن تتصل ببعض الأسرار والقوى الكونية التي تتم بها تلك الخارقة التي تمت على يده لأن ما عنده من علم الكتاب وصل قلبه بربه على نحو يهيه للتلقي ولاستخدام ما وهبه الله من قوى وأسرار ... «فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو» .. إنها مفاجأة ضخمه لا تخطر للملكة على بال فأين عرشها في مملكتها وعليها أقفالها وحراسها ، أين هو من بيت المقدس مقر ملك سليمان وكيف جئ به ومن ذا الذي جاء به ... لقد كانت المفاجأة قصرا من البللور أقيمت أرضيته فوق الماء وظهر كأنه لجة فلما قيل لها أدخلي الصرح حسبت أنها ستخوض تلك اللجة فكشفت عن ساقها فلما تمت المفاجأة كشف لها سليمان عن سرها (قال إنه صرح ممرد من قوارير) .. ووقفت الملكة مدهوشة أمام هذه العجائب التي تعجز البشر وتدل على أن سليمان مسخر له قوى أكبر من طاقة البشر .. فرجعت إلى الله وناجته معترفة بظلمها لنفسها فيما سلف من عبادة غيره معلنة إسلامها (مع سليمان) لا لسليمان ولكن (لله رب العالمين)][٢٢٤] .

معجزات عيسى عليه السلام :

كانت نبوة عيسى عليه السلام آخر النبوات قبل ختم النبوة برسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

لقد مرت المعجزات متوالية من آدم عليه السلام حتى عيسى ابن مريم عليه السلام وكانت تلك المعجزات خارقة قاهرة أراد الله سبحانه بها حمل الانسان وإقناعه بالتجربة المادية المحسوسة والامثلة الفعلية الملموسة على وجوده ووحدانيته وقدرته .

إن تلك المعجزات كانت وقائع وشواهد يمن الله بها على أنبيائه ليزدادوا إيمانا ويتوصلوا بها إلى إقناع أقوامهم بالأيمان به وبرسالاته .

كانت تلك المعجزات تعبر عن حالة التحدي والسؤال بين الانسان والقوى المحيطة به وخاصة بينه وبين الله فكان سبحانه يمن على أنبيائه باجابات وأمثلة يعبر بها عن وحدانيته ومشيئته لذلك نجد أن معظم تلك المعجزات كانت في سبيل التدليل على وجود الله ووضع الشواهد مجسمة متحركة أمام الانسان لاقناعه بحقيقة الله الواحدة .

وكانت تلك المعجزات تتناسب والمرحلة الحضارية التي تظهر فيها ، ولما كان الانسان وما يزال يفكر في ماهية الله وحقيقته وقدرته وفي الحياة والموت فأن معظم تلك المعجزات كانت متصلة بهذه المسألة وما يتفرع عنها .

إن رجعة الى المعجزات التي أتينا على ذكرها توضح أن أغلبها كان يدور حول ظاهرة الحياة والموت وحول البعث بعد الوفاة لان هذه القضية تعتبر مهمة وقد وقف عندها الانسان طويلا منذ فجر حياته المتحضرة .

ونلاحظ أن الانسان نبيا والانسان عامة كان وسيلة تلك المعجزات وغايتها فالانبياء بشر قبل وبعد أن صاروا أنبياء فكانت المعجزات ترسل اليهم وتتمثل لهم وفيهم لتكون مؤثرة فاعلة تمكنهم من هداية الناس وإرشادهم .

إن معظم المعجزات التي من الله بها على أنبيائه كانت تقع على مقربة من الانسان وفي دائرة يكون هو مركزها بحيث يستطع مشاهدة تلك المعجزات وتفسيرها وإدراكها ولهذا قلنا بأن الانسان نبيا كان وسيلة تلك المعجزات وكان غايتها في وقت واحد .

أما معجزات عيسى عليه السلام فكان هو ذاته وسيلتها قبل أن يكون نبيا وعندما صار نبيا ، كان هو ميدانها ومسرح أحداثها فكان هو المعجزة قبل ولادته

ومنذ ولادته حتى انتقاله إلى ربه . ويبدو أن الله سبحانه وتعالى قد أراد لعيسى أن يكون المعجزة والنبوة والانسان في آن واحد لكي يوقف المعجزات القاهرة التي واصل سبحانه تقديمها والامتنان بها على أنبيائه وذلك لان ما قدمه منها يكفي لاقناع الانسان وحمله على الايمان إن أراد ذلك .

إن مطالبة الانسان المستمرة بخوارق ومعجزات قاهرة يدل على حاجة الانسان إلى وسائل باهرة لاقناعه كما تدل على عدم إيمانه بالمعجزات السابقة إيمانا قاطعا ولهفته للمزيد منها طمعا في إقناع نفسه وحملها على الايمان ، إن مثل هذا الجزع الدائم والريبة المستشرية تبقى الانسان في حالة من القلق والتشوق إلى مزيد من الآيات الباهرة لعلها تستطيع حمله إلى شاطئ الامان واليقين لذلك قرر سبحانه أن ينهي في نبوة عيسى المعجزات الخارقة ويجعل من معجزاته خاتمة الطريق في هذا المجال لكي يعتمد الانسان على سجل تلك المعجزات ويعول على إدراكه في الوصول الى ما يؤمن به ويقتنع لذلك سنجد أن معجزة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم كانت القرآن لغة ومعنى أي أن معجزته تعتمد على الادراك والوعي وليس على الخوارق والظواهر البراقة والهزات العنيفة والتجارب المادية الهائلة لكي يستقر الانسان ويواصل حركته الواعية المتحفزة ويؤمن بعقله وقناعته وفي ذلك الايمان العظيم وفي سلوكه هذا القوة والاندفاع في درب الابداع وإضافة المزيد على عطائه ونبوغه .

إن الآيات التي عبرت عن معجزات عيسى عليه السلام كثيرة ضمت سورة مريم معظمها وهذه الآيات يمكن توزيعها إلى مجموعتين رئيسيتين المجموعة الاولى تمهد للثانية والثانية توضح الاولى وتؤكدها وهناك صلة بين المجموعتين حيث أن كلا منهما من عنده سبحانه .

أما المجموعة الاولى فهي المتعلقة برزق زكريا وامرأته ولدا على الرغم من أنها كانت عاقرا وكان زكريا شيخا كبيرا : (قال ربي إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك ربي شقيا ■ وإني خفت الموالي من ورائي وكانت إمراتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا ■ يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله ربي رضيا ■ يا زكريا إنا نبشرك بغلام إسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا ■ قال ربي أنّى يكون لي غلام وكانت إمراتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا ■ قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا)[٢٢٥] .

إن في الآيات الكريمة هذه معجزة من الله بها على عبده زكريا حيث استجاب لندائه فوهب له وليا يرثه ويرث آل يعقوب على الرغم من أن امرأته كانت عاقرا وقد بلغ من

الكبر عتيا ، إن آية الله هذه جاءت حية تتحرك على الواقع تبدأ من نداء يتصاعد ممزوجا بالرجاء مضمخاً باللوعة والتوسل يتعالى في الهزيع الاخير من الليل وزكريا يحتضن الألم ويحس برغبة زوجته في أن يكون لها ولد وبينما هو في نـدائه إذا بالبشرى تهبط إليه «يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى» فيأتي يحيى تقيا نقيا صالحا يحمل ميراث أبيه فينبعث همس ، ويتصاعد كلام ويسأل استغراب كيف يكون لهذا الشيخ وامرأته العاقر ولدا فيرد زكريا (هذا من فضـل ربي) ويعلن المؤمنون أن الله قادر على كل شئ فكما خلق الانسان في البدء من دون أن يكون هناك تزاوج فأنه أسهل عليه أن يكون لهما ولد وهما متزوجان وظل فريق يدس تـارة بالتكذيب رجما بالغيب وتارة بالتسفيه والاستصغار لهذه المعجزة بـأنها لم تـك شيئاًمستغربا حيث هناك زوج وزوجة وقد يتأخر الانجاب زمنا ويظهر ذلك بعد فترة طالت أو قصرت .

إن العبرة في هذه الآية لمن يؤمن أما المعاندون والمكابرون فأنهم لن ينزلوا عن عنادهم حتى ولو شاهدوا الآيات المعجزات تتهادى بين أيديهم ، إنه سبحانه جعلها آية يمهد بها لمعجزة عيسى وولادته العجيبة الخارقة .

يعلق الامام الرازي على هذه الآية بقوله [... إن كل الناس إنما يسميهم آباؤهم وأمهاتهم بعد دخولهم في الوجود وأما يحيى عليه السلام فأن الله تعالى هو الذي سماه قبل دخوله في الوجود فكان ذلك من خواصه فلم يكن له مثل وشبيه في هذه الخاصية .. إنه ولد بين شيخ فان وعجوز عاقر واعلم أن الوجه الاول أولى وذلك لان حمل السمي على التطير وان كان يفيد المدح والتعظيم ولكنه عدول عن الحقيقة من غير ضرورة وأنه لا يجوز ، وأما قول الله تعالى (هل تعلم له سميا) فهناك إنما عدلنا عن الظاهر لانه قال (فاعبده واصطبر لعبادته هل له سميا) ومعلوم أن مجرد كونه تعالى مسمى بذلك الاسم لا يقتضي وجوب عبادته فلهذه العلة عدلنا عن الظاهر ، أما ها هنا فلا ضرورة في العدول عن الظاهر فوجب إجراؤه عليه ولأن في تفرده بذلك الاسم ضربا من التعظيم ... وفي قوله تعالى (قال ربي أنى يكون لى غلام ...) ... إن زكريا (ع) لما تعجب بقوله (أنى يكون لي غلام) مع أنه هو الذي طلب الغلام؟ إن قوله إنى يكون لي غلام لم يكن هذا مذكورا بين أمته لأنه كان يخفى هذه الأمور عن أمته فدل على أنه ذكره في نفسه ... وما هذا الاصلاح الا أنه أعاد قوة الولادة وقد تقدم تقرير هذا الكلام ... (قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا) ان المراد لا تعجب فأنه كذلك قال ربك لا خلف في قوله ولا غلط ثم قال بعده هو على هين بدليل خلقتك من قبل ولم تك شيئا ... وقوله كذلك

قال ربك أي نهب الولد مع بقائك وبقاء زوجتك على الحاصلة في الحال][٢٢٦] .

ويفسر سيد قطب معجزة «زكريا» عليه السلام قائلا [... إنه يناجي ربه بعيدا عن عيون الناس ، بعيدا عن اسماعهم ، في عزلة يخلص فيها لربه ، ويكشف له عما يثقل كاهله ويكرب صدره ويناديه في قرب واتصال : «رب» بلا واسطة حتى لا حرف النداء ، وإن ربه ليسمع ويرى من غير دعاء ولا نداء ولكن المكروب يستريح الى البث ويحتاج إلى الشكوى والله الرحيم بعباده يعرف ذلك من فطرة البشر فيستحب لهم أن يدعوه وأن يبثوه ما تضيق به صدورهم .. «وقال ربكم ادعوني استجب لكم» ليريحوا أعصابهم من العبْ المرهق ، ولتطمئن قلوبهم إلى أنهم قد عهدوا بأعبائهم إلى من هو أقوى وأقدر وليستشعروا صلتهم بالجناب الذي لا يضام من يلجأ إليه ولا يخيب من يتوكل عليه ... وزكريا يشكو إلى ربه وهن العظيم .... «وكانت إمرأتي عاقرا» لم تعقب فلم يكن له من ذريته من يملك تربيته وإعداده لوراثته وخلافته ... ثم ترتسم لحظة الاستجابه .. فالرب ينادي عبده من الملأ الاعلى .. «يأ زكريا إنا نبشرك بغلام» ويغمره بالعطف فيختار له إسم الغلام الذي بشره به «اسمه يحيى» وهو اسم فذ غير مسبوق «لم نجعل له من قبل سميا» .. إنه فيض الكرم الالهي يغدقه على عبده الذي دعاه في ضراعة وناجاه «في خفية ... والله هو الذي جعل العاقر لا تلد وجعل الشيخ الفاني لا ينسل ، وهو قادر على إصلاح العاقر وإزالة سبب العقم وتجديد قوة الاخصاب في الرجل . وهو أهون في اعتبار الناس من إنشاء الحياة إبتداء ، وأن كل شئ هين على القدرة إعادة أو إنشاء ... وقد ورث يحيى أباه زكريا ونودي لتحمل العبْ وينهض بالامانة في قوة وعزم «وآتيناه الحكم صبيا وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا» فهذه هي المؤهلات التي زوده الله بها وأعده وأعانه على احتمال ما كلفه إياه عندما ناداه .. وبرزت العبرة من القصة في دعاء زكريا واستجابة ربه له وفي نداء يحيى وما زوده الله به ، ولم يعد في تفصيلات القصة بعد ذلك مايزيد شيئا في عبرتها ومغزاها)[٢٢٧] .

أما المعجزات الخاصة بعيسى فهى أعظم من المعجزة الأولى فهى تحكي قصة ميلاد عيسى ابن مريم وولادته من دون زواج من رجل فهى كما يقول سيد قطب(الحادث العجيب الضخم)[٢٢٨] . حيث لم تشهد البشرية ـ خلق الانسان الأول من غير أب وأم وقد مضت القرون بعد ذلك الحادث فشاءت الحكمة الالهية أن تبرز العجيبة الثانية في مولد عيسى من غير أب على غير السنة التي جرت منذ وجد الانسان على هذه الأرض ليشهدها البشر ثم تظل في سجل الحياة الأنسانية بارزة فذة تتلفت إليها الأجيال إن عز عليها أن تتلفت إلى العجيبة الأولى التي لم يشهدها

إنسان -)(٢٢٩) .

إن الأيات التي تحدثت عن هذه العجيبة هي (واذكر في الكتاب مريم إذا انتبذت من أهلها مكان شرقيا■فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا■ قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا■قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا■قالت أنّى يكون لى غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا■قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا■فحملته فانتبذت به مكانا قصيا ■ فأجاءها المخاض إلى جذ ع النخلة قالت ياليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا)(٢٣٠) .

أن قراءة ثانية لهذه الآيات الكريمة تثير العجب والدهشة وأن قراءتها مرات بعين العقل وروح الايمان تثير الحيرة وتبعث على القناعة مشدودة إلى الدهشة وأن وقفة تستشرف الماضي البعيد حيث بدء الخلق تعيد النفس إلى مستقرها والإدراك إلى يقظته واقتناعه.

إن الدلالات التي تدفعها هذه المعجزة مكن توزيعها في النقاط الآتية:

- إن السنة الالهية قد رسمت طريق الحياة للانسان وفي الأحياء بأن ولادتها وتكاثرها يأتي عن طريق الزواج والتزاوج فيما بينها وليس أمام الإنسان من أحياء إلا والتزاوج أساس تكاثرها واستمرار ولادتها وقد دفعت هذه السنة الأنسان أن ينسى أن الله سبحانه هو الذي خلق هذه الأحياء وجعلها ثنائية التكوين وجعل في لقاء وتلاقح الذكر والأنثى فيما بينهما سبباً للتوالد، ونظرا لاستمرارهذه العادة وتقادم الزمن عليها فأن الانسان نسي أو تناسى أن ذلكم التكاثر من عند الله فراح يسأل عن الحياة وسرها وعن البعث وهل سيكون وكيف سيحدث، وعلى الرغم من الآيات الكثيرة التي قدمها سبحانه لعدد من أنبيائه وهي توضح كيف أنه جلت قدرته(يحيى ويميت ويحيى مرة أخرى) فأن الانسان بقى يسأل عن هذه المسألة ويلحف في الطلب لتوضيحها وكلما تقدمت أية تحمل في طياتها جوابا على حيرته وأسئلته فأنه لايلبث أن ينسى تلك الآيات ويعود ثانية يطالب بمعجزات أخرى تعيد له ثقته وإيمانه.
- فعلى الرغم من الأيات المعجزات التي من الله سبحانه بها على أنبيائه من آدم عليه السلام حتى موسى عليه السلام فأنه ظل يسأل عن سر الحياة وعن القوة التي تبعث الروح في الاحياء وتفتش عن أسرار هذا الوجود والقوى المولدة له والمحركة لحركته والعلة الأولى لوجوده فكانت(هـذه المعجزة) جـوابا عـلى تساؤل الانسان وحيرته وهي أخـر جواب بـاهرقـاهر خـارق للعادة يعطي

للمعجزات الاخرى قوة ويجمعها مع بعضها ويقدمها على طبيعة لعلى في ذلك إرواء لظمأ الانسان وإقناعا له وسحبا لموقفه من بؤرة الشك والريبة الى مستودع الأمان والأستقرار.

- إن البعد الآخر لهذه المعجزة ، أنها تقع على شكل مادي متحرك يحمل في تضاعيفه كل مقومات الفعل والحركة وما تنتهي إليه هذه الحركة إلى نتائج محددة تتناسب مع طبيعتها وأبعادها ، فعندما يقرر سبحانه وتعالى البدء بهذه المعجزة يصوغها صياغة مكشوفة ويحملها عناصر السببية كلها فيقول (واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا ■ فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا) .. إن قراءة أخرى لهاتين الآيتين الكريمتين تبين أن الله سبحانه وتعالى أعد كل عناصر اللقاء بين الذكر والأنثى لكي يكون التزاوج ليسفر عنه الحمل ومن ثم الولادة ..

إن ابتعاد مريم عن أهلها اذ انتبذت منهم مكانا شرقيا يشير إلى الخلوة وإلى طبيعة المكان الذي تتهيأ فيه فرصة اللقاء في معزل عن أنظار الناس وهذا ما ألفته البشرية ولا سيما في تلك المرحلة الحضارية حيث أن الانسان هو المخلوق الذي تطور وتميز من سائر الحيوانات بأنه يلتقي عندما يريد اللقاء بنصفه الثاني في معزل عن الآخرين . ذلك مصداقا لقوله تعالى : (فاتخذت من دونهم حجابا) إقرارا بالسنة المألوفة التي درج القوم عليها .

وفي إرسال الله روحه فتمثل لها بشرا سويا تأكيد على أنه سبحانه قد هيأ أسباب التكوين فجعل من روحه على هيأة بشر متكامل الخلق بحيث يقوم بالمهمة المكلف بها على الوجه المطلوب . ومما يشير الى هـذا التمثيل عـلى صورة بشر سوى أن السيدة مريم قد شاهدته عيانا وتصوررته رجلا يريد بها سوءاً فاستعاذت بالله منه (قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا) ، ومما يؤكد أن ذلك البشر كان سويا وعلى صورة رجل كامل البنية أوضح لها سبب إرساله حيث قال (إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيا) مما يشير الى ان المهمة التي جئ بها هي أن يهب لها غلاما وكأنه يقول بأن ولادة هذا الغلام من عنده ولكنها لابد أن تمر وفق مقاييس معينة وعبر عملية تتزاحم أبعادها وكأنها عملية مادية لا تختلف عن غيرها من العمليات التي بها تتم حالة الانجاب والتكاثر .

إن الله سبحانه وتعالى كان قادراً على أن يهب مريم ولدها دون أن يرسل لها

روحه فيتمثل لها بشرا سويا كما أنه قادر على أن يرزقها بولد دون أن ينفخ فيها (والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين)[٢٣١] . الا أنه سبحانه أعد هذه العدة ليؤكد أمرين أساسيين ـ الاول أن الله خالق كل شيً وقادر على أن يخلق من العدم ما يشاء والامر الثاني ـ أنه عندما يريد أن يعمل عملا يهيً أسبابه ويمد هذه الاسباب بقوة من عنده فيجعلها عوامل مسببة لما يريد وما يقرر ، وفي ذلك علامة بارزة من أنه سبحانه يريد أن يعلم الانسان خاصة بأن لكل حادثة سببا ولكل نتيجة مجموعة من العوامل يتفاعل بعضها مع بعض فتولدها الا أن هذه الاسباب لا يمكن أن تكون فاعلة ومتحركة الا بقوة من الله فهي التي تدفعها للحركة وتعطيها الفاعلية والتأثير . وهذه القوة هي من عند الله وهي في معجزة عيسى وفي كل المعجزات قوته تعالى . روحه التي تتمثل فعلا وحركة سمعا وبصرا أثرا وتأثيرا ولذلك عبر عن قوته هذه بالروح في آيات كثيرة فقال (فنفخنا فيها من روحنا) وكان يرسل روحه هذه عبر ملائكته ويتحدث بهم إلى أنبيائه (إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين)[٢٣٢] .. ويجعلها على شكل بشر يؤدي مهمة معينة (فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا) .. وعندما يطالب القوم الرسول ليوضح لهم معنى الروح يرد عليهم سبحانه ردا جامعا مانعا حيث يقول (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) وهذا يعني أن روح كل الأحياء وحياتهم بأمر من الله ونفحة من روحه سبحانه وتعالى .

- إن الله سبحانه وتعالى جعل هذه المعجزة معجزة تحمل الانسان على الاثارة والتفكير وعلى الظن وضرورة استعمال العقل وعدم التسليم الا من خلال المعاناة والمرور بأفكار وظنون وصور كثيرة متساوقة ومتناقضة كما أنه سبحانه وضع مريم في موقف حرجٍ حيث جعلها مسرحا لمعجزة تحمل كل علامات التباعد والتنافر وتثير أسئلة وظنونا (قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بَشر ولم أكن بغيا) كان باستطاعته سبحانه أن يرزقها بولدها دون أن يمرر عليها صورته بشرا ليهب لها غلاما زكيا فتظن به ظن السوء وتستغيث بأنها لم تكن متزوجة ولم تكن بغيا .. فترد تلك الروح عليها (قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا) .

كل هذه المضاعفات والصور والاسباب أعدها سبحانه لتجئ عملية الحمل والولادة وكأنها عملية واقعية منطقية الا ان الناس ألفوا أن تكون الولادة عبر

عمليات متلاحقة تشبه أحداث هذه المعجزة ، ذلك لكي يحتفظ سبحانه وتعالى بالسياق المنطقي العلمي للاحداث والنتائج من أنها تسير وفق منطق علمي دقيق لا يمكن بدونه أن تقع الاحداث والنتائج .. ولكي يمتحن الانسان بعقيدته عندما يقدم له معجزة تحمل كل مقومات الصيرورة كما تحمل صورا خارقة لا يمكن إدراكها وتصديقها الا بالايمان بالله وبقدرته وأنه سبحانه إذ يهئ في المعجزة هذه الجوانب المنطقية العملية من جهة والمفارقات الخارقة من جهة ثانية إنما يريد أن يبقى على الانسان قوة متفاعلة تؤمن بالعقل وتربط بين الاسباب والنتائج وتجعله في موقفين متناقضين واحد يجره ذات اليمين والآخر صوب الشمال وفي هذه الحركة داخل الانسان بين هاتين الجهتين المتناقضتين تكمن حقيقة الوجود وتتمثل ديمومة الحياة على الأرض وتواصل العملية الحياتية سيرتها على اعتبار أن الانسان وسيلة هذه الحياة وغايتها وهذه الحصيلة لا تتحقق الا في بقاء حالة التناقض قائمة ومستمرة وأن إسقاط وزوال أي بعد من هذين التناقضين وبقاء الانسان على بعد واحد يعني سقوط الانسان وانتهاء دوره ولهذا فأن الله سبحانه وتعالى جعل معجزة عيسى معجزة مادية مشهودة متحركة حركة منطقية وجعلها تثير قناعة ويقينا لمعجزتها وتثير سؤالا وحيرة لبعض مفارقاتها وشدة الأحداث وعنفها فيها .

إن قدرة الله سبحانه وتعالى كانت قائمة في هذه المعجزة من أولها حتى آخرها ، فهو الذي أعد كل أسباب الولادة لمريم فكانت على الصورة التي حملتها الآيات الكريمة التي ذكرناها وحينما شعرت السيدة مريم بالحراجة وأنها ستكون مضغة في أفواه الناس يلوكون سمعتها ويتقولون عليها رد عليها سبحانه (قال كذلك قال ربك هو علي هين) ولما أحس بقلق السيدة مريم وآلامها وخشيتها وهي تردد (يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا) . تكرم جلت قدرته عليها بأن جعل مولودها يناديها ولما يزل في ساعته الاولى من ولادته وبذلك تبدأ المعجزة تأخذ بعدا آخر .

بعد أن أتم الله سبحانه هذه المعجزة في نصفها الاول المتعلق بالحمل والولادة بدون زواج كما أشرنا أعلاه . ولما كان علم الله كاملا يعلم ما تخفي الانفس وما تحمل كل ذي حمل ، أعد الجانب الثاني من المعجزة إعدادا تاما ليؤكد قدرته وليبرئ السيدة مريم مما سيوجه إليها من اتهامات ولكي يجعل من ولدها آية أخرى ... (فقدم سبحانه عددا من الآيات تصف حالة المولود الجديد وكيف أنه يختلف عن كل المواليد فيتحدث الى أمه أولا ليطمئن قلبها

بأن ما حصل لديها كان من عند الله وبأرادته) .. حيث قال تعالى (فناداها من تحتها الا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا ■ وهزي إليك بجذع النخله تساقط عليك رطبا جنيا ■ فكلي واشربي وقرى عينا فأما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن اكلم اليوم إنسيا ■ فاتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا ثريا ■ يا أخت هارون ما كان أبوك امرأً سوء وما كانت امك بغيا ■ فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا قال إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبيا ■ وجعلني مباركا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ■ وبراً بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا ■ والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا)(٢٣٣) .

- إن هذه الآيات التي تحدث فيها عيسى الى أمه وقومه كانت في سبيل إثبات صحة المعجزة الاولى وهي حمل مريم وولادتها من دون زواج ، إن المرحلة الحضارية التي تمثلت في أيامها هذه المعجزة أكدت على أن الانسان لا يستطيع التكلم الا في سن متقدمة عن يوم الولادة بسنوات وحينما نطق عيسى وهو لما يزل في ايامه الاولى ، فأن ذلك مفارقة للطبيعة البشرية حيث لم يظهر من قبل ولا في أيام هذه العجيبة ولا بعدها إنسان قد تكلم في مثل هذا العمر ، وعليه فأن حديث عيسى كان تزكية لامه وتبرئة لها من كل ما تحمله قصة حملها وولادته ودليلا على وجود الله وقدرته وأنه خالق كل شئ . ويعلق سيد قطب على هذه المعجزة بقوله : [لقد جرت بسنة الله التي وضعها لامتداد الحياة بالتناسل من ذكر وانثى في جميع الفصائل والانواع بلا استثناء حتى المخلوقات التي لا يوجد فيها ذكر وانثى متميزان تتجمع في الفرد الواحد منها خلايا التذكير والتأنيث ... ونسوا الحادث الاول حادث وجود الانسان لانه خارج عن القياس فأراد الله أن يضرب لهم مثل عيسى ابن مريم عليه السلام ليذكرهم بجدية القدرة وطلاقة الارادة وأنها لا تحبس داخل النواميس التي تختارها ولم يتكرر حادث عيسى لان الاصل هو أن تجري السنة التي وضعها الله وأن ينفذ الناموس الذي اختاره .. «ولنجعله آية للناس»](٢٣٤)

ولم يكن حديث عيسى عليه السلام مع أمه فحسب إنما كان معها وقومها حيث يخبرنا سبحانه (فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا ـ قال إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبيا ـ) إن هذا الحديث منه عليه السلام بالكتاب وأنه عبد الله وأنه نبيه في عمر كان فيه عيسى صبيا لا يمكن أن يكون والانسان في المهد ولا سيما وحديثه عن النبوة وكتابها وعن الانسان ذاته حيث

لم يصادف في تاريخ البشرية أن تحدث طفل في عمره هذا الحديث ... إن الله إذ قدر ذلك أراد أن يطمئن السيدة مريم على ندائه لها وهي تضعه ومن أجل أن يلقم المفترين حجرا ويدلل على أن أمر ولادته كان من فعل مقتدر عظيم .

- إن حديث عيسى هذا إكراما اعيسى ووضعه في مرتبة عالية من مراتب الانسان حيث أن أعلى مراحل تطور الانسان عندما وصل الى حالة استطاع بها النطق والتعبير عما يريد تعبيرا سليما ، لأن النطق صفة خاصة بالانسان وبها تميز عن سائر مخاوقات الله وأن هذه الصفة عندما تتحدث عن النبوة والكتاب فأنها تعني أن هذا الانسان بلغ درجة النبوة إذ الحديث بها لا يتم الا في انسان تميز درجات من غيره في الادراك وفي التعبير عن هذا الادراك ... وإذا ما تذكرنا أن معجزة آدم كانت النطق حيث علمه الله الاسماء كلها فكانت هذه معجزته فأنها ظلت المعجزة المستمرة للانبياء كافة إذ لا معجزة بدون كتاب ولا كتاب بدون حروف ولا حروف دون إنسان ينطق بها ويوزعها في كلمات تعبر عن معان يريدها وتمثل ما يعن ويدرك .

- ولم يكتف سبحانه بهذة الايات يقدمها تباعا ليثبت أقدام عيسى ويطمئن جزع أمه إنما قدم آيات أخرى إكراما لها وتأييدا له : (ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والأنجيل ■ ورسولا الى بني إسرائيل إني قد جئتكم بآية من ربكم إني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بأذن الله ، وأبرئ الاكمه والا برص واحيى الموتى بأذن الله وانبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيـوتكم إن في ذلك لأن لكم إن كنتم مؤمنـين)[٢٢٥] ... في الايتين الكـريمتين معجزات أخرى منها جعل الطين على هيأة الطير وبث الحياة فيه فيكون طيرا بأذن الله حيث قدم عيسى لقومه هذه العجيبة فصنع من الطين طيورا نفخ فيها فأذا هي تطير وجئ له بالأكمه والابرص حيث لا يرجى شفاؤهما وإذا بمسحة منه تشفيهما ولم يقف الأمر عند هذه ، إنما جئ بميت فنفخ فيه فعاد حيا وكرر هذا الامر مرات (واحيي الموتى بأذن الله) ... هذه الآيات البينات لم يسبق-لانسان أن قام بها كما لم يقدمها سبحانه الى نبي من قبل ، كل من هذه الآيات معجزة خارقة ، فليس في إمكانية إنسان مهما أوتى من قوة أن يجعل من الطين كهيأة الطير فينفخ فيه فيصير طيرا ولم يمكن من قبل لطبيب أن يشفي الاكمه والابرص ولم يتسن لانسان أن يحيي ميتا فعندما قام عيسى عليه السلام بذلك بأذن ربه ففي هذا معجزة وأية معجزة أراد بها سبحانه أن يغلق كل الأبواب التي فتحها القوم للنيل من مريم وابنها ، ولكي يقدم للناس عامة وقائع مادية

حية يبرهن لهم بها على وجوده وقدرته ، ويجيب عن تساؤلهم وحيرتهم التي ما انفكت تؤرقهم وتطالب بالمزيد من الآيات لعلهم يؤمنون فكان الله رحيما بهم إذ قدم لهم هذه الآيات واضحة دقيقة متحركةعلى مسمع ومرأى منهم في مستوى إدراكهم وفي حدود معارفهم وخارقة لسنة الطبيعة التي وقفوا على حدودها وأبعادها ..

- إن العبرة الكبيرة في قصة عيسى عليه السلام أن الله جعله هو ذاته معجزة في تكوينه وخلقه حيث أن هذا التكوين في طبيعته كان معجزة قبل أن يصير عيسى نبيا وقبل أن يمن الله عليه بأحياء الموتى وشفاء المرضى وذلك يعني أن عيسى عليه السلام كان ميداناً لواحدة من أكبر معجزات الله وكانت هذه المعجـزة وسيلة لنبوته ، ونبوته صارت بعدئذ دليلا على صحة معجزة خلقه وتكوينه . مما يشير الى أن المسيح عليه السلام بآدميته يمثل المعجزة الكبرى لله عز وجل حيث أن الانسان خلق ليكون واسطة الله للتعبير عن قدراته وإعجازه وأنه الوسيلة له سبحانه لهدايته وهداية بني جلدته إذ لولا الانسان لما كانت هناك ضرورة لقيام المعجزات أي لولا وجود الانسان وشكه وريبته لما كانت هناك حاجة لتقديم الآيات والأدلة لأثبات وجود الله والتأكيد على وحدانيته وقدرته ، ولولا الانسان لما كانت النبوة ، فالنبوة لاتكون الا لانسان ، وكل نبوة لابد أن يكون لها معجزة تبرهن على صحتها وتـؤكد عـلى صدقهـا ، ولولا الانسان بتكوينه لما قامت هذه المعجزة ولما مشت وتمثلت فيه وعبرت عن حقيقتها من خلال إدراك الانسان لها والتعبير عن دلالاتها .
- إن آدمية عيسى عليه السلام هي التي أعطته صفة الاعجاز وجعلته وسيلة الله ليعبر من خلاله عن قدرته ووحدانيته ، وعندما صيره نبيا إنما أبقاه في دائرة هذه الأدمية وحينما منّ عليه بآيات وأعمـال هي من عند الله ومن صفـاته وخصائصه وبخاصة (إحياء الموتى) فأن هذا الفضل لعيسى يكون في إكرام الله له بأن خلقه إنسانا ومنّ عليه ببعض من صفاته ، وفي حالة إخراج عيسى من دائرة (الناسوتيه) ورفعه وإدخاله في دائرة (الألوهية) وأنه كان الله فأن هذه الكينونة تسقطه وتسقط القائلين به في دائرة الشـرك وتجرده من كـل الفضائل والمكرمات التي من الله بها عليه وعلى أمه .. إن معجزة عيسى (ع) وفضله تكون في كونه إنسانا وتنتفي هذه المعجزة وتسقط عندما يدفع به الغلاة الى درجة الربوبية . ليس في دفع عيسى عليه السلام الى مرحلة الربوبية وجعله إلها أو جزءا من إله مسألة تضفي شيئا إيجابيا على عيسى بل أن في إضفاء

هذه الصفات عليه تجريد لعيسى عليه السلام من كل الفضائل التي من الله بها عليه وميزه بها من سائر خلقه .. لقد رد سبحانه وتعالى على المغالين وهم يرفعون عيسى (ع) عن مكانته ويصلون به الى درجة الالوهية بقوله (يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق أنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة إنتهوا خيرلكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الارض وكفى بالله وكيلا)[٢٣٦] ..

إذ ليس مستغربا ولا جديدا في أن يقدر الله على إحياء الموتى وابراء المرضى مما يعانون حيث أنه سبحانه قد أوضح قدراته هذه في عدد من المعجزات التي من الله بها على أنبياء من قبل عيسى عليه السلام ، أضف الى ذلك أن اعتبار عيسى إلها إنهاء لوجوده وإلغاء لدوره وطي لصفحته حيث يدخل عندئذ عيسى عليه السلام مسألة في السر الاعظم ويدخل في بحره المتلاطم ولا يكون له أثر أو وجود خاص به .. إن في الابقاء على آدمية عيسى عليه السلام وإكرامه بالآيات العظيمة التي قام بها هو تمييز له من سائر الخلق وتمييز له على معظم الانبياء من قبله أما إذا ما كانت تلك المعجزات لعيسى (وهو إله) فليس في ذلك تفضيل له على أي إنسان أو نبي لأن من تحصيل الحاصل أن الله هو خالق كل شئ فله الفضل والمنة على خلقه . إن التفضيل والاكرام يكون بين الاصناف والانواع الواحدة فليس فخرا أن يفضل الانسان على سائر الحيوانات عبر عمل يقوم به خاص به ومنسجم مع طبيعته لايقوى أي حيوان على القيام به ، إن المفاضلة تكون بين حيوان وآخر من طراز واحد ، بين إنسان وآخر في مرحلة حضارية واحدة ، بين نبي وآخر في طبيعة الواجبات وحقيقة المعجزات المقدمة لكل منهم فلا يجوز المقارنة والتشبيه بين شيئين من حقيقتين متناقضتين تناقضا كليا .

- إن المغالين سقطوا في غلوهم حينما شاهدوا أن روح الله تتحول بشرا سويا وتنفخ في مريم فانجروا الى شرك الحلولية وراحوا يتخبطون في بحرانها ويبدو أن هؤلاء قد نسوا أن هذه الروح هي ذاتها بها خلق الله آدم وبث فيه الحياة وهي ذاتها التي ينفخها سبحانه في الاحياء كافة ومنها الانسان حيث أن تكوينه ومروره في الاطوار التي يمر عليها يبدأ من حلول الروح فيه وهذه هي

ذاتها التي حلت في عيسى وفي آدم وفي سائر الانبياء وفي الانسان وكل الاحياء يقول سبحانه (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال كن فيكون)[٢٣٧] .

- إن هذه المعجزة العظمى على الرغم من عمقها وسعتها وقوتها فـانها أبقت الانسان في نصف الطريق الممتد بين الارض والسماء حيث على الأرض يمشي الانسان ويفكر ويبحث عن الله في ذاته وفي الكون من حوله ومن فوقه يتصور ان الله لعظمته يكون في اعلى عليين وانه في حركة دائبة بين الأرض والسماء يفتش خلالها عن الله يفكر في حقيقته و يتسأل عن ماهيته فكانت المعجزات تصعد به في السلم الممتد من الارض الى السماء فيصل تارة الى الدرجات العليا من هذا السلم ولكنه لا يابث أن يهبط الى الدرجات الدنيا منه ، ولم تستطع معجزة أن تضع الانسان في الدرجة الاخيرة ، حتى معجزات عيسى لم تصل الى هـذه الامكانية ولو أنها دفعت بالانسان عاليا حتى قارب النهاية ، الا أن هـؤلاء الذين اقتربوا من النهاية قفزوا الى القمة عن طريق الفيض في ذات الله أو الحلول فيه ممسكين بعيسى عليه السلام وآياته فدخلوا معه الى حيث المنتهى فاحترقوا بنيران الشرك وغرقوا في بحران نوره وبذلك فقدوا آدميتهم وافقدوا عيسى هذه الآدمية .

إن المعجزات السماوية على الرغم من قوتها فهي معجزات دالة على ذات الله موصلة إليه وليست هي ذاته تعالى . إن هناك فرقا أساسيا بين المعجزة كوسيلة وبين الله الخالق المرسل لها ، إنها وسيلة لاثبات وجود الله وهداية الانسان على هذا الطريق وليست هي الله ، ولهذا فيجب أن تظل هذه المعجزة (آية دالة) على الله وليس الله ، ومن هنا فأن الوسيلة التي ترسل لها تلك المعجزة هي من عنـد الله وبرحمته ولكنها ليست الله ذاته .. وأن النبي وسيلة هذه المعجزة والآية على صحة نبوته فهو ليس المعجزة ذاتها إنما هو هدف المعجزة ووسيلتها وأن الانسان حيثما كان هو الغاية من النبوة ومعجزاتها فالنبوة وسيلة الله لهداية البشرية وليست هي الله ذاته ، ولذلك خاطب الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) فهو (رحمة) من الله وأن هذه الرحمة هي شئ من منته وقدرته وليست هي هوكله سبحانه ، وأن محمداً (ص) وسيلته لحمل هذه الرحمة لهداية الناس فنبوته تتمثل في حمله هذه الرحمة ونقلها الى الآخرين ، فهي ليست له وحده إنما له

ولسائر الناس وأن فضله على الناس في حملها والحفاظ عليها وأدائها كما كلف بها وأن فضله في تفضيل الله له على غيره في حمل هذه الامانة وأدائها .. من كل هذا ، فأن معجزات الانبياء إنما هي وسائل للكشف عن ذات الله وقدرته ووحدانيته لحمل الانسان الى الايمان بوجوده إلها واحدا صمدا والعمل على الاقتراب منه والسعي الى امتثال تعاليمه والتفكير به والوصول الى درجات يرى فيها الانسان قدرة الله فيبدأ بترسيخ إيمانه وعبر عملية الترسيخ هذه تبدأ عملية التثبت والوعي لذات الله فتبدأ حالة من التفكير والايمان ، كل منها ترفد الاخرى بروافد متقابله التفكير في ذات الله يكشف حقيقته والايمان به يعمق التفكير ويزيده وهذه الحالة المتفاعلة المتقابلة هي التي تبقي الانسان على خلافتـه للارض وهي التي تجعل الحيـاة مستمرة دفاقة متطورة حيث أن التفكير في ذات الله وكنهه والايمان به سبحانه في عملية متقابلة متوافقة متناقضه مسألة تظل ما بقى الانسان وهي وراء رفد الحياة بعوامل النمو والتطور والابداع وعندما تتوقف حالة التفكير هذه وتسقط صورة الايمان فأن الحياة تتحول الى حياة غير حياة البشر ، كما أن حياة بدون إيمان و إيماناً بدون تفكير بحقيقة الايمان وحقيقة الله ، تفكير في العدم وايمان بدون مبدأ وبذلك تتحول الحياة الى مجرد حركات مادية تسير متسارعة مثل حركة الجبال تراها راكده وهي تمرمر السحاب .

إن الله ذاته ، روحه ، ماهيته ، كنهه (ليس كمثله شئ) وعندما يهب الحياة في نفخة من روحه فأن هذه النفخه تحمل فعـل الحياة وروحهـا التي يحدثهـا الله ويضعها في الاحياء فهي منه وليست هي كله ، فعندما يرسل الله ملائكته ويحمل واحدا منها أمرا ، نبأ ، مسألة ، أمانة ، رسالة فأن هذا الملك يتحرك بفعل الله وإرادته . الا أنه ليس الله وليس فعله كله إنما هو نتيجة وحالة يريدها فتكون ، فليس جبريل عليه السلام الذي حمل البشرى للرسول (ص) والرسلات للانبياء هو الله إنما هو مرسل من عنده ، وفي هذا يقول الامام الرازي [إن جبريل عليه السلام لما بشرها «يقصد السيدة مريم» بذلك كانت تلك البشارة الصادقة جارية مجرى الهبة فأن قال قائل ما الدليل على أن جبريل عليه السلام لا يقدر على تركيب الاجزاء وخلق الحياة والعقل والنطق فيها والذي يقال فيه أن جبريل عليه السلام جسم والجسم لا يقدر على هذه الاشياء أما أنه جسم فلأنه محدث وكل محدث أما متحيز أو قائم بالتحيز ، وأما أن الجسم لا يقدر على هذه الاشياء فلانه لو قدر جسم على ذلك لقدر عليه كل جسم لان الاجسام متماثلة وهو ضعيف لان للخصم أن يقول لا

نسلم أن كل محدث إما متحيز أو قائم به بل ها هنا موجودات قائمة بأنفسها لا متحيزة ولا قائمة بالتحيز ولا يلزم من كونها كذلك كونها أمثالا لذات الله تعالى لان الاشتراك في الصفات الثبوتية لا يقتضي التملثل فكيف في الصفات السلبية ، سلمنا كونه جسما فلم قلت الجسم لا يقدر عليه قوله الاجسام متماثلة قلنا نعني به أنها متماثلة في كونها حاصلة في الأحياز ذاهبة في الجهات أو نعني به أنها متماثلة في تمام ماهياتها والاول مسلم لكن حصولها في الأحياز صفات لتلك الذوات والاشتراك في الصفات لا يوجب الاشتراك في ماهيات المواصفات سلمنا أن الاجسام متماثلة فلم لا يجوز أن يقال أن الله تعالى خص بعضها بهذه القدرة دون البعض حتى أنه يصح منها ذلك ولا يصح من البشر ذلك والجواب الحق أن المعتمد في دفع هذا الاحتمال اجماع الامة فقط والله أعلم][٢٣٨] .

ويرد سيد قطب على الغلاة الذين استغلوا هذه المعجزة وراحوا يبعدونها عن حدودها وأبعادها الواقعية فيقول [ونظرا لغرابة الحادث وضخامته فقد عز على فرق من الناس أن تتصوره على طبيعته وأن تدرك الحكمة في إبرازه فجعلت تضفي على عيسى ابن مريم عليه السلام صفات ألوهية وتصوغ حول مولده الخرافات والاساطير وتعكس الحكمة من خلقه على هذا النحو العجيب ـ وهي إثبات القدرة الالهية التي لا تتقيد تعكسها فتشوه عقيدة التوحيد][٢٣٩] .

ويؤكد سيد قطب على (ناسوتية) عيسى عليه السلام مسترشدا بقوله تعالى : (قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا) فيقول (وهكذا يعلن عيسى عليه السلام عبوديته لله ،فليس هو إبنه كما تدعى فرقة ، وليس هو إلها كما تدعى فرقة ، وليس هو ثالث ثلاثة هم إله واحد ، وهم ثلاثة كما تدعى فرقة .. ويعلن أن الله جعله نبيا لا ولد ولا شريكا .... فله إذن حياة محدودة ذات أمد وهو يموت ويبعث وقد قدر الله له السلامة والأمان والطمأنينة يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا)[٢٤٠] .

ويوضح سيد قطب في تفسيره حقيقة عيسى عليه السلام قائلا (... ذلك عيسى ابن مريم لا ما يقول المؤلهون له أو المتهمون لامه في مولده .. ذلك هو في حقيقته وذلك واقع نشأته .. (ما كان لله أن يتخذ من ولد) ... والله باق لا يخشى فناء قادر لا يحتاج معيناً ، والكائنات كلها توجد بكلمة «كن» ، وإذا قضى أمرا فأنما يقول له كن فيكون .... فلا يبقى بعد شهادة عيسى وشهادة قصته مجال للأوهام

والاساطير وهذا هو المتصور بذلك التعقيب في لغة التقرير وإيقاع التقرير)[٢٤١] .

معجزة النبي محمد «صلى الله عليه وسلم»

أ - القرآن الكريم

نبوة محمد صلى الله عليه وسلم خاتمة النبوات ، أتم فيها سبحانه رسالاته إلى الأرض وختم بختمه تعالى باب النبوة وأغلق أسوارها بقوله (اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا)[٢٤٢] .

لقد حفظ القرآن الكريم أخبار عدد من الانبياء والرسل وجمع بين دفتيه معجزاتهم وصورا من حياتهم ، كما جمع ولخص مبادئهم وعقائدهم بصورة جلية دقيقة .

لقد حفظت التوارة شريعة موسى عليه السلام وأنباء وأخباراً عن أنبياء بني إسرائيل وعدد من الرسل والانبياء من قبلهم ولما كانت التوراة أكبـر من توراة والتفاسير عليها كثيرة فأن إختلافات بين الاصل والتفسير فما جاء (في التلمـود البابلي) يختلف عما جاء في (تلمود القدس) وما حملته أسفار التكوين وإصحاحاته تتباعد أخبارها وتتنافر ، ولهذا فأن قصصا وخيالات دخلت في التلمود وتحريفات وتغييرات طرأت على التوراة مما أخرج هذا الكتاب عن دائرته الاصلية وصار من الصعب التعويل عليه لما أصابه من تبديل وتغيير ، زيادة ونقصان .

والاناجيل كثيرة ، أبرزها خمسة وهناك من يزيد هذا العدد وهناك من يدعى بأن أنجيلا من هذه قد فقد وأن هناك أمرا متعمدا في فقدانه ولهذا فقد عولنا على القرآن الكريم في التحدث عن الانبياء السابقين وذكر معجزاتهم لان الله سبحانه قد تعهد بحفظ هذا الكتاب حيث قال «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» وهذه هي الفضيلة الكبرى للقرآن ، هي المعجزة العظمى التي جمعت بـين جناحيهـا كل معجزات الانبياء السابقين .

إن هذه الفضيلة التي من الله بها على كتابه وخاتم أنبيائه هي التي حملتنا

على اعتماد القرآن مصدرا جامعا . مانعا ، كاملا ، تاما ، سليما ، لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولا يصيبه التغيير أو التحريف أو النقصان أو الزيادة .

ولما كان الاسلام قد اشترط على المسلم المؤمن - لكي يصح ويكمل إسلامه - أن يؤمن بالله ورسله وملائكته وكتبه وباليوم الآخر وأن إسلام المسلم لا يتم إلا بهذا التسليم والايمان بالرسل والانبياء السابقين ، فأن موقف القرآن من أولئك الانبياء كان موقفا سليما وأن ضرورة التمسك والتصديق بما أنزل عليهم يقع على درجة واحدة من الايمان بما أنزل على خاتم المرسلين .

ومما يزيد من صحة الاعتماد على القرآن الكريم وسلامة هذا الموقف أن الله سبحانه وتعالى جمع فيه أخبار أنبيائه ومعجزاتهم بصورة واضحة دقيقة كاملة أكثر وضوحا ودقة مما جاء في التوراة وتفسيره وفي الاناجيل على تعددها ، ولهذا عولنا في توضيح تلك المعجزات على القرآن الكريم وأخذنا من آياته أخبارها وأحداثها فكانت الصفحات السابقة عرضا لتلك المعجزات التي من الله بها على أنبيائه لكي يزدادوا إيمانا ولكي يكون في وسعهم وفي أحداث تلك الآيات ما يدعم موقفهم ويعزز ثقتهم ويدحض خصومهم .

لقد كانت المعجزات التي أتينا على ذكرها معجزات متعلقة بالقضايا المعقدة التي لم يستطع الانسان حسمها والوصول بشأنها الى قرار دقيق حاسم ، لقد كانت تلك المعجزات تأكيدا على وجود الله قوة قادرة أن تقول للشئ كن فيكون ، ولما كانت قضية الحياة والموت والحياة - بعد الموت هي المسألة الكبيرة التي لم يستطع الانسان التحكم فيها ولم يتمكن من تفسيرها وسبر غورها ، كانت معظم المعجزات تدور حول هذه القضية وكانت المعجزات الاخرى التي تبدو بعيدة عن هذا الموضوع فأن متابعتها تبين أنها هي الاخرى تبين قدرة الله في الحياة والموت والبعث من بعده ... كما أن عددا من معجزات الانبياء متعلقة بالصراع بين الخير والشر ، بين النور والظلمة ، فأن قصة يوسف كانت تجربة عملية أوضحت إنقسام الانسان الى قسمين رئيسيين ، قسم يتحرك بتأثير العقل والارادة والوعي ويتجه نحو الافضل وهناك قوى الغريزة القائمة في جسم الانسان تدفعه لارتكاب الاثام والاخطاء وان الانسان في صراع دائم بين عقله وإرادته الواعية من جهة وبين غرائزه ودوافعها الحادة من جهة أخرى ... كما عالجت المعجزات السابقة

موضوع الثنائية بين النور والظلمة وقد حسمت تلك المعجزات هذه المعضلة بأن أكدت أن الظلمة والنور إنهما إلا نتيجة لحركة الشمس وأن حركتها وما فيها من عند الله ، وبذلك دخلت الظلمة في النور وغار النور في الظلمة وكان الله سبحانه هو العلة لهما .

هناك معجزات كثيرة حفظها القرآن الكريم لم نبرزها في الصفحات السابقة لأنها تتحدث عن قدرة الله ورحمته ومنته لعدد من أنبيائه وهذه المعجزات تنطلق أساسا من الايمان بوجود الله وقدرته وأنه إذ يمن على نبيه فهو قادر على ذلك فهي تبدأ من الايمان وأن التصديق بها يكون مسبقا وليس لاحقا كما في المعجـزات الاخرى فمعجزته سبحانه في النبي أيوب وهو يصاب بأوجاع وأمراض شديـدة ويظل على إيمانه وصبره ويحس بلذة الالم جراء تلك الاوجاع اعتقادا منه بأن الله أراد ذلك لاختباره وجعل منه مسرحا لأعظم آلامه وأشدها وأن ثواب هذا الايلام سيكون ثوابا كبيرا فأن مثل هذه المعجزة تتطلب درجة عالية من الايمان وأن عبرتها تسير خلف الايمان إذ لولاه لما كانت العبرة ولما برزت الآية .

ومعجزة يونس عليه السلام حيث يبتلعه الحوت ويخرج منه فأن قيل هذه المعجزة التي تقع أحداثها على مرمى السمع والبصر وتغور في البحر وتخرج ثانية فأن أمر قبولها والتصديق بها يبدأ من الايمان بوجود الله وقدرته وليس لهذه الآية أن تحمل السامع والناظر التصديق بها إن لم يكن على حظ من الايمان ونصيب من الوجدان والاقناع بأن الله قادر على كل شئ .

وكذلك الامر في المعجزات الاخرى التي حفظها القرآن الكريم فهي معجزات لاحقة للايمان وليس الايمان نتيجة لها .

وهناك معجزات قد لاتبدو خارقة ويستطيع بعض المعانـدين تأويلهـا بما يناسب عنادهم والرد عليها بأنها كانت من باب المصادفة أو أنها تقع في حـدود ظروف ومسببات معينة مرتبطة بها وليس بقوة خارقة كما أن بعضها يمكن الرد عليه بأنها ليست (من صنع الله) إنما هي بفعل الانسان وسحره وخداعه ، لذلك لم نقف عند أية معجزة من هذا الطراز إنما فسرنا المعجزات الخارقة الدالة على عجز الانسان وأنها لم تكن لولا وجود الله وقدرته .

إن معجزات الانبياء السابقين كانت باهرة خارقة . أما معجـزة الرسـول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم فكانت (القرآن الكريم) ، وهذه المعجزة تختلف عن المعجزات الاخرى اختلافا أساسيا فهي معجزة عقلية تعتمد على الادراك وتقوم على الكلمة والعبارة ، دلالاتها ، بلاغتها ، إعجازها في اللغة ، وإعجازها في المعنى ، في حين أن المعجزات السابقة كانت معجزات عملية مادية متحركة وهناك فـروق كبيرة بين معجزة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ومعجزات أخوته من الانبياء من قبله .

يتحدث الامام الرازي عن المعجزة ، طبيعتها ، وأثرها لاسيما تلـك التي تمثلت في نبوة الانبياء السابقين ومنهم موسى عليه السلام فيقول [إن المعجزة فعل خارق للعادة فعلة فاعل لغرض تصديق المدعي ومعجزات موسى كانت موصـوفة بهذين الوصفين لأنها كانت أفعالا خارقة للعادة وصرائح العقول تشهد بأن قلب العصا حية معجزة عظيمة لا يقدر عليها الا الله ثم أن تلك الحية تلقفت حبـال السحرة وعصيهم على كثرتها ثم عادت عصا كما كانت فأصناف تلك الافعال لا يقدر عليها أحد الا الله وكذا القول في فرق البحـر وإظلال الجبـل فثبت أن تلك الأشياء ما أنزلها الا رب السموات ... «الصفة الثانية» ... أنه تعالى إنما خلقها لتدل على صدق موسى في دعوة النبوة وهذا هو المراد من قوله «ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والأرض» حال كونها بصائر أي دالة على صدق موسى في دعواه وهذه الدقائق لايمكن فهمها من القر آن الا بعد إتقان علم الاصول وأقول يبعد أن يصير غير علم الاصول العقلي قاهرا في تفسير كلام الله ثم حكى تعالى إن موسى قال لفرعون (وإني لاظنك يا فرعون مثبورا) وأعلم أن فرعون قال لموسى «وإني لاظنك يا موس مسحورا» فعارضه موسى وقال له «وإني لاظنك يا فرعون مثبورا» ... واعلم أن فرعون لما وصف موسى بكونه مسحورا ، أجابه موسى بـأنك مثبـور ، يعني هذه الآيات ظاهرة وهذه المعجزات قاهرة ولا يرتاب العقل في أنها من عند الله ، وفي أنه تعالى ، إنما أظهرها لاجل تصديقي وأنت تنكرها فلا يحملك على هذا الانكار الا الحسد والعناد والغى والجهل وحب الدنيا ، ومن كان كذلك كانت عاقبته الدمار والثبور][٢٤٣] .

مما ذكره الامام الرازي يتبين الفرق بين معجزات الانبياء السابقين ومعجزة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ومن متابعة ما جاء في حديث الامام الرازي ومن

ملاحقة المعجزات وسبر أغوارها تتبين الفروق الرئيسية بين معجزة القرآن ومعجزات الانبياء والرسل السابقين . وهذه الفروق هي :

١ - إن المعجزات السابقة معجزات مادية بارزة متحركة تقع أمام الانسان ، تبهره فلا يقوى على القيام بمثلها وقد تبهره فلا يستطيع رفضها أو تصديقها ... أما القرآن فهو معجزة فكرية لغوية - والفكر واللغة خصائص يتميز منها الانسان ويتصف بها وأن ما يفكر فيه وينطق به يقع في دوائر معينة ومستويات محددة تتناسب مع قدراته الذهنية وثقافته ومتابعته ، فهو قريب في استعداده من القرآن حيث أنه يمارس في كل لحظة عملا أو قولاً يقع على درجة قريبة أو بعيدة عن القرآن الكريم ولهذا فالاعجاز به إعجاز عقلي لغوي .

٢ - إن معظم المعجزات السابقة مثل إحياء الموتى في قصة الطيور الاربعة وفي حكاية عصا موسى وفي تفجير الارض عيونا دفاقة وفي فلق البحر وفي إسقاط المن والسلوى وفي تكوين عيسى ذلك التكوين العجيب ، كل هذه معجزات خارقة لايقوى الانسان مطلقا على تحديها ولا الوقوف بوجهها ومجابهتها ، مهما حاول فأن محاولاته تسقط منذ البدء بها وقبل الخطو نحوها في حين أن التحدي بالقرآن مسألة منطقية عقلانية قابلة للمجابهة وأن الانسان يمارس في كل ساعة وحيثما شاء نوعا من التحدي والمواجهة لان المعجزة في حدود إدراكه وإمكانياته الفكرية فهي معجزة إيجابية مثيرة دافعة للحركة والتفكير والابداع .

٣ - إن التعجيز في المعجزات السابقة يقوم على التعجيز الجسمي والعقلي والوجداني حيث يقف الانسان متصدعا من خشية الله وهو يشاهد الجبل يصير دكا والعصا تمشي حية والمسيح يلد من غير أب أما القرآن فهو معجزة منطقية عقلية تتحدى الفكر وهو في غليان وتوثب دائم فتزيد من قدراته وتدفع به الى الغور في أعماق المعجزة والخروج من القوى المتحدية فيها في محاولة للتغلب عليها أو في الاقل المجئ بمثلها ، فهي معجزة مثيرة للفعل الايجابي وأنها وراء كل الحضارة التي أبدعها الانسان منذ خطابه سبحانه وتعالى لنبيه في غار حراء حيث ناداه «إقرأ باسم ربك الذي خلق» فرد عليه الرسول بأني «ما أنا بقارئ» فرد عليه ثانية «إقرأ باسم ربك» فكان هذا الحوار بداية

التحدي وبداية ظهور المعجـزة الخاتمـة التي فجرت الحضـارة العربيـة الاسلامية .

٤ - المعجزات السابقة تؤثر تأثيرا مباشرا وأنها لا تمتلك قوة التأثـير الا عند قيامها أو تجدددها ولهذا نجد أن معجزة إحياء الموتى تجددت في اكثر من معجزة وجاءت في عدد من الآيات وفي كل مرة يطالب الناس أنبياءهم بان يأتوا بواحدة من التجارب حول هذه المسألة مما يشير الى أن فعلها يكون آنيا ومحدودا ولا يواصل أثره طويلا ، ولهذا تتكرر المطالبة بتجارب من هـذا النوع .. في حين أن القرآن كان وما زال معجزة وسوف يبقى يتحدى العقل والوجدان ويثير في الانسان التفكير والاهتمام ويبعث فيه اليقين والايمان كما يثير فيه الريبة والشك والسؤال ويجره الى بحر من الظنون ويصعد به الى السموات السبع ويهبط به في أعماق البحر ويمر به ما بين الارض والسماء مؤقتا قانعا مستريبا شاكا وفي ذلك آية هي آيته الكبرى .

٥ - إن المعجزات المادية التي أشرنا إليها قابلة للتقليد وخاضعة للتمثيل ، فقد يصل العلم والتجربة الى واحدة من تلك المعجزات التي جاءت على عدد من أنبيائه . فمعجزة عيسى عليه السلام وهو يكشف عن طعام قومه وما يأكلون ويدخرون فأن مثل هذه المعجزة صار في الامكان تكـرارها ، فـأن التنويم السحري يصل بالانسان الى قراءة صور وأحداث ومسائل بعيدة ، ولهذا فأن طبيعة تلك المعجزات طبيعة تتناسب مع المرحلة الحضارية وتتوافق معها فهي قد لا يمكن التحدي بها في مرحلة لاحقة .. في حين أن القرآن الكريم يقف قوة شامخة تتحدى الانسان وتثير فيه كل نـوازع التحدي وعـوامل التفكير والتصدي وتدفع به إلى المجابهة باستمرار حيث تتجدد قوته وحيويته في كل يوم وفي كل مرحلة حضارية .

٦ - إن المعجزات المادية تتطلب حضورا ماديا للمعجزة لايمكن إحداثه في كل مرحلة فعندما دك الله سبحانه الجبل وجعله قاعا فأن هذا التحدى لايمكن تكراره إذ أن تكراره يتطلب ظهور نبي جديد وقيام جبل ودكه وهذه مسألة لايمكن توفيرها وأن توفيرها يشل حركة الانسان ويقيد فعله بقيود تجره الى الوراء وتجعله سجين أسئلة وقضايا قاهرة لايمكن تصديقها الا بتكرارها

كاملة ولا يمكن نقلها من مكان لاخر أو من مرحلة الى ثانية فهي ذات طبيعة آنية وتأثير زماني ومكاني محددين في حين أن القرآن معجزة قائمة حية يمكن التحدي بها بآية واحدة منها أو بسورة طويلة أو قصيرة من سوره في إعجازه اللغوي الذي تبرزه آية أو آيات قليلة وفي معنى من معانيه العظيمة التي تحملها قصة من قصصه أو سورة أو بعض من آياته .

٧ ـ إن المعجزات المادية تعتمد على الاثارة والانبهار والتعجيز العقلي والجسدي فهي معجزات سلبية تجر الانسان الى الاستسلام والتصديق السلبي القائم على الخوف والمستند على الانبهار ، أما التحدي بالقرآن فانه يستند الى العقل والادراك وهذه القوى عند الانسان هائلة ضخمة يمتد أوارها ما بين الانسان والسموات وينزل الى أعماق الارض ويحتضن الكون وما فيه ولهذا فان التحدي بالقرآن هو تحدٍ للعقل والعقل حاضر ومهيأ ولذلك فأن وجوده وحركته وإبداعه يستند الى هذا التحدي وأن حيويته تزداد ونشاطه يتعمق وقدراته تقوى عبر التحديات القائمة على ذات الأسس التى يقوم عليها عقل الانسان ويعيش بها .

٨ ـ ولما كان الاسلام خاتمة الديانات فكان تحديه بالقرآن هذا التحدي العقلاني لكي يبقى تحديا واعيا إيجابيا دائما ولهذا فقد رفض سبحانه وتعالى أن يقدم معجزات للرسول من ذلك الطراز الذي قدمه لانبيائه ورسله السابقين فعندما وقف المكابرون من قريش يطالبون الرسول صلى الله عليه وسلم أن يأتي بآيات على غرار تلك الايات التي من الله بها على رسله ، كان يرد عليهم بقوله «سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا» ويحفظ لنا القرآن الكريم هذا الحوار بين الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم وبين المكابرين المعاندين من قريش في سورة الاسراء حيث يقول [ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى اكثر الناس الا كفورا ■ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا ■ أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيراً ■ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلا ■ أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرأه قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا][٢٤٤] .

٩ ـ إن هذه المطالبة من قريش تشبه مطالبة المعاندين المكابرين الذين وقفوا من

الانبياء السابقين يطالبونهم بمثل ما طالبوا به الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم وقد مر بنا كيف طالب بنو إسرائيل موسى عليه السلام بأن يفجر لهم الارض فأمره الله أن يضرب بعصاه فاذا أثنتا عشر عينا تتفجر ماء دفاقا ، وألح القوم على موسى أن يريهم الله جهرة وعندما طلب موسى من ربه أن يراه رد عليه سبحانه «لن تراني» ولكن انظر الى الجبل ، فدكه جلت قدرته وجعله هشيما .. في حين أن الرسول الكريم يعود يسمع ثانية تحديات قريش ومطاليبهم بأنهم لن يؤمنوا حتى يفجر لهم الارض أو ينزل لهم جنة من نخيل وعنب فأن كان لا يقدر على حمل الله سبحانه أن يمن عليه بهذه المكرمات فهل يستطيع أن يسقط عليهم غضبه فتنزل عليهم السماء كسفا أو يأتي بالله والملائكة أما مهم ، فكان يرد عليهم ردا واضحا بأنه بشر رسول وليس له الا كتاب الله حجة وآية .. مما يؤكد أن الاسلام اعتمد القرآن معجزة وطوى صفحة المعجزات الباهرات القاهرات إيمانا بأن عهدا جديدا قد ابتدأ بهذه الرسالة الخاتمة وأن زمن الخوارق قد انتهى وأنها تعتمد على العقل والمنطق وتسقط من حسابها المعجزات المثيرة .

- إن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يمن على رسوله الكريم من على الرسل من قبله بآيات معجزات قاهرة ، الا انه لم يفعل ذلك بالنسبة الى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ليس تقليلا لاهميته أو شحا منه لحبيبه العظيم وإنما تمييزا له وتقديرا وإكباراً عن سائر أنبيائه حيث أنه تعالى أراد أن تكون معجزة خاتم أنبيائه معجزة عقلية وليست معجزة مادية لان المعجزة العقلية تعبر وتميز الانسان عن سائر مخلوقاته وان الانسان فضله الله واكرمه بعقله وجعله خليفته على الارض بهذا العقل ، ولهذا كانت معجزة محمد صلى الله عليه وسلم عقلية إكباراً للانسان وتمييزا له وتقديرا ، هذا من جهة أخرى أن المعجزات المادية التي من الله بها قبل خاتم رسله لا يمكن للانسان مهما أوتى من قوة أن يأتي بها كما أنها كانت تتمثل في ظواهر خارج الانسان وليس في ذاته ، في حين أن معجزة الاسلام تتمثل في الانسان وتجري فصولها على ساحة عقله ووجدانه فهي لا تأخذ بعدها وحركتها وتأثيرها الا بتفاعلها مع الانسان وبتمثيلها وتأثيرها في انسان آخر وفيه معجزة قابلة للتحدي ومهيأة للاثارة ومحققة لنتائج معينة محددة يستوعبها الانسان ، يلمسها ، يدركها ، يحاول أن يأتي بمثلها فهي قريبة منه معبرة عن ذاته ، تعيش على مقربة من تفكيره ، تدخل في هذا التفكير ، تتفاعل معه ، تخرج عنه على شكل قبول أو

رفض ، قناعة أو ريبة ، تصديق أو تكذيب ، وبعد هذا يقف عاجزا عن الاتيان بمثلها فيقف مصدقا بأنها معجزة من عند غير الانسان لانه لم يستطع على الرغم من جهوده ومحاولاته أن يأتي بسورة من مثله .

ويعلق الامام الرازي على موقف المكابرين المعاندين من قريش ورفض الرسول الاجابة عن مطاليبهم قائلا [اعلم انه تعالى لما بين بالدليل كون القرآن معجزة وظهر هذا المعجز على وفق دعوى محمد صلى الله عليه وسلم فحينئذ تم الدليل على كونه نبيا صادقا لانا نقول أن محمدا أدعى النبوة وظهر المعجز على وفق دعواه وكل من كان كذلك فهو نبي صادق . فهذا يدل على أن محمدا صلى الله عليه وسلم صادق وليس من شرط كونه نبيا صادقا تواتر المعجزات الكثيرة وتواليها لانا لو فتحنا هذا الباب للزم أن لا ينتهي الامر فيه الى مقطع وكلما أتى الرسول بمعجز اقترحوا عليه معجزا آخر ولا ينتهي الامر الى حد ينتهي عنده عناد المعاندين وتغلب الجاهلين لانه تعالى حكى عن الكفار أنهم بعد أن ظهر كون القرآن معجزا التمسوا من الرسول صلى الله عليه وسلم ستة أنواع من المعجزات القاهرة كما حكى عن ابن عباس «أن رؤساء أهل مكة أرسلوا الى الرسول صلى الله عليه وسلم وهم جلوس عند الكعبة فأتاهم فقالوا يا محمد إن أرض مكة ضيقة فسير جبالها لننتفع فيها وفجر لنا فيها ينبوعا أي نهرا وعيونا نزرع فيها فقال لا أقدر عليه ، فقال قائل منهم أو يكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا فقال لا أقدر عليه ، فقيل أو يكون لك بيت من زخرف أي من ذهب فيغنيك عنا فقال لا أقدر عليه ، فقيل له أما تستطيع أن تأتي قومك بما يسألونك فقال لا أستطيع ، قالوا فأذا كنت لا تستطيع الخير فاستطع الشر فاسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أي قطعا بالعذاب وقوله كما زعمت إشارة الى قوله إذا السماء انشقت ، إذا السماء انفطرت» فقال عبد الله ابن أمية المخزومي وأمه عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا والذي تحلف به لا أؤمن بك حتى تشد سلما فتصعد فيه ونحن ننظر إليك فتـأتي بأربعة من الملائكة يشهدون لك بالرسالة ثم بعد ذلك لا أدري أنؤمن بك أم لا][٢٤٥] .

لقد رد سبحانه على المعاندين وهم يطالبون الرسول الكريم محمداً صلى الله عليه وسلم بمعجزات خارقة بأنه لن يستجيب لهم وردد رسوله الأمين بأنه بشر

رسول ويبدو أن الحاح قريش كان بدفع من أحبار اليهود حيث كانـوا يتصلون برجالات قريش ويقترحـون عليهم أسئلة معينة ويـطالبونهم إحـراج رسول الله فيها ... كانت المعجزات الخارقة التي من الله بها على أنبيائه كافية من حيث العدد والكيفية وقوة المفارقة وأن يرجعوا الى كتاب الله والى كتبه التي أنزلها على أنبيائه السابقين إن كانوا صادقين ليروا تلك المعجزات ويقفوا على حقيقتها ويستدلوا بها على قدرته ووحدانيته .

إن موقف الاسلام من المعجزات الخارقة والرفض المستمر من الرسـول الكريم من تكرارها له دلالات خاصة واعتبارات معينة ومعان محددة يمكن توزيعها في النقاط الآتية :

- إن ما قدمته الديانات السماوية وما من الله به على أنبيائه ورسله كان كافيا وشاملا حيث أوضح سبحانه عبر آياته ومعجزاته كل ما كانت الأقوام السابقة تسأل عنه وتعاني جراء عدم قناعتهـا بوجـوده ، وقد أغلق سبحـانه بـاب المعجزات الخارقة حيث أن مواصلة تقديمها وعرضها يبقى الانسـان لاهثا وراء الآيات القاهرة لعلها تحمله على الايمان وان هذا الايمان يكون خاصا بمن يشاهد المعجزة ولا يمكن سحبه على الآخرين ما لم يبدا هؤلاء بوضع أنفسهم ومداركهم في الطريق نحو الايمان بالله والتصديق بما أنزله على أنبيائه حيث أنه ما أنزل في مرحلة سابقة يظل آية اللاحقة وإلا فأن مواصلة تقديم المعجزات سوف يستمر إلى ما لا نهاية .
- إن تلك المعجزات كانت متناسبة مع المراحل الحضارية التي قدمت فيها حيث كان الانسان في حيرة من أمره لا يعرف سر وجوده ولغز حياته وكيف يعود حيا بعد وفاته وكان سبحانه بعيدا عن تصوره وإدراكه فكانت المعجزات تترى قوية باهرة في سبيل حمله على الايمان بوجود الله والاطمئنان الى أن حياته ومماته وبعثه من عنده جلت قدرته .

- أما في هذه الفترة التي ظهرت فيها النبوة المحمدية فأن ما تمثل أمام الانسان من معارف وآيات ومعجزات قد أوضحت أن الله سبحانه خالق كل شئ وقد تجسدت قدرته عبر تلك المعجزات وهي حية بارزة تتحرك عـلى مقربـة من الانسان فليست هناك حاجة بعد ذلك الى مزيد من الآيات الخـارقة لحمـل

الانسان على الايمان حيث أن في تقديم مثل تلك المعجزات رجوع بالانسان الى الوراء وإغفال لكل ما تحقق له من معرفة وإدراك حول حقيقة الله ، كنهه ، وحدانيته وقدرته .

- لقد بلغ الانسان في هذه الحقبة سن الرشد وعليه فلا بد أن تكون المعجزة متناسبة مع هذه المرحلة ، ولما كان الاسلام خاتمة الديانات فلا بد أن تكون معجزته عقلية لكي يظل حيا معجزا لهذه المرحلة وللمراحل القادمة ، ويوضح الامام محمد عبده طبيعة هذه الفترة والمعجزة المناسبة لها فيقول [دخل الانسان بدين الاسلام في سن الرشد فلم تعد مدهشات الخوارق هي الجاذبية له الى الايمان وتقويم ما يعرض للفطرة من الحيل عن الاعتدال في الفكر والاخلاق والاعمال كما كان في سن الطفولة النوعية ، بل أرشده الله تعالى بالوحي الاخير (القرآن) استعمال عقله في تحصيل الايمان بالله وبالوحي ... فايماننا بما أيدْ الله تعالى به الانبياء من الأيات لجذب قلوب أقوامهم الذين لم ترتق عقولهم الى فهم البرهان لا ينافي كون ديننا هو دين العقل والفطرة ، وكونه حتم علينا الايمان بما يشهد له العيان من أن سنته في الخلق لا تبديل لها ولا تحويل][٢٤٦] .

- لقد تميزت المرحلة التي ظهر فيها الاسلام بالتقدم الهائل في ميدان البلاغة والفصاحة حيث صار للكلمة قيمتها وهي مموسقة شعرا أو متسلسلة عبارة مسجوعة أو مرسلة حتى القوم يتسابقون بالقصيدة والخطابة ويمنحون الفائزين جوائز ثمينة ويسجلون قصائدهم الفائزة بمداد من الذهب على جدران الكعبة ، ويصور المرحوم الرافعي هذه المرحلة الحضارية قائلا [بلغ العرب في عهد القرآن مبلغا من الفصاحة لم يعرف في تاريخهم من قبل ، فأن كل ما وراءه إنما كان أدوراً من نشوء اللغة وتهذيبها وتنقيحها وإطرادها على سنن الاجتماع فكانوا قد أطالوا الشعر وافتنوا فيه وتوافى عليه من شعرائهم أفراد معدودون كان كل واحد منهم كأنه عصر في تاريخه بما زاد من محاسنه وابتدع من أغراضه ومعانيه][٢٤٧] .
- لقد كان القران على درجة عالية من الفصاحة والبلاغة . تحدى تلك المرحلة وأساطينها مما يشير الى أن هذه الفترة تمثل أعلى مراحل التطور والنماء الفكري واللغوي فلا بد أن تكون معجزة الاسلام متناسبة وهذه الدرجة من

التقدم فكان القرآن معجزة كاملة تحدت الانسان وعقله بالحجة العقلية والصورة البلاغية والعبارة الفصيحة .. ويعلق المرحوم الرافعي على التقدم اللغوي والفصاحة التي كانت عليها الامة العربية وقت نزول الوحي بقوله [فقامت فيهم بذلك دولة الكلام ولكنها بقيت بلا ملك حتى جاءهم القرآن ... وليس في الارض أمة كانت تربيتها لغوية غير أهل هذه الجزيرة ، فما كان فيهم كالبيان آنق منظرا وأبدع مظهرا وأمد سببا الى النفس وأرد عليها بالعاقبة ولا كان لهم كذلك البيان أزكى في أرضهم فرعا وأقوم في سمائهم شرعا وأوفر في أنفسهم ريعا واكثر في سوقهم شراءً وبيعا ... وأي شيً في تاريخ الامم أعجب من نشأة لغوية تنتهي بمعجزة لغوية ثم يكون الدين والعلم والسياسة وسائر مقومات الامة مما تنطوي عليه هذه المعجزة وتأتي به على أكمل وجوهه وأحسنها وتخرج به للدهر خير أمة كان عملها في الامم صورة أخرى من تلك المعجزة][٢٤٨] .

- إن المعجزات السابقة كانت في سبيل إقناع الانسان وحمله على الايمان بوجود الله وأن الله سبحانه تفضل على أنبيائه فجعل تلك المعجزات تتمثل أمامهم ليطمئنوا ويزدادوا إيمانا وتكون هذه لآيات قوة تمكنهم من حمل أقوامهم على الخروج من دائرة الشرك والريبة والتمزق الى ساحل الاستقرار والاقتناع ، ومن هنا يتبين أن الغاية من المعجزة هي هداية الانسان وإقناعه عبر أحداثها وفصولها ومظاهر الغرابة فيها ، وأن الانسان هو الوسيلة التي تتمثل بين يديه تلك المعجزة فلولاه لما برزت ، ومن أجله قامت ، ولهدايته تحركت على صورتها المثيرة .. لهذا فأن «الانسان الوسيلة والغاية للمعجزة» ولكي يكون على هذه الدرجة من القيمة يجب أن يكون بمستوى المعجزة تكوينا وقدرة على حملها وإدراكها ، ولما كانت المعجزات السابقة فوق طاقة الانسان ولا يمكن له حملها ، من الله على عدد من أنبيائه أن تتمثل بين أيديهم ومنْ حولهم مجموعة من تلك المعجزات ليزدادوا إيمانا ، ويحمل أقوامهم على الايمان ، فكانت تلك المعجزات أكبر حجما وأعمق غورا وأوسع مدى من مدارك الانسان فكان ينبهر بها فلا تلبث أن تبتعد عنه فيعود ثانية الى حيرته وتساؤله ... كانت تلك المعجزات ردا على سؤال وإجابة عن حيرة فكانت تؤثر تأثيرا متباينا وتترك آثارا مختلفة وأن تكرار هذه المعجزات مكن الانسان من متابعتها والسعي الى سبر أغوارها والوقوف على ماهيتها فكانت توسع من مداركه وتعمق من قناعاته

وتثير فيه جدلا دائما وتحمله للبحث والمتابعة فكان حصاده منها تقدما في سلم المعرفة وسعة وعمقا في التصور والادراك فكان لابد من الانتهاء من عرض المعجـزات القديمـة والمجئ بمعجزة عقليـة تتناسب وهـذا التطور ، ويعلق الاستاذ محمد احمد خلف الله على مرحلة المعجزات الخارقة والانعطاف نحو معجزة الاسلام العقلية قائلا [وحارب القرآن فكرة المعجزات وبين أنها لم تكن الا للتخـويف والالزام وأن العقل البشـري يجب أن يترك من غـير تخويف ليتحمل المسؤولية على أساس من الحرية والمقدرة الحقة على التمييز والمفاضلة والاختيار][٢٤٩] .

- إن مرحلة الرسالة الاسلامية هي مرحلة الانسانية في عمرها الممتد من أيام البعثة حتى قيام الساعة فلابد أن تكون معجزته عقلية ولابد أن يكون الانسان هو الوسيلة لهذه المعجزة والغاية منها ولهذا فأن المعجزة الجديدة تتكون من معجزتين هما الانسان والقرآن ، أي أن معجزة الاسلام يمثل القرآن نصفها ويمثل نصفها الثاني الانسان ، وأن كلا منهما مستقلا عن الأخر لا يؤلف الا نصف المعجزة وهذا النصف لا يتحمل قوة وحيوية وفعل المعجزة أو نصفها ما لم يتفاعل مع النصف الآخر فالقرآن إعجازه في بلاغته وفصاحته ومعانيـه موزعا على سور وآيات لا تأخذ دلالاتها هذه (في البلاغة والفصاحة والمعاني) ما لم يكن هناك إنسان يدركها ، يتحدث عنها ، يعين بلاغتها وفصاحتها ، وعن هذه العلاقة الجدلية بين ركني المعجـزة يقول المـرحوم الرافعي [وأن الانسانية ذاهبة في أرقى عصورها الى هذا المذهب وأن الدين سيكون عقليا وأن العقل هو آخر أنبياء الأرض . فوجود ذلك فيه قبل أن يوجد ذلك في الزمن بأربعة عشر قرنا شهادة ناطقة من الغيب لا يبقي عليها موضع شبهـة فأن أسفر الصبح وبقى بعض الناس نياما لا يرونه وقد ملأ الدنيا فذلك من عمى النوم في اعينهم وآخرون لا يرونه من نوم العمى في أعينهم ، والصبح فوق هؤلاء وهؤلاء و (من أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها)][٢٥٠] .

- إن معجزة الاسلام في قرآنه وفي الغاية الكبرى منه وهي هداية الانسان ، وأنه خاتم الرسالات وعلى عقيدة ختم النبوة يعلق الاستاذ أبـو الحسن الندوي قائلا : [لقد كانت عقيدة ختم النبوة تمجيدا للنوع الانساني وإعلامـا بأن النوع البشري قد بلغ سن الرشد والنبوغ وجاءت الرسالة الاخيرة وأصبح

المجتمع البشري في غنى عن وحي جديد .. وكان ذلك حافزا للانسان على التقدم في المدنية والاعتماد على العلم والتجربة في الحياة اليومية][٢٥١] .

- ويعلق الاستاذ خلف الله على أهمية القرآن في تحرير الانسان وتفاعله معه ومواجهة الحياة قائلا [لقد حرر القرآن الانسان من الخوف الذي كان يفسر تفسيرا وهميا ولم يكن يفسر تفسيرا علميا وحرره من الآيات الملجئة المتمثلة في المعجزات وخوارق العادات ورده الى نفسه يفكر فيها والى الآفاق يتدبر أمورها][٢٥٢] . وذلك مصداقا لقوله تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم) .

- إن ختم النبوة في رسالة الاسلام وجعل معجزته القرآن إنما كان ليصير الانسان خليفة الله في الارض وتظل نبوة الاسلام حية خالدة متجددة عبر تفاعل الكتاب بالانسان ، ومن أجل أن يكون الانسان حرا يتحمل مسؤولية خلافته وأعماله ومواجهة الحياة وتظل النبوة متجددة قائمة من خلال عقله حيث سيكون الدين عقليا وأن العقل هو آخر الانبياء على هذه الارض كما أشار المرحوم الرافعي ، وأن حياة محمد (صلى الله عليه وسلم) ، رسالته وقرآنه تظل حية متجددة ، من خلال كتابه وأنه ليس علينا بمسيطر وأنه بلغ رسالته وأنه ما كان محمد (أبا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبين) ويعلق على هذه الآية الاستاذ خلف الله [الوثيقة الخطيرة في سبيل تحرير العقل الانساني والفكر العربي من كل ما يعوقهما عن تحمل المسؤولية والمضى قدما في إدراك كنه الحياة ووضع النظم والقوانيين التي تمارس بها الحياة)[٢٥٣] .

- ومما يدل على عقلانية معجزة الاسلام وأنها تتمثل في القرآن وفي الانسان أنه سبحانه وتعالى أوضح بأن رسوله الكريم ما كان الا (بشرا رسولا) فحينما شدد القوم على الرسول أن يأتي بمعجزات خارقة كان يرد عليهم (قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا) ، وحينما طلب المكابرون منه أن يأتي بكتاب لهم يقرأون أو ينزل الله والملائكة قبيلا ، كان يرد غليهم (قل لو كان في الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ■ قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم إنه كان بعباده خبيرا بصيرا)[٢٥٤] .

إن في هاتين الأيتين الكريمتين إجابة صريحة بأن الرسالة الاسلامية ومعجزتها

كانت منطقية فهي مرسلة للانسان بوساطة نبي هو في الاساس بشر يوحى إليه ، ولما كان المرسل إليهم بشرا فيجب أن يكون الرسول بشرا مثلهم ولو كان في الارض ملائكة وأراد الله هدايتهم لارسل لهم ملكا مثلهم من هنا يتبين أن الرسالة في عناصرها الثلاثة .. النبي والكتاب والانسان تتفاعل مع بعضها وتعبر عن حقيقة كبيرة هي الانسان ، فالنبي إنسان والمرسل إليهم بشر مثله والكتاب الموحى به مكتوب بلغتهم ومدرك بعقولهم فلولا الانسان لما تمثلت فصول النبوة الرئيسية . وهذه الفصول قامت بأمر الله سبحانه حينما أراد فقال لها كن فكانت وإرادته في صيرورتها كانت لتكون أداته في حمل الامانة وقيام الخلافة على الارض ومن أجل أن يكون الانسان شاهدا على وجود الله إذ لولا الانسان لما كان هناك قول أو حديث عن هذه العلة الاولى ، إن قيام الانسان وظهوره كان ليصبح دليلا ومعلولا للعلة الأولى .. ويعلق الامام الرازي على قوله [(قل لو كان في الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ...) هو أن أهل الارض لو كانوا ملائكة لوجب أن يكون رسولهم من الملائكة لان الجنس الى الجنس أميل ، أما لو كان أهل الارض من البشر لوجب أن يكون رسولهم من البشر][٢٥٥] .

- ويعلق الامام الباقلاني على معجزة القرآن وكونها عقلية خالدة بقوله : [إن نبوة نبيا عليه السلام بنيت على هذه المعجزة .. فأن دلالة القرآن هي عن معجزة عامة عمت الثقلين وبقيت بقاء العصرين ولزوم الحجة من أول وقت ورودها الى يوم القيامة على حد واحد ، وإن كان قد يعلم بعجز أهل العصر الاول عن الاتيان بمثله وجه دلالته فيغني ذلك عن نظر المجدد في عجز أول العصر عن مثله ... فمن ذلك قوله تعالى (الر كتاب أنزلناه لتخرج الناس من الظلمات الى النور بأذن ربهم الى سراط العزيز الحميد) فأخبر انه أنزله ليقع الاهتداء به ولا يكون كذلك الا وهو حجة ولا تكون حجة إن لم تكن معجزة][٢٥٦] .

الأعجاز اللغوي في القرآن :

معجزة الاسلام القرآن . وأنه معجز قاهر ، دال على الصدق في قوله (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القران لا يأتون بمثله ولو كان

بعضهم لبعض ظهيرا) وعندما الحت قريش تطالب الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) أن يأتي بمعجزات خارقة ، رد عليهم سبحانه وتعالى بأنه لا حاجة الى إظهار تلك المعجزات حيث أن قوم موسى سبق أن آتاهم الله تسع آيات بينات ، فلما جحدوا أهلكهم الله ... ثم أنه تعالى لو أتى قوم محمد تلك المعجزات التي اقترحوها ثم كفروا بها وجب إنزال عذاب الاستئصال بهم وذلك غير جائز في الحكمة لعلمه تعالى أن منهم من يؤمن والذي لا يؤمن فيظهر من نسله من يصير مؤمنا ، ولما تم هذا الجواب عاد الى تعظيم حال القرآن وجلالة درجته فقال (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) والمعنى أنه ما أردنا بأنزاله الا تقرير الحق والصدق[٢٥٧] .

إن مطالبة بني إسرائيل موسى عليه السلام بالمعجزات وتقديمها لهم وعدم قناعتهم وإيمانهم استوجبت معاقبتهم ، ولما كان سبحانه قد أغلق باب المعجزات الخارقة وختم النبوات بنبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) فأنه جعل معجزته عقلية لغوية لتبقى خالدة ما بقى الانسان ولتظل تتحداهم ، فأن جاؤوا بمثلها «وهم لا يستطيعون مطلقا» فأن في ذلك حث لهم ليأتوا بسورة أو آية من مثله ، وفي ذلك حث لهم ليأتوا بسورة أو آية من مثله ، وفي ذلك تشجيع ودفع لهم لممارسة التحدى بالكلمة والفكرة وهذا التحدي يولد نتائج فكرية وحضارية متقدمة وإن عجزوا في تقديم آيات أو سور فأن عجزهم هذا لا يستوجب معاقبتهم لأن معجزة القرآن عميقة واسعة لا يمكن أن يأتوا بمثلها وأنه سبحانه يعلم مسبقا أنهم غير قادرين على مواكبة القرآن الكريم في إعجازه وأنه تعالى لن يفرض عليهم عقوبة على عجزهم وفشلهم حيث أنه يعلم بأنهم سوف لا ولن يقدروا على الاتيان بشئ يوازي أو يقف على مقربة من القرآن الكريم واعجازه . إن الجدل والتحدي بالمعجزة العقلية جدل دائم إراده سبحانه لتستمر النبوة على الارض حية متجددة وليظل الانسان خليفته عليها يمارس مهمات الخلافة لكى تظل عجلة الحياة دائمة متطورة .

إن التحدي بالقرآن «لغة ومعنى» تحد للفعل والتفاعل في حركة جدلية مستمرة تشد الانسان الى كلام الله ، يصعد بعقله الى حيث الكلمة ومصدرها ، والمعنى ودلالته ، ويهبط الانسان إلى اعمق دركات الشك والريبة وينتقل بين قطبى الأيمان والكفر متنقلاً بين السماء والأرض يحتضن آياته سبحانه يقلبها ، يسعى إلى تحديها ،يقف بائسا ، يخرج كلاما يحسبه سورا وآيات لا تلبث ان تتساقط هشيما محترقا .

إن تقديم المعجزات الخارقة الدالة على قدرة الله بصورة واضحة ملموسة

وعدم الايمان بها يستوجب معاقبته ، أما التحدي بالقرآن وعدم قدرة الانسان على النجاح في هذا التحدي لا تستوجب العقوبة اذا مابقى يحاول مرات حيث أن تكرار المحاولة يدل على رغبته في التوصل الى نتيجة يطمئن إليها وأن طريقه للوصول الى هذه النتيجة يعتبر اجتهادا فان أصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد ..

ولما كان الله سبحانه قد أوصد باب النبوة فلابد أن تكون معجزته الخاتمة عقلية منطقية قابلة للحوار والأخذ والرد القبول والرفض بدرجات متفاوته ليواصل الانسان سعيه وتحديه وان عدم توفيقه في النجاح لا يشكل مسؤولية توجب العقاب ، لا سيما إذا ما واصل سعيه في ميدان التحدي وممارسة ذلك فعليا .

ثمة أمر آخر .. إن العقوبة على من يكفر ويعائد بعد مشاهدته المعجزات الخارقه تلغى دور الانسان باعتباره (الوسيلة والغاية من النبوة) ولما كان سبحانه وتعالى أرسل ارسله وأنزل كتبه لهداية الناس فلابد أن تكون رسالته الأخيرة قابله للجدل والتفكير والفعل ورد الفعل ليبقى الانسان حيا متفاعلا ولتبقى نبوته خالدة دائمة .

إن توقف المعجزات المادية الخارقة يعنى وقفَ النبوات وغلق أبوابها ، فلابد أن تكون المعجزة الختامية معجزة دائمة متوافقه مع العقل والمنطق بمستوى الانسان إدراكا وبقدره تحديا وبأمكانياته درجة وتعجيزا ، والمعجزة التي تحمل هذه المواصفات لابد أن تكون عقلية كما هي عليه معجزة الاسلام «القرآن الكريم»

إن كون القرآن معجزة عقلية إبقاء على خلافة الانسان في الارض واستمرار لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وبقائها حية متجددة تستمد حياتها من معانيها ومبادئها وبلاغتها وفصاحتها ومن تفاعلها الحى الدائم مع الانسان .

وعليه فان الانسان والقرآن هما المعجزة الاسلامية ويعلق الامام الرازي على عقلانية معجزة الاسلام وعدم جدوى المعجزات الخارقة قائلاً : إعلم أن المقصود من هذا الكلام الجواب عن قولهم «لن نؤمن لك حتى تأتينا بهذه المعجزات القاهرة ، فقال تعالى ـ إنا آتينا موسى معجزات مساوية لهذه الأشياء التي طلبتموها بل اقوى منها وأعظم ، فلو حصل في علمنا أن جعلها في زمانكم مصلحة

لفعلناها كما فعلنا في حق موسى فدل هذا على إنا إنما لم نفعلها في زمانكم لعلمنا أنه لا مصلحة في فعلها»[٢٥٨].

إن قوله ـ لا مصلحة في فعلها ـ يعني أن الحجة والتعجيز بذلك الطراز من المعجزات قد انتهى وابتدأت مرحلة جديدة ، الحجة عليها ستكون بآيات من نوع آخر حيث قد بلغت البشرية درجة متقدمة وأن ما قدم لها من معجزات خارقة كان كافيا وشاملا ولما كانت الرسالة الاسلامية رسالة خالدة فهي للانسان حيثما كان وعلى مدى حياته فيجب أن تكون معجزة عقلية لكي تواصل تحديها وتفاعلها مع الانسان لتظل هذه النبوة حية متجددة .
هذا الى جانب أن القران الكريم قد حفظ كل المعجزات الخارقة التي سبق أن من بها سبحانه على أنبيائه من قبل خاتم رسله محمد (صلى الله عليه وسلم) ولأنها مقدمة في كتابه فهي حجة على من يطالب بمعجزات خارقة ، وأن عدم الموافقة على تكرارها تأكيد من عنده سبحانه بأنها وقعت لانبيائه ورسله من قبل وأن على الانسان اليوم وبعد اليوم أن يؤمن بصحتها وكأنها تتقدم إليه وتعرض أمامه كما عرضت من قبل . فلا يجوز في حكم الله أن يشكك في أمره ويبقى الانسان مكابرا معاندا وهو يقرأ بأن هذا القرآن من عنده وأنه حفظ أخبار ومعجزات الرسل والانبياء ، وحفظ قصة رسوله الكريم وأنه تعهد بحفظه من الزيادة والنقصان والتغيير والتحريف .

ويوضح الامام الرازي الجوانب التي حفظها القرآن والتي تدل على وحدانيته سبحانه وقدرته وصفاته وذكر أنبيائه وتثبيت الاسس الرئيسية لعقيدته فيقول (وهذا الكتاب الكريم مشتمل على أشياء لا تزول وذلك لانه مشتمل على دلائل التوحيد وصفاته الجلال والاكرام وعلى تعظيم الملائكة وتقرير نبوة الانبياء واثبات الحشر والنشر والقيامة ، وكل ذلك مما لا يقبل الزوال ، ومشتمل أيضا على شريعة باقية لا يتطرق إليها النسخ والنقص والتحريف ، وهذا الكتاب كتاب تكفل الله بحفظه عن تحريف الزائفين وتبديل الجاهلين ، كما قال «إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون» فكان هذا الكتاب حقاً في كل الوجوه .. «وبالحق أنزلناه وبالحق نزل» يدل على أن الانزال غير النزول فوجب أن يكون الخلق غير المخلوق وأن يكون التكوين غير المكون .. ثم قال تعالى «وما أرسلناك الا مبشراً ونذيرا» والمقصود أن هؤلاء الجهال الذين يقترحون عليك هذه المعجزات ويتمردون عن قبول دينك لاشئ

عليك من كفرهم فأني ما أرسلتك الا مبشرا للمطيعين ونذيرا للجاحدين فأن قبلوا الدين الحق انتفعوا به والا فليس عليك من كفرهم شيء[٢٥٩] .

هذه الحدود الدقيقة التي يعينها الله لمسؤولية الرسول من أنه بشير للمطيعين ونذير للجاحدين يعني أن مهمته الدعوة بالكلمة والحجة والموعظة الحسنة والا نذار بالدليل والصورة وتحذير المكابرين من مغبة العصيان والجحود .

إن الدعوة بالقرآن هي الدعوة بالتي هي أقوم ، وفي ذلك إبقاء على حرية الانسان ومسؤولياته وتساوق بين هذه المسؤولية الواعية وبين الحجة بالقرآن والدعوة به ليظل القرآن بشيرا ونذيرا وأن الكلمة منه والآية فيه تحمل الفكرة الدالة على التبشير والتحذير وفي ذلك إبقاء لآدمية الانسان ومواصلة التعامل معه باعتباره خليفة الله على الأرض وأنه الغاية الكبرى من هذا الوجود والوسيلة له سبحانه في التعبير عن ذاته وقدراته فلا بد أن يظل الخطاب بينه سبحانه وبين الانسان خطابا عقليا .

الاعجاز والتعجيز في القرآن لغة ومعنى :

القرآن كله معجز ، سوره وآياته ، كل كلمة فيه ، مطالع بعض سوره وهي تتألف من حروف ثلاثة أو أكثر معجزات في لفظها وفي معناها ، (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا) ، سبحانه لم ينزل دفعة واحدة ، إنما فرقه ليكون حفظه أسهل ولتكون الاحاطة والوقوف على حقائقه ودقائقه اسهل)[٢٦٠] .

إن تنزيله على مدى ثلاثة وعشرين عاما إنما أراد أن يتدرج في إقناعهم درجة درجة وأن يتحداهم بالسورة القصيرة والطويلة وبالآية والكلمة ، ولكي يبقى هذا التحدي مستمرا على امتداد كلماته وآياته وسوره حيث أن التعجيز كان بالقرآن كله مجتمعا وموزعا في سبيل النزول الى مستويات الانسان المختلفة والصعود بها ومعها وتتابع هذا التحدي في جميع الازمان والحالات .

وعندما لج القوم وكابروا وطالبوا الرسول بقولهم (لن نؤمن لك حتى تفجر لنا في الأرض ينبوعا ، كان يرد عليهم الرسول الكريم ـ هل كنت الا بشرا رسولا ـ ويعود يؤكد لهم بأنه لن يقدر أن ينزل اليهم معجزات الا القرآن حيث فيه إعجازه ، فيقول (ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس الا كفورا)[٢٦١] . هذه الآية تأكيد بأن القرآن الكريم ضم كل المعجزات وأعظمها وأنه هو المعجزة الدالة على وجود الله وقدرته ، (والدلالة على كونها معجزة فطلب المعجزات الاخرى طلب لما لا حاجة إليه ولا ضرورة فكأن طلبها يجري مجرى التعنت والتحكم) ، إن في رد الرسول الكريم هذا تأكيد على أن القرآن معجزته الوحيدة وأن هذه المعجزة متوافقة مع إدراك الانسان وقدراته ، متوازنة مع تكوينه ومهماته فهي بمستوى قدرة الانسان وتركيبه ، تخاطب عقله ووجدانه فهي في حدود إدراك الانسان وفي مستوى تفكيره لا تزيد على ذلك ولا تنقص ، ولهذا فهي من أكبر المعجزات ومن أوضحها وأدقها وأفيدها وأرحمها ، ولهذا خاطب سبحانه الناس بقوله (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى) والهدى هو القرآن بكل ما فيه من حجج وآيات وأنه بأياته وسوره يهدي الانسان ويحمله على الاقتناع والوصول الى شاطئ الايمان ، ويعلق الامام الرازي على هذا الهدى الرباني وتساوقه مع إدراك الانسان قائلا (وتقرير هذا الجواب أن تقدير أن يبعث الله ملكا رسولا الى الخلق فالخلق إنما يؤمنون بكونه رسولا من عند الله لاجل قيام المعجز الدال على صدقه ، وذلك المعجز هو الذي يهديهم الى معرفة ذلك الملك في ادعاء رسالة الله تعالى ، فالمراد من قوله تعالى (إذ جاءهم الهدى) هو المعجز فقط فهذا المعجز سواء ظهر على يد الملك أو على يد البشر وجب الاقرار برسالته فثبت أن يكون قولهم بأن الرسول لابد وأن يكون من الملائكة تحكما فاسدا وتعنتا باطلا)[٢٦٢] .

إن الهدى بالقرآن الكريم يعني الهدى بالكلمة عبر النبوة والنبوة إنسان يوحي إليه والوحي كلمة ذات معنى ، وهذه الكلمة لا تأخذ بعدها وحيويتها وفعلها الا عندما يدركها عقل الانسان ويتفاعل معها ، فكانت هناك وشائج بين العلة االأولى والوسيلة وعلاقة بين الوسيلة والغاية ، هي علاقة بين الخالق والمخلوق ، بين المبدع والابداع فكان القرآن معجزة جامعة مانعة دالة على وجوده قديما علة أولى وأن الكون وما فيه معلول وأن الانسان وسيلة هذه العلة لهذا الكون وأنه الاداة والغاية لوجوده سبحانه . ولهذا فأن الرسالة لا يمكن أن تمشي خطوة واحدة الا بالانسان ، فهي تحركه وتتحرك به ولا يمكن أن يكون هذا التأثير المتبادل الا

عندما تكون الرسالة بمستوى إدراك الانسان وعلى درجة من فهمه ولذا فهناك موازنة بين المعجزة وأداتها أذ لا يمكن أن يحتج بحجة تتباين مع طبيعة الجهة التي تحملها والتي تدعى للعمل بها إذ لا يمكن للوسيلة أن تحمل مادة أو فكرة أو قضية من طراز غير طرازها فهي عند ذاك لا تقوى على حملها فتقع حالة من التعارض والتباين تنفصل فيها الوسيلة عن مادتها وتبتعد الغاية عن أداتها وتنفصم عرى العلاقة بين العلة والمعلول ويتحول هذا الوجود الى عدم تغلق فيه كل أبواب الجدل والمناقشة والتحدي والطلب والرفض حيث لا وجود لأداة الفعل والتفاعل .

إن القرآن المعجزة في الفاظه ومعانيه ودلالاته من طراز الانسان في قدراته وإدراكه وألفاظه وبلاغته ، والانسان أقوى مخلوقات الله على هذه الأرض ، لذلك استطاع حمل الرسالة والحفاظ على الامانه في حين عجزت السموات والارض أن تحملها (إنا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا)[٢٦٣] . مما يؤكد أن القرآن بما يحمل من معان ودلالات وإعجاز كان أقوى من كل القوى الموجودة في السموات والارض والجبال وأن القوة الموازية له هي قوة الانسان وهذه القوة متمثلة في عقله وإدراكه . من هنا كان التحدي للانسان بالقرآن وهو على قوته وإعجازه بقوة الانسان وبمستوى إدراكه ، ولكي يكون التحدي أيجابيا منطقيا عمليا ، يجب أن تكون قوة المتحدى به وقوة المتحدي من طراز واحد وعلى درجات متقاربة ، أما إذا كان التحدي بشيء يختلف كليا عن المتحدى فليس في ذلك إعجاز ولا سبق حيث أن من شروط التحدي الايجابي أن تكون هناك موازنة بين طرفي التحدي والا ففي حالة التباين الكلي والتفاوت النوعي بين قطبي ذلك تكون عملية التحدي عملية خارقة ويعود الامر الى المعجزات الباهرة وبذلك يجمد دور العقل أو يوضع في درجة التلقي والقبول السلبي وفي ذلك عودة الى مرحلة الطفولة في العقل البشري .

إن التعجيز كان للانسان (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهرا)[٢٦٤] .. إن هذا التعجيز للانس كافة وأن إضافة الجن كان زيادة في التحدي ولحمل الانسان على أن يباشر محاولاته في أن يأتي بمثل هذا القرآن . والتحدي بالقرآن كان بلغته وفصاحته وبالمعاني التي يحملها ، وهذا التحدي بالكلمة لغة ومعنى ، بلاغة وفصاحة يتناسب والمرحلة الحضارية التي كان عليها القوم في عهد الرسالة حيث بلغوا درجة عالية من التطور والتقدم في مجال البلاغة والفصاحة .

إن تعجيز القوم بالكلمة والآية يعني أن المرحلة الحضارية التي ظهر فيها الرسول كانت مرحلة متقدمة في ميدان اللغة والأدب والمعاني التي تحملها العبارة منثورة أو مقفاة .

إن التحدي بسورة من مثله أو آية من آياته هو استنفار لكل اساطين الكلام وفحول اللغة وعباقرة الشعر أن يقفوا في حلبة المبارزة ليقدموا أسلحتهم ويجربوا حظهم في هذه المبارزة ، وإن عجزهم وهم على تلك الدرجة من التطور والسطو على ناصية اللغة وإعجازها وفشلهم في تقديم شئ يحاذي أو يقارب آية من آيات القرآن يدل على أن هذا الكتاب من عنده سبحانه وأنه جعله سلطانا وآية عليهم ، إن التحدي كان دائما للانسان على مدى وجوده لوحده ولكل فرد فيه متفاعلا متعاونا مع غيره ، إنه تحد على مدى الزمن ما دام الانسان حيا فوق هذه الأرض ، إنه تحد للعقل بالعقل وهذا أعلى مراتب التحدي وأسماها ، إنه تحد لصفة إنسانية ميزت الانسان عن سائر خلقه ، تحد لعقله ولغته ، بلغته وفكره ، وعندما عجز الانسان ويعجز عن المغالبة والنصر إنما غرضه أن يقف أمام هذه النتيجة ويحمل نفسه ذاتيا باختياره وقناعته ليصدر قرارا بأن هذا الكتاب ليس من عند بشر إذ لو كان كذلك لاستطاع واحد أو كل البشر أن يأتوا بآية من مثله .

الشعراء يعارض بعضهم بعضا ، والخطباء يتحاور بعضهم مع بعض والكتاب يكتبون بلغة وأساليب متقاربة . الا أن احدا لم يستطع أن يقول عبارة تقف شبيهة أو قريبة من آية من آيات الكتاب ، هذا على الرغم من أن آيات القرآن هي من ذات الكلمات التي يتحدث بها الانسان يوميا وقد تحدث بها من قبل وما زال ولكن لم يستطع أحد أن يأتي بآية من مثله على الرغم من أن التحدي كان مباشرا وعنيفا ومستمرا .

لقد تحدث الكتاب والادباء عن بلاغة القرآن وإعجازه وقد ألفوا العشرات من الكتب والمجلدات في هذا الحقل وما زال الميدان واسعا وخصبا الى مزيد من الدراسات والبحوث ، ان صور الاعجاز اللغوي في القرآن كثيرة فهي في كل آية من آياته ، وأن القارئ المتتبع والعالم المتبحر يحس بهذه البلاغة والطلاوة ويتصور بأن ما يسمعه رائعا سهلا فيحاول تقليده فيقف عاجزا ويعود يحلق مع إعجازه ويصدح مع آياته فيراها لحنا عذبا .

وعلى الرغم من غلبة العجمة على ثقافتنا وابتعادنا عن البلاغة والفصاحة وتغير طباعنا وانحدار مستوياتنا فما زالت الآية القرآنية تحمل جرسا منغما عذبا يهز الوجدان وينير العقل ويحاول أن يتلمس مكامن البلاغة ومصادر الاعجاز فيه فلا يستطيع ، ويسعى المختصون لجمع صور بلاغية فيحاولون اختيار هذه الآية أو تلك دليلا على الاعجاز فيها فيعودون الى الآيات الاخرى التي تركوها فأذا بها تحمل من الاعجاز ما يزيد على الآيات التي وقع اختيارهم الاول عليها .

لقد ملأ الباحثون مئات المؤلفات في إعجاز القرآن ، وسوف يضيف الآخرون على ذلك عشرات المجلدات ولكن كل هذه الكتابات لا تفى في إظهار عظمة القرآن وإعجازه . يقول أبو منصور الثعالبي في الاعجاز اللغوي للقرآن ما يأتي (من أراد أن يعرف جوامع الكلم ويتنبه على فضل الاعجاز والاختصار ويحيط ببلاغة الايماء ويفطن لكفاية الايجاز فليتدبر القرآن وليتأمل علوه على سائر الكلام فمن ذلك قوله عز ذكره «إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا» ، استقاموا كلمة واحدة تفصح عن الطاعات كلها في ألائتمار والانزجار ، وذلك لو أن إنسانا أطاع الله سبحانه مائة سنة ثم سرق حبة واحدة لخرج بسرقتها عن حد الاستقامة ومن ذلك قوله عز وجل (لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فقد أدرج فيه ذكر إقبال كل محبوب عليهم وزوال كل مكروه عنهم ولا شئ أخر أضر بالانسان من الحزن والخوف لأن الحزن يتولد من مكروه ماض أو حاضر والخوف يتولد من مكروه مستقبل فاذا اجتمعا على امرئ لم ينتفع بعيشه بل يتبرم بحياته ، والحزن والخوف أقوى أسباب مرض النفس كما أن السرور والأمن أقوى أسباب صحتها ... ومن ذلك قوله عز اسمه (لهم الأمن وهم مهتدون) ، فالأمن كلمة واحدة تنبئ عن خلوص سرورهم من الشوائب كلها لان الامن إنما هو السلامة من الخوف ... ومن ذلك قوله تعالى ذكره «أوفوا بالعقود» فهما كلمتان جمعتا ما عقده الله على خلقه لنفسه وتعاقده الناس فيما بينهم . ومن ذلك قوله سبحانه (فيها ما تشتهي الانفس وتلذ الأعين) .

فلم يبق مقترح لاحد الا وقد تضمنته هاتان الكلمتان مع ما فيهما من القرب وشرف اللفظ وحسن الرونق ... ومن ذلك قوله عز وجل (والفلك تجري في البحر بما ينفع الناس) فهذه الكلمات الثلاث الاخيرة تجمع من اصناف التجارات وأنواع المرافق في ركوب السفن مالا يبلغه الاحصاء ... ومن ذلك قوله جل جلاله «فاصدع بما تؤمر» ... ثلاث كلمات اشتملت على شرائط الرسالة وشرائعها وأحكامها وحلالها وحرامها .... ومن ذلك قوله تبارك اسمه (لاكلوا من فوقهم ومن تحت

أرجلهم) وهو كلام يجمع جميع ما يأكله الناس مما تنبته الأرض ... ومن ذلك قوله عز وعلا (ولهن مثل الذي عليهن) وهو كلام يتضمن جميع ما يجب على الرجال من حسن معاشرة النساء وصيانتهن وإزاحة عللهن وبلوغ كل مبلغ مما يؤدي الى مصالحهن ومناجحهن وجميع ما يجب على النساء من طاعة الازواج وحسن مشاركتهم وطلب مرضاتهم وحفظ غيبتهم وصيانتهم عن خيانتهم ... ومن ذلك قوله تبارك وتعالى (ولكم في القصاص حياة) ... وفيه زيادة معان حسنة فمنها إبانة العدل بذكر القصاص والافصاح عن الغرض المطلوب فيه من الحياة والحث بالرغبة والرهبة على تنفيذ حكم الله به والجمع بين ذكر القصاص والحياة ... ومن ذلك قوله عز ذكره في إخوة يوسف (فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا) وهذه صفة اعتزالهم بجميع الناس وتقليبهم الآراء ظهرا لبطن وأخذهم في تزوير ما يلقون به اباهم عند عودهم إليه وما يوردون عليه من ذكر الحادث فتضمنت تلك الكلمات القصيرة معاني القصة الطويلة ... ومن ذلك قوله جلت عظمته (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء) ... فلو أراد أحد الاعيان الاعلام في البلاغة أن يعبر عنه لم يستطع أن يأتي بهذه الالفاظ مؤدية عن المعنى الذي يتضمنها حتى يبسط مجموعها ويصل مقطوعها ويظهر مستورها فيقول إن كان بينكم وبين قوم هدنة وعهد فخفتم منهم خيانه أو نقضا فاعلمهم إنك نقضت ما شرطت لهم واذنهم بالحرب لتكون أنت وهم في العلم بالنقض على سواء)[٢٦٥] .

ويجمع الثعالبي بعضا من الآيات الكريمة التي تجري مجرى المثل فيقول (ويجمع الاعجاب والاعجاز والايجاز «ولا يحيق المكر السئ الا بأهله» ، «إنما بغيكم على أنفسكم» «كل نفس بما كسبت رهينة» ، «كل من عليها فان» ، «كل نفس ذائقة الموت» ، «لكل نبأ مستقر» ، «قل كل يعمل على شاكلته» ، «يا أسفي على يوسف» ، «ولا تنس نصيبك من الدنيا» ، «تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى» ، «فضربنا على آذانهم في الكهف» ، «أغرقوا فادخلوا نارا» ، «ولا تزوازرة وزر أخرى» ، «كل حزب بما لديهم فرحون» ، «يحسبون كل صحيحة عليهم» ، «ويحسبون إنهم يحسنون صنعا»)[٢٦٦] .

ويقول الجاحظ في إعجاز القرآن [إن القرآن في الدرجة العليا من البلاغة التي لم يعهد مثلها ... ولي كتاب جمعت فيه آيا من القرآن لتعرف بها ما بين الايجاز والحدث وبين الزوائد والفضول والاستعارات فأذا قرأتها رأيت فضلها في الايجاز

والجمع للمعاني الكثيرة بالالفاظ القليلة فمنها قوله حين وصف خمر أهل الجنة (لا يصدعون عنها ولا ينزفون) وهاتان الكلمتان قد جمعتا جميع عيوب خمر أهل الدنيا .. وقوله عز وجل حين ذكر فاكهة أهل الجنة (لا مقطوعة ولا ممنوعة) جمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعاني](٢٦٧) .

ويقول الامام الباقلاني في القرآن وإعجازه [إن القرآن معجز وأحصى جملة وجوه إعجازه وهي ١ - الاخبار عن المغيبات ٢ - مافيه من أخبار الامم القديمة مع أمية الرسول ٣ - نظم القرآن](٢٦٨) .
ويضيف الامام الباقلاني في إعجاز القران قائلا [ما يجب وصفه من القول في تنزيل متصرفات الخطاب وترتيب وجوه الكلام وما تختلف فيه طرق البلاغة وتتفاوت من جهته سبل البراعة وما يشتبه له ظاهر الفصاحة ويختلف فيه المختلفون من أهل صناعة العربية والمعرفة بلسان العرب في أصل الوضع ... ونشير الى ما يجب في كل واحد من هذه الطرق ليعرف عظم محل القرآن وليعلم ارتفاعه عن مواقع هذه الوجوه وتجاوزه الحد الذي يصح أو يجوز أن يوازن بينه وبينها أو يشتبه ذلك على متأمل .. ولسنا نزعم أنه يمكننا أن نبين ما رمنا بيانه وأردنا شرحه وتفصيله لمن كان عن معرفة الادب ذاهبا وعن وجه اللسان غافلا ، لأن ذلك مما لا سبيل إليه الا أن يكون الناظر فيما نعرض عليه مما قصدنا إليه من أهل صناعة العربية .... وإنما ضمن الله عز وجل فيه البيان لمثل من وصفناه فقال (كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعقلون) وقال (إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) ... (إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون)](٢٦٩) .

ويستشهد الامام الباقلاني بعدد من الآيات الكريمة عن إعجاز القرآن فيقول ... [ويكفي عجز أهل العصر الاول في الدلالة لأنهم خصوا بالتحدي ... فمن ذلك قوله تعالى (الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور بإذن ربهم إلى سراط العزيز الحميد)(٢٧٠) . فأخبر أنه أنزله ليقع الاهتداء به ، ولا يكون كذلك الا وهو حجة ، ولا تكون حجة إن لم تكن معجزة .. وقال عز وجل (وان احد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله)(٢٧١) . فلولا أن سماعه إياه حجة عليه لم يوقف أمره على سماعه ولا يكن حجة إلا وهو معجزة وقال عز وجل ... (وأنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين)(٢٧٢) . وهذا بين جدا فيما قلناه من أنه جعله سببا لكونه منذرا .. ثم أوضح ذلك بأن قال

ويقول المرحوم رشيد رضا في إعجاز القرآن [إن الله تعالى قد أوجد بالقران أعظم إنقلاب في البشر بتأثيره في أنفس العرب إذ جعلهم بعد أميتهم اساتيذ الامم وسادة العجم](٧٧٥) .

ويقول الامام محمد عبده في القرآن ودوره في تحرير العقل البشري [دخل الانسان بدين الاسلام في سن الرشد .. بل أرشده الله تعالى بالوحي الاخير ـ القرآن ـ استعمال عقله في تحصيل الايمان بالله وبالوحي](٧٧٦) .

ولقد أفرد المرحوم صادق الرافعي كتابا سماه «إعجاز القرآن» جمع فيه الاعجاز اللغوي في الكتاب العزيز وقد أبدع أيما إبداع في هذا الميدان ويعد كتابه من أهم الكتب التي برزت الاعجاز اللغوي في القرآن وأن الرجوع إليه كله يبين المدى العظيم الذي بلغه المرحوم الرافعي في هذا الميدان ، ومن شذرات قوله في هذا الباب [إن لكلام الله تعالى أسلوبا خاصا يعرفه أهله ومن امتزج القرآن بلحمه ودمه ، وأما الذين لا يعرفون منه الا مفردات الالفاظ وصور الجمل فأولئك عنه مبعدون ، وقال أيضا (فهم كتاب الله يأتي بمعرفة ذوق اللغة وذلك بممارسة الكلام البليغ منها)](٧٧٧) .

ويضيف الامام الرافعي [ولما كان الذي أقبل به القرآن على العرب وجه تلك البلاغة المعجزة فقد كان إعجازه أن يأتيهم بأفصح ما تنتهي إليه لغات العرب جميعا وإنما سبيل ذلك في لغة قريش ، وهذه اللغات وإن اختلفت في اللحن والاستعمال الا أنها تتفق في المعنى الذي من أجله صار العرب جميعا يخشعون للفصاحة من اي قبيل جاءتهم ، وهذا المعنى هو مناسبة التركيب في أحرف الكلمة الواحدة ثم ملاءمتها للكلمة التي بإزائها ثم اتساق الكلام كله على هذا الوجه حتى يكون كالنغم الذي يصب في الاذن صبا فيجري أضعفه في النسق مجرى أقواه لان جملته مفرغة على تناسب واحد](٧٧٨) .

ويحلق الاستاذ الرافعي في إبراز النواحي البلاغية والاعجازية في القرآن فيقول [إن وجه الاعجاز ما تضمنه القرآن من المزايا الظاهرة والبدائع الرائقة في الفواتح والمقاصد والخواتيم في كل سورة وفي مبادئ الآيات وفواصلها ... قالوا والمعول عليه على ثلاث خواص ـ ١ ـ الفصاحة في ألفاظه كأنها السلسال ـ ٢ ـ

البلاغة في المعاني بالأضافة الى مضرب كل مثال ، ومساق كل قصة وخبر في الاوامر والنواهي وأنواع الوعيد ومحاسن المواعظ والامثال وغيرها مما اشتمل عليه فأنها مسوقة على ابلغ سياق ... ـ ٣ ـ صورة النظم فأن كل ما ذكره من هذه العلوم مسوق على أتم نظام وأحسنه وأكمله .. ومحصل هذا المذهب إن الاعجاز في القرآن كله لأن القرآن كله معجز .. وهو معجز لأنه معجز][٢٧٩] .

ويبين الامام الرافعي القيمة الاعجازية في لغة القرآن قياسا الى المرحلة التي نزل فيها فيقول [بلغ العرب في عهد القرآن مبلغا من الفصاحة لم يعرف في تاريخهم من قبل ، فأن كل ما وراءه إنما كان أدوارا من نشوء اللغة وتهذيبها وتنقيحها واطرادها على سنن الاجتماع فكانوا قد أطالوا الشعر وافتنوا فيه وتوافى عليه من شعرائهم أفراد معدودون كان كل واحد منهم كأنه عصر من تاريخه بما زاد من محاسنه وابتدع من أغراضه ومعانيه وما نفض عليه من الصبغ والرونق ...... وليس في الأرض أمة كانت تربيتها لغوية غير أهل هذه الجزيرة .... فلو أن هذا القرآن غير فصيح أو كانت فصاحته غير معجزة في اساليبها التي ألقيت إليهم لما نال منهم على الدهر منالا ، ولخلا منه موضعه الذي هو فيه ثم لكانت سبيله بينهم سبيل القصائد والخَطب والاقاصيص وهو لم يخرج عن كونه في الجملة كأنه موجود فيهم بأكثر معانيه قبل أن يوجد بألفاظه وأساليبه ، ثم لنقضوه كلمة كلمة وآية آية دون أن تتخاذل أرواحهم أو تتراجع طباعهم ولكان لهم وله شأن غير ما عرف ، ولكن الله بالغ أمره وكان أمر الله قدراً مقدورا][٢٨٠] .

ويربط الامام الرافعي بين إعجاز القرآن وبلاغة العرب ودرجة تقدمهم الحضاري وقوة بأسهم وسلطان الكلمة فيهم فيقول [فجاء القرآن الكريم افصح كلام وأبلغه لفظا وأسلوبا ومعنى ليجد السبيل الى إمتلاك الوحدة العربية التي كانت معقودة بالالسنة يومئذ وهو متى امتلكها استطاع أن يصرفها وأن يحدث منها وكانت رأس أمره وقوام تدبيره إذ هي الامة بصبغتها العقلية ومعناها النفسي وهو لا ينتهي الى هذه الوحدة ولا يستولي عليها الا إذا كان أقوى منها فيما هي قوية به بحيث يشعر أهلها بالعجز والضعف والاضطراب شعورا لا حيلة فيه للخديعة والتلبيس على النفس والتضريب بين الشك واليقين .... فمن ثم لم تقم للعرب قائمة بعد أن أعجزهم القرآن من جهة الفصاحة التي هي اكبر أمرهم ومن جهة الكلام الذي هو سيد عملهم][٢٨١] .

الاعجاز في المعنى :

كانت الصفحات السابقة عرضا سريعا لما في القرآن الكريم من إعجاز لغوي وعلى الرغم من الصفحات الكثيرة التي سطرت فأن ذلك لا يؤلف الا حصاة الى جبل وقطرة الى بحر ذلكم الفيض الاعجازي المتمثل في كل آيات الكتاب الحكيم .

إن الاعجاز اللغوي لا يمتد عوده ويقوى بنيانه الا بالمعنى حيث أن للكلمة جرسها الموسيقي ولها وهي تشارك أخواتها في جملة طويلة أو قصيرة أنغام مموسقة تعزفها حروفها عبر تناغمها مع بعضها بحيث تؤلف وهي مكونة كلمة أو عبارة أو مقطعا وقعا موسيقيا خاصا وهذا الوقع تحمله حروف الكلمة وهذه الحروف تضرب الحانها مع بعضها حروفاً مشكلة كلمات وهذه الكلمات تكون صوتا مدويا كالرعد ما لم يحمل هذا الصوت معاني تعطي للنغم وقعا وتدفع بالحروف مع بعضها لتماوج لحنا عذبا يتساوق بين الكلمة ومعناها .

إن الفصل بين الكلمة لفظا والكلمة معنى يسقط اللفظ عن دلالته ويحرم الكلمة من وقعها الموسيقي ويذبح العبارة ويجعلها صحراء لا نبت فيها ولا ماء . إن الكلمة في شقيها .. اللفظ والمعنى ، حياتها في تفاعل لفظها مع معناها ، وتموت الكلمة عند الفصل بين قطبيها فتغدو صوتا بلا معنى أو معنى بلا صوت ، يقول شارل بالي [إن اللغة نظام من الرموز التعبيرية تؤدي محتوى الفكرة التي تمتزج فيها العناصر العقلية والعناصر العاطفية فتصبح هدفاً اجتماعيا محضاً ، إن اللغة في الواقع تكشف في كل مظاهرها وجها فكريا ووجها وجدانيا ويتفاوت الوجهان كثافة بحسب ما للمتكلم من استعداد فطري وبحسب وسطه الاجتماعي والحالة التي يكون عليها][٢٨٢] .

لذا فأن كل ما جاء عن الاعجاز اللغوي يشكل توضيحا عن الاعجاز في المعنى لان ذلكم الاعجاز لم يكتسب صفته الاعجازية من وضع الكلمات مع بعضها ورصفها جملا بدون انتظام وبلا اعتبار لمعانيها ودلالاتها .. إن إعجازها كان في تناسقها وتناغمها مع بعضها وتداخل الفاظها في معانيها وتشكيلها وقعا موسيقيا ذا دلالة ومعان خاصة .

إن كل كلمة تتألف من عدد من الحروف وأن جمع حرف الى آخر يؤلف معنى محددا وأن أي زيادة على حروف الكلمة الواحدة أو نقصان فيها يغير من معناها وأن وضعها الى جنب كلمة أو شدها الى أخرى أو إسقاطها عن عبارة يؤلف معاني معينة وأن التفاعل والتساوق بين الكلمة وحروفها نغما وبين الكلمة وصاحبتها وقعا ومعنى يؤلف ما فيها من بلاغة أو فصاحة .

الاعجاز في اللفظة هو في الترابط والتناغم بين حرف وآخر وتشكيلهما وقعا موسيقيا وإصدارهما معنى خاصا ، إن تفاعل الحرف مع الحرف داخل الكلمة الواحدة وتفاعل الكلمة مع كلمة أخرى في عبارة محددة وتناغم وتكامل أصدائها ومعانيها مع غيرها من الكلمات يؤلف المعجزة اللغوية المتكاملة .

فالآيات القرآنية التي أشرنا الى إعجازها أعلاه والتي منها (ولكم في القصاص حياة) ، (ولهن مثل الذي عليهن) ، (ولا تزر وازرة وزر أخرى) ، (فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا) فأن الاعجاز في هذه الآيات كان في لغتها ، في تناغم الفاظها ، في الحانها الموسقة ، في وقعها الشجي الدافئ العذب ، وفي معانيها الكبيرة ودلالاتها العظيمة وما تقرره من مبادئ وأفكار ومن فواصل الكلمة وعظيم معانيه . إن البلاغة والفصاحة في الآيات الكريمة ، إنما تشمخ في المعاني الكبيرة التي تقدمها الآيات الصغيرة المحدودة فتثير استعارات دقيقة وكنايات بالغة وصورا بديعية رائعة هذه (الاستعارات والكنايات والبيان والبديع إنما هي معان ترفدها الالفاظ بتناسقها عبر عبارة بليغة معجزة . فلولا هذه المعاني التي تصدر عن هذه الجمل والآيات لما اكتسبت ذلك الثوب السحري وتلك الحلة القشيبة ، إن الفصاحة والبلاغة في اللغة هي شجرة وارفة دانية قطوفها مفتح وردها ، زكي أريجها ، يتساقط رطبها تمرا شهيا ، فهي ليست رائعة في ساقها وأغصانها ووردها وثمارها إنما هي رائعة في كل هذه متداخلة متكاملة مع بعضها .

إن الصور البلاغية المتصاعدة من الآيات القرانية المتناغمة لحنا عذبا المتماوجة عرائس ضاحكة تتصاعد في أجواء السماء لوحات رائعة أخاذة تتراقص ذات اليمين وذات الشمال شامخة جبلا أشم تكسوه ثلوج تسفك الشمس دما قانيا يلون جيدها تتهادى شجرة فارعة تهزها بيد طاهرة يتساقط منها من وسلوى يفوح شذاه تجمع أريجه نحلة تعمل بوحي من عند الله ، وتسارع نملة تهمس في آذان أخواتها تحفزهم على الهرب لئلا يحطمهن سليمان وجنوده ويقف الذي عنده علم

من الكتاب يتعهد بحمل عرش بلقيس قبل أن يرتد اليه طرفه ويأتي بعرشها وتكشف عن ساقيها تحسبه لجة ويظل ألقها معطرا بين الارض والسماء يحمل لوحة أخاذة تعجز الدنيا ومن فيها أن يخطوا خطا في هذه الصورة المتعالية فتنة وإغراء وتهمس بلقيس في قوتها قائلة «إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون» فترسم على عرض السماء وطولها مجزرة الانسان يقتل بيد جلاديه منذ كان وسوف يبقى الجلادون يسفكون دمه حتى تقوم الساعة . إن هذه الكلمات القليلة في نداء الزمن تتراقص بين شفتي بلقيس تحكي قصة الغدر الدائمة حيث يذبح المستبدون الضعفاء بخنجر الظلم والانانية .

وينزل جبريل يحمل هدية الله على خاتم رسله فيكتب بمداد من النور منة الله وحبه لرسوله الامين (إنك لعلى خلق عظيم) فيجمع الله في كلمات ثلاث ويقدمها هدية معطرة تزيد مالا وعظمة وإكراما وشرفا على كل المعجزات التي سبق أن من بها على أنبيائه ورسله من قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، ويرجع محمد يجر أذيال الهزيمة والجراح والالم من الطائف وقومه يهزأون به ويضربونه بالحجارة فلا يحمل سبحانه وتعالى عصاه فينزلها صاعقة يحرق بها أولئك المعتدين لكي يعلن بأن الجهاد في سبيل المبدأ فريضة وأن الطريق الى النصر يمر عبر جراح وجهاد وصعاب ويقف محمد يرد بأدب الانبياء على قريش وعنادها وهي تطلب منه أن يفجر الأرض ينبوعا ويحرك الجبال وينزل الله الملائكة قبيلا فيرد عليهم وهل كنت الا بشرا رسولا ؟ ويظل محمد في مكة ، على أذى قريش وعنادها ومحاربتها وقسوتها ومقاطعتها وكان الله قادرا على أن يقول لقريش كن فتزول أو تؤمن ولكنه سبحانه وتعالى لم يفعل ذلك لانه يريد للانسان أن يؤمن بقناعته وإرادته وقدرته ليكون إيمانه عميقا صادقا يتفجر حيوية وعطاء .

وحينما ادعى بعضهم أنه آمن ولما يدخل الايمان في قلوبهم رد عليهم بعبارة جامعة قوية بالغة فقال فيهم (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم) .. إنها قراءة دقيقة للنفس البشرية وكشف لبواطن الانسان ودواخله ليس في جملة من الجمل ولا في كتاب من الكتب قدرة على كشف هذه النفس بمثل ما كشفته هذه الآية في كلماتها القليلة .

إننا إذا ما أخذنا كل آية على انفراد ووضعناها في هذا السياق فأنها تحمل في

كلماتها القليلة صورا إعجازية هائلة ، فليست هناك من آية في القرآن الكريم الا وهي معجزة في لغتها ومبناها .

لقد ظن بعض الكتاب إن الاعجاز اللغوي هو الاعجاز الوحيد المتمثل في القرآن ولما كان هذا الاعجاز في اللغة العربية فهو معجز بالنسبة الى هذه اللغة واهلها وليس معجزا للاقوام الاخرى ، ولما كان الاسلام هو خاتم الديانات فلا يجوز التحدي بأعجازه اللغوي الامم والشعوب التي لا تحسن اللغة العربية .

إن الرد على مثل هذه الاقوال هو أن اللغة العربية كانت اللغة التي نزل فيها القرآن حيث كان محمد صلى الله عليه وسلم من العرب ولغته ولغتهم العربية والله يقول (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه) حيث أن الخطاب الاول منه تعالى لنبيه ولقومه إذ لابد لكل رسالة من رسول وأن هذا الرسول لا بد أن يكون من أمة معينة يتحدث لغتها .
إذن حديث الرسول بلغة قومه ونزول القرآن بهذه اللغة مسألة منطقية وأن التحدي بأعجاز القرآن يجب أن يكون تحدياً بلغة القوم وبدرجة متناسبة مع فصاحتهم وبلاغتهم ليكون محفزا لهم ودافعا للتفكير بحقيقة الدين الجديد ومعجزته لاقناعهم بالحجة المناسبة بأن هذا القرآن من عند الله وليس من محمد صلى الله عليه وسلم وليس في قدرة أي إنسان أن يأتي بمثله ولابد من أن يظل التحدي قائما بين النبي ورسالته من جهة وبين قومه من جهة ثانية لأنهم هم المادة الاولى لحمل الرسالة إذ لا يمكن للرسالة أن تمشي خطوة لهداية الناس ما لم يؤمن بها الانسان الاول المكلف بها ويستطيع أن يتحدث إليهم ويناقشهم ويتحداهم بلغتهم وحضارتهم ومعارفهم وبعد إعداد العدة تتحرك الرسالة بالمدركين لها والمؤمنين بها لهداية الآخرين ومن ثم تسير الى حيث هداية الناس .

فاذا ما تمت هداية القوم الذين من الله عليهم فكانت الرسالة في واحد منهم فان حركة هؤلاء في هداية الشعوب الاخرى التي لا تتكلم لغة القرآن انما يكون بما في هذه الرسالة من مبادئ إنسانية ومناهج عمل دقيقة ومعان ودلالات في قراءة النفس البشرية والعبرة بتاريخ الانسان على امتداد تاريخه وما تحمله الرسالة من نظرية في تفسير الحياة وتعيين العلاقة بين الانسان وخالقه واخيه وبين هذه الامة وغيرها من الامم ، ولما كان القرآن قد جمع بين دفتيه كل أخبار الانبياء البارزين

وحفظ مبادئهم ومعجزاتهم وكانت تدور حول مسائل محددة أبرزها الوحدانية لله والقدرة المطلقة له وأن الانسان خليفته على الأرض وأن الرسالات السماوية هي في سبيل سعادته وتحقيق العدالة له في هذه الأرض وحمله على الايمان باليوم الآخر حيث الثواب والعقاب فأن مثل هذه المبادئ الجامعة هي التي ستتحرك قوية تصل إلى أطراف الأرض تقنع الشعوب والأقوام بأن سعادتها وحل مشاكلها في هـذه المبادئ .

إن القرآن الكريم لم يضع في حسابه الجواب عن النظريات العلمية ولم يلزم الانسان بأجوبة محددة مسبقة عن الكون وما فيه ، إنما تـرك كثيرا من هـذه النظريات للانسان يبحث عنها ويتوصل إليها عبر عمله ومتابعته وبحوثه لكي يبقى على الانسان خليفته في الارض بشرا وليس ملكا ، فسبحانه قادر عـلى أن يفسر للانسان كل ما في الكون من علاقات وروابط ويمده بجنـات عرضهـا السموات والأرض ويمن عليه بالمال والبنين والعلم والسعادة ، الا أن هذه الحياة هي حياة الملائكة حيث يعيشون طيورا في الجنـة ويتصاعـدون نورا ، ويتهـادون شقائق وزنابق والحاناً بدون ألم وبغير مرارة فهم في نور الله يسبحون وفي جناته يرفلون إنها حياة ولكنها ليست حياة الارض ، حيـاة الانسان في ثنـائيته ، في الظلمـة والنـور ، في الخير والشر ، في السعـادة والالم ، في الحياة والمـوت ، إن الحياة البشرية في تناقضها أما حياة الملائكة ففي بعدها الواحد ، سعادة بلا الم ، شبع دون جوع ارتواء بدون عطش سكون هادئ بدون حركة ، إن هذه حياة غير التي أرادها الله حينما جعل من الانسان خليفته في الارض وكان يعلم بأنه سيملأها جورا وظلما ودماء حيث أن نورها وبساتينها وإشراقها وسعادتها لا تكون الا من خلال هذه الدماء المسفوكة وتلك الظلمة الحالكة وذلك الظلم الجائر .

إن الله سبحانه وتعالى وضع مبادئ ومعلومات وخطوطاً عريضة ومنهج عمل في القرآن لكي يقول للمتنطعين المطالبين بمعجزات عملية غير لفظية فجاءت فيه آيات معجزات في معناها شملت ميادين علمية واجتماعية وإنسانية وفلسفية كثيرة تشكل بمفردها إعجازا في المعنى يقف عاليا الى جـانب الاعجاز اللغـوي ويمكن الوقوف على بعض من هذه الجوانب الاعجازية في الميادين الآتية :

١ - في مجال الفلك وطبيعة الارض والكواكب وعلاقة هذه بعضها ببعض .
٢ - بخصوص الحياة والبدء فيها والاسس القائمة عليها .

٣ - في طبيعة الانسان وكيف خلق ومن أي شئ كانت خلقته .
٤ - مبدأ التناقض في الحياة باعتباره أساسا لهذا الوجود .
٥ - الحديث عن الماضي والمستقبل بصورة دقيقة .
٦ - جمع مبادئ الديانات السابقة في الدين الاسلامي واعتباره دين الديانات .
٧ - تفسير الروح تفسيرا دقيقا .
٨ - توضيح الاحلام بصورة تدل على أنها مفسرة تفسيرا من عند غير الانسان .

إن قراءة فاحصة للقرآن الكريم توضح أن إعجازه في معانيه ودلالاته أكبر من إعجازه في بلاغته وفصاحته حيث أن الاعجاز في اللغة قد يثير إعتراضا كالذي أثاره إبن الراوندي[٢٨٣] عندما قال :- إذا كان القرآن معجزا بالنسبة للعرب وهو في لغتهم فكيف يكون معجزا لاقوام أخرى لا تعرف العربية ولا تحسن استعمالها والوقوف على ما فيها من بلاغة ... كما أن التعجيز في اللغة بلاغة وفصاحة كان متناسبا مع ما عليه القوم في فترة البعثه المحمدية وفي الفترات التي بقيت البلاغة والفصاحة سائدة في لغتهم ، الا أن درجة هذه الفصاحة والبلاغة قد تدنت في الاجيال اللاحقة حتى وصلنا الى مراحل من الابتعاد عن إدراك ما في اللغة من إعجاز وما في القرآن من بلاغة بحيث صرنا في حاجة الى أكثر من معلم ودليل يشير الى مواضع الاعجاز ، ومع ذلك لا نستطيع الوصول الى حالة نستطيع بها الاقتراب من درجة الاعجاز الكبرى التي تحملها آيات القرآن الكريم ، إن الابتعاد عن اللغة وفصاحتها وصل في فترات مظلمة طويلة إلى حد أصبح فيها السامع والقارئ العربي لا يتمكن من لمس ولا إدراك تلك الجوانب البلاغية المثيرة التي كانت فاعلة ومؤثرة في القوم في عصر الرسالة .

ولهذا فلا بد أن يحمّل الله القرآن الكريم معاني ودلالات حياتية ومنهجية عالية الى جانب معلومات في ميادين المعرفة المختلفة تبين أن الحديث فيها وفي تلك المرحلة والانسان لم يتوصل آنذاك الى شئ من تلك المعارف والمعلومات يدل على أن القرآن من عند الله وليس من صنع بشر .

إن القرآن لم يكن نظريات علمية جاهزة تفسر الكون وتحدد النظريات وتعين أبعادها ونتائجها إنما هي مناهج عمل تعطى الانسان الفرص لمواصلة

جهوده ومواجهة الحياة وتحدياتها والاستناد الى ما في القرآن من أسس ومبادئ عامة للوصول الى الحياة الافضل .

إن العلوم والنظريات العلمية من صنع الانسان وعليها أن تواجه هي الاخرى الطبيعة وما فيها .. الانسان وسائر الاحياء والتوصل الى تفسير لعلاقة الظواهر مع بعضها وأثر الاحياء وتأثيرها في البيئة فاذا ما توصل الانسان الى نظرية وكانت هذه النظرية متوافقة مع ما في القرآن من أسس ومبادئ فلا يجوز التفاخر بذلك وإضفاء صفات (العلمية والمنهجية والسببية) على القرآن لان هذا العالم أو ذاك توصل الى تفسير علمي وكأن هذا التفسير هو الذي يضفي على القرآن الصفة العلمية البارزة .

إن كل النظريات لابد أن تنتهي الى موافقة ما في القرآن من أسس ومبادئ ، وأن ذلك دليل على أن هذه النظريات من عند الانسان يجب أن تظل تلهث وراء ما في القرآن من حقائق لكي تكتسب صفة العلمية . إن ما يتوصل إليه العلماء لا يزيد القرآن درجة أو فضلا إنما يزيد النظريات مكانة لانها استطاعت أن تدلل على أنها توصلت الى ما يتوافق مع القرآن .

ذلك لان القرآن من عند الله ، والله خالق كل شئ ، والنظريات من الانسان وهو مخلوق من مخلوقات الله فلا بد أن يظل دون مستوى خلق الله وإبداعه .

هذا الى جانب أن النظريات العلمية قلقة تفسر ظاهرة حياتية تفسيرا معينا وفق مقاييس واعتبارات خاصة فلا تلبث أن تأتي معلومات وأدلة تنقضها وتلغي نتائجها .

إن فعل النظريات الاولى والثانية وما يليها ، ستظل تتابع خطاها في سبيل الوصول الى نتائج علمية ، وكلما توصلت الى نتيجة ستكون هذه النتيجة متوافقة مع ما في القرآن من أسس ومبادئ ومناهج ، وأذا ما ثبت فشل هذه النظرية وجيْ بنظرية أخرى فأنها في الحالة الثانية لابد أن تكون متوافقة مع ما في القرآن ، وهذا التوافق الدائم بين النظريات العلمية التي

يتوصل إليها الانسان والقرآن هو الجانب الاعجازي في القـرآن في مجال المعاني والدلالات حيث أن آيات القرآن حددت تفاسير ومبادئ وأسساً قبل مئات السنين عما جاءت به النظريات العلمية والتطورات في هذا الميدان مما يؤكد أن القرآن من عند الله .

وفي هذا الصدد يقول سيد قطب [ونحن أصحاب هذه العقيدة لا نحاول أن نحمل النص القرآني المستيقن على نظرية غير مستيقنه تقبل اليوم وترفض غدا ، لذلك لا نحاول في هذه الظلال أن نوفق بين النصوص القرآنية والنظـريات التي تسمى علمية وهي شئ آخر غير الحقائق العلمية الثابته القابلة للتجربـة كتمدد المعادن بالحرارة وتحول الماء بخارا وتجمده بالبرودة ..... إن القرآن ليس كتاب نظريات علمية ولم يجئ لكي يكون علما تجريبيا كذلك ، إنما هو منهج للحياة كلها ، منهج لتقويم العقل ليعمل وينطلق في حدوده ، ولتقويم المجتمـع ليسمح للعقـل بالعمل والانطلاق دون أن يدخل في جزئيات وتفصيلات علمية بحتة وهذا متروك للعقل بعد تقوميه وإطلاق سراحه][٢٨٤] .

لقد توصل العلماء في فتـرات لاحقة الى نتـائج في ميـدان الفلك والحيـاة وطبيعتها ، وإذا بهذه النتائج تأتي متوافقة مع ما في القرآن من تفاسير عن ذات القضايا التي عالجتها تلك النظريات ، ومن هذه النتائج المتوافقه مع القرآن هي :

١ ـ إن الدراسات العلميـة المتأخـرة انتهت الى القول بـأن الارض كوكب من المجموعة الشمسية وأنها انفصلت عن هذه المجموعة وصار لها مدار تدور فيه وحركة حول نفسها وأخرى حول الشمس ، وهذه النظرية قد أوجزتها آية قرآنية شريفه هي [أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شئ حي][٢٨٥] . إن التفسير لهذه الآية سهل وواضح أن الارض والسماء كانتا ملتصقتين ثم انفصلت الارض واستقرت في فلك لها ، وقد فسر المفسرون هذه الآية بهذا المعنى فقال الامام الرازي [إن المعنى كانتا شيئا واحدا ملتصقتين ففصل الله بينهما ورفع السماء الى حيث هي وأقر الارض ... إن السموات والارض كـانتا رتقـا بالاستـواء والصلابة ففتق الله السماء بالمطر والأرض بالنبات والشجر ونظيره قولـه تعالى (والسماء ذات الرَجع والأرض ذات الصدع)][٢٨٦] .

إن هذا التفسير الذي أوضحه الامـام الرازي هـو ما ذهبت إليـه

النظرية العلمية حيث أنتهت الى ما انتهى إليه الامام الرازي ودخلت في تفاسير وتأويلات كثيرة حول كيفية حدوث هذا الانفصال ، وقد ذهب الامام الرازي من قبلهم الى أن الله هو الذي أحدث ذلك وأوجد السبب في حدوثه فكان المطر عامل هذا الفصل وكان النبات والشجر عامل استقرار الارض ، والمطر والشجر تجمع قوى كثيرة فالمطر أوكسجين وهيدروجين وأن اللقاء بينهما يحتاج الى تفاعل كيمياوي محدد وأن حركة هذا التفاعل تحدث قوة وتأثيرا ... والنبات حجيرة حية تتألف من أجزاء وعناصر صغيرة وأن نموها يتطلب مقومات كثيرة وأن قيامها يتسبب في تصدع الأرض (ورجع) السماء .

٢ - وقوله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة (وجعلنا من الماء كل شئ حي أفلا يؤمنون) هو تأكيد لقوله تعالى (والله خلق كل دابة من ماء) حيث انتهت الدراسات العلمية والنظريات التي فسرت الحياة الى أن الماء هو العنصر الرئيس فيها .. إن قراءة لنظرية داروين في النشوء والارتقاء تبين أن الماء كان الاساس في ظهور الحياة وان الابحاث العلمية المفصلة تؤكد أن الماء عنصرا أساسيا في الحجيرات الحية وأن هذه الحجيرات تحتاج الى نسبة معينة من الماء لكي تعيش .. ويعلق الامام الرازي على هذه الآية فيقول [فالمعنى صيرنا كل شئ حي بسبب من الماء لابد له منه وفي هذا نحو من قوله عليه السلام «ما أنا من دد ولا الدد منى»[٢٨٧] ... وإذا قيل إنه سبحانه ذكر إنه خلق الجان من غير مادة الماء حيث قال «والجان خلقناه من قبل من نار السموم» فان الجان ليس من صنف الأحياء ، ومن يقول أن الله سبحانه خاطب عيسى وآدم عليهما السلام بأنه خلقهما من طين حيث قال (وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بأذني فتنفخ فيها فتكون طيرا بأذني) ... وقال في حق آدم - خلقه من تراب والجواب اللفظ وإن كان عاما الا أن القرينة المخصصة قائمة فان الدليل لا بد وأن يكون مشاهدا محسوسا ليكون أقرب الى المقصود وبهذا الطريق تخرج عنه الملائكة والجن وآدم وقصة عيسى عليهم السلام لان الكفار لم يروا شيئا من ذلك ... واختلف المفسرون فقال بعضهم : المراد من قوله - كل شئ حي - الحيوان فقط - وقال آخرون - بل يدخل فيه النبات والشجر لأنه من الماء صار ناميا وصار فيه الرطوبة والخضرة والنور والثمر - وهذا القول أليق بالمعنى المقصود][٢٨٨] .

وإذا ما تذكرنا قوله تعالى [«إني أخلق لكم من الطين كهيأة الطير» فان هذا الطين هو نتيجة امتزاج الماء والتراب ، ومن هذا الامتزاج تكون الحياة ، حيث أن النظرية العلمية لظهور الحياة تبين أنها ابتدأت في الأرض عند اختلاط الماء بالتراب ، وأن هذين العنصرين هما القاعدة الرئيسية لنشوء الأحياء ... يقول سبحانه «هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا»[٢٨٩] ، ويضيف سبحانه وتعالى «الذي أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الانسان من طين»[٢٩٠] . وقال «إنا خلقناهم من طين لازب»[٢٩١] .

هذه الآيات الكريمة تبين أن الله خلق الحياة من الماء والتراب فجاءت النظريات العلمية لتؤكد ذلك بعد دراسات وتجارب طويلة .

٣ - إن القرآن الكريم ذكر في آية من آياته أن الارض والسماء ، والمحيط الفاصل والمتصل بينهما كانا دخانا فقال «ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض إئتيا طوعا أو كرها»[٢٩٢] . وجاءت البحوث والدراسات لتبين ذلك كما في الآية الكريمة .. فيقول سيد قطب في هذا الشأن (فالنظرية القائمة اليوم هي أن المجموعات النجمية ، كالمجموعة الشمسية المؤلفة من الشمس وتوابعها ومن الارض والقمر كانت سديما ثم انفصلت وأخذت أشكالها الكروية ، وأن الارض كانت قطعة من الشمس ثم انفصلت عنها وبردت .... إن النظرية الفلكية القائمة اليوم لا تعارض المفهوم الاجمالي لهذا النص القرآني السابق عليها بأجيال)[٢٩٣] .

٤ - وعن قانون الجاذبية حيث يسير هذا العالم ، سماواته وأرضه بدقة وانتظام فان هذه المسيرة كانت بفعل الموازنة في قوة جذب بين أطراف وأقسام واجزاء هذا الكون بحيث أن هذه الجاذبية المتقابلة المتوازنة وراء أن يبقى كل كوكب أو مجموعة شمسية تسير في فلكها دون خلل أو تعارض أو تصادم ، وفي القرآن آيات توضح هذه الموازنة الدقيقة وتؤكد أنها موضوعة من عنده بقدر مقدور فيقول [«ويمسك السماء أن تقع على الارض بأذنه» وقال «ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره» وقال تعالى «إن الله يمسك السماوات والارض أن تزولا» وقال «ولا يؤوده حفظها» ... قال تعالى «وحفظناها من كل شيطان رجيم» ثم ها هنا قولان «أحدهما أنه محفوظ بالملائكة من الشياطين» والثاني «أنه محفوظ بالنجوم من الشياطين» والقول الاول أقوى لان حمل

الآيات عليه مما يزيد هذه النعمة عظمـا لانه سبحـانه كـالمتكفل بحفـظه وسقوطه على المكلفين بخلاف القول الثاني لانه لا يخاف عـلى السماء من استراق سمع الجن][٢٩٤] .. إن الآيات الكريمة أعلاه تفسر كيف أنه سبحانه يمسك بالسماء ويرتب وجودها وحركة الكواكب والنجوم فيها بانتظام كما يحدد علاقتها بالارض ، وقد جعل حفظ هذا الكون بسمائه وأرضه بـأمر منه ، وأن وسيلته في ذلك هي (الملائكة) في ديمومة هذه الاجرام وفي البقاء على حركتها متوازنة دون تعارض أو تصادم بفعل (الشياطين) وكأن الملائكة هي القوة التي وضعها الله سبحانه لهذه المعادلة والموازنة أي هي الجاذبية التي توازن بين حركات الكواكب والنجوم ، السماوات وما فيها والارض وما عليها ... إن التعبير بالملائكة أكثر دقة ووضوحـا من التعبير بـالجاذبيـة وقوانينها حيث أن استعمال كلمة الملائكة كقوة مخلوقة من عند الله ومرسلة منه ومعدة لتمسك السماء والارض اكثر قربا لذهن القارئ وأدق تصويرا له في تلك المرحلة حيث الحديث عن الله وقدرته وملائكته وإنسه وجنه ، كان منتشرا ومعروفا وأن منح الملائكة قوة تستطيع بها أن توازن بين الاجرام والاكوان مسألة تجر الى سحب أنظار السامعين الى القضيـة المركـزية في الديانات السماوية وهي الله بقدرته ووحدانيته ، حيث كل شئ من عنده . أما التعبير بالجاذبية الذي جاء بعد مئات السنين فهو تعبير يتناسب مع المرحلة الحضارية الا ان مضامين هذا التعبير وأبعاده بقيت أقل دقة وأقل وضوحا في تفسير هذه الموازنة بين الاكوان مما جاء في القرآن الكريم ... إن لفظة الجاذبية وتحميلها مسؤولية هذه المـوازنة تثـير أسئلة كثيرة لم يستـطع القائلون الاجابه عنها منها :

- كيف ظهرت هذه الجاذبية ومتى ؟!
- ما هي مصادر القوة في هذه الجاذبية ؟
- ما هي القوى المتحكمة في ميزان هذه الجاذبية بحيث تظل عـلى هذه الدرجة من الانتظام والتوزيع بحيث لا يصيبها أي خلل ؟
- هل يمكن التحكم في هذه الجاذبية حجما وقوة ، والسيطرة عليها لكي تبقى على ما هي عليه منتظمة دقيقة تبقى على أطراف القوى والظواهر متحركة حركتها الدقيقة هذه ؟ .. أو أنها قوة لا يمكن التحكم فيهـا وعندئذ فهي قابلة للخروج عن قوانينها وانتظامها وأنها معرضة لهذا الخلل والتصدع بحيث تتداخل الاجرام مع بعضها وتحترق الكواكب

وتزول كل هذه المظاهر الكونية .

- إن العلماء لم يستطيعوا الاجابة عن معظم هذه الاسئلة اجابات فاصلة ولا سيما عن الجواب الرئيس وهو «ما هو مصدر القوة والحركة والموازنة في هذه الجاذبية» الا بالرجوع ثانية الى تفسيرها تفسيرا دينيا والقول بأنها من عند الله وبذلك رجعنا الى حيث البداية ، وأن القول بأن الله سبحانه يمسك السماء أن تقع على الأرض بإذنه وأن ملائكته هم الذين يمسكون ذلك بأمره ، خير جواب على هذه المسألة .

والقول بأن الشياطين هي التي تسعى لزعزعة هذه الموازنة وإخراجها عن سياقها المنظم حينما قال سبحانه (وحفظناها من كل شيطان رجيم) فان هذا الشيطان الذي يحاول أن يخرب فعل الملائكة ويسقط أثرها فان هذه القوة الشيطانية إنما هي قوة تصويرية تبدأ فعلها وحركتها وتأثيرها عندما تسقط قوة الملائكة أو تضعف ، في حالة الضعف هذه تبرز قوة الشياطين فتذهب الموازنة وتختل المعادلة ويتساقط الكون على بعضه ، ولما كانت الملائكة من قوته سبحانه وتعمل بأمره ومشيئته فأنها ستكون الاقوى بحيث لا تسمح لاي تصدع أو خلل تتساقط في إثره هذه الموازنة الدقيقة فقال سبحانه (ولا يؤوده حفظهما) أي أنه محفوظ بالملائكة من الشياطين .

٥ - توصل العلماء بعد لاي وجهد طويلين الى أن الارض كروية أو أنها على شكل البيضة وسوف يضيفون نظريات أخرى توضح شكل الارض وأن ما توصلوا إليه وما سيتوصلون سيأتي موافقا لقوله تعالى في توضيح شكل الأرض حيث أوضحه بقوله (بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا نأتي الارض ننقصها من أطرافها إنهم الغالبون) . إن إنقاص الارض من أطرافها يوضح أن المسافة بين طرفي الأرض الآخرين أطول وأوسع من طرفيها المنقوصين ، وهذا الانقاص يجعل الأرض غير مسطحة وغير متساوية في أبعادها ، وهذا التباين في الشكل والابعاد يجعل الارض على شكل البيضة أو على شكل قريب من هذا ، ولما كان هذا التصوير الدقيق في القرآن الكريم قد جاء في زمن لم يتوصل بعد فيه الى ما توصل إليه المتأخرون فان في ذلك دلالة قوية على أن هذا القرآن من عند غير محمد صلى الله عليه وسلم .. إن هذا الشكل الكروي أو الذي كان على شكل البيضة هو الذي كان

وراء تعاقب الليل والنهار والفصول الاربعة إذ لوكانت الارض مسطحة وعلى شكل غير كروي او على شكل كروي منظم دقيق كما هي عليه الكرة لما قامت وتتابعت الفصول الأربعة .. لقد جاءت الابحاث العلمية مبينة العلاقة بين شكل الارض وتجدد الفصول الاربعة عليها وتتابع الليل والنهار ... ويعلق الامام الرازي على ذلك فيقول [... «آية لهم الليل نسلخ منه النهار»[٢٩٥] . معناها كانت السماوات والارض مظلمة أولا ففتقهما الله تعالى بأظهار النهار المبصر ، فأن قيل فأي الاقاويل أليق بالظاهر قلنا : الظاهر يقتضي أن السماء على ما هي عليه والارض على ما هي عليه كانتا رتقا ولا يجوز كونهما كذلك الا وهما موجودان ...... وقوله تعالى «وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحمون» فصل تلك الآيات ها هنا لأنه تعالى لو خلق السماء والارض ولم يخلق الشمس والقمر ليظهر بهما الليل والنهار ويظهر بهما من المنافع بتعاقب الحر والبرد لم تتكامل نعم الله تعالى على عباده بل إنما يكون ذلك بسبب حركتها في أفلاكها ، فلذلك قال «كل في فلك يسبحون»[٢٩٦] .

٦ - حركة الأرض : بقي الانسان زمنا يعتقد أن الارض ساكنة لا تتحرك وظل اعتقاده هذا الى زمن متأخر على الرغم من بعض المحاولات التي ذكرت بأن الارض متحركة وقد تعاونت الدراسات والبحوث حتى انتهت الى القول بأن للارض حركة حول نفسها تكملها في ٢٤ ساعة وأخرى حول الشمس تتم في سنة واحدة ... إن الله سبحانه وتعالى ذكر في عدد من آياته حركة الارض وحركة الكواكب والنجوم ولكنه عرضها بشكل يتوافق مع المرحلة الحضارية التي كان عليها القوم وقت نزول الوحي ، ولم يوسع الرسول الكريم معاني تلك الآيات ويفصل فيها حيث أن الحديث عن حركة الارض كان مسألة تثير تساؤلات عدة وتدفع بالناس الى حالات من الريبة والشك والضياع لا تتناسب والمهمات الملقاة على المسلمين في تلك المرحلة حيث لم يجد الله سبحانه ضرورة لاعلان هذه الحركة في الارض والكواكب والتفصيل فيها وأبقى ذلك في محكم آياته وترك للانسان أن يواصل جهده ليقف على طبيعة وحقيقة هذا الكون وما فيه وعندما يصل الى نتائج معينة معززة بالادلة والحجج ستكون نتائج إبحاثه وما توصل إليه متوافقة مع ما جاء في القرآن وفي ذلك حجة على الانسان بأنه إذا ما توصل الى شئ بعد مئات من السنين بعد ان توافرت له أسباب العلم والتجربة فأنه توصل الى ما كان مسطرا في

كتاب الله الذي نزل على نبيه الامي ، مما يؤكد أنه من عنده تعالى .. وعن هذه الحركة يقول سبحانه وتعالى «وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب»[٢٩٧] . ويقول سبحانه وتعالى (وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم)[٢٩٨] . ويقول سبحانه (وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون)[٢٩٩] . وقال تعالى (ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض إأتيا طوعا أو كرها)[٣٠٠] .

إن هذه الآيات الكريمة صريحة في أن الارض تتحرك ، فقوله (وترى الجبال جامدة وهي تمر مر السحاب) تقرير منه أن هذه الجبال التي هي جزء من الارض والتي نراها وكأنها جامدة فهي ليست كذلك إنما هي في حركة مستمرة ، وقوله «وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون» تجدد الليل والنهار ، وحركة الشمس والقمر حيث كل في فلك يسبحون ، هذه السباحة حركة في الفلك ، ولما كانت الأرض كوكباً تابعاً للشمس كما هو القمر فأنها هي الاخرى تسبح في فلكها وقد عبر القرآن الكريم بقوله (هو الذي خلق الليل والنهار) كناية عن الارض لأن الليل والنهار يحلان عليها ، وأن حلولهما دليل حركة الأرض وأن هذه الحركة هي العلة في تتابعهما وفي قوله جلت قدرته (ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها) .. إن دعوة الارض والسماء أن تأتي (طوعا أو كرها) ، هذا المجئ لا يكون الا عبر حركة وانتقال في ذات الفلك وعلى محور محدد لكل منهما ، وقوله (وجعلنا في الارض رواسي أن تميد بهم) .. إن هذه الرواس إنما وضعت من أجل الموازنة لحركة الارض من أن تشتط فتميد بالقوم وكأن حركة الارض الدائمة المندفعة لابد من تنظيمها بالجبال لكي لا تختل ، ولما كانت الجبال هي الاخرى تمر مر السحاب أي متحركة فذلك يعني أن حركتها جزء من حركة الارض وبأتجاه يوازن من هذه الحركة لكي تظل مستمرة ومتساوقة .. ويعلق سيد قطب على هذه الآية فيقول (إن هذه الجبال الرواسي تحفظ توازن الارض فلا تميد بهم ولا تضطرب ، وحفظ التوازن يتحقق في صور شتى)[٣٠١] .

٧ ـ تفسير نشوء الأحياء .. وبخاصة الانسان : إن مسألة الحياة والموت كانت أهم قضية توقف عندها الانسان طويلا (كما مر بنا سابقا) ..

ولم يستطع الانسان تفسير هذه الحياة وسبر غورها والوصول الى نتائج عنها

حتى يومنا هذا ، على الرغم من أنه جاء بعشرات التفاسير والنظريات إلا أنه لم يستقر على واحدة منها وإن استقر على البعض منها قليلا أو طويلا فانه لم يستطيع تمثيل وتطبيق ما توصل إليه مما تركه حائرا غير مستقر على قرار مكين ومما زاد في صعوبة الأمر ان الموت يأتيه ليلاً أو نهاراً ولو كان في قصور مشيدة ، وقد عجز وما زال أن يدفع غائلة الموت لانه عجز أن يبدع وسيلته سواء أكانت الحجيرة الحية أو روح وفعل وقوة هذه الحجيرة .

لقد أشرنا الى ان الله سبحانه وتعالى ذكر آيات تشير الى ان الحياة من عنده تعالى وأنه جعل من الماء كل شئ حي ومزج الماء بالتراب فكانت منه الأحياء كافة ، وعندما جاء داروين بدأ فى وضع نظريته مما ابتدأ فى توضيحها القرآن الكريم حيث أمسك داروين بالماء والتراب ومشى بهما فى سلم التطور حتى وصل الى الحلقة المفقودة فتاه بين الأرض والسماء ، وما زالت أبحاث العلماء تدور فى ذات الدائرة التي عينها الله سبحانه وتعالى ،ولما تصل بعد الى ما وصل اليه القرآن الكريم من تحديد وتوضيح لنشوء الحياة وانقسامها الى نباتات وحيوانات وتميز الانسان من سائر هذه الحيوانات .. يعلق سيد قطب على جهود العلماء وداروين من بينهم فيقول (فيقرر كذلك حقيقة خطيرة يعد العلماء كشفها وتقريرها أمراً عظيماً ويمجدون «داروين» لأهتدائه اليها وتقريره أن الماء هو مهد الحياة الأول .. إن نظرية النشوء والارتقاء لداروين وجماعته لا تعارض مفهوم النص القرآني فى هذه النقطة بالذات)[٣٠٢] .

— إن الآيات التي فسرت الحياة ونشوءها كثيرة وكلها تعين ان الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الأحياء جميعاً .

— وانه سبحانه وتعالى خلق سائر الآيات من الماء والتراب وكذلك كان خلق الانسان .

— وأن هذه البداية حيث امتزج الماء بالتراب فصار طيناً ، فأن حركة الماء فى التراب وامتزاجهما كان بأمره تعالى ، وأن هذا المزج لم يتحول الى قوة تتحرك الا عندما نفخ فيه سبحانه وتعالى من روحه ، فقال (فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين)[٣٠٣] . هذه النفخة من روحه كانت فى البدء وهي التي بعثت الحياة فى هذه المادة الممتزجة من الماء والتراب وظلت هذه القوة

الحية فاعلـة في تطور تلـك الحالـة الحية حتى وصلت الى مـا وصل اليـه الانسان .

— إن الآيات القرآنية تبين أن سلسلة التطور كانت طويلة وقد مشت خطـوة خطوة عبر آلاف السنين حتى كانت الأحياء التي نراها فى الوقت الحاضر ، وأن قانون التطور هذا يتوافق مع ما جاء به العلم وما توصلت اليه النظريات العلمية الباحثة فى هذا الميدان ، وأن القرآن يوضح طريق هذا التطور الطويل بقوله (والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً)[٣٠٤] ... فى هذه الآية الكريمة أن خلق الأحياء والانسان أرقاها كان من تراب ثم جعل من التراب نطفة والنطفة هي الحجيرة الحية الصغيرة التي بها ابتدأت دورة الحياة ، ولكي تتكاثر هذه الدورة لا بد أن تنقسم عـلى نفسها الى حـالتين سلبية وإيجابية ليتم التفاعل بينهما والتكاثر عبـر هذا اللقـاء ، وقد عبـر سبحانه وتعالى عن هذا الانشطار بقوله (ثم جعلكم ازواجاً) أي قسم النطفة الواحدة الى نطفتين أنثوية وذكرية (أي سلبية وايجابية) ... ومن تفـاعل وتلاقح الزوجين المنشطرين عن النطفة الأولى تتولد العلقة وهذه العلقة هي الحالة الجديدة المتولدة عن ذلكم التفاعل بين الزوجين وأن هذه العلقة مرحلة متطورة عن النطفة المنقسمة ، يقول سبحانه وتعالى (هو الـذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة)[٣٠٥] .

— وتواصل الآيات القرآنية توضيح سلم التطور حتى استقرت الأحياء كل عند مستقرها ، النبـاتات تـوزعت الى اصناف كثيـرة والحيوانـات تعددت الى عشرات من الأنواع وكان الانسان فى القمة تكويناً وخلقة وأنه لم يصل الى ما صار اليه إلا بعد مروره فى درب التطور المعقد المركب الطويل .

إن الله سبحانه وتعالى يوضح تكوين الانسان فى داخل رحم أمـه ويتابـع صيرورته من البدء الى الولادة بصورة مفصلة ودقيقة تشير الى الطريق الطويل الذي مر به الانسان حتى كان على ما هو عليه ، والآية الكريمة التي توضح تكوينه هذا هي (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين■ ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة■ فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخـر فتبارك الله أحسن الخـالقين)[٣٠٦] ،وينقـل المرحـوم الرافعي تفسيراً لهذه الآية عن بعض كتب الحكيم العلامة داود الأنطاكي المتوفى

سنة ١٠٠٨هـ فيقول : «ولقد خلقنا الانسان» يعني ايجاداً واختراعاً لعدم سبق المادة الأصلية «من سلالة» هي الخلاصة المختارة من الكيفيات الأصلية بعد الأمتزاج بالتفعل الثاني مما ركب منها بعد امتزاج القوى والصور ، والتنويه باسمه إما للصورة والرطوبات الحسية أو لأنه السبب الأقوى فى تحجر الطين وانقلابه وكسر سورة الحرارة واحياء النبات والحيوان اللذين هما الغذاء الكائنة عنه النطف ، وهذا الماء هو المرتبة الأولى والطور الأول . وقوله (من سلالة) يشير الى أن المواليد كلها أصول للانسان وانه المقصود بالذات الجامع لطباعها ، ثم جعله نطفة بالأنضاج والتخليص الصادر عن القوى المعدة لذلك ، ففي قوله (ثم جعلناه نطفة) تحقيق لما صار اليه الماء من خلع الصور البعيدة والضمير إما للماء حقيقة أو للإنسان بالمجاز الأولى .

وقوله (فى قرار مكين) يعني الرحم وهذا هو الطور الثاني (ثم قال) مشيراً الى الطور الثالث (ثم خلقنا النطفة علقة) أي صيرناها دماً قابلاً للتمدد والتخلق باللزوجة والتماسك ، ولما كان بين هذه المراتب من المهلة والبعد عطفها (بثم) المقتضية للمهلة ...... (فخلقنا العلقة مضغة) أي حولنا الدم جسماً صلباً قابلاً للتفصيل والتخليط والتصوير والحفظ ..... (فخلقنا المضغة عظاماً) أي صلبّنا تلك الأجسام بالحرارة الالهية حتى اشتدت وقبلت التوثيق والربط والاحكام والضغط ... وقوله (فكسونا العظام لحماً) أي حال تحويل الدم غاذياً للعظام لا يكون عنه إلا اللحم والشحم ... (ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) وهذا هو الطور السابع ... وأنت لو عرضت الفاظ هذه الآية على ما انتهى اليه علماء تكوين الأجنة وعلماء التشريح وعلماء الوراثة النفسية لرأيت فيها دقائق علومهم كأن هذه الألفاظ خرجت من هذه العلوم نفسها وكأن كل علم وضع فى الآية كلمته الصادقة فلا تملك بعد هذا أن تجد ختام الآية ما ختمت هي به من هذا التسبيح العظيم (فتبارك الله)[٣٠٧] .

ويذكر الامام الرافعي فى هامش الصفحة ٧٦ من كتابه (إعجاز القرآن) [ولقد قرأنا هذه الآية الكريمة على طبيب مسيحي محقق فاضل من اصدقائنا ونبهناه الى هذه الدقائق فيها فقال (آمنت بما أنزل على محمد)][٣٠٨] .

إن فى هذه الآية دلالات إعجازية كثيرة عرضها المرحوم الرافعي بدقة متناهية ويمكن كشف نواح إعجازية أخرى او توضيح ما جاء فى عرض المرحوم

الرافعي فنقـول :

- إن إيمان الطبيب المسيحي عند سماعه هذه الآية وتفسيرها إنما جاء لأن هذا الطبيب يعلم بأن العلم الذي توصل الى معرفة مراحل تكوين الانسان ف رحم أمه جاء متأخراً ولم يكن معروفاً في أيام نزول القرآن الكريم .. وأن حديث القرآن الكريم وهو يوضح هذا التكوين المتوافق مع أحدث النظريات العلمية وأدقها لا يمكن أن يتسنى لانسان في تلك المرحلة ، وعليه فلا بد أن ما جاء في هذه الآية هو من عند غير محمد صلى الله عليه وسلم فلا بد أن يـؤمن به وبكتابه .
- إن هذه الآية الكريمة تفسر نشوء الانسان في مرحلتين أساسيتين ، الأولى قبل أن يصل الى مرحلة التزاوج بين الذكر والأنثى أي قبل انشطار النطفة وهذه كانت خارج الانسان وكان تكوينه (من سلالة من طين) وهذه السلالة من الطين هي مزج وخلط من الماء والتراب الذي كان منه كل شئ حي .

- إن التطور استغرق زمناً طويلاً بين النطفة والعلقة ، هذا الزمن قد امتد دهراً والانتقال من مرحلة العلقة الى المضغة قد استغرق دهوراً طويلة وكذلك الأمر في التطور من المضغة الى عظام وإكساء العظام لحماً ، هذه الأزمان الطويلة كانت وراء عملية التغيير والتطور حتى بلغت الأحياء (الحيوان منها) هذه المرحلة ، مما يكون مصداقاً لقول نظرية التطور التي تبين أن سلمها كان طويلاً ممتداً على مئات السنين .

- ويبدو ان خلق الحيوانات كافة ومنها الانســان قد مــر في ذات الطريق من النطفة الى العلقة الى المضغة الى خلق العظام ثم إكسائها لحماً ، الى هذه المرحلة تتساوى جميع الحيوانات ومنها الانسان ، إلا أنه سبحانه بعد هذه المرحلة أعد وهيأ وانشأ الانسان نشأة خاصة تختلف عن سائر الحيوانات حيث قال : (ثم انشأناه خلقاً آخر) والضمير هنا للانسان أي بعد هذه المرحلة من الله سبحانه وتعالى على الانسان وجعله على شاكلة خاصة ، فقوله هذا أراد به تميزاً من غيره من الحيوانات الأخرى ، وإذا ما تذكرنا ان داروين عجز ان يخرج من درجة القرود الى درجة الانسان وادعى بأن هناك حلقة مفقودة لا يستطيع إيجاد تفسير لها واضطر ان يقفز فوق هذه الحلقة لكي

يخلص من الضياع والعجز عن الامساك بسلم التطور فأن القران الكريم قد اوضح بأن الله سبحانه وتعالى هو الذي أكرم الانسان في هذه المرحلة فأنشأه خلقاً خاصاً ، أي هو الذي طوره وهيأه وجعله على هذه الصورة التي عليها خلافاً وتميزاً له من سائر خلقه .

— إن القول بنظرية التطور والمشي في ركابها لا يمكن أن يصل الى درجة مقنعة ما لم تبدأ هذه النظرية بالسير مبتدأة من ذات الطريق الذي ابتدأت فيه النظرية الدينية حيث أن حركة الماء والتراب وبث الحياة فيهما لا يمكن تفسيرها إلا أنها من عند الله سبحانه وتعالى وإلا فسيبقى الماء ماءً ، والتراب تراباً والمزج بينهما طيناً لا حياة ولا حركة فيه ما لم تكن هناك نفخة من روحه تعالى (فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) فهذه الروح (الحياة) لم تكن لولا حلول روح الله سبحانه وتعالى فيها وأن عملية التطور لم تكن لولا حركة (الحياة) في ذلك الطين اللازب وظهور النطفة المتحركة وإنشطارها وقيام العلقة وتغيراتها لم تكن لولا قيام الروح أي الحياة فيها .

٨ - والحديث عن الحياة ونشوء الأحياء وتطورها يجر الى البحث عن كنه هذه الحياة وسرها ، عن تلك النفخة التي نقلت الروح الى تلك المادة اللزجة المكونة من الماء والتراب ، ولما كانت هذه النفخة هي من عند الله سبحانه وتعالى حيث نقلت شيئاً من روحه فهذا يعني (أن هذه الروح هي مصدر الحياة والفعل والحركة وهي سر الوجود) وقد عجز الانسان قبل الرسالات السماوية وما زال عاجزاً عن تفسيرها وعن كشف أسرارها وعن معرفة تفاصيلها وهو يسعى وما زال لمعرفتها ويجد في الوصول الى كشفها وصنعها ولكنه لم يستطع وقد أجاب القرآن الكريم إجابات دقيقة جامعة عن هذه الروح فقال (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً)[٢٠٩] .. هذا الجواب من عنده تعالى فيه ما يأتي :

— إن الروح من عند الله سبحانه وتعالى ولا يمكن أن تكون من عند غيره ، فهي خاصية اختص بها دون سائر المخلوقات وأنه لا يمكن تحضيرها أو إيجادها في جهة أو مادة أو مكان أو زمان غيره .

- إن الله فى هذه الآية لم يوضح كنهها ولا تركيبها ولا أبعادها ، إنما اكتفى بقوله أنها منــه .

- إن فى سياق الآية الكريمة هذه توضيح أن علم الانسان سوف لن يتوصل الى معرفة لغز هذه الروح وكنهها حيث أن جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يردد (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) أن الرسول الكريم يعترف بانه وهو نبي لم يؤت من العلم ما يستطيع به معرفة الروح .

- ان الناس جميعاً سوف لن يكون فى وسعهم معرفة حقيقة هذه الروح فاذا كان خاتم رسله لم يكن من العلم ما يستطيع الاجابة به عن هذا السؤال فأن القوم أولى بالعجز عن الاجابة على هذا الأمر .

- وفى قوله (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) ان كل علم الانسان الذي كان والذي سيكون سوف لن يتمكن من كشف ومعرفة حقيقة هذه الروح وفى ذلك إشارة أخرى الى أن البحث فى هذه المسألة لا بد أن يكون عن طريق العلم إلا أن هذا العلم مهما توصل الى نتائج ومهما كان من الدقة والتجربة والأجهزة فسوف لن بتوصل الى معرفة هذا السر فالنبي وعلمه من الله سبحانه وتعالى وهديه منه لم يزد جوابه عن القول (أن الروح من أمر ربي) .

- إن سر الحياة (الروح) ستظل (من امر ربي) وفى ذلك بقاء للحياة وديمومتها وتطورها وأنها تمر فى دورتها من الموت الى الحياة الى الموت الى الحياة ثانية بقدرته (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم ايكم احسن عمـلاً وهو العـزيز الغفور)[٣١٠] . وقال (ان الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي)[٣١١] . ويقول سبحانه وتعالى (وهو الذي احياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الانسان لكفور)[٣١٢] . ويقول سبحانه وتعالى (يخرج الحي من الميت ويخـرج الميت من الحـي ويحـيي الأرض بـعـد مـوتهـا وكـذلك تخرجون)[٣١٣] .

فى هذه الآيات الكريمة تقرير ان الحياة من عند الله سبحانه وتعالى فهو الذي يحيي ويميت وبيده ملكوت كل شئ . وفى قوله تعالى (يخرج الحي من الميت ويخرج

الميت من الحي) تفسير الى ان الحياة تخرج من التراب الذي يبدو وكأنه موات ويموت الانسان ويصير تراباً فيبعثه الله سبحانه وتعالى ثانية ، مما يشير الى ان هذه الحالة الميتة والحية إنما تتبادل مواقعها وتستمر حالة التبادل وذلك بأمر من الله سبحانه وتعالى .

إن الانسان لم يستطع ولن يستطيع على ما يبدو من معرفة (كيف يحيي الله سبحانه وتعالى الموتى ويجعل من الميت حياً ومن الحي ميتاً وهكذا) إنما تحدث سبحانه وتعالى عن هذا التعاقب كما هو مشاهد أمام الانسان وفى ضوء إدراكه إلا أنه لم يشاهد ولم يقف على كيفية فعل الفعل وحركته وطبيعة هذه الحركة وعناصرها وكيف تتحرك مغيرة مقلبة الميت حياً والحي ميتاً ومن ثم تحييه .

إن معرفة الانسان لهذه الحالات ووقوفه عليها لا يتم إلا بمعرفة سر الحياة وكنها ومعرفة حقيقة الروح ولغزها ولا يستطيع معرفة ذلك ما لم يتمكن من كشف أجزاء هذه الروح والوقوف على ماهيتها وتمكينه من مشاهدتها وإحضارها ولمس مقوماتها والوقوف على ماهيتها وهذه خاصية لم تكن لأي مخلوق .

إن وصول الانسان الى مرحلة يستطيع فيها خلق الروح وإيجاد الحجيرة الحية يعني انتهاء المسافة بين الانسان وخالقه فيصبح الانسان خالقاً وبذلك تسقط الموازين وتختل المعايير وتنتفي هذه الصياغة المنظمة المرسومة بدقة والمتمثلة فى وحدانية الله سبحانه وتعالى وقدرته .

إن انتقال هذه القدرة الى الانسان يجعل الانسان إلهاً وبذلك تفسد الأرض والسماء إذ لو كان فيهما آلهة غير الله سبحانه وتعالى لفسدت .

وهناك آيات معجزة كثيرة متعلقة بالأحلام ومتعلقة بالحديث عن البحار وامتزاج مياهها مع بعضها ومحافظة كل منها على خصوصيته وهناك آيات كثيرة تحدثت عن مبدأ التناقض وأثره فى ديمومة الحركة وتفاعلها (سنأتي على بعضها تباعاً فى الفصل القادم المتعلقة بالانسان والشيطان) .

إن الحديث عن البحار بقوله (مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان . فبأي آلاء ربكما تكذبان) .. إن هذه الآيات تحدثت عن حالة استثنائية

على قطعة فوق هذه الأرض وبحارها حيث تلتقي مياه بحار ثلاثة وعلى الرغم من التقائها يحتفظ كل منها بخصائصه ويمكن مشاهدة ذلك بين بحرين متجاورين كبيرين أو صغيرين كما نشاهد أن لقاء النهر الصغير أو الكبير بماء البحر ومجاورة بعضهما للبعض فأن ماء النهر يحتفظ بخصوصيته كما يحتفظ ماء البحر بخصوصيته ، فهذا مالح وذاك عذب ، فعلى الرغم من عمق مياه البحر وسعتها وشدة ملوحتها فأنها لم تستطع تغيير ماء النهر ، والأمر الأكثر عجباً أن مياه البحر العربي تلتقي عند نهاية شبه القارة الهندية فى مياه المحيط الهندي وتلتقي مياه المحيط الهندي مع مياه خليج البنغال فى ملتقى مفتوح ومتصل بينهما فيحافظ كل بحر على خصائصه لوناً وطعماً وتركيباً ، هذا على الرغم من أن لا حاجز يفصل بينهما ، إن البرزخ الذي ورد فى الآية القرآنية الكريمة على ما يبدو برزخ مصنوع من الماء حيث تمتد مياه المحيط الهندي فاصلة بين مياه البحر العربي ومياه بحر البنغال كما أن كلا من مياه البحر العربي والبنغال تختلف عن مياه المحيط الهندي ، هذه الصورة والحديث عنها فى ذلك الزمن وقبل أن تتحدث الأخبار عن ذلك يشير الى أن مثل هذا الكلام لا يمكن أن يكون من عند انسان ولا سيما إذا كان هذا الانسان أمياً ، هذا من جهة ومن جهة اخرى فأن بقاء هذه المياه محتفظة بخصائصها على الرغم من اختلاطها وتمازجها مع بعضها يدل على أن عملية المزج لا تأخذ مداها إلا بفعل قوة تفتت وتغير من خصائص المواد الممزوجة وأن هذه القوى لا تكون فى تجزئة المادة فى مادة اخرى ولا فى ذوبان هذه المواد مع بعضها ولا فى حركة وتداخل أجزاء هذه المواد فيما بينها ، إن التغيير الأساسي الذي يفقد الشئ خاصيته هو التغيير الذي يأتي على نوعية الخصائص ويجعلها تتفاعل مع غيرها عبر عملية تفاعلية كيمياوية دقيقة تتحرك بقوة أقوى من عناصر القوة الكامنة فيها فتجعلها متغيرة .

إن إحتفاظ تلك المياه بخصائصها على الرغم من اختلاطها مع بعضها وإحداث كل حالات التغيير الميكانيكية والكيمياوية عليها وعدم تبدلها كان بقدرة فوق قدرة عوامل التغيير والتبدل وهذه واحدة من الآيات الدالة على ان ذلك من عنده تعالى .

والقرآن الكريم وهو يتحدث عن أهمية العلم والقوة وسيلة للوصول الى المجهول واختراق الصعاب فكأنه كان يتحدث بما تقوله أحدث النظريات العلمية فى

القوة عندما تحدث عن الانسان وهو يؤكد (يا معشر الجن والانس إن استطعتم إن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفـذوا لا تنفذون إلا بسلطـان)[٣١٤] . إن معاني هذه الآية ودلالاتها تكبر اهمية وتشمخ إعجازاً عندما توصل الانسان الى استعمال الحديد واختراق الأجواء والوصول الى اقطار السموات والأرض حتى توصل الى إيصال الحديد إلى أعلى الطبقات كما وصل بالانسان الى القمر فاستطاع اختراق كل هذه الحجب والسدم بالقوة والعلم وكأنه سبحانه وتعالى كان يحرض الانسان على ان يعمل ويفكر ويخترع من أسباب القوة لكي يصل الى اقطار الأرض وقد وصلها جميعاً أو كاد ولما يصل من (اقطار السموات) إلا الى جزء منها وله أن يستعمل العلم وبأس الحديد فأنه بذلك يستطيع الوصول الى حيث تلك الأقطار .

وبخصوص إدراك الانسان وكيف تتم هذه العملية الذهنية المعقدة حيث يصل الانسان وهو فى مكانه الى حيث سمع أو رأى والى حيث أدرك وتصور ، إن وصول الانسان بخياله وتصوراته الى أبعد شئ ، وأعمقه وأصعبه ، كانت مسألة محيرة وما زالت وأن محاولات الانسان لتفسيرها ظلت تدور فى حلقة واسعة ولم تستقر عند شاطئ أمين ، وعندما ابتدأ الانسان يحلم وهو نائم ازداد الأمر تعقيداً وعندما كان يفيق ويجلس وحيداً فلا يلبث أن يطير بخيـاله الى حيث السمـوات والأرضين فيرى ويسمع من بعيد زادت حيرته ، كيف يمكن لهذا الانسان المحدود فى حجمه وتكوينه وقدراته أن يرى ما يراه ويلمس ويسمع كل هذه المظاهر القريبة والبعيدة فعاد يجر أذيال الحيرة ولا يستطيع تفسيراً لذلك ، فكما عاد من رحلته مع الروح وسرها بدون حصيلة وجواب ، ظل يدور حول الأحلام يطوف بها وتطوف به فكان عجزه تعجيزاً حمله على أن يعترف بأن هذا الحلم من عند غير الانسان فأضافت آيات الحلم والرؤيا أدلة أخرى على ان هذا القرآن الكريم معجز فى معناه لأنه من عند غير الانسان .

وفى القرآن الكريم حديث عن الماضي السحيق بعبارات دقيقة ومعلـومات مفصلة اكثر دقة مما جاءت بها القصص والأخبار ، وإذا ما تذكرنا أن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب فأن ذلكم الحديث عن الأمم القديمة وأخبارها لا بد أن يكون من عند الله سبحانه وتعالى .

وإذا ما اعترض أحد وقال ان ما جاء فى القرآن الكريم عن الماضى وحديثه

عن الأمم والشعوب إنما جاء فى كتبه الدينية الأخرى فأن ذلك يؤلف حجة لنبوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وقوة لصدق هذه النبوة لأن القرآن الكريم يؤكد على صدق تلك الرسالات وانه جاء لتأكيدها وتصديقها ، فأذا كانت تلك الأخبار والقصص والأحداث الماضية قد جاءت على لسان أنبيائه ورسله من قبل ، فأن فى ذلك شهادة أخرى على أن الرسول إنما هو نبي يوحىٰ إليه وأن كتابه من عند الله سبحانه وتعالى .

إن الحديث عن الماضي دليل على كرم الله سبحانه وتعالى لِنَبِيِّهِ ومنته عليه بذلك ، ولم يقف الأمر عند حديث الله سبحانه وتعالى عن الماضي إنما أبلغـه عن المستقبل وبعض ما سيقع فيه فجاءت بعض آياته فى هذا السياق حيث يقول محمد عبدالمنعم الخفاجي فى حديثه عن إعجاز القرآن الكريم أن إعجازه [..... ما انطوى عليه من الأخبار بالمغيبات وما أنبأ به من أخبار القرون السالفة والأمم البائـدة والشرائع الداثرة][٣١٥] . ومن الآيات التي تحدثت عن المستقبل قوله تعالى [(الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور بأذن ربهم الى سراط العزيز الحميد)[٣١٦] ... فأخبر أنه أنزله ليقع الأهتداء به ولا يكون كذلك إلا وهـو حجة ولا تكون حجة إن لم تكن معجزة .. وقال عز وجل : (وإن أحـد من المشركـين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله)[٣١٧] فلولا أن سماعه إياه حجةٌ عليه لم يوقف أمره على سماعه ولا يكون حجة إلا وهو معجزة ، وقال عز وجل : (وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين)[٣١٨] .. وهذا بين جداً فيما قلناه من أنه جعله سبباً لكونه منذراً ، ثم اوضح ذلك بأن قـال (بلسان عـربي مبين)[٣١٩] .. فلولا أن كونه بهذا اللسان حجة لم يعقب كلامه الأول به ... ثم أخبر بما وقع من تكذيب الأمم برسلهم بقوله عز وجل (كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم)[٣٢٠] ... فبان بهذا وبنظائره ما قلناه من أن بناء نبوته صلى الله عليه وسلم على دلالة القرآن الكريم ومعجزته وصار له من الحكم فى دلالته على نفسه وصدقه إنه يمكن أن يعلم أنه كلام الله سبحانه وتعالى وفارق حكم غيره من الكتب المنزلة على الأنبياء لأنها لا تدل على أنفسها إلا بأمر زائد ووصف مضاف اليها لأن نظمها ليس معجزاً وإن كان ما يتضمنه من الأخبار عن الغيوب معجزاً وليس كذلك القرآن الكريم لأنه يشاركها فى هذه الدلالة ويزيد عليها فى أن نظمه معجز فيمكن أن يستدل به عليه][٣٢١] .

معجزة الاسراء :

تحدثت الصفحات الماضية عن معجزة الاسلام وهي متمثلة بالقرآن الكريم في لغته ومعانيه فهو معجز حيث لم يستطع إنسان أن يأتي بمثله آية أو سورة أو دلالة ، وعندما يمن الله سبحانه وتعالى على خاتم أنبيائه بهذه المعجزة ففي ذلك منة منه وكرم وإكبار حيث أن في تكليفه صلوات الله وسلامه عليه بحمل الرسالة واداء الأمانة فأن هذا الحمل والأداء لا يتمان الآ والنبي محمد صلى الله عليه وسلم على درجة من الادراك والاستعداد الروحي والفكري بحيث يستطيع فهم الرسالة والعيش والتعايش معها لغة ومعنى ، إذ لا يمكن أن تكون هذه الرسالة مهداة منه سبحانه وتعالى الى رسوله دون أن يكون على استعداد تام لادراكها والايمان بها وحملها وتبشير الناس بها فهي معجزة للرسول ومعجزة به ، كل يكمل الآخر ، فالرسول يمثل أعلى درجات الخلق والوعي والاستعداد والرسالة تعبر عن أسمى المعاني والدلالات وأبلغ الفصاحة والاعجاز ، فعندما يخاطب الله سبحانه وتعالى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وقومه بقوله (إنه قرآن عربي لقوم يعقلون) فان ذلك يعني أن هذا القرآن على ما فيه من حكمة وبلاغة وفصاحة إنما هو يخاطب عقول الناس ويتوافق مع مداركهم ومعارفهم ، وعندما يقول سبحانه وتعالى (وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم)[٣٢٢] فان هذا القرآن من لدن حكيم عليم فهو آيات محكمة دقيقة موضوعة بصيغة علمية كاملة وأن هذه الحكمة البالغة والعلم الشامل لا يمكن أن يلقى به جزافاً إنما لا بد له من إنسان قادر على إدراكه والعلم به ، وهذه القدرة لا تكون إلا لمن كان حكيماً عليماً مدركاً يتناسب وضعه عقلاً وخلقاً مع ما في الكتاب الذي يتلقاه وعندما يخاطب الله سبحانه وتعالى رسوله بقوله (وما انزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون)[٣٢٣] .. إن تكليف الله سبحانه وتعالى رسوله ليبين لقومه الذي اختلفوا فيه أي في كتاب الله فأن من يبين هذا المختلف عليه لا بد أن يكون أولاً قادراً على إدراك الكتاب كله وافهامه للناس وحل الخلاف الناجم بينهم فيه وأن يكون هذا الكتاب هدى ورحمة ولكي يكون كذلك لا بد من أن يكون الرسول متفاعلاً به وبالغاً درجة الكمال في الهدى والتمام في الرحمة لكي يهدي ويرحم المؤمنين ، وعندما يوضح سبحانه وتعالى (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً)[٣٢٤] .

فأن هذا الهدى وهذه البشرى يكونان بالآيات الكريمة التي يحملها الرسول

الأمين يقتنع بها ويدركها ويتفاعل معها قوة هادية يتحرك بهـا لهدايـة وتبشير المؤمنين فهناك علاقة عضوية بين القرآن والرسول وبـين الأمانـة التي يحملها والرسالة التي يعمل لها وأن كلا من الرسول والرسالة طرفا المعجزة . وعلى الرغم من هذه المعجزة العظيمة فأن الله سبحانه وتعالى من على رسوله الحبيب بمعجزة خاصة أراد بها الاعلان عن تقديره وإكرامه للرسول الكريم كما أكـرم من قبله أخوته الانبياء والمرسلين وكانت هذه المعجزة في إسرائه من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى حيث قال تعالى (سبحان الذي أسرى بعبـده ليلا من المسجـد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنـا إنه هـو السميع العليم)(٣٢٥) .

إن قراءة لهذه الآية الكريمة ووقفة طويلة عندها تبين الدلالات الآتية :

١ ـ إن هذه المعجزة تشبه المعجزات الباهرة التي من الله بأمثالها على أنبيائه ورسله من قبل .

٢ ـ أن القرآن الكريم لم يتحد بها أحداً من المعاندين ولم يأت بها ردا على كفرهم أو تساؤلهم فهي لم تقدم للرسول صلى الله عليه وسلم لتكون حجة له على قومه إنما هي منة من عند الله وتحية وسلام لرسوله الصادق الأمين .

٣ ـ ومما يدل على أنها لم تكن للتحدي والاقناع جاءت في آية مستقلة عن السؤال والعناد خالية من الضجة والاثارة المكشوفة فقد أسري برسول الله ليلا ولو كانت هذه الآية يراد بها الرد على المعاندين وإقناع المتشككين والمتسائلين لجاءت نهارا جهارا على مسمع ومرأى من الناس .

٤ ـ إن الله سبحانه وتعالى لم يرد لهذه المعجزة أن تكون خارقة باهرة على الرغم مما فيها من الخوارق والاعجاز لكي نبقي حجته وإعجازه بالقرآن حجـة عقلية منطقية خالدة باقية ما دام الانسان على هذه الارض ولكي تنقطـع المعجزات القاهرات التي سبق أن جاءت فحملت الناس على الايمان انبهارا فأن مثل هذا الايمان لا يكون عميقاً مستقرا ولما كانت رسالة الاسلام خاتمة الرسالات فلا بد أن تكون حجتها عقلية تتحدث الى الفكر وتخاطب المعرفة

وتحاور الحجة بالحجة ليكون عمل الانسان بدافع الوعي وإيمانه بقناعة الادراك .

٥ ـ إن هذه الآية كانت مشاركة من الله سبحانه وتعالى لنبيه لكي يحدثه عن رضاه سبحانه ويمن عليه بعد أن تحمل ما تحمل من قومه وبعد أن سفه أهله وعشيرته دينه وموقفه وتحدوه تحديات كبيرة كان يرد عليهم بأنه لا يقدر عليها فهو إنسان يوحي إليه فكان جوابه هذا مصداقا لحقيقته وكان شاهدا على أن رسالته ليست رسالة خوارق إنما هي نداء العقل للعقل والفكرة للفكرة والحوار بالحجة وبها والدليل بالمنطق والبرهان وأنه بعد أن ثبت هذا الموقف واستقر عليه وأكد لقومه بأنه لا يقدر أن يأتي لهم بالخوارق من عليه سبحانه بهذا الاسراء ليزيد من مكانته وليؤكد له خاصة بأنه قادر على أن يقدم بين يديه ما كان القوم يطلبونه ولكنه رحمة بالانسان واكباراً لدوره واحتراما للعقل والمعرفة امتنع عن ذلك وأنه إذ يسرى به هذا الاسراء العظيم فأنما ليبين أنه قادر على كل شئ وأنه يضع الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم في أعلى الدرجات فهو على خلق عظيم وهذا الخلق عبر عنه بأن احتضنه واسرى به من بيت من بيوته الى آخر الى سدرة المنتهى حيث رأى من آياته الكبرى ما رأى .

٦ ـ إن هذا الاسراء كان في اليقظة وليس في المنام وكان بجسم الرسول الكريم وبعقله وليس بعقله فحسب كما لم يكن في المنام حلما إنما كان في اليقظة ذلك لاننا نؤمن بأن الله قادر على أن يقول للشئ كن فيكون فهو قادر على أن يرفع الرسول الكريم بكل ما هو فيه وعليه جسما وعقلاً على براق أو بدون براق ويحط به في بيت المقدس ويصلي بالمصلين ويعرج بـه الى حيث السموات وينزل به الى الارض ويحل في بيته بليلة واحدة أو في أقل من ذلك ، فالذي يخلق السموات والأرض وما فيهما قادر على أن يحمل رسوله الأمين الى حيث يشاء ويريد . وإذا كان الذي عنده علم من الكتاب في قصة سليمان وبلقيس فينقل عرشها من اليمن الى فلسطين في غمضة عين فالله قادر على أن ينقل محمداً صلى الله عليه وسلم الذي هو أفضل أنبيائه وخاتمهم ما بـين مكة وبيت المقدس برمشة عين ويرفضه إليه ويعود به الى حيث كان .

٧ ـ وإذا ما اعترض معترض بأن هذا الاسراء كان في المنام بدليل نص الآية حيث أن الاسراء لا يكون الا في الليل وأن كلمة الليل جاءت صريحة في الآية الكريمة فنقول له أن الله سبحانه وتعالى أجرى هذه المعجزة ليلا وصاغها صياغة تبعث على الاعتقاد بأنها وقعت ليلا وفي المنام لأنه لم يرد أن تكون معجزة خارقة للناس إنما هدية وتحية منه لرسوله ، ولما كانت هذه الهدية منه حبا وإكبارا فأن أعلى درجات العطاء والاكرام أن تكون في اليقظة حيث قد يكون للبعض مناما ينتقل فيه من مكان الى آخر ، ولما كان الله سبحانه وتعالى هو الذي يمكن الانسان من الانتقال من مكانه الى أي مكان يشاء باليقظة وبالواقع فأن كرمه سيكون أعلى ومنته أوسع إذا كانت هذه الرحلة في اليقظة وليست في المنام ولهذا فهي كانت نقله نوعية ومادية في اليقظة .

٨ ـ إن الاعجاز في هذه الآية ليس في أن تكون في اليقظة أو في المنام ، إنما الاعجاز في تمكين الرسول من مشاهدة آيات الله الكبرى في عقله هذه المشاهدة الدقيقة المجسمة وجعل هذه الرحلة جوابا على السؤال الكبير الذي كان وما زال يضغط على الانسان وهو يردد متسائلا متحيراً (كيف يدرك الانسان وكيف يعقل وكيف يحفظ ويتذكر ويتصور ويتخيل) ما هو سر هذه القوة الذهنية التي يرى الانسان فيها الماضي والمستقبل القريب والبعيد فكانت هذه المعجزة جوابا أن ذلك من عند الله وأن الانسان بعقله اكبر هذه المعجزات وأنه حين يمن على رسوله بأن يرى أفضل مقدساته على الارض وهي بيوته فأن في ذلك رد على حقيقته هذه المعجزة وتفسير لماهيتها وتوضيح لعملها أنها من عند الله وفي ذلك أفضل المعجزات واكبرها لأنه جعل الرسول محمداً صلى الله عليه وسلم شاهدا عمليا على تنفيذ هذه الآية وكيفية إحداث عملية الادراك والوعي والاستيعاب .

٩ ـ إن الانسان هو المخلوق الوحيد الذي يفكر ويتصور ويرى أبعد مما يقع أمامه يتخيل ويحلق بين الماضي والمستقبل ويطير الى حيث السموات العلا ويرفرف بجناحي عقله فوق القارات جميعها يحط على جبالها وسهولها وبراكينها وزلازلها وبحارها وأنهارها وصحاريها ويقف على مقربة من حيواناتها الكاسرة ويطوي الفيافي بين مشرق الأرض ومغربها ويتوسد تراب هذه البقعة ويضم تراب هذه الديار ويقف على أطلالها ويروح ويأتي في

لحظة ، فأن هذه صفة خاصة بالانسان وهي المعجزة الكبرى التي خلقها الله على هذه الأرض ، الا أن عناد الانسان وكون هذه الامكانية صارت رتيبة منذ آلاف السنين فانه اعتبرها مسألة عادية لا قيمة لها ولذلك أراد الله أن يعيد الانسان الى ذاته والى حقيقته والى معجزته الكبرى العقل ممثل هذه الآية ومن بها على رسوله ليكون شاهدا على أهمية العقل وأهمية الانسان وأنه سبحانه إذ يجعل الرسول الكريم أفضل خلقه وسيلة لهذه المعجزة إنما أراد بذلك أن يهز الانسان هزة عنيفة ليعيده الى صوابه ويرجعه الى ذاته ليفكر مرات وليبحث ثانية في سر هذه القوة وأن البحث فيها سوف لا يكون مؤثرا وموصلا الى طريق الهدى إن لم يكن عبر تجربة تكون النبوة وسيلتها ، فكانت معجزة الاسراء هدية من عنده سبحانه ووسيلة منه لتأكيد دور الانسان وأهميته وحجة على أن هذه المعجزة هي أكبر المعجزات وأعظمها وأن القرآن العظيم المعجزة الأم لا تكون باقية حية فاعلة الا عند إيمان الانسان بها وإدراكه لها .. وإذا ما تنطع وتفلسف بعضهم وقال إن أي إنسان قادر على أن يرحل من مدينة الى أخرى في اليقظة والمنام وأن ليس في إسراء الرسول ما يختلف عن رحلتهم فاننا نكرر القول بأن إسراء الرسول كان بالروح والجسد وإذا ما أصر هؤلاء على عنادهم وقولهم أن لكل إنسان القدرة على تحقيق هذه الرحلة والقيام بهذا الاسراء تارة باحلام اليقظة واخرى في المنام حلما فاننا نقول لهم إن الرحلة في اليقظة والمنام هي مكمن الاعجاز سواء كان هذا الراحل نبيا أم غير نبي ونرد على هؤلاء متسائلين هل في إمكانهم الجواب عن القوى التي حملت العقل أو الانسان على هذه الرحلة يقظة أو في المنام ؟ كيف يتمكن الانسان وهو بهذا التكوين أن يقطع المسافات الطويلة فيرى البعيد ويتصور أصغر الاشياء واكبرها وابعدها ، إن قالوا أن ذلك بالعقل عدنا نسأل وكيف يعمل هذا العقل ؟ اين مركزه ؟ فأن قالوا مركزه في دماغ الانسان ، سألنا ومم يتألف هذا الدماغ ؟ ومن الذي صنعه فجعله قادرا على هذه الحركة والانتقال السريع ؟ ونسأل كيف يستطيع جهاز مادي محدود ان يرى اكبر من حجمه بآلاف المرات ويدرك أوسع واعمق واطول وابعد من حجمه بالاف المرات ، إن من يقول بمادية المخ وميكانيكية العقل يضع لكل معنى مادة تثيرها ، ولكل دلالة جسما يفرزها ، فما هي المظاهر والحجوم والآثار المادية التي تثير المعاني والدلالات في مادة صغيرة بحجم المخ ، إن الموازنة بين الشكل ومعناه تعطي لكل حجم معنى

متناسبا معه فأي معنى هذا الذي تفرزه الجبال والبحار والأنهار والنباتات والبشر والحيـوانات التي تـأتي بنظرة خـاطفة عـلى كـل هـذه الظواهـر والمخلوقات ، إن السؤال يبدو اكبر أهمية عندمـا لا نجد جـوابا محـددا وتفسيـرا معينا مقنعـا يفسر هذا الادراك الواسـع العميق بشيءٌ صغير لا يتناسب قوة وشكلا وحجما مع ما يراه ويتصوره وإذا قيل أن الانسان يرى في المنام أشياء كثيرة فليس عجبا أن يرى محمد صلى الله عليه وسلم ما رآه في اليقظة أو المنام ونكرر الرد على هؤلاء بأن رحلة الرسول كانت في اليقـظة بالجسم والروح ولكن لو فرضنا جدلا أنها كانت في المنام حلما فالسؤال عنها وعن غيرها من الاحلام كيف كانت ؟ وكيف يحلم الانسان وهو نائم وكيف يرى ويسمع ويتحرك وينتقل وهو نائم في مكانه فان قيل إن ذلك مجرد حلم فأن هذا الجواب يثير سؤالا آخر وكيف يقع هذا الحلم ؟ ما هو مصدره ؟ فان قالوا أن العقل يظل يقظا يجوب أنحاء العالم ويطوف أرجاء المعموة فان حركته هذه تثير سؤالا آخر وكيف يتحرك هذا العقل كل هذه الحركة وما هي مصادر القوة في تلك الحركة .

إن الحلم رؤيا دقيقة ومشاهدة كاملة وإحساس بما يرى ويسمع واتصال باحداث القصة وتطوراتها فكيف تحدث كل هذه الآثار والانسان في غيبوبة أو في منـام والمنـام حـالة من حـالات الانقـطاع عن اليقـظة وغيـاب عن الحضور .. فأن ردوا أن روح الانسان هي التي تحلم وتطير وتحط حيثما تشاء فالنوم لا يقيدها واليقظة لا تحبسها فان سؤالا يصدر ملحا .. وما هي هذه الروح ؟ وكيف تعمل ؟ وما هي مصادر القوة فيها ؟ فان قال أحدهم أنها من عند الله سهل على هذا وأمثاله الوصول معهم الى أن الاسراء كان من عنده تعالى بروح وجسم الرسول الكريم وأن اشتط بعض المعاندين وقال إن الروح كانت في الانسان منذ أن كان ولسنا في حاجة الى الحديث عن ماهيتها ومصدرها فأن مثل هؤلاء لا يستحقون الرد ومـواصلة النقاش وإن ذهب الكفر والعناد ببعضهم فقالوا هذه الروح هي من عنـد المادة وان المـادة تحركت وكان من حركته هذه القوة فان في ذلك عودة الى البدء ووقوف عند هاوية الجهل حيث أن مقولتهم هذه لم تستطع أن تأتي بحجة واحدة ولا دليل واحد على أن هذه المادة تحركت خطوة واحدة وتغيرت تغيرا جزئيا أو كليا ما لم تقع عليها قوة هي قوة الحياة التي كانت من روح الله في نفخه نفخها

إن معجزة الاسراء تقف مصدقة معجزة القرآن الكريم المعجزة التي بحثت في حقيقة الانسان وروحه وعقله وقررت أن كل هذه من عند الله ، القرآن ، كلمته والروح من عنده والانسان أفضل خلقه والنبوة أمـانته والانســان خليفته وهو وسيلته في هذه الحياة وهو الغاية من وجودها .

(١) طه باقر : مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة القسم الأول ص٢٩

(٢) المصدر السابق : ص٢٩ ـ ٤٨

(٣) العقاد : الله ص٦٥

(٤) انظر المصدر السابق ص٤٦

(٥) العقاد : كتاب «الله» مطبوعات الهلال ص١٢

(٦) العقاد : الله ص١٤ ـ ١٥

(٧) الطوطمية اشهر الديانات البدائية ص٩

(٨) العقاد : الله ص٤٦ . وانظر علي عبدالواحد وافي : الطوطمية ص١٣

(٩) العقاد : الله .. ص٧٠ . وانظر الطوطمية ص٧ ـ ٩ وطه باقر : مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة القسم الأول ص٣٧ ـ ٣٨

(١٠) العقاد : الله .. ص١٧ . وانظر الطوطمية ص١٣ ـ ١٤

(١١) المصدر السابق .. ص٥٢ . وانظر مصطفى محمود : الله ص٧٣

(١٢) المصدر السابق .. ص٢٣

(١٣) طه باقر : مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة . ص٢٨٠ ـ ٣٠٦ القسم الأول

(١٤) العقاد : الله .. ص٢٩

(١٥) المصدر السابق .. ص٦٢

(١٦) المصدر السابق .. ص٧٢

(١٧) العقاد : الله .. ص٢٨

(١٨) القرآن الكريم .. سورة الانعام آية ٧٦ ـ ٨٠

(١٩) العقاد : الله .. ص٣٠

(٢٠) طه باقر : مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة ص٣٧

(٢١) المصدر السابق ص٣٧٥ ـ ٤١٢

(٢٢) طه باقر : مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة ص٤٨ ـ ٥٦

(٢٣) انظر طه باقر : مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة ص٥٧ ـ ٧٤ ، ٣٧٥ ـ ٤١٢ ـ ٤٤٢

(٢٤) طه باقر : مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة . ص٤٥٧ ـ ٤٥٨ ط ٢

(٢٥) العقاد : الله .. ص٥١

(٢٦) العقاد : الله .. ص٥١ _ ٥٢

(٢٧) العقاد : الله .. ص٦٣ . وانظر مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة ، القسم الأول ص٥٧ _ ٧٤

(٢٨) العقاد : الله .. ص٥١

(٢٩) طه باقر : مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة . ص٤٥٩ _ ٤٧٠

(٣٠) سورة البقرة آية ٢٦٠

(٣١) سورة البقرة آية ٢٥٩

(٣٢) سورة البقرة آية ٢٥٨

(٣٣) طه باقر : مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة . ص٢٢٣

(٣٤) المصدر السابق ص٢٩

(٣٥) العقاد : الله .. ص٢٠

(٣٦) طه باقر : مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة ص٢٢٧

(٣٧) المصدر السابق ص٢٢٧

(٣٨) طه باقر : (المقدمة ....) ص٢٢٨ _ ٢٢٩

(٣٩) طه باقر : مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة ص٢٢٥

(٤٠) المصدر السابق ص٢٢٩

(٤١) العقاد : الله ص٥١ _ ٥٢

(٤٢) العقاد : الله ص٥٢

(٤٣) طه باقر : مقدمة ص٢٢٨

(٤٤) طه باقر : (المقدمة ....) ص٢٣٧ _ ٢٣٨

(٤٥) طه باقر : (المقدمة ... ...) ص٢٣٧

(٤٦) طه باقر : (المقدمة ... ...) ص٢٢٥

(٤٧) العقاد : الله ص٥٢

(٤٨) طه باقر : (المقدمة ... ...) ص٢٣١

(٤٩) العقاد : الله ص٥٠

(٥٠) العقاد : الله ص٦٨ ـ ٦٩

(٥١) طه باقر : (المقدمة ... ...) ص٢٢٥

(٥٢) العقاد : الله ص٥٢ ـ ٥٣

(٥٣) العقاد : الله ص٥٦

(٥٤) المصدر السابق ص٥٢

(٥٥) المصدر السابق ص٥٩ ـ ٦٠

(٥٦) الامام الرازي : التفسير الكبير جـ١ ص٨٨

(٥٧) عبدالجبار المعتزلي : المغنى جـ٥ ص١٠

(٥٨) جميل صليبا : المعجم الفلسفي جـ١ ص٣٨٠

(٥٩) عبدالجبار المعتزلي : المغنى جـ٥ ص١١

(٦٠) عبدالجبار المعتزلي : المغنى جـ٥ ص١١

(٦١) الشهرستاني : الملل والنحل جـ١ ص١٩٥ ـ ١٩٦

(٦٢) المصدر السابق جـ١ ص١٩٥ ـ ١٩٦

(٦٣) ابن النديم : الفهرست ص٤٤٨ مطبعة الاستقامة ـ القاهرة

(٦٤) المسعودي : التنبيه والاشراف ص٨٩

(٦٥) المقدسي : البدء والتاريخ جـ١ ص١٤٢ ـ ١٤٣

(٦٦) الطبري : جـ٢ ص٨٨ المطبعة الحسينية

(٦٧) الشهرستاني : الملل والنحل جـ١ ص٨٦

(٦٨) الشهرستاني : الملل والنحل جـ٢ ص٧٢ ـ ٧٣ (المطبعة الادبية / القاهرة ١٣٢٠هـ)

(٦٩) العقاد : الله .. ص٨٠

(٧٠) العقاد : الله ص٨٠ ـ ٨١

(٧١) انظر ـ إيران فى عهد الساسانيين ص١٦٩

(٧٢) الشهرستاني : الملك والنحل جـ١ ص١٩٥

(٧٣) المصدر السابق جـ١ ص١٩٥ ، البيروتي / الآثار الباقية ص٢٠٧

(٧٤) أنظر امصدر السابق جـ١ ص١٨٨ ـ ١٩٠ والفهرست ص٤٧٣

(٧٥) البغدادي : الفرق بين الفرق ص١٦٢ والبيروني / تحقيق ما للهند من مقولة ص٢٧

(٧٦) بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ص٤٨ ، ص١٠٠ وانظر الطبري جـ٢ ص٨٨ وانظر الدينوري الاخبار الطوال ص٤٩ ـ والبيروني / الآثار الباقية / ص٢٠٧ وانظر كتابنا الغلو والفرق الغالية ص٢١ ـ ٣١ ، ص١٨٩ ـ ٢٠٤

(٧٧) العقاد : الله ص٧٧

(٧٨) المصدر السابق ص٧٨ ـ ٨٠

(٧٩) العقاد : الله ص٩١

(٨٠) ليووبنهايم : بلاد ما بين النهرين ص٢٤٣ الترجمة العربية

(٨١) انظر طه باقر : مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة ص٢٢٥

(٨٢) المصدر السابق ص٢٢٥

(٨٣) ليووبنهايم : بلاد ما بين النهرين ص٢٤٥ الترجمة العربية

(٨٤) العقاد : الله ص٢٩

(٨٥) العقاد : الله ص٥٢

(٨٦) انظر طه باقر مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة ص٢٢٣ ـ ٢٥٥ وانظر العقاد الله ص٥٠ ـ ٩٠

(٨٧) انظر الصفحات السابقة المتعلقة بقصة إبراهيم وسؤاله عن الشمس شروقها وغروبها

(٨٨) سورة الأنعام آية ٧١

(٨٩) أحمد حجازي السقا الله وصفاته ص١١ ـ ١٤

(٩٠) المصدر السابق الله وصفاته ص٦٤ ـ ٦٥

(٩١) المصدر السابق الله وصفاته ص٦٤ ـ ٦٥

(٩٢) أحمد حجازي السقا الله وصفاته ص١٢

(٩٣) المصدر السابق ص١٤

(٩٤) سفر التثنية «٦» .. ص٤ ـ ٩ وانظر السقا ص١٤ ـ ١٥

(٩٥ ـ ١٠١) انظر السقا المصدر السابق ص١٤ ـ ١٥

(١٠٢) أشعيا : ٤٦ ص٥ ، ص٨ ، ص٩

(١٠٣) خروج ٢٣ ص١٧ ـ ٢٠

(١٠٤ ـ ١٠٥) التثنية ٣٤ ص٢٦ وانظر السقا ص١٧

(١٠٦) أرمياء ٢٣ ص٢٣ ـ ٢٤

(١٠٧) أمثال ١٥ ص٣ وانظر السقا ص١٩

(١٠٨) مزامير ١٢٩ ص٧ ـ ١٢ وانظر السقا ص١٩

(١٠٩) أحمد حجازي السقا : الله وصفاته ص٢٠ الى ص٢٤
(١١٠) المصدر السابق : ص٥٩
(١١١) حبيب جرجس : خلاصة الاصول الايمانية ص٦ الى ص٨ وانظر السقا ص٥٩
(١١٢) الاب يوسف لويس : شرح التعليم المسيحي لطلبة المدارس ج١ ص٢٢ ، ص٦١ ، ص٨١
(١١٣) سفر التثنية ٦ ص٤
(١١٤) إنجيل مرقص ١٢ ص٢٨ الى ص٣٤
(١١٥) إنجيل يوحنا ١ ص٢٧ الى ص٢٨
(١١٦) إنجيل يوحنا ١ ص١٨
(١١٧) احمد حجازي السقا : الله وصفاته ص٦٨
(١١٨) جماعة من اللاهوتيين برئاسة د. فرانسيس دافيدسن .. تفسير الكتاب المقدس ج١ ص٢٢٠
(١١٩) سفر التكوين ٦ ص٦
(١٢٠) سفر التكوين ٣٢ ص٣٠
(١٢١) السقا : ص٨٠
(١٢٢) المصدر السابق ص٨١
(١٢٣) السقا : الله وصفاته ص٧٢
(١٢٤) المصدر السابق ص٧٨
(١٢٥) المصدر السابق ص٧٩ وانظر المجلد الثالث حواش على الكتاب المقدس للكاثوليك ص٤٧٩
(١٢٦) احمد حجازي السقا : الله وصفاته ص٨٣
(١٢٧) انظر السقا : ص٨٦ الى ص٨٧
(١٢٨) انظر كتابنا الغلو والفرق الغالية ص١٣٨ إلى ص١٥٦
(١٢٩) الأشعري مقالات الاسلاميين ج١ ص٢٣٥ الى ص٢٣٦ تحقيق محي الدين عبد الحميد
(١٣٠) التوبة آية ٣٠
(١٣١) سورة يونس آية ٦٨
(١٣٢) النساء : آية ١٦٤
(١٣٣) سورة البقرة آية ٤
(١٣٤) سورة الأنبياء : الآية ٣٠
(١٣٥) البقرة آية ٣٠
(١٣٦) البقرة آية ٣١
(١٣٧) البقرة آية ٣٢
(١٣٨) البقرة آية ٣٣

(١٣٩) البقرة آية ٣٤
(١٤٠) الاعراف آية ١٢
(١٤١) سورة الحجر الآيات من ٢٦ الى ٣٣
(١٤٢) الامام الرازي : التفسير الكبير ج٢ ص١٧٥ الى ص١٧٦
(١٤٣) سيد قطب : في ظلال القرآن ج١ ص٦٦ الى ص٦٧
(١٤٤) سورة الاعراف الآيات من ٥٩ الى ٦٤
(١٤٥) سورة يونس آية ٧٣
(١٤٦) سورة هود ـ ٣٧
(١٤٧) سورة هود ـ ٤٥ ـ ٤٦ ـ ٤٧
(١٤٨) سورة هود ـ ٤٠
(١٤٩) سورة هود الآيات : ٥٠ ـ ٥٣ ـ ٥٧ ـ ٥٨ ـ ٥٩ ـ ٦٠ ـ ٦١ ـ ٦٢ ـ ٦٤ ـ ٦٥ ـ ٦٦ ـ ٦٧ ـ ٦٨
(١٥٠) سورة الاعراف : ٧٣
(١٥١) سورة الاعراف : الآيات : ٩٠ ـ ٩١ ـ ٩٢
(١٥٢) سورة هود آية ٥٨
(١٥٣) سورة هود آية ٦٦
(١٥٤) سورة هود آية ٦٧
(١٥٥) سورة الأعراف آية ٩١
(١٥٦) سورة البقرة آية ٢٨
(١٥٧) سورة البقرة آية ٣١ ـ ٣٢
(١٥٨) سورة هود آية ٥٠
(١٥٩) سورة هود آية ٦١
(١٦٠) البقرة آية ١٢٤
(١٦١) سورة الانعام آية ٨٣
(١٦٢) سورة البقرة آية ٢٠٥
(١٦٣) سورة البقرة آية ٢٠٦
(١٦٤) سورة البقرة آية ٢٥٨
(١٦٥) سورة الأعراف آية ٥٤
(١٦٦) سورة البقرة آية ٢٥٩
(١٦٧) سورة البقرة آية ٢٦٠
(١٦٨) سورة الانبياء آية ٦٨ ـ ٦٩ ـ ٧٠ ـ ٧١
(١٦٩) الاعراف آية ٥٤
(١٧٠) الصافات الآيات من ١٠١ الى ١١٠
(١٧١) سورة يوسف الآيات من ٧ الى ١٥
(١٧٢) البقرة آية ٣٠
(١٧٣) يوسف الآيات ٩٣ ـ ٩٦
(١٧٤) يوسف الآيات ٢١ ـ ٢٥
(١٧٥) النور آية ٢١
(١٧٦) يوسف آية ٢٣
(١٧٧) يوسف آية ٣٠ الى ٣٢
(١٧٨) سورة النور آية ٢١
(١٧٩) انظر في ظلال القرآن ج١٢ الحاشية ص٢٨
(١٨٠) سيد قطب : في ظلال القرآن ج١٢ ص٢٢٧ الى ص٢٢٨

(١٨١) سورة البقرة اية ٤٧
(١٨٢) سورة البقرة آية ٢١١
(١٨٣) سورة البقرة آية ٥٤
(١٨٤) سورة المائدة آية ٧٨ ـ ٧٩
(١٨٥) سورة النساء آية ١٦٤
(١٨٦) سورة البقرة آية ٥٣
(١٨٧) سورة البقرة آية ٤٩
(١٨٨) سورة البقرة آية ٥٠
(١٨٩) سورة البقرة آية ٥١
(١٩٠) سورة الشعراء الآية ٦٣ ـ ٦٨
(١٩١) سورة البقرة آية ٦٠
(١٩٢) سورة الاعراف آية ١٦٠
(١٩٣) سورة البقرة آية ٥٧
(١٩٤) سورة البقرة آية ٥٨ ـ ٥٩
(١٩٥) سيد قطب : في ظلال القرآن ج١٩ ص٨٥ الى ص٨٧
(١٩٦) سورة الاعراف الآيات من ١١٣ الى ١١٧
(١٩٧) سورة الشعراء آية ٣٢ ـ ٣٣
(١٩٨) سيد قطب : في ظلال القرآن ج١٩ ص٧٨ ـ ٧٩
(١٩٩) سيد قطب : في ظلال القرآن ج١٩ ص٨١ ـ ٨٢
(٢٠٠) سورة البقرة الآية ٥٥ ـ ٥٦
(٢٠١) سورة الأعراف آية ١٤٣
(٢٠٢) الرازي : التفسير الكبير ج١ ص٢٠٩ ـ ٢١٠
(٢٠٣) الرازي : التفسير الكبير ج٣ ص٨٥ ـ ٨٦
(٢٠٤) سيد قطب : في ظلال القرآن ج٩ ص٦٧
(٢٠٥) سيد قطب : في ظلال القرآن ج١٩ ص٢٦ ـ ٢٧
(٢٠٦) سورة الكهف الآيات ٩ ـ ١٣
(٢٠٧) سورة الكهف الآيات ١٧ ـ ١٩
(٢٠٨) سورة الكهف الآيات ٢٥ ـ ٢٦
(٢٠٩) الرازي : التفسير الكبير ج٢١ ص٨٥
(٢١٠) الرازي : ج٢١ ص٨٥ ـ ٨٦
(٢١١) سيد قطب : في ظلال القرآن ج١٥ ص٣٧٣
(٢١٢) سيد قطب : في ظلال القرآن ج١٥ ص٣٧٥ الى ص٣٧٩
(٢١٣) سورة النمل آية ١٥
(٢١٤) سورة النمل الآيات : ١٦ ـ ١٧ ـ ١٨ ـ ٢٠ ـ ٢١ ـ ٢٢ ـ ٢٣ ـ ٢٤ ـ ٢٨ ـ ٢٩ ـ ٣٠ ـ ٣١
(٢١٥) الرازي : التفسير الكبير ج٢٤ ص١٨٦
(٢١٦) الرازي : التفسير الكبير ج٢٤ ص١٨٧ ـ ١٨٨
(٢١٧) الرازي : التفسير الكبير ج٢٤ ص١٨٧
(٢١٨) الرازي : التفسير الكبير ج٢٤ ص١٩٠ الى ١٩٢
(٢١٩) سورة النمل الآيات ٣٨ الى ٤٤
(٢٢١) الرازي : جـ٢٤ ص١٩٦ ـ ١٩٧

(٢٢١) الرازي : التفسير جـ٢٤ ص١٩٨

(٢٢٢) سيد قطب : فى ظلال القرآن جـ١٩ ص١٣٨

(٢٢٣) سيد قطب : فى ظلال القرآن جـ١٩ ص١٣٩

(٢٢٤) سيد قطب : فى ظلال القرآن جـ١٩ ص١٤٨ ـ ١٥٠

(٢٢٥) سورة مريم الآيات ٤ ـ ٩

(٢٢٦) الرازي : التفسير الكبير جـ٢١ ص١٨٠ ـ ١٨٩

(٢٢٧) سيد قطب : فى ظلال القرآن جـ١٦ ص٤٢٥ ـ ٤٢٩

(٢٢٨ ـ ٢٢٩) سيد قطب : المصدر السابق جـ١٦ ص٤٢٩

(٢٣٠) سورة مريم الآيات من ١٦ ـ ٢٣

(٢٣١) سورة الأنبياء آية ٩١

(٢٣٢) سورة آل عمران آية ٤٥

(٢٣٣) سورة مريم . آية من ٢٤ ـ ٣٣

(٢٣٤) سيد قطب : فى ظلال القرآن جـ١٦ ص٤٢٩

(٢٣٥) سورة آل عمران الآيات ٤٨ ـ ٤٩

(٢٣٦) سورة النساء آية ١٧١

(٢٣٧) سورة آل عمران آية ٥٩

(٢٣٨) الأمام الرازي : التفسير الكبير جـ٢١ ص١٩٨ ـ ١٩٩

(٢٣٩) سيد قطب : فى ظلال القرآن جـ١٦ ص٤٣٠

(٢٤٠) سيد قطب : فى ظلال القرآن جـ١٦ ص٤٣٤

(٢٤١) المصدر السابق جـ١٦ ص٤٣٥

(٢٤٢) المائدة : ٣

(٢٤٣) الرازي : التفسير الكبير جـ٢١ ص٦٥ ـ ٦٦

(٢٤٤) سورة الاسراء الآيات من ٨٩ ـ ٩٣

(٢٤٥) الامام الرازي : التفسير الكبير جـ٢١ ص٥٦

(٢٤٦) تفسير المنار جـ١ ص٣١٥

(٢٤٧) الرافعي : إعجاز القرآن ص٢٠٣ ـ ٢٠٤ ط٣

(٢٤٨) الرافعي : إعجاز القرآن ص٢٠٥ ـ ٢٠٦

(٢٤٩) القرآن مقالة بقلم محمد أحمد خلف الله ص١٨

(٢٥٠) الرافعي : إعجاز القرآن ص١٦٨

(٢٥١) الندوي : (القادياني والقاديانية) ص١٠٧

(٢٥٢) القرآن مقالة بقلم محمد أحمد خلف الله ص٢١

(٢٥٣) القرآن مقالة بقلم محمد أحمد خلف الله ص١٩ ـ ٢٠

(٢٥٤) سورة الاسراء الآيات ٩٥ ـ ٩٦

(٢٥٥) الرازي : التفسير جـ٢١ ص٦٠

(٢٥٦) الباقلاني : إعجاز القرآن ص٣٣ ـ ٤٤

(٢٥٧) انظر الامام الرازي : التفسير الكبير جـ٢١ ص٦٧

(٢٥٨) الرازي : التفسير جـ٢١ ص٦٣ ـ ٦٤

(٢٥٩) الرازي : التفسير جـ٢١ ص٦٧ ـ ٦٨

(٢٦٠) الرازي : التفسير جـ٢١ ص٦٨

(٢٦١) سورة الاسراء آية ٨٩

(٢٦٢) الرازي : التفسير جـ٢١ ص٥٩ ـ ٦٠

(٢٦٣) سورة الأحزاب آية ٧٢

(٢٦٤) سورة الاسراء آية ٨٨

(٢٦٥) ابو منصور الثعالبي : الاعجاز والايجاز ص١٠ ـ ١٣ تحقيق اسكندر آصف /ط١

(٢٦٦) المصدر السابق ص١٤ ـ ١٥

(٢٦٧) الرافعي : إعجاز القرآن ص١٩٧ الحاشية

(٢٦٨) الباقلاني : إعجاز القرآن ص٢٢

(٢٦٩) المصدر السابق ص٣١ ـ ٣٢

(٢٧٠) سورة إبراهيم آية رقم ١

(٢٧١) سورة براءة آية رقم ٦

(٢٧٢) سورة الشعراء / آيات / ١٩٢/١٩٣/١٩٤

(٢٧٣) الشعراء / آية ١٩٥

(٢٧٤) الباقلاني : إعجاز القرآن /ص٣٣ ـ ٣٤

(٢٧٥) الرافعي : إعجاز القرآن ص٢٢

(٢٧٦) رشيد رضا : تفسير المنار جـ١ ص٣١٥

(٢٧٧) الرافعي : إعجاز القرآن ص٢١

(٢٧٨) المصدر السابق ص٧٣ ـ ٧٤

(٢٧٩) الرافعي : إعجاز القرآن ص١٩١ ـ ١٩٢

(٢٨٠) المصدر السابق ص٢٠٣ ـ ٢٠٩

(٢٨١) الرافعي : إعجاز القرآن ص٢١٧ ـ ٢١٨

(٢٨٢) مقالة بقلم «شارل بالي» ترجمة د. عبدالسلام المسيدي مجلة الثقافة الاجنبية ع١ ص٣٥

(٢٨٣) ابن الراوندي : انظر كتاب الانتصار لمؤلفه ابن الخياط

(٢٨٤) سيد قطب : فى ظلال القرآن جـ١٧ ص٥٣٠

(٢٨٥) سورة الأنبياء آية رقم ٣٠

(٢٨٦) الرازي : التفسير جـ٢٢ ص١٦٢ ـ ١٦٣

(٢٨٧) الدد : اللعب واللهو (لسان العرب ، مادة : ددا)

(٢٨٨) الرازي : التفسير جـ٢٢ ص١٦٣ ـ ١٦٤

(٢٨٩) الانعام آية ٢

(٢٩٠) السجدة آية ٧

(٢٩١) الصافات آية ١١

(٢٩٢) فصلت آية ٤١

(٢٩٣) سيد قطب : فى ظلال القرآن جـ١٧ ص٥٣٠

(٢٩٤) الرازي : جـ٢٢ ص١٦٥

(٢٩٥) الأنبياء آية ٤٤

(٢٩٦) الرازي : جـ٢٢ ص١٦٥ ـ ١٦٦

(٢٩٧) سورة النمل آية ٢٧

(٢٩٨) سورة الأنبياء : ٣١

(٢٩٩) سورة الأنبياء : ٣٣

(٣٠٠) سورة فصلت آية ٤١

(٣٠١) سيد قطب : فى ظلال القرآن جـ١٧ ص٥٣١

(٣٠٢) سيد قطب : فى ظلال القرآن جـ١٧ ص٥٣١

(٣٠٣) سورة ص /آية ٧٢

(٣٠٤) سورة فاطر آية ١١

(٣٠٥) سورة غافر آية ٦٧

(٣٠٦) سورة المؤمنون : آيات ١٢ ـ ١٤

(٣٠٧) الرافعي : إعجاز القرآن ص١٧٣ ـ ١٧٩

(٣٠٨) المصدر السابق هامش الصفحة ١٧٦

(٣٠٩) سورة الاسراء آية ٨٥

(٣١٠) سورة الملك آية ٢

(٣١١) سورة الأنعام آية ٩٥

(٣١٢) سورة الحج آية ٦٦

(٣١٣) سورة الروم آية ١٩

(٣١٤) سورة الرحمن آية ٣٣

(٣١٥) مقدمة فى كتاب إعجاز القرآن للباقلاني ص١٦

(٣١٦) سورة إبراهيم آية ١

(٣١٧) سورة براءة آية ٦

(٣١٨) سورة الشعراء آية ١٩٢ ـ ١٩٣ ـ ١٩٤

(٣١٩) سورة الشعراء آية ١٩٥

(٣٢٠) سورة غافر آية ٥

(٣٢١) الباقلاني : إعجاز القرآن ص٣٤ ـ ٤٠

(٣٢٢) النحل آية ٦

(٣٢٣) النحل آية ٦٤

(٣٢٤) الاسراء آية ٩

الفصل الثاني

الانسان معجزة الله الخالدة

: الله والانسان :

١ ـ الانسان وحدة نوعية متساوية :

الله سبحانه وتعالى خالق كل شئ والانسان أفضل مخلوقاته ، خلقه في احسن تقويم وهو خالق السموات والأرض وما بينهما ، الأحياء كافة من خلقه والانسان من هذه الأحياء ، خلقها من تراب ثم قال لها كوني فكانت .

إن الانسان أعلى مراحل التطور في سلسلة الأحياء من حيوانات ونباتات فكما خلق الله سائر الأحياء من التراب والماء ، كذلك كان خلق الانسان .. يقول سبحانه (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب)[١] . ويقول جل شأنه (أكفرت بالذي خلقك من تراب)[٢] . ويؤكد سبحانه (يأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فانا خلقانكم من تراب)[٣] . ويقول جلت قدرته (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون)[٤] . ويبين تعالت إراته (والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا)[٥] . ويقول سبحانه (هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه)[٦] .

ان هذه الآيات الكريمة توضح بأن خلق الانسان كان من تراب ، وهـذا التراب من خلقه جلت قدرته وليس من إنسان قد خلق من غير هذه المادة كما أن ليس هناك من بشر قد تشكلت خلقته على هيأة أو صورة تختلف عن الآخر قال سبحانه (فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين)[٧] . في هذه الآية توضيح أن سبحانه هو الذي أعد الانسان وسواه وقوفه ومن ثم نفخ فيه من روحه فبدأت فيه الحياة ، وهذه النفخة من لدن القديـر العليم هي التي بعثت الحياة والحركة في الانسان وتلك التسوية والاعداد والتصوير كانت منه جلت قدرته ، ومن ذلك يتبين أن الله قد خلق الانسان من مادة واحدة وهو الذي قومه وسواه ونفخ فيه من روحه وشكله على صورة أرادها له ، وأن كل إنسان على هذه الصورة وبهذه الهيأة وعلى ذلكم القوام وتلك التسوية فليس من فرق بين إنسان وآخر في الخلق والتكوين .

إن تحويل التراب الى مادة حية كان بفعل الله وقدرته بعد أن مزجها بالماء وقد

حمل هذا الماء صفات الحياة حيث أكد سبحانه وتعالى أنه خلق الأحياء جميعا من الماء ، فقال (.. وجعلنا من الماء كل شئ حي)[٨] .

الماء هو الذي حمله سبحانه سبب قيام الحياة وأن هذا التحميل من عنده فهو الذي أمده بقوى الخلق والاحياء والانبات وإذا ما توصل العلم أخيرا الى أن الماء يتكون من اوكسجين وايدروجين بنسب معينة وأن تفاعلهما يؤدي الى تكوين هذه المادة التي تختلف في ظاهرها وفي شكلها من العناصر المكونة لها ، إلا أن البحوث العلمية أكدت أن الاوكسجين هو أساس الحياة ، به تواصل الأحياء بقاءها ، وهذا الاوكسجين من عنده سبحانه هو الذي جعل فيه هذه القوة وهذا التأثير .

إن اختلاط الماء بالتراب ، كون الطين ، وبهذا التكوين بدأت أولى بدايات الحياة وتطورت هذه البدايات عبر آلاف السنين الى أصناف الأحياء من نباتات وحيوانات على اختلافها وتعددها ، وفي هذا الطين ومن بين أجزائه نمت وتكاثرت وتطورات الاحياء كافة .. يقول سبحانه وتعالى (إني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير)[٩] ، وقال تعالى (وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بأذني)[١٠] . وقال سبحانه (هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا)[١١] . وقال تعالى (قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين)[١٢] . وقال عز من قائل (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين)[١٣] . وقال جل وعلا (إنا خلقناهم من طين لا تراب)[١٤] . وقال سبحانه (الذي أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الانسان من طين)[١٥] . وأكد تعالى (إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين)[١٦] . وقال سبحانه (.. فسجدوا الا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا)[١٧] .

من هذه الأيات الكريمة يتضح أنه سبحانه بعد أن خلق التراب والماء وجعل منه كل شئ حي مزج بينهما فكانت بداية الحياة من هذا المزيج حيث خلق الله منه كافة الأحياء .

إن الطريق الطويل بين بداية الحياة وتطورها حتى صارت إنسانا مرت في مراحل متطورة معقدة وسواء أكانت هذه التطورات طويلة ومركبة أم أنه سبحانه قد جعل كل نوع وصنف من الأحياء قد تطور في دائرة نوعه كأن يكون الانسان قد

تطور في دائرته الخاصة به ، وهذا الحيوان أو ذاك مر بتغييرات في محيطه وهذه النباتات كل منها تطور في درب واحد فصارت هذه الانواع ، فأن كل هذه التغييرات بأمره جلت قدرته ، كما أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يجعل فترة هذه التطورات طويلة ممتدة على آلاف السنين وانه قادر على أن يجعل فترة تطورها قصيرة بحيث لا تستغرق من الزمن الا لحظات .

ولما كان الامر منه ، وكل مقدر بقدره فليس في الأمر ضرر أو إضرار سواء أكان خلق الاحياء قد تم عبر زمن طويل أم كان في لحظة حيث أمره فكان .

إن الآيات القرآنية الكريمة توضح أن التطور كان عبر زمن سحيق ، فعندما يؤكد سبحانه بأنه خلق الانسان من تراب ثم يبين أنه صنعه وهيأه بعد أن حول التراب الى طين لازب فأن الاحياء التي تعيش في هذا الوسط تبدأ صغيرة بسيطة ثم تتطور عبر عمليات وتغيرات كثيرة ، والآيات التي تحول النطفة المصنوعة من تراب تظل غارقة في خضم هذا التراب اللزج حتى تتحول النطفة الى علقة والعلقة الى مضغة وهكذا حتى تصير إنسانا متكاملا ، فأن الطريق بين النطفة والعلقة والانسان الكامل طويل جدا مما يشير الى أن تكوين الانسان قد مر خلال تطورات وتغيرات كثيرة استغرقت من حياته مئات بل آلاف السنين ، وعندما اكتمل خلق الانسان وصار على ما هو عليه بدأت عملية التكاثر والتوالد تمر عبر زمن محدود حيث اختصرت فترة التكوين القرون الطويلة التي مرت على الانسان حتى انتهت الى ما انتهت إليه .. يقول سبحانه (هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة)[١٨] . ويقول سبحانه (والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا)[١٩] .

إن في هاتين الايتين الكريمتين إشارة الى مرحلة من مراحل التطور من التراب الى الطين الى خلق النطفة ثم العلقة ، وفي سورة فاطر آية(١١) أن النطفة توزعت الى زوجين ذكر وانثى حيث بدأت عمليات التزاوج والتوالد وفي قوله تعالى (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) .

في هذه الآية الكريمة تعيين لمراحل التكوين والتطور للانسان بعد أن وصل الى تمام تكوينه فبدأت دورة الحياة تتكون في سلسلة من المراحل هي ذاتها المراحل التي تكون خلالها الانسان عبر آلاف السنين ، وعندما بلغ كما له بدأت عملية التوالد في داخله بحيث تستغرق فترة معينة محدودة ، وأن في هذه الآية الكريمة صوراً وعلامات عن الدرب الطويل الذي مر على الانسان حتى صار إنسانا متكاملا .

ليس هناك من فرق بين تكوين الانسان هنا أو هناك ، لم يختصر أي إنسان المسافة بين بدء ظهوره ونهاية تكوينه كما لم يكن لانسان صفات وخصائص جسمية تختلف عن إنسان آخر كما لا توجد في إنسان صفات ومقومات تقل عن أي إنسان آخر ، ولهذا أكد سبحانه وتعالى بأنه خلق الناس جميعا من مادة واحدة وعلى شاكلة متشابهة وفي صفات ومواصفات مشتركة وأن صفة الحياة في الناس جميعا هي من عنده تعالى وأنه خلقهم جميعا من نفس واحدة فقال سبحانه (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها)[٢٠] . وقال (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا)[٢١] . وقال موضحا أن كافة الناس خلقوا من مادة واحدة وعلى صيغة متشابهة (الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة)[٢٢] . وقال مؤكدا أنه خلق الناس من نفس واحدة (خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها)[٢٣] . وقال (ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين)[٢٤] .

إن قوة الحياة من عند الله ، وأنه هو الذي بثها في سائر مخلوقاته حيث قال (ثم سواه ونفخ فيه من روحه)[٢٥] . وقال (فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين)[٢٦] . وقال سبحانه (والتي احصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا)[٢٧] . وقال (ومريم إبنة عمران التي أحصنت فزجها فنفخنا فيه من روحنا)[٢٨] . وقال (فانفخ فيه فيكون طيرا بأذن الله)[٢٩] .

هذه الروح التي هي أساس الحياة عند الانسان من روح الله بثها في الانسان باعتباره وحدة نوعية فحيثما كان الانسان فان حياته من هذه الروح ... قال سبحانه (قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الاقليلا)[٣٠] . ويؤكد سبحانه إن هذه الروح منه وتعمل بأمره حيث يقول (تنزل الملائكة والروح فيها بأذن ربهم من كل أمر) سورة القدر / آية ٤ / .

يتضح من كل ما جاء أن الانسان وحدة نوعية متساوية لا فرق بين إنسان وآخر من حيث مادة التكوين والخصائص الرئيسية والمواصفات الاساسية . وأن ما نراه من اختلافات في اللون والشكل اختلافات جانبية كانت بسبب البيئة والمناخ .. فهي اختلافات على السطح وليس في العميق وهذه الاختلافات الظاهرية لا تغير من الحقيقة المركزية بأن الانسان وحدة نوعية متساوية ومتكافئة .. قال سبحانه (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) .

٢ - الانسان معجزة الله العظمى :

الانسان أرقى مخلوقات الله جميعا وأهمها ، وهذه الاهمية تأتي لان الانسان هو وسيلة الله لهذه الدنيا ، وهو وسيلته لهداية نفسه والناس وهو الغاية من هذه الوسيلة .

الرسالات السماوية هداية للناس كافة ، الكلمة وسيلتها وهي من حروف ثلاثة أو اكثر تؤلف معنى ، وهذه الكلمة مع غيرها تشكل عبارة ، وهذه العبارات تؤلف سورة والسور مع بعضها تؤلف الكتاب .. وهذه الكلمات الموزعة آيات والمؤلفة سورا لا تأخذ بعدها وتدلل على ماهيتها وتعبر عن كنهها ، الا من خلال الانسان وتفاعله معها تفاعلا تاما ، فالكتاب السماوي سورة أو آية لا تتحرك كلماته حاملة مشاعل النور والهداية الا عند لقائها بالانسان وتفاعلها معه وتشكيلها وإياه قوة متكاملة .. إن الكلمة دون إنسان تظل حبيسة حروفها جامدة في مكانها لا تخطو خطوة ، ولا تؤثر ولا تتأثر .

فأذا كان الكتاب يحمل أمانة الله ورسالته وهديه ، فأن الانسان هو الذي يحرك هذه الامانة وينقلها من مكان الى آخر ويبعث فيها الحياة ويبث قوتها وفعلها في الآخرين ... وإذا كان كتاب الله محكما ومعجزا في صياغته ومعانيه فلا بد أن يكون الانسان حامل هذه المعجزة بمستواها إعجازا في الادراك والتكوين لكي يتعايش معها ويستطيع حملها واداء أمانتها .

إن الانسان حامل رسالة السماء أعظم وأكبر وأقوى من السموات والأرض

والجبال حيث لم تستطع كل هذه المظاهر الطبيعية وما فيها من حمل أمانة الله وأداء رسالته .. قال سبحانه (إنا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فابين أن يحملها وأشفق منها وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا)[٣١] .. إن الجبال والسموات والأرض أقوى من الانسان في موازين القوة المادية وفي التحمل لحمل الاثقال ، الا أنها أعجز عن حمل الأمانة كلمة ومعنى ، تفسيرا وتأويلا ، نورا وهداية ، كما أن كثيرا من الحيوانات أقوى من الانسان وأشد فتكا الا أن قوتها في العدوان والاذى وتحمل الصعاب المادية ولكنها أعجز عن إدراك كلمة واحدة وآية من آيات الكتاب ، ولهذا كان الانسان هو المكلف بحمل أمانة السماء وتنفيذ رسالتها .

إن قوة الادراك في الانسان هي القوة الوحيدة القادرة على فهم الرسالة السماوية وهذا الادراك هو الذي سوغ حمل الامانة وتمكن من تحريكها قوة مؤثرة ولو بقيت الرسالة معلقة بين السماء والارض قرونا دون أن يكون هناك إنسان يتسلمها ، يتفاعل معها لبقيت معلقة .. ولو أنها هبطت على الارض ولم يكن فيهَا إنسان لبقيت متجمدة هامدة لا تتحرك .

إن الانسان هو الوحدة النوعية القادرة على إدراك الرسالة وحملها وأن تكوين الانسان المعجز هو الذي التقى مع معجزة الكتاب فشكل المعجزة العظمى في هذه الدنيا .

الرسالة السماوية لا تتحول الى قوة ما لم يكن هناك إنسان يدركها ويقتنع بها ويؤمن بما فيها هذا الادراك والايمان هو الذي يحول الرسالة الى قوة حية متحركة فاعلة ، وعندما لا يكون هناك إنسان فليست هناك رسالة .

الرسالة مجموعة سور وآيات وكلمات ، فيها مبادئ وأحكام وقصص وعبر وتفسير للحياة وكشف لذات الانسان وحديث عن الماضي وإبلاغ عن المستقبل ، إن كل ما في الرسالة يبقى مخزونا في لوح محفوظ ما لم يظهر إنسان يقرأها ، ويتفاعل معها ، ويحملها ، وينطق بمضامينها ، ويعبر عما فيها من معانٍ ودلالات .

لقد أوضحنا في الصفحات السابقة جوانب من إعجاز القرآن في لغته

ومعانيه ، إن الذي عبر عن هذا الاعجاز وبين أبعاده هو الانسان إذ لولاه لما كان هناك (قرار) بالحكم على ذلكم الاعجاز ، ولولاه لبقى القرآن في مكانه مقيدا بقيود الحروف الصامتة التي تبقى خرساء ما لم يبعث فيهـا الانسان الحيـاة عندمـا يستعملها لفظا ويقرأها آية ويتأثر بها معنى .

الله سبحانه هو العلة الاولى ، كتبه تعبير عن هذه العلة ، والانسان وسيلته لحمل كتبه والتعبير عنها ، فالانسان هو الذي جعل لكتاب الله فاعليته وحـركته ولولاه لما استطاعت كتبه أن تعبر عن ذاتها وإعجازها . كما لا تستطيع أية قوة أو ظاهرة أن تعبر عن إعجازه المتمثل بكلماته سبحانه .. يقول جلت قدرته (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشيـة الله)[٣٢] .. هذا الجبـل المتصدع الخاشع لا يقوى على حمل الكتاب السماوي المحكم كما لا تستطيع كل القوى حمله وأنها سوف تتصدع وتتداعى إذا ما أنزل الله عليهـا قرآنـه ، أما الانسان فهو المخلوق الوحيد القادر على استقبال القرآن وحمل ما فيه والسير معه قوة هادية وعبرة ورشادا .

الكتب السماوية والرسل لهـداية النـاس وتيسير الحيـاة لهم وتنظيمها ، والغاية من خلق السماوات والأرض وما فيها من أجل الاعتـراف بالله وطـاعته وعبادته (وما خلقت الانس والجن الا ليعبدون)[٣٣] ... إن العبادة إنما هي إقرار باللسان وايمان بالقلب بوجود الله ووحدانيته وقدرته ... إن الاحيـاء والنباتـات ومظاهر الطبيعة الاخرى لا تستطيع أن تعبر عن شكرها لله الذي خلقها ويسرلها أسباب الحياة (وإذا كان للنباتات والحيوانات من لغة أو أساليب تعبر عن شكرها وعبادتها فأن هذه اللغة وتلك الاساليب خاصة بينها وبين الله سبحانه وتعالى) .. إن الانسان هو المخلوق القادر على الاعلان عن شكره وعرفانه وعبادته لله ، ولهذا فعبادته هي المعروفة والمعلنة والقابلة للنقاش والمقارنة والحكم ، وذلك يعني أن الله سبحانه وتعالى خلق الكون وما فيه من أجـل أن تعلن هذه المخلـوقات طـاعتها وعبادتها لله سبحانه ، إن الـذي يستطيع أن يعلن ويعبـر عن هذه العبـادة هو الانسان ، وعليه فأن الله خلق الانسان من أجل أن يعبده ، ولكي يعبده هيأ له أسباب المعرفة والادراك لله وقدراته فكانت الرسل والانبياء والكتب المرسلة إليهم وسائل هذه الهداية ، ولقد عملت الكتب السماوية على تقديم المبادئ والاسس التي تمكن الانسان من الاقتناع بوجود الله والاعتراف به والايمان بوحدانيته ، ولكي

يكون هذا الايمان دقيقا ومتوازنا ، كان لابد من إعداد الانسان إعدادا جسميا وعقليا ليكون بمستوى هذه المهمة ، ولكي تكون عبادته عن رضا وإدراك فلا بد أن تكون رسالاته عبر مبادئ وأحكام ومعان يستطيع تصورها وإدراكها ، ولما كانت تلك الكتب السماوية من عنده سبحانه فهي معجزة صياغة ومعاني ودلالة وأن إدراكها من قبل الانسان يجب أن يكون تكوينه وإعداده بمستوى تلك الرسائل معنى وسعة ودلالة لكي يتفاعل معها ، ويهتدي بها ، ويتأثر فيها ، وتؤثر فيه ، وتحمله على الايمان والعبادة .

إن التعايش بين الانسان والرسالة يكون عبر توافق وتساوق بين الانسان وإدراكه من جهة وبين الكتاب وأسسه ومعانيه من جهة ثانية ، فاذا لم يكن هذا التوافق لم يحصل التفاعل ولا يقع الفهم والادراك ، وعند ذاك لا تقوم القناعة ولا يبدأ الايمان فتبقى الرسالة معزولة غير مدركة محفوظة في حروفها وكلماتها ، كنزا ثمينا مدفونا في أعماق المجهول .

ولما كان الانسان هو الغاية من إرسال ولما كانت الغاية القصوى من تحقيق هذه الرسالة هي طاعة الانسان وعبادته لله فأن الانسان يكون الوسيلة والغاية في آن واحد ...

فهو الوسيلة لحمل الرسالة وهداية الناس بها .

- ولا يمكن للانسان أن يكون وسيلة لحمل الرسالة ما لم تفعل الرسالة فعلها فيه وتغير مفاهيمه وتحمله على الايمان بما جاء فيها فلابد أن يكون غاية لهذه الرسالة ليصبح وسيلة لحملها وإداء مهمتها ..

- والانسان وهو يؤمن بالرسالة ويحملها يتحرك بها وتتحرك به فيكون وسيلتها لهداية الناس ، ولهذا فأن الانسان هو الغاية الرئيسية ، ولما كان هو الوسيلة أيضا فأنه يشكل مع الرسالة نصف المعجزة وتؤلف المعجزة النصف الآخر وبذلك تقوم المعجزة العظمى على الارض كلمة من عنده وإنسانا من خلقه .

- ولكي يكون الانسان هذا النصف المعجز لابد أن يكون تكوينه وتركيبه من

الدقة والعمق والسعة ليكون أهلا لهذه المشاركة في معجزة الله . ولما كان عقل الانسان وإدراكه ووجدانه هو الساحة التي تتفاعل عليها قوى الاعجاز فأن تكوينه العقلي وتركيبه الوجداني وإدراكه لابد أن يكون من الدقة بحيث يتناسب والمعجزة التي يتفاعل معها مؤلفا وإياها وحدة إعجازية متكاملة .

إن حمل الرسالة لا يعني رفعها ونقلها من مكان الى آخر كتابا من ورق أو كتابا من أوراق الشجر أو من جلود الحيوانات ، إنما حملها يعني إدراكها ، إن أي حيوان أو طير صغير يستطيع حمل كتاب الله والانتقال به من مكان لآخر لكن دون أن يدرك ما فيه ويعلم سره ، إن إدراك الانسان لكتاب الله والعمل به وهداية الناس بتعاليمه يعني تحرك الرسالة وسيرها حية مؤثرة .. أما نقلها مادة صماء علي ظهر حيوان أو في عنق طير فان هذ الحمل لا يعني شيئا فهو (كالحمار يحمل أسفاراً) فهو لا يدري ماذا يحمل أذهبا أم ترابا .

الانسان المكلف بحمل الرسالة وأداء الامانة هو الانسان كوحدة نوعية ليس التكليف موجها لهذا الفريق من الناس أو لذاك ، إنما هو للانسان باعتباره قادرا على إداء هذه المهمة .

إن الرسالة كما ذكرنا ، وسيلة الله لهداية الانسان ، إذن فالانسان هو الغاية من هذه الوسيلة فهو الوسيلة والغاية من خلق الحياة وإرسال الرسل والانبياء ، وأن الانسان بعد ذلك هو الوسيلة من الحكمة في خلق الكون والاحياء حيث أن الغاية من خلقها عبادة الله والايمان به وبذلك يكون الانسان وسيلة وغاية ووسيلة أساسية من الحكمة في خلق المخلوقات ، أي هو وسيلة الله لعبادته والاعتراف به والتعبير عنه ، ولما كان الله سبحانه هو العلة الاولى فأن الانسان هو التعبير عن هذه العلة فلا بد أن يكون خلقه وتكوينه بمستوى هذه العلة ليستطيع إدراكها والتعبير عنها ، ولهذا كان الانسان هو معجزة الله العظمى .

وقد جاءت آيات بينات تؤكد هذه المعجزة وأهميتها ، يقول سبحانه (يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر الا أولوا الالباب)[٣٤] .

والحكمة وضع الشئ في مكانه ، وهذه تأتي عندما يدرك الانسان إدراكا عميقا ويستوعب المعاني ويقوى على التعامل بدقة وإتقان .. إن مركز هذه الحركة ـ الادراك العميق ـ الاستيعاب الشامل ـ العمل الصائب ، الحركة والتفاعل مع الاطراف المحيطة بالقرار وكيفية تطبيقه يكون بالعقل فهو مستودع الحكمة ومصدرها .

وعندما يتحدث سبحانه وتعالى عن إعجاز القرآن فيقول (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)[٣٥] .

إن المطالبة بالتدبر والتفكير في القرآن أي فحصه ودراسته والامعان فيه حيث لا خلاف ولا اختلاف ولا تناقض في آياته ، هذه المناشدة للانسان لكي يفكر ويميز ويحلل وبعد ذلك فهل سيجد تناقضات في القرآن ، إنه سوف لن يجد شيئا من ذلك ، لان القرآن من عند الله ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا ، إذن الانسان (هو الذي يتدبر القرآن) هو الذي يفكر فيه ، يقارن بين آياته ، يحلل أحكامه ومبادئه ، يسبر غور ما فيه ، وهو الذي يقرر أن لا خلاف ولا تناقض في القرآن لانه من عند الله وهو الذي يقرر وجود الاختلاف والتناقض فيه لو كان من عند غير الله ، (فالانسان) هو مركز هذه المحاكمة وهو الذي يقرر ويميز ويحكم ... ولكن يكون الانسان قادرا على أن يصدر أحكامه وهو يتدبر القرآن المعجز في الفاظه ومعانيه فلا بد أن يكون مكونا تكوينا معجزا بحيث يستطيع أن يدرك الاعجاز والدقة والبلاغة في القرآن الكريم أي لابد أن يكون إعجازه في تكوينه كأعجاز القرآن في صياغته ودلالاته الاعجازية .

٣ ـ العقل الانساني اعلى مراتب الاعجاز الرباني :

الانسان أسمى درجات الخلق وأعلاها عقلا وجسدا ، قال سبحانه (لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم) .

لقد تميز الانسان في الخلقة والهيأة عن سائر مخلوقات الله فهو أرقاها صنعاً وأدقها تكوينا وأعلاها عقلا وإدراكا ، هذه الصورة الموزعة توزيعا متناسقا خاصة بالانسان دون سواه من المخلوقات ، حواسه الخمس منتشرة تتحرك مستقلة مع

بعضها ، تواجه المحيط ، تعيش فيه ، تتأثر به ، تتفاعل معه في حركة مستمرة ، هناك تسلم ورد ، فعل وتفاعل ، وهناك قدرة للتعبيـر عن هذا التفـاعل خـاصة بالانسان حيث لم يستطع مخلوق غيره التعبير عما يحس ويدرك .

عقل الانسان وتصوره العميق والتعبير عن ذلك من خصائصــه ، يسرح بخياله يرى العالم كله ، يصل الى الماضي السحيق ، ويعبر الى المستقبل الغائب ، يلم بأطراف الدنيا بلحظة .

يتذكر ما مر عليه من خبر وأحداث قاسية ومفرحة ، يحفظ الكلمة ومعناها ودلالاتها ويوظف هذه الكلمات ، كل كلمة لمناسبة ولغاية معينة .

هذا التكوين الدقيق للانسان واحد ، سواء أكان أسود أم أبيض أم أصفر طويلا أم قصيرا ، تركيبــه الداخــلي واحد ، حــواسه عــددا وعدة متشــابهة .. الاختلاف بين إنسان وآخر في اللون والشكل هو بسبب البنية والظروف المناخية وهذا الشكل واللون على السطح وليس في العمق .

تكوين الانسان هذا جاء بعد تطور دقيق عبر مئات بل آلاف السنين وأن عملية التطور هذه كانت بقوة الله وإرادته وقد مر الانسان بذات التطورات التي مرت على هذا الانسان في هذه البقعة من الأرض أو تلك .

إن تكوين الانسان الدقيق هذا ليس في الوسائل التي يحصل بها على غذائه وشرابه فأن الحيوانات لديها من الوسائل ما تستطيع بها أن تحصل على غذائها ، كما أن النباتات لها مقوماتها ووسائلها التي بها تحصل على غذائها وتبقى عــلى حياتها ، إنما الاختلاف في عقل الانسان وإدراكه ووجدانه ، فهو بعقله هذا قد تميز من سائر خلقه .. حيث لا نجد لاي من الحيوانات القدرة الذهنية والاستطاعة على التعبير كما هو عليه الانسان ، حركة الحيوانات حركة غريزية . حدود العقل فيها قليلة ، وفعل الغريزة وتأثيرها أوضح وهذا التأثير يتحرك في محيط محدود تتحقق عبره إمكانية حصول الحيوان على غذائه والمحافظة عــلى حياتــه ، أما الشعـور والخيال والابداع فهي خاصة بالانسان .

هذه القوى الذهنية والادراك العميق والوجدان المرهف عند كل إنسان لان كل إنسان خلق من مادة واحدة وكان صانعه الله وان فعله وحركته وقدرته من عند الله حيث ان هذه كانت عبر نفحة من نفحاته ونفخة من روحه سبحانه (ثم سواه ونفخ فيه من روحه)[٣٦] .. وقال (فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين)[٣٧] .. هذه الروح المبثوثة في (الانسان) واحدة فهي من عند الله وليس هناك فرق بين إنسان وآخر في نوع وحجم هذه الروح (تنزل الملائكة والروح فيها بأذن ربهم من كل أمر)[٣٨] .. والروح هي التي تعطي الحياة والقوة في أطراف وأجزاء البدن المختلفة وهي مقدرة تقديرا محكما من عنده سبحانه ، ولهذا فأن قوتها وتأثيرها في الانسان متكافئة فهي مصدر الحركة فيه ومركز التطور والتمييز والتنفيذ ، والتلقي والرفض ، والفعل ورد الفعل ، مما يوضح العدالة في الخلق والدقة في التوزيع والموازنة في التكوين والاعداد .. وتبارك الله أحسن الخالقين .

الانسان هو المخلوق الوحيد الذي يعقل ويميز ويعبر عما يريد وعمل العقل عمل مركب ـ فعل ورد فعل ، صيغة من التفاعل بين طرفين متقابلين عبر عملية تفاعلية معقدة . كل عملية عقلية هي فعل بين العقل والمعقول ، وهذا التفاعل تنتج عنه حالة نسميها (التعقل) وهذه الحالة هي التي تميز الانسان من غيره من المخلوقات .

العملية العقلية عملية ثنائية بين الانسان وبين محيطه ومركز هذه العملية عقل الانسان ووجدانه ، فهو ساحة الفعل ورده وميدان الاثر وتأثيره ، فليس هناك عملية عقلية دون العقل ودون المعقول ، أي ليست هناك حالة من حالات التعقل الا بوجود طرفين متقابلين متحركين متفاعلين ، العقل وما يحيطه ، يتأثر به ويؤثر فيه .

كان فعل العملية العقلية ساذجا وظل كذلك مئات السنين وكان إدراك الانسان يتصاعد درجة ، درجة حتى بلغ ما بلغه اليوم عبر الآف السنين حيث تعمق إدراكه وتوسع .

قدرة الانسان على الادراك والامعان والخيال والتصور تختلف عن قدرات الحيوانات وسائر المخلوقات ، فهو مخلوق على نسق قابل لهذا التطور فوصل به الى ما وصل وبقيت الحيوانات الاخرى تعيش أسيرة قدراتها المحدودة .

إن عقل الانسان يقابل ما يحيط به ويواجه ما يحس به وأن حالة من التفاعل تقوم داخل الانسان على ساحة عقله بين إدراكه وما يقع عليه ويمتد إليه ، وأن نتاج هذا التفاعل يؤلف الحالة العقلية والوجدانية التي يصدر عنها القرار بالعمل أو القول .

إن تفاعل الانسان مع البيئة كان تفاعلا مستمرا ، أسفرت عنه كل ما أبدعه الانسان من وسائل للتغلب على الطبيعة وصعوباتها وتسيير ما فيها لخدمته ، كانت المواجهة بين الانسان ومحيطه ساخنة أفرزت نتائج فكرية متقدمة كانت وراء قيام الحضارة والمدنية التي يعيش الانسان في ظلها .

إن العملية العقلية ، عملية مزدوجة يؤلف الانسان بعقله وإدراكه نصفها الاول وتؤلف البيئة وما فيها نصفها الثاني ، ولا يمكن لهذه العملية أن تقوم الا بوجود هذين الركنين في وقت واحد وعلى درجة متقابلة متكافئة حيث لا يمكن أن تقوم العملية الفكرية عند غياب أو سقوط أو فقدان أي من طرفيها . لذلك فأن هذه العملية سميت عملية عقلية (واستعملت كلمة يعقل ، ويعلقون ، وتعلقون) . كدلالة على الفعل العقلي ولم تستعمل كلمة عاقل لوحدها حيث لا يمكن للعقل لوحده أن يقوم بالعملية العقلية .

ومما يؤكد أن ركائز الفعل الادراكي هو العقل والمعقول فأن القرآن الكريم لم يستعمل كلمة (عاقل) مستقلة بهذا اللفظ ومقطوعة بـه عن غيره من الكلمات والمعاني ، إنما استعمل سبحانه كلمة (تعقل ، وتعقلون ، ويعقلون) لان هذه تدل على التركيب بين فعلين متقابلين ، قال سبحانه (أتأمرون الناس بـالبر وتنسـون أنفسكم وانتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون)[٣٩] . وقال تعالى (كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون)[٤٠] . (قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون)[٤١] . وقال سبحانه (إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون)[٤٢] . وقال (ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون)[٤٣] . وقال جلت قدرته (لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون)[٤٤] . وقال (أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون)[٤٥] . وقال تعالى (وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون)[٤٦] . وقال سبحانـه (ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون)[٤٧] .

هذه الآيات الكريمة وآيات أخرى كثيرة تبين أن (العملية العقلية) تقوم على ركنين أساسيين ، العقل والامر الذي يقع عليه فعل العقل أو الذي يأتي منه أثر يثير العقل ويحركه وأن كلا من هذين الركنيين شرط لازم لقيام هذه العملية .

إن مراجعة للآيات الكريمة أعلاه تبين العلاقة الجدلية بين قطبي العملية العقلية ـ الانسان وعقله ، والاشياء المثيرة للعقل ـ فقوله تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب ...) فأن طرفي العملية في هذه الآية هما الناس ووحدتهم الانسان والطرف الثاني (الكتاب) وأن المطالبة بالتعقل والتقريع بقوله (أفلا تعقلون) إنما يكون من وضع الكتاب أمام الانسان وتفكير الانسان الذي يدعو الآخرين الى عمل البر ولا يحمل نفسه على القيام به على الرغم من قراءته للكتاب وتلاوته له ، هذا الحوار بين الانسان وذاته وبين الانسان مع نفسه ومع الكتاب هو الذي يؤلف العملية العقلية التي لابد أن يسفر عنها موقف ، هذا الموقف يطالب سبحانه أن يكون متوازنا وسليما ، فاستعمل كلمة تعقلون ليدلل على تفاعل وتداخل العملية العقلية مع بعضها .

ولما كانت العملية العقلية عملية مركبة بين طرفين كما أشرنا الى ذلك فأن كل طرف من هذين الطرفين هو الآخر طرف مركب من اكثر من جهة وبعد وبخاصة الطرف المركزي للعملية العقلية (وهو الانسان) فان هذا الانسان لا يمكن أن يكون (عاقلا) يتحرك بهذا الاتجاه الا عندما يكون متفاعلا مع غيره من الناس لأن حركته العقلية لاتتكون عبر حركتها داخل ذاتها محصورة معزولة عن الآخرين .. إن تكوين الانسان العقلي يتم عبر تفاعل الانسان مع أخيه الانسان فلغته ومعارفه وإدراكه يبدأ بالخروج من قوقعته الى ميدان الفعل المؤثر بتفاعله مع قوة وتكوين وتركيب الآخرين ، لذلك خاطب سبحانه وتعالى الناس ولم يخاطب الانسان بصيغة المفرد ، كما أنه خاطب المجموع ولم يخاطب الفرد منعزلا ولا مستقلا عن الآخرين ، لأن أي إنسان لوحده لا يمكن أن يتفاعل تفاعلا عقليا ، فلو بقى إنسان في جزيرة ليس فيها بشر فانه سوف لا يستطيع التكلم ولا التفاهم ولا التفكير حيث ليس هناك من جهة مقابلة يتفاعل معها ويؤدي هذا التفاعل الى خلق الاستعداد للتفكير .. إن الأيات الكريمة التي ذكرناها تنتهي كل منها بكلمة (تعقلون) وهذه تدل على الجمع مما يؤكد أن العملية العقلية لابد من مجموعة من الناس لكي تتم وتتمثل ، فقوله تعالى (لقد أنزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون) فان الخطاب في هذه الآية الى

المجموع فكلمة (إليكم) تعني الى اكثـر من واحد والحجـة الدافعـة للتفكير هي (الكتاب) كما أن في الآية تذكير بما فيه ذكر المجموع والحديث عنه ، كل هذه بتفاعل بعضها ببعض تؤدي الى قيام العملية العقلية التي طالب سبحانه وتعالى بموجبها أن (يعقلون) وتشدد عليهم وطالبهم بضرورة الوصول الى قـرار سليم فخاطبهم (أفلا تعقلون) أي عليكم أن تفكروا بالكتاب وتتذكروا ما فيه من حكمة بالغة وحديث عن انفسكم وكشف لحقيقتها فلا بد أن تنتهي حالكم الى مستقر وقرار دقيق .

إن قرار التعقل أو العملية العقلية يمر قبل صدوره في مراحل يشارك فيها إدراك الانسان ووجدانه والقضية المحفزة للتفكير والمثيرة للوجدان وقوى الارادة ودوافع الغريزة وسلطان المعارف وأثر الايمان وغيرها من الملابسات والظروف ، فيصدر الحكم فيكون حكما صائبا حينا وغير صائب حينا آخر .

ولما كانت إمكانيات الانسان العقلية مهيأة ومعدة بحيث تكون قادرة عـلى الادراك فأن عليه أن يصدر قرارا صحيحا سليما وفي حالة صدور هذا القرار بعيدا عن الصواب فلا بد من البحث في أسباب ذلك فاذا كان سبب الخطأ عدم القدرة على إدراك الصواب من الخطأ وعدم وجود الامكانية للتمييز بين الحق والباطل فأن مسؤولية ذلك تكون بشكل معين ، أما إذا كان إدراكه دقيقا وقدرته كافيـة على التمييز ويصدر قرارا خاطئا فيتحمل وزر خطئه .

إن ما يحيط بالانسان من قوى ومؤثرات كثيرة ومختلفة في قوتها وفعلها فيها ما يضره وما ينفعه ولدى الانسان القدرة على تمييز كثير من هذه المضار وتلـك المنافع ، في مرات لا يقوى على صد قوى الطبيعة والتغلب عليها وفي حالات يستطيع التغلب والسيطرة ، في الحالة الاولى عليه أن يسعى لمواجهة تلك القوى والتغلب عليها أو الابتعاد عن تأثيرها الضار ، فأن استطاع فخير والا فهو لا يحاسب عن عجزه في مقاومتها . وفي الحالات التي يستطيع التحكم بما يحيط به واختيار ما يريده وإيقاف ما يضره فعليه أن يعمل على تنفيذ ذلك .

إن الآيات القرآنية الكريمة تطالب الانسان باتخاذ قرار في ضـوء القدرة الممنوحة له عقليا وفي ضوء المؤثرات المحيطة به وإمكانيته لمعرفتها وسبر أغوارها وبعد ذلك الطلب منه التحكم فيها بعد وعيها وإيقافها على حلبة عقله ووجدانـه

لاتخاذ القرار الصائب بشأنها .

إن الله سبحانه وتعالى طالب الانسان (بالتعقل) بعد أن هيأ له أسبابه وأعد له عدته ، فكانت مطالبته عادلة ودقيقة حيث جعل طرفي وركني العملية العقلية فيه ومن حوله فكان الانسان بعقله وكان بتعقله عبر تفاعله مع إنسان آخر الى جانب الحكمة والكتاب والآية من عنده سبحانه .

وعندما طالب سبحانه الانسان بالعلم والمعرفة هيأ له أسباب ذلك فكان عقله وقدرته على الحفظ والتعلم والتحليل والتمييز القاعدة التي تبدأ منها عملية التعلم الى جانب المعلومات والاخبار والكتاب والآثار والحوادث التي تحيط به ، تتحرك نحوه ويتحرك باتجاهها .. لذلك استعمل سبحانه كلمة (تعلم) ولم يستعمل كلمة (عالم أو علم) لأن الاولى تعني مجموعة أركان وحوادث وأفعال أما الثانية (عالم وعلم) فهي دالة على المفرد .. إن معظم الآيات القرآنية المطالبة بالمعرفة والعلم جاءت بصيغة (التعلم) و (تعلمون) كما في قوله سبحانه .. (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم)[٤٨] . وقال (ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون)[٤٩] . وقال سبحانه (واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون)[٥٠] . وقال (ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم)[٥١] . وقال (يفصل الآيات لقوم يعلمون)[٥٢] .

في هذه الآيات الدلالات على العملية التعليمية الدقيقة وهي :

- أن الله سبحانه وتعالى حينما يخاطب الناس يخاطبهم بصيغة الجمع حيث أنه سبحانه يقرر أن العملية التعليمية عملية جماعية ولاتتم الا بالمجموع .

- إن أركان العملية التعليمية هي العلم والمتعلم وهذا العلم يتمثل بالكتاب والبينة والحجة والمقولة والظاهرة ، فحينما يستعمل سبحانه (ويعلمكم) ففي هذه الكلمة ... ـ علم ومعلم ومتعلم ـ المعلم هو الله والعلم هو الذي هيأه وبسطه في آية أو حجة أو كتاب والمتعلم هو الانسان وخاطب هذا الانسان بصيغة الجمع لان الانسان لوحده لا يمكن أن يتعلم .

- ونلاحظ أن الله سبحانه حينما يخاطب رسوله يخاطبه بصيغة (المفرد) تكريما

له وتميزا حيث أنه سبحانه هو الذي علمه فأحسن تعليمه ، وحتى في هذه التزكية التي ميزته بحيث جعلت تعلمه لوحده فأن هذه العملية لابد من وجود ركنها الآخر وهو العلم والمعلم ، فالكتاب هو العلم والله هو المعلم فقال (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم)[٥٣] .

وعندما طالب سبحانه الانسان بأن يستعمل الرأي ويمعن النظر طريقا للمعرفة فأن الآيات التي حملت هذا المعنى قد جاءت مؤكدة أن العملية العقلية لابد من توافر عنصريها الانسان بادراكه والقضية المنظورة وأن التفاعل بينهما يؤدي الى إحكام الرأي وتدقيق النظر والخروج بالحكم .

إن الآيات التي استعملت فيها كلمة (رأى) ، (يرى) ، (رأوا) ، (رأيت) أكثر بكثير من الآيات التي استعملت فيها كلمة علم وتعلم وعاقل وعقل ، مما يشير الى أن استعمال الرأي ومرور العملية بدءا من النظرة العابرة ، صعودا بها نظرة فاحصة واستقرارها والتدقيق في الامر المنظور وتمييزه والتفكير فيه والخروج (برأي) بشأنه هي العملية العقلية المتكاملة .

ولما كانت عملية (الرأى) عملية مركبة تبدأ بحاسة العين وتقع على الشئ المرئي وتنقل صورته الى مركز التمييز ويتأثر هذا المركز بتلك الصورة المعكوسة فيه تأثرا متباينا سخطا أو رضا ، اعجاباً واشمئزازا ، فرحا أو غضبا ، قناعة أو كفرا ، فأن هذه العمليات السريعة المتلاحقة تبين المراحل التي تمر بها العملية العقلية كما توضح الركائز التي تقوم عليها وتستند إليها هذه العملية .

إن عدد الآيات الكريمة التي استعملت كلمة (الرأي) ومشتقاتها كثيرة جدا وأن الكثرة في استعمالها تؤكد أن العملية العقلية عملية متعددة الأركان والجوانب وأن (إدراك الانسان) وعقله لا يتمثل في جهة واحدة ولا في مركز واحد ، إنما هو يتمثل بمجموعة مراكز وقوى يؤلف الانسان بحواسه وغرائزه وقلبه (العقل) الذي به يعقل الاشياء ويحيط بها ويسبر غورها .

قال تعالى (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده)[٥٤] . وقال (وإذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا)[٥٥] . وقال

(أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفانت تكون عليه وكيلا)[٥٦] . وقال (قل أرايتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به)[٥٧] . وقال تعالى (قل أرايتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة)[٥٨] .. (قل أرايتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة)[٥٩] .. (قل أرايتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض)[٦٠] .. (أفرأيتم النار التي تورون)[٦١] ، .. (ويوم نسير الجبال وترى الجبال بارزة)[٦٢] .. وقال (الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها)[٦٣]. وقال (أولم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما)[٦٤] . وقال تعالى (وأن ليس للانسان الا ما سعى وأن سعيه سوف يرى)[٦٥] .. وقال جلت قدرته (سنريهم أياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)[٦٦] . وقال (كذلك يحيي الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون)[٦٧] .

إن قراءة ثانية لهذه الأيات الكريمة التي جاءت فيها كلمة (رأى ، يرى ، أرى) تبين الأمور الأتية :

- إن عملية التعلم والتعقل والرأي تبدأ بالنظر والمشاهدة حيث تمر النظرة سريعة تثير عمليات متعددة وتؤلف صورا مختلفة وتنتهي الى محاكمة يصدر عنها حكم .. يقول سبحانه (وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق)[٦٨] .. إن الرؤية في العين والسمع في الاذن عملية متداخلة مع بعضها تؤدي الى حدوث المشاهدة الواعية التي تنتهي الى قرار معين يدفع الانسان الى واحد من اتجاهين ، مع الشئ أو ضده القناعة به أو رفضه . إن العملية العقلية تبدأ بالحس ، بالنظر ، باللمس ، وتنتهي بالادراك وأن الرأى هو حصيلة تجميع كل الحواس في مركز التمييز لاتخاذ القرار .

- إن القرار المتخذ رفضا أو قبولا هو حصيلة الرأي المتفاعل مع الادراك المتمثل داخل الانسان في كل مراكز التأثير والتفاعل فيه .

- إن طبيعة القرار تتناسب مع ما في الامر المنظور من مؤثرات ومع إدراك الانسان وطبيعية مقوماته ومداها ، وهذا الادراك هو حصيلة خبرات ومعارف الانسان وقواه الحافظة الجامعة المتفاعلة في ذاته بين خبرته ومقومات هذه

الخبرة .

- إن تدبر الايات الكريمة يظهر أن عملية الادراك وتكوين الرأي يستند الى جملة عوامل منها قدرة الانسان الادراكية ومداها ، وتشابك وتفاعل هذه القدرة مع قوة الحواس التي تنقل إليه الحالات المشهودة التي تتفاعل مع هذه الحواس ومع مدارك الانسان . وقوف عملية التفكير طويلا على كفتي الادراك والارادة وساحتي الوعي والغريزة حيث يصدر القرار عبر مواجهة بين الادراك الواعي والارادة الحازمة وبين الغريزة والهوى فيكون القرار صائبا إذا ما تغلب سلطان الادراك والوعي والارادة ويكون خاطئا إذا ما تغلبت قوى الغريزة والهوى .

مما مر يتبين أن العملية العقلية تقوم على ركيزتين أساسيتين ، على الانسان بقواه العقلية وعلى المسائل المؤثرة في هذه القوى التي يحسها ، يتفاعل معها يؤثر فيها وتؤثر فيه ، وليس لهذه العملية عضو خاص بها إنما هي عملية مركبة معقدة (تتكون من الواقع المحسوس -وإحساس الانسان -ودماغه -والمعلومات السابقة لديه .. ومالم تجتمع هذه المؤثرات الاربعة في عملية معينة لا يمكن أن يحصل فكر ولا إدراك ولا عقل)[٦٩] .

ومن قراءة الآيات الكريمة المتعلقة بالعقل والرأي والعلم ، نجد أنه سبحانه لم يستعمل كلمة عقل دلالة على عضو معين ولا مكان محدد ، كما أنه لم يستعمل كلمة رأس أو دماغ مكانا للعملية العقلية . وعندما استعمل كلمة علم وتعلم لم يعين جهة تتولى تسلم المجهول وتعلمه وتمييزه .

وفي الآيات الكثيرة التي جاءت فيها كلمة (رأى) ومشتقاتها لم يعط العين وحدها هذه المهمة إنما كانت (النظرة) للاشياء مركبة وتمر عبر مراحل متعددة .

ومما يشير الى أن العقل والفكر والعلم والرأي في القرآن عملية معقدة ومركبة من أمور كثيرة الا أن المهم في هذه المقومات أمران أساسيان هما الانسان بما يملك من إدراك وقدرة على التعقل والرأي والمادة التي يتفاعل معها أو الاثر الذي ينفعل

به ، فمن هذين المصدرين تقوم العملية العقلية .

ومما يؤكد هذين الركنين في تكوين العقل والتعقل قوله تعالى (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فاحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابـة وتصريف الـرياح والسحـاب المسخر بـين السماء والأرض لآيـات لقوم يعقلون)[٧٠] .

في هذه الأية الكريمة كل عوامل الانتباه والاثارة للتفكير ، فهي تشير الى ما ينبه الانسان ويحمله على التفكير والنظر في السماء والأرض وما فيهما من مظاهر وآثار وأفعال وحركات ، وتنبه الانسان فكانت وراء دفعه الى الامعان في آثارهـا والتدبر لامرها فنتج عن تدبيره هذا نتائج عقلية متباينة وما زال الانسان يتفاعل عقليا مع هذه الظواهر الطبيعية ويتابع مظاهرها ، إن هذه الملاحقة لما في الطبيعة من حالات وتغيرات ومظاهر كانت حوافز للانسان ودوافع له أن يتوقف طويلا يفكر فيها هو وقومه فكانت تلك آيات لقوم يعقلون .

إن رجعة الى الوراء ومتابعة لما ذكرنا عن دور العقل في الانسان في إدراك الرسالة السماوية وحملها يؤكد أن عملية التعقل هذه عند الانسان هي درجة من أعلى درجات التطور وأن الانسان استحق خلافة الله عـلى الأرض بهذه القـدرة الهائلة .

إن عقل الانسان ، هو المعجزة الكبرى في الانسان ، فاذا كان الانسان خلقة وتكوينا أعظم معجزات الله ، فأن مركز هذا الاعجاز في عقله حيث به تميز من سائر مخلوقاته وبه استطاع التمييز بين المتناقضات والتعبير عما يريد .

إن إعداداً خاصا من لدن سبحانه وتعالى وتهيئة لعوامل ومؤثرات كثيرة تعاونت وتفاعلت مع بعضها حتى صار هذا العقل ، فهو كما يقول القـاضي عبد الجبار المعتزلي (إعلم أن العقل هو عبارة عن جملة من العلوم مخصوصـة متى حصلت في المكلف صح منه النظر والاستدلال والقيام بأداء ما كلف به)[٧١] . يتبين من تعريف القاضي عبد الجبار بأن العقل عبارة عن جملة من العلوم تتوافر لدى

المكلف تمكنه من النظر والاستدلال والقيام بما كلف به فلم يعين عضوا خاصا بالعقل ولم يحدد صفة واحدة له ولم يبين مركز التفاعل بين العلوم والمكلف فيبدو أنه اعتبر المكلف (أي الانسان كله) هو مركز هذا التفاعل العقلي .

ويذهب القاضي عبد الجبار الى أن مركز هذا التعقل هو القلب فيقول [... بأن القلب«آلة في العلم ككون اللسان آلة في الكلام»](٧٢) ، ويدلل على صحة ما ذهب اليه بآية من آيات الكتاب الحكيم [«أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها»](٧٣) فقوله تعالى (فتكون لهم قلوب يعقلون بها) توضيح الى أن القلب عند المعتزلي هو مركز التعقل ، كما أن الاذن هي وسيلة السمع وإذا كان القلب هو مركز العقل فأن الدراسات الكثيرة قد توجهت نحو (الدماغ) وحملته مركزية العقل اكثر مما أعطت للقلب هذه المسؤولية ، وسواء أكان التعقل هو القلب أم الدماغ فأن كلا منهما لا يؤلف هذه المركزية إنما يشكل طرفا محدودا منها كما أن الابحاث لم تتوصل بعد الى كيفية عمل القلب أو الدماغ في عملية التعقل هذه ، ويعلق حسني زينة على قول عبد الجبار المعتزلي بشأن آلة القلب واعتباره مركزا للتعقل فيقول (القلب عند القاضي أشبه بالحافظة الالكترونية تنطبع فيه العلوم الواردة إليه فيخزن ذلك الاثر فهو إذن منفعل ولا يقوم بدور فاعل في المعرفة كاللسان في الكلام يؤيد ذلك قوله في الصفحة ـ ٢٨ ـ ولأن المعتقد وصف بذلك لانه عقد بقلبه على ما اعتقده ... القلب إنما يجب أن يكون صحيحا ليصح وجود المعرفة فيه والاغلب إن إضافته النظر الى القلب من باب الكناية عن العقل)(٧٤) .

وتذهب المعتزلة الى أن العملية العقلية هي عملية تفاعل بين العقل والمعقول ومن نتاج هذا التفاعل يبدأ الفعل العقلي .. يقول عبد الجبار المعتزلي (العاقل هو من لايجد حالة سوى كونه عالما بهذه المعلومات المخصوصة .. والذي تفارق طريقة تعرفه طريقة المجنون)(٧٥) . ويصف عبد الجبار المعتزلي العاقل بالمواصفات الآتية :

[١ ـ «يعرف ما يختص هو به من الحال نحو كونه مريدا وكارها ومعتقدا»(٧٦)

٢ ـ «عالم بالمدركات»(٧٧)

٣ ـ «يعرف البديهيات»(٧٨)

٤ ـ «يعلم بالدليل على الوجه الذي يدل»(٧٩)

٥ ـ «يعلم الفعل على وجه يصح الاقدام عليه والتحرز منه ولكن هذا لا يعني أنه يختار الطاعة دون المعصية»(٨٠)

٦ - «يفعل الفعل لداع بخلاف» - الساهي والنائم اللذين يقدمان على مقدورهما من غير داع[٨١] .

٧ - «يعلم بأحوال الفعل كالعلم بقبح القبيح وحسن الحسن على جهة الجملة»[٨٢]][٨٣] .

إن هذه المواصفات السبعة التي يتصف بها العاقل هي مواصفات تنتج عن العملية العقلية وهذه العملية كما ذكرنا مرارا عملية مركبة فهي تتمثل في الانسان في مجال عقله وإدراكه مع ما يثير ويحفز هذا الادراك .

إن الصفات المشار إليها في الفقرات ١ ، ٢ ، ٦ تعني أن العقل يحتوي على الوعي أو الشعور والصفات في ٣ ، ٤ تعني القدرة على الادراك فطريا أو بالدليل وأن حاصل تكوين هذه الخصائص أن الانسان العاقل يعمل بصورة يختلف عن الانسان غير العاقل سواء أكان مجنونا أم لم يكتمل بعد عقله كأن يكون طفلا[٨٤] .

أما المعقول الذي يؤلف نصف العملية العقلية فهو ما يثير العقل ويتفاعل معه ويؤلف وإياه حالة التعقل .. ويتكون هذا المعقول من (جملة العلوم المخصوصة) ذات العلاقة الضرورية بالنظر والاستدلال[٨٥] .

وهذه العلوم والمؤثرات تأخذ بعدها في التأثير والفعل عند تفاعلها مع عقل الانسان وحينما يعمل بها ويستدل على كشف ماهيتها وما يتصل بها فأن هذا الاستدلال والكشف يؤلف الحالة العقلية لدى الانسان العاقل .

إن المؤثرات (المعقول) هي التي تصنع الانسان العاقل ، فالعقل هو الذي يحيط الانسان ويقيده ويمنعه من الزلل والخطأ ، ولما كان العقل مأخوذاً من [(عقل الناقة) المانع لها عما تشتهي والمقتضي لثباتها][٨٦] . فأن العقل والفهم هو المقيد للانسان والمانع له من الزلل والطيش .. يقول الحارث المحاسبي [والعرب إنما سمت الفهم عقلا لأن ما فهمته فقد قيدته بعقلك وضبطه كما البعير قد عقل ، أي أنك قد قيدت ساقه الى فخذه ، وقالوا اعتقل لسان فلان أي استمسك][٨٧] .

ومن تفاعل العقل مع المعقول يصل الانسان الى اكتساب المعارف والعلوم

والقدرة على توظيفها في معرفة ما يحيط به والاستعانة بها كدليل عمل في حياته فهناك حالة تفاعلية متكاملة بين قطبي التعقل ، وفي هذا يقول عبد الجبار المعتزلي (والاصل في ذلك أن الغرض بالعقل ليس هو نفسه وإنما يراد أن يتوصل به الى اكتساب العلوم ، والقيام بما كلف من الافعال ، فلابد من أن يحصل للعاقل من العلوم ما يصح معها أن يكتسب ما يلزمه من المعارف ويؤدي ما وجب عليه من الافعال ، وما تسلم معه هذه العلوم وما يكون أصلا لهذه العلوم ويجري مجراه في الجلاء ، لان العلوم يتعلق بعضها ببعض لخلال ، منها ان الطريق الواحد قد يجمعها فمتى جمع العلوم الطريق الواحد ولم يحصل العلم ببعضها لم يسلم العلم بسائرها . ومنها أن بعضها قد يترتب على بعض ويكون أصلا له حتى لا يصح حصول الفرع الا مع الاصل . ومنها أن الخفي معه يجري مجرى الفرع على الجلي وإن لم يكن فرعا عليه في الحقيقة ، لأنه لو لم يخطر بباله كثير من الامور الجلية لم يمتنع الا يحصل له العلم بالخفي][٨٨] .

إن هذا النص المتعلق (بالمعقول) وكيف يتفاعل مع العقل يبين أن هذا المعقول يكتسب معقوليته بالعقل نفسه فهو الذي يصدر هذه الصفة :

- كما أن هذه المعقولات المتفاعلة مع العقل يتوصل الانسان منها الى اكتساب علوم ومعارف محددة ، وهذه المعارف تزيد من عقل الانسان وتوسع من مداركه .

- كما أن هذه العلوم تزداد من خلال تفاعلها مع العلوم الاخرى السابقة لها والناتجة عنها .

إن التفاعل الدائم بين العقل والمعقول يؤدي الى تكامل العقل وتمكينه من القيام بمهماته والتميز بميزات خاصة به وهذه الميزة تمثل قدرته على تحويل العناصر بما يتناسب ومقتضيات العقل وهذا ما يحدث في الاستقراء او الاستنباط حيث تدخل الافعال المعرفية في عمليات معينة فينجم عنها افعال معرفية أخرى .. إن التحويلات التي تتم داخل هذه البنية وبحسب قوانينها لا تفضي الى خارجها فالنظر يولد العلم أو شيئا من حيز المعرفة ولا يولد الجهل أو ما هو من حيز الجهل وبذلك يكون الكل ذاتي التنظيم)[٨٩] .

إن أعظم هذه المعقولات المؤثرة في الانسان المتفاعلة معه هي القوى المحيطة به والمؤثرة فيه وتلك النزعات والدوافع القائمة في داخله تتحرك دافعة إياه للقيام بأعمال وتصرفات لا يقوى على ردها .

إن الانسان العاقل بدأ يناقش المؤثرات الضاغطة عليه الواقعة بالقرب منه المتجهة صوبه والمتحرك نحوها وهو لا يستطيع منع نفسه من التقدم صوبها ، ابتدأ هذا النقاش في الحضارة الاسلامية في مسألة القدر فكان البحث فيه (من أوائل الموضوعات المثارة) فكان السؤال (هل قدر الانسان من فعله وابتداعه أم أنه قدر محتوم ؟! ... ... قالت القدرية بالقدرة والاستطاعة ، ونفتهما الجبرية وكان القرآن الكريم يحتوي على آيات تحتمل تفسيرا أو تأويلا قدريا مثل قـوله (إنـا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا)[٩٠] . وقوله (قل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)[٩١] . وهناك آيات تسوغ الجبر ومنها (وكذلك يظل الله من يشاء ويهدي من يشاء)[٩٢] . وقوله تعالى (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا)[٩٣] .

إن التفكير في مثل هذه الايات التي تحمل مجالات للحكم بالجبر والاختيار كان البداية لدخول العقل مرحلة النزاع الفكري والامعان الفلسفي في المرحلـة الاسلامية حيث ابتدأت (العقلانية في الحضارة الاسلامية)[٩٤] .

لقد اشعلت قضية (الجبر والاختيار) الفكر الاسلامي وأسهمت المعتـزلة بدور كبير في تثبيت العقل كما أسهم الا شاعرة والفلاسفة والزيدية والاثنا عشرية اسهامات في هذا الميدان وكانت مسألة التوحيد من اكبر المسائل التي اشغلت فكر المسلمين وبخاصة المعتزلة ودفعتهم الى الكتابة والتأليف في هذا الميدان ، وقـد أبدعوا في هذا الحقل إبداعات كبيرة فجاءت دراساتهم ومؤلفاتهم نتاجا فكـريا رائعا ، ومما جاء في كتاباتهم دفاعا عن مبدأ التوحيد قولهم (إن الله قديم والقدم أخص صفاته وهو عالم بذاته قادر بذاته حي بذاته لا بعلم وقدرة وحياة هي صفات قديمة ومعان قائمة لأنه لو شاركته الصفات في القدم الذي هو أخص وصف له لشاركته في الالوهية)[٩٥] .

وفي ميدان الرد على المشبهة والمجسمة التي أعطت لله صفات توحي بزعزعة مبدأ الوحدانية وتمزقه فقالوا ، إن الله سبحانه وتعالى (ليس بجسم ولا عرض ولا

عنصر ولا جزء ولا جوهر بل الخالق للجسم والعرض والعنصر والجوهر وأنه الخالق للاشياء المبدع لها وانه القديم وأن ما سواه محدث)[٩٦] .

مثل هذا النقاش وإبداع هذه الاجابات لم تكن نتيجة وقفة عابرة ولا نظرة متسرعة إنما هي نتاج نظر عميق وممارسة طويلة واستعمال للعقل ومعاناة مع المعقول حتى كانت هذه الآراء الناضجة . والامر ذاته في مسألة العدالـة ، وأن سبحانه لا يظلم وهذه تدفع للوقوف أمام الجبر والاختيار وقفة طويلة فأن القول بالجبر والاخذ بالآيات الدالة عليه أن الله يدفع الى الخطأ والجور ويحاسب على ذلك فاعله ، فردت المعتزلة بأن في ذلك ظلم والظلم ليس من صفاته تعالى ، وقد عملت المعتزلة للدفاع عن مبدأ العدل والتأكيد على أن الله عادل عن طريق تثبيت حرية الانسان وأنه مختار فيما يعمل ويقول فكتب الحسن البصري الى عبد الملك بن مروان رسالة يفند فيها نسبة الظلم والجور الى الله جاء فيهـا [... ليس الجور والظلم من قضاء الله ولكن قضاءه أمره بالمعروف والعدل والاحسان وايتاء ذي القربى][٩٧] . ويتبين من هذه الرسـالة أن القـدرية عـولت على العقـل في تفنيد الجبرية .

وتفلسف المعتزلة مبدأ العدل وتنزه الله عن الظلم فتقول إنه سبحانه (لم يأمر الا بما أراد ولم ينه إلا عما كره وأنه ولى كل حسنة أمر بها ، برئ من كل سيئة نهى عنها)[٩٨] .

وكافحت المعتزلة مبدأ الجبر وأكدت عدالته سبحانه [ر - فسرت المعتزلة هذه القضية تفسيرا يبقى على حرية الانسان ، وقد وجدت في تفسير الامام علي عليه السلام للقضاء والقدر أساسا لتوضيح هذه الفكرة وتأكيدا لمبدأ العدل ... فقد أجاب الامام علي مفسرا معنى القضاء والقدر قائلا (إن الله أمر عبادة تخيرا ونهاهم تحذيرا وكلف يسيرا وأعطى على القليل كثيرا ولم يضع مكرها) وأجاب الامام علي مؤكدا حرية الانسان في عمله (... ولعلك تظن قضاء واجبا وقدرا حتما ولو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد ولما كانت تأتي من الله لائمة لمذنب ولا محمدة لمحسن ... إن الله تعالى أمر تخيرا ونهى تحذيرا ولم يكلف جبرا][٩٩] .

إن هذا الفيض من الابداع حول القدر وحول وحدانية الله وعدالته كان نتاج التفاعل بين الانسان المسلم والمفكر الاسلامي الذي كان القرآن يحمله ، وكان التفاعل بين عقل الانسان وكتابه سبحانه وراء تكوين العقل الاسلامي الذي أبدع الحضارة العربية الاسلامية إبداعا رائعا وما زالت آثار ذلكم الابداع حية مشرقة ، وما زال أيضا هذا المعين الدفاق يرفد العقل الانساني بزاد العلم والوعي ويثير فيه مكامن القوة والابداع فعندما يبدأ هذا الانسان بأسقاط ما علق في فكره من زوائد وشوائب من خلال رجوعه الى النبع المتمثل في آيات القرآن المحكمة فأن هذا العقل سيعود مشرقا مرة أخرى .

إن عقل الانسان هو الذي يتفاعل مع رسالة السماء ، ولما كانت هذه الرسالة من عنده تعالى فهي على درجة عالية من الاعجاز والاتقان ، ولما كان الانسان هو المكلف بحملها والاهتداء بها وأن هذا الحمل يقع عندما يتفاعل عقله معها ويدركها فأن إدراكه لما وضعه الله فيه وفيها لا يكون الا وهذا العقل على درجة من الاعجاز بذات المستوى الذي عليه إعجازه في كتابه ، ومن هنا كان القول بأن العقل الانساني أعلى درجات الاعجاز الالهي .

٤ - الانسان خليفة الله في الارض :

الله سبحانه خالق كل شئ ، الانسان أفضل خلقه ، خلقة ومكانة وهذا التفضيل كان بعقله وجسده حيث أن تركيبه وقدراته في الوعي والادراك والتعبير عن ذلك أعمق وأوسع وأدق من سائر المخلوقات .

الانسان وحدة نوعية متكافئة ، وقد فصلنا القول في ذلك وهو معجزة الله العظمى ، وأن عقله مركز هذا الاعجاز وأنه كان وسيله الله في التعبير عن ذاته سبحانه والدليل الناطق لوجوده فكانت النبوة فيه وكان الغاية من إرسال رسالات السماء فهو وسيلة هذه الرسالة وهو الغاية منها .

بهذا التكوين والاعتبارات صيره الله خليفته في الارض حيث شاءت حكمته تعالى أن يحمل الانسان أمانة رسالاته وخلافته في الارض (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الارض خليفة قالوا إتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن

نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون)[١٠٠] .

إن اعتراض الملائكة على خلافة الانسان صدرت تعبيرا عن إدراك الله سبحانه وتعالى لحقيقة الانسان وماهيته وطبيعته ، تلك الطبيعة المختلفة عن طبيعة الملائكة والتي أشرنا إليها في الصفحات السابقة والتي بينا فيها أن الانسان خلق من تراب وأن هذا التراب مزج بالماء فصار طينا لازبا وأنه سبحانه خلق التراب والماء وجعل منه كل شئ حي . إن بث الحياة في الماء والتراب وجعل الماء مصدرا لكل حي كان من عند الله وأن تحويل هذا الماء الممزوج بالتراب الى حالة يصدر عنها نطفة ومن ثم علقة ومن بعد مضغة فأن ذلك التغيير يكون بأمره وقدرته وإرادته عندما ينفخ فيه فيبث الحركة والحيوية ويجعله حيا متحركا .

إن طبيعة الانسان هذه وسائر الاحياء الأخرى من حيوانات ونباتات ، طبيعة واحدة كانت من التراب والماء ونفخ فيهما سبحانه من روحه (فقعوا له ساجدين) ، لأنه (هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة) .. كان ذلك بالنسبة الى الانسان الاول كما هو بالنسبة الى انساننا اليوم (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب) .

إن هذا التكوين المؤلف من مادتي التراب والماء والذي اكتسب حالة الحياة بأمره تعالى فأن كل كائن حي يتألف من ركنين أساسيين من المادة والروح ، الروح من عنده تعالى والمادة ـ التراب والماء ـ من لدنه سبحانه ، هذه الازدواجية في التركيب هي أساس الحياة والتغير في الأحياء في حين أن الملائكة تتكون من نار أو نور وهذه النار أو النور ذات بعد واحد فهي في حالة أحادية الجانب والصفات لا تتغير الى حالتين ولا تتحول الى صورتين متناقضتين ، وهذا البعد الواحد يبقى على طبيعتها الاحادية فهي نور دائم أو حرارة دائمة خير مطلق وهذا المطلق من صفات الملائكة والملائكة بصفاتها هذه تختلف إختلافا أساسيا عن الانسان .

إن حياة الانسان في الثنائية القائمة فيه وفي الثنائية المحيطة به ، المؤثرة فيه والمؤثر فيها ، هذا التأثير داخل الذات البشرية والتأثر مع المحيط بسبب ثنائية التركيب في الانسان وثنائية تركيب الظواهر والمؤثرات المحيطة به ، وعندما تسقط وتنتهي هذه الثنائية في الانسان وفي البيئة المحيطة به تصبح الارض غير الارض

والانســان غير الانســان والحياة التي عليهــا تختلف عن الحيـاة التي عـرفهــا الانسان .

إن سقوط الثنائية يعني نهاية عالم الاحياء وقيام عالم الملائكة ذي البعد الواحد وهذه الحياة ليست حياة الارض إنما هي حياة الآخرة أو حياة كوكب ثان تسكنه الملائكة وليس البشر .

إن اعتراض الملائكة هو تعبير عن قرار الله سبحانه وتعالى وتفسير لاسباب اختياره الانسان خليفة له في الارض ولم يختر الملائكة ، إن حياة الملائكة ومواقفها وعلاقتها بالله سبحانه ، علاقة مباشرة ، علاقة السبب بالنتيجة وأن خلق الملائكة وفعلها وحركتها من عند الله فهي تتحرك بأمره ولا تستطيع الخروج على إرادته فأن عملت خيرا فبأمره تعالى وإن اراد لها أن تعمل شرا تعمله فيمسخها الى شيطان ، وفي الحالتين النافعة والضارة فأنها محمولة على عملهـا ذاك وغير مسؤولـة عن نتائجه وما يترتب عليه ، مثل هذه الحياة ، حياة لا فرق بينها وبين حقيقـة الله الخاصة به والمتعلقة بملائكته ، وهذه الملائكة لا تؤلف قوة أو مـوقفا يتمكن من أتخاذ مَوقفين متناقضين ، وأن عدم قدرة الملائكة على ذلك كان من عنـده حيث خلقها من طبيعة أحادية فلا يمكنها أن تمثل دور الخليفة ولا دور المعبر عن الله وحقيقته .

إن الصورة المظلمة التي أشارت اليها الملائكة من أن الانسان الخليفة هذا سيفسد الارض ويسفك الدماء هي الصورة التي رآها سبحانه وتعالى في الانسان وهو سيتولى خلافته في الارض لان هذه الخلافة (هي مسؤولية خـاصة ألقـاها سبحانه وتعالى من عنده وطلب من الانسان حملها وأنه سبحانه أعده إعداد خاصا ليكون قادرا على تحمل أعباء هذه الخلافة . وأن حمل مسؤولية الخلافة ستتولد عنه مشكلات ومجابهات وتناقضات عنيفة وستكون خلافته موزعة الى نوعين من النتائج الاول نتائج إيجابية مثمرة نافعة مفرحة وأخرى سلبية مشحونة بالأسى والفجيعة والفساد وسفك الدماء .

إن حياة الانسان على الارض هي صراع بينه وبين محيطه ، هذا الصراع يبدأ منذ اللحظة الاولى التي تبدأ فيهـا نطفة الحيـاة وتستمر حتى تمـوت هذه

النطفة ، وعندما تحولت النطفة الى نبات وحيوان وإنسان ووصل الانسان الى درجة الادراك والتمييز والتعبير فانه استحق بهذه المواصفات خلافة الارض ومسؤولية إدارتها إذ لابد من مواجهة التحديات والصعوبات التي تتقدم إليه تريد إفتراسه والقضاء عليه ، كما أن خلافته تتطلب حركة منه صوب الطبيعة وما فيها لينال منها أسباب حياته وبقائـه ، حالـة الجوع التي يحسهـا الانسان فيتحـرك في سبيل الحصول على شئ يسد به رمقه فأن هذه الحركة تكون على حساب قوى وتحديات كثيرة يتصاعد عبرها نزاع يبذل الانسان فيه كثيرا من قواه وعرقه وقد يسفك دمه في سبيل الحصول على أسباب العيش وكذا الامر بالنسبة الى الماء فحينما يعطش لابد من حركة صوب ما يطفئ ظمأه ، وعندما يواجه الانسان حيوانا مفترسا أو ظاهرة طبيعية عنيفة فلا بد من دفع أذاها والابتعاد عن شرها وقد يضطـر الى خوض معارك دامية قد ينتصر فيها الانسان وقد يخسر ، هذه المعركة في سبيـل الحياة البدائية تطلبت جهادا ثقيلا حتى تمكن الانسان من مواصلة حياته على الارض وحينما زحفت أسباب الموت وحوادثه على الانسان فأنه وقف طويلا يصد غائلته ويبحث عن أسباب القوة فيه ويسعى الى إيجاد وسيلة يحمي بها نفسه منه ، هذا الفعل الدائب وتلك التحديات المستمرة نتجت عنها نتائج كثيرة كان أولهـا حصوله على أسباب العيش ومواصلته كما أن خسائر كثيرة سقطت إبان المعركة للحصول على هذه الاسباب .

إن الله سبحانه وتعالى يعلم ما ستكون عليه خلافة الانسان في الارض وأن علمه هذا مستند الى أنه خلق الانسان على هذه الشاكلـة التي تتطلب مجابهـة وتستلزم معركة وأن هذه المعركة هي التي ستفرز نتائج متباينة نافعة أو ضارة ، وأنه سلم الانسان خلافة الارض لاهليته وتكوينه المتناسب مع هذه المهمة ، هذا التكوين هو تركيبه من نقيضين متعارضين وكونه في حالة تناقض دائمة وأن قانون التناقض هو الذي يحكم العلاقة بين الانســان وخالقـه ، بين الانســان والبيئة المحيطة به ، بين الانسان وذاته حيث هناك إنقسام تام في كل حجيرة حية وفي كل ظاهرة حياتية داخل الانسان وخارجه وأن هذا التوزيع الثنائي هو الذي تميزت به الاحياء وبخاصة الانسان فاستحق حمل الامانة . فلو بقيت الملائكة في السموات ولو أنها هبطت الى الارض أو الى أي من الكواكب والنجوم فأنها لا تحدث جلبة ولا تثير فتنة ولا معركة ولا يتساقط عنها دم ولا ينشر عبرها فساد فأن مثل هذه الحياة هي حياة خاصة بين الله وملائكته لا يمكن لها أن تعبر عن شئ وإن عبرت فأنها تعبر

لذاتها وهذه الذات داخلة في ذات الله ولا تقوى الملائكة على الظهور بحالتين متنافرتين تنبه الواحدة الاخرى وتثير معركة فيما بينهما ، عدم القدرة على ذلك يبقى حياة الملائكة في أتجاه واحد وهذا مما لا يتناسب والغاية من خلق الله للكون وما فيه ، إذ أنه سبحانه ذكر في محكم كتابه عن حكمته في خلق الكون وما فيه فكانت حكمته أنه خلق الانس والجن ليعبدوه حيث قال (وما خلقت الانس والجن الا ليعبدون) وهذه العبادة لكي تكون عبادة فلا بد من وجود شيئين الاول معبود والثاني عابد ولا بد أن تكون طبيعة هذين الشيئين طبيعة مختلفة لكي يطيع ويعبد الاقل الاعلى والاضعف الاقوى والمخلوق الخالق ، وهذه الحالة لا تكون عندما تقع المقارنة بين الملائكة والله حيث أن هذه الملائكة من بعد واحد هو من عند الله .

كما أن العبادة تتطلب إدراكا ومعرفة من العابد للمعبود إذ لا قيمة لعبادة لا تقوم على المعرفة وعلى الايمان بضرورة قيام هذه العبادة ، إن الادراك هو الذي تأتي المعرفة عن طريقه وأن هذا الادراك والمعرفة الناجمة عنه هي التي تولد الايمان ، وهذا الايمان هو الذي يعطي العبادة حقيقتها وبعدها ، والانسان هو المخلوق الذي يمتلك قوة إدراكية قادرة على التمييز وعلى معرفة ما يفيد وما يضر وما يجب التمسك به وما يجوز عدم التمسك به . إذ لا قيمة لايمان لا يستند على معرفة ، هذه الصفات الادراك ، التمييز ، المعرفة ، التعبير عن هذه المعرفة خاصة بالانسان ولذلك استحق الخلافة في الارض ، إن الملائكة لا تملك هذه المقومات وإن امتلكتها فهي تمتلكها بأمر من عند الله وبدرجة عالية من الادراك تكون على ذات الدرجة التي عليها الله سبحانه أو أقل من ذلك بقليل بحسب مشيئته وانه سبحانه يعطيها القدرة على ترك المعاصي بحيث تظل سابحة في بحر الامان والرفاه والسعادة ولا تقدم على عمل خاطئ فهي في طاعة مطلقة لا تملك القدرة على المخالفة ، وإن امتلكتها فبأمر من عند الله ، كما أن قدرتها العالية من عنده سبحانه بحيث تحصنها من الزلل والخطأ فلا تستحق على فعلها ثوابا .

إن الخلافة على الارض مسؤولية في تحمل أعباء ما في النفس من نزعات ودوافع للخير وأخرى للشر ، كما أن في الانسان قدرات تستطيع أن تميز ما يضرها وينفعها وما يثور في داخلها من دوافع وتدرك ما يسقط عليها من مؤثرات ، كما أن فيها من حوافز ومؤثرات تجرها الى فعل الشر والاقدام على الاذى ، كل ذلك جعل لاعمال الانسان ثوابا وعقابا ، هذا الثواب والعقاب حاصل لان الانسان بهذا

التكوين والتركيب العقلي الوجداني و الجسمي الموزع الى قسمين أساسيين ، قسم يدرك ويدعو للخير ويستوعب ما يحيط به ويميز الصالح منه والطالح وفيه ما يدفعه الى ارتكاب الاثم والشر كما فيه ما يحمله على القيام بالحسنة والفضل ، هذا التوزيع والانقسام في التركيب وفي المؤثرات هو الذي استحق بموجبه الانسان خلافة الله في الارض وأنه سبحانه وتعالى كان يعلم بأن هذه الخلافة ستكون طافحة بالشر كما هي طافحة بالخير حيث لا خير دون شر ولا شر وفساد وظلام دون خير وصلاح ونور .

إن حياة الانسان على هذه الارض إذن كانت صراعا بين الانسان في ذاته ، بين دوافع الخير ونوازع الشر ، بين عقله ونفسه ، بين إرادته وغريزته ، بين حالة الحياة والحيوية وحالات الموت والسكون ، إنها حياة صاخبة متأججة وهناك صراع آخر بين الانسان ومحيطه وهذا الصراع من أجل الحياة والبقاء فهو صراع بين الحياة والموت ، صراع بين قوى الشر والخير ، بين كل القوى الظالمة والقوى الخيرة المحيطة بالانسان والتي تتحرك صوبه تفيده أو تضره .

إن حياة الانسان وديمومتها في النزاع بين الانسان وما يحيط به ، وأن هذا النزاع يتطلب جهدا وبذلا وتتساقط على جنبيه دماء وينتشر عبر معركته فساد وخراب وظلام وظلم ، كما ينتشر من نتيجة خير وبناء وعدل وتقدم . إن الحرب بين الانسان وذاته ، بين الانسان وواقعه كانت وما زالت وسوف تبقى وأن هذه الحرب هي وراء حركة الانسان ومسوغ خلافته .

إن حياة الانسان والأحياء في التعارض والتناقض بين طرفين متناقضين حيث لا حياة للأحياء الا بهذا التناقض ، وعندما تصير حياة الانسان والاحياء من حوله ذات بعد واحد كأن تكون كلها حياة خير ورفاه واستقرار تصبح حياة لغير الانسان ، حياة تشبه حياة الملائكة ، وهذه ليست حياة في المنظور الواقعي وليست خاضعة للفرز والحكم والتمييز .

حياة الانسان حركة بين نقيضين ، وصراع بين حالتين ، وصراع بين الحركة والجمود ، بين العقل والغريزة ... بين الوعي والجهل ... بين الارادة والاستسلام ... بين الروح والجسد ... بين الحق والباطل ... بين الحرية

والعبودية ... بين الوحدانية والشرك ... بين العدالة والظلم ...

إن مبدأ التناقض قانون الحياة الدائم وأن صـافي هذه التنـاقضات هـو التناقض الرئيس بين الحياةوالموت ، بين الحركة والسكون ، بين الخير والشر ، هذه المعركة مركزها الانسان وساحتها عقله ووجدانه وأدواتها كل ما عند الانسان من حواس وجوارح وما ينطوي عليه من نوازع ودوافع .

الانسان والأحياء تعيش بين قطبين متنافرين متناقضين ، والانسان بكل تكوينه ميدان هذا التناقض ، في البدء كان التناقض بين الحياة والموت ، فقد أصدر سبحانه الحياة من الموت وجعل الموت نقيضا للحياة . وبقى هذا التناقض قائما وسوف يبقى ما دام الانسان والأحياء على هذه الأرض ، وعندما يريد سبحانه وتعالى نهاية هذا العالم والبدء في عالم الآخرة سيتوقف قانون التناقض هذا وتبدأ الحياة على قانون آخر يعينه سبحانه كما يشاء ويريد .

إن الأحياء لا تحس بما هو قائم فيها وما يحيطها من تناقض وإن هي أحست فبحدود ضيّقة ، كما أنها لا تستطيع التعبير عن هذا التناقض وأن الانسان هو المخلوق الوحيـد القادر عـلى إدراكه وتمييـزه ولهذا استحق لقب خليفـة الله في الارض .

لقد خاطب الله سبحانه وتعالى الانسان بعدد من الأيات الكريمة وأكد من خلالها على قانون التناقض هذا الذي بموجبه حمله مسؤولية هذه الأرض ، ومن هذه الآيات التي تحمل معنى التناقض وتؤكد على وجوده قانونا دائما قوله (يخرج الحي من الميت ويخـرج الميت من الحي ويحي الأرض بعـد مـوتهـا وكـذلـك تخـرجون)[١٠١] . وقـال .. (أو لم يروا الى الأرض كم أنبتنـا فيها من كـل زوج كـريم)[١٠٢] ... وقال (سبحـان الذي خلق الأزواج كلهـا مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون)[١٠٣] ... وقال (خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الانعام ثمانية ازواج يخلقكم من بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا اله الا هو فأنى تصرفـون)[١٠٤] ... وقال (والذي خلق الازواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون)[١٠٥] ... وقال سبحانه موضحا حالة الأذى والشر في داخل الانسان بقوله (ومن يعش عن ذكر

الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين)[١٠٦] ... وقال (ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون)[١٠٧] ... وقال (وأنه خلق الزوجين الذكر والانثى)[١٠٨] .

هذه الايات وعشرات غيرها تبين حالة التناقض والصراع القائمة في الاحياء وفي البيئة ، إلا أن المخاطب من أجل الانتباه الى هذا التناقض هو الانسان فنجد أن الخطاب كان موجها إليه وحده وليس لمخلوق آخر مما يوضح أن الله سبحانه وتعالى هيأ الانسان وأعده ليكون قادرا على التمييز والحكم على الاشياء ، وتشير الآيات التي حملت قانون التناقض هذا الى أن الصراع والتعارض قائم في داخل الانسان كما هو متمثل خارجه وأن الانسان هو الذي يحكم على ظاهرة التناقض سواء أكانت في داخله أم في خارجه .

إن التعبير عن ظاهرة التناقض أريد به التأكيد على أن الحياة الدنيا بهذا التناقض ، بهذه الثنائية وأن إدراك الانسان لها وقيامه وديمومته بموجب صراعها فيه وتمثيل قانونها فيه ومن حوله فكان الانسان وسيلة هذا الصراع وعلامة وجوده والمميز له ، فأنه بذلك استحق خلافة الله في الأرض .

إن التناقض القائم على الارض في مظاهرها المختلفة ، في الاحياء ، في النباتات والانسان ، فأنه الوحيد القادر على التعبير عن هذه الظاهرة و وصفها بصفاتها المعروفة ، ولولاه لظلت هذه الظواهر المتناقضة غير قادرة على إدراك ما فيها ولا تقوى على التعبير عن شئ يقوم فيها وعن أشياء تحيطها . إن الانسان هو الذي أعطى لقانون الحياة صفاته ومميزاته والحكم لها أو عليها ، ومن هنا كانت خلافته .

إن المعركة بين النقيضين دائمة في الانسان وفي خارجه ، في الاحياء كافة وفي الظواهر الطبيعية المختلفة وأن اختلاف وصراع الظواهر المحيطة بالانسان يسحب الانسان آثارها عليه كما أنه يرفض ويدفع ما يراه ضارا منها ويبقى ما هو نافع فيها في معركة مستمرة ، إن الانسان يدرك أبعاد هذا الصراع القائم في داخله والمحيط به ويعرف عوامله والقوى المحركة له وأنه ميدان هذا الصراع وساحته الرئيسية . يتحرك الانسان في وجه القوى الزاحفة إليه فيصد أضرارها ينجح تارة ويخسر أخرى وفي الحالتين المعركة بينه وبين محيطه مشتعلة .

كما أن معركة الانسان في داخله حية باقية بين نوازع الشر ودوافع الخير وأن حركة الانسان صوب هذه الجهة أو تلك هي نتيجة لهذا الصراع الداخلي مع الصراع الخارجي ، هناك علاقة جدلية بين طرفي الصراع داخل الانسان وبين الانسان والمؤثرات المحيطة به . إن التناقض الداخلي قائم متحرك بين قطبيه وقائم متفاعل مع التناقض الخارجي في عملية جدلية دائمة ، والانسان هو المخلوق الوحيد الذي يدرك هذا التناقض وآثاره وهو الذي يصمم على فتح المعركة بين النقيضين في ذاته ومع النقيض الآخر في خارجه ، وهو الذي يجني ثمار هذه المعركة كما أنه هو الذي يقدم الخسائر فيها .

إن تكوين الانسان هذا جاء بمشيئة الله وقدرته لكي يعبر عن حقيقة الله ويدل عليها ويتحدث عنها ويؤمن بها فلولا الانسان لما استطاعت الارض والسماء بما فيها من أحياء وظواهر مختلفة التعبير بكلمة واحدة عن الله ووحدانيته وقدرته .

إن حكمة الله في خلق الانسان على هذه الصورة كان من أجل أن يكون الانسان شاهدا ودليلا على قدرته وعظمته سبحانه . وهذه القدرة لا يمكنها أن تعبر عما عبرت عنه الا بتكوينها وخلقها على الصورة التي عليها الانسان . إن سائر الاحياء وكل الكواكب والظواهر لا تستطيع أن تعبر عن هذه القدرة ، ولهذا كان الانسان على صورة وإعداد وتشكيلة كما هي عليه وأن أبرز مقومات هذا التكوين وأهم خصائصه التي أهلته ليتولى خلافة الارض هي حالة التناقض القائمة في داخله وقدرته على إدراك هذا التناقض والتعبير عنه بعمل أو قول ، فعندما حدد سبحانه وتعالى الغاية من خلق الجن والانس لعبادته حيث (وما خلقت الانس والجن الا ليعبدون) فأن هذه العبادة للانس خاصة لا تكون الا حينما يكون الانسان قادرا على إدراك معنى العبادة وضرورتها ، ولما كانت العبادة هي أمر بأطاعة الله والايمان به إلها واحدا وبأوامره وتعليماته فأن هذا الادراك لذات الله ولتعاليمه هو الاساس في عملية الطاعة والعبادة وأن عبادة من دون إدراك هي عبادة ساذجة لا ثواب عليها ولا عقوبة على تاركها ولا تقع هذه العبادة وتؤدي ضرورتها ومهمتها ما لم يكن الانسان على حالتين متناقضتين ، حالة تدرك معنى الامر والطاعة وتدعو الى تنفيذ ذلك وحالة تدرك أن هذا الامر ليس ضرورة وتدعو الى عدم تنفيذه ، هذا الموقف المتعارض يكون نتيجة لتكوين الانسان المتناقض فهو مدرك للخير والواجب ويحمل دوافع لتنفيذه وهو في ذات الوقت يدرك عدم أهمية

هذا الواجب ويصر على رفضه وعدم تنفيذه ، وأن صراعا يحتدم بين الموقفين وأن نجاح أي منها يجعل الانسان في الموقف الذي أنجر إليه سـواء أكان طـاعة أم مخالفة وعلى موقفه هذا يكون العقاب أو يكون الثواب .

إن العبادة إن لم تكن مثيرة للجدل بين القبول والرفض لا تعد عبادة عقلانية إنسانية ، إن العبادة إطاعة لامر ، فان استجاب فلـه أجره وإلا فعليـه عقوبـة مخالفته فلا بد أن يكون للانسان القدرة والحرية على أتخاذ القرار إما استجابة وتنفيذا لامره تعالى أو رفضا وعنادا له ، وإذا لم تكن هذه الحرية قائمة وأن أعمال الانسان تكون مفروضة عليه وأنه لا يستطيع اختيار الا واحدا من أمرين إمـا الطاعة وإما المخالفة وأن قراره هذا مفروض عليه فلا قيمة لهذه العبادة ولا أثر للمخالفة .

إن الله سبحـانه وتعـالى قادر عـلى أن يجعـل الانس والجن والنبـاتـات والحيوانات والظواهر الطبيعية تعبده بل هناك آيات تشير الى أن كل هذه الاحياء والمظاهر تعبده الا أن عبادة كل هذه المخلوقات والظواهر عدا الانسان قائمة على الفرض والالزام ، على الطاعة وعدم القدرة على المخـالفة ، فهي عبـادة وطاعـة واعتراف صادر عن إرادة مرتبطة بأرادة الله وحكمته حيث لا تقـوى كل هـذه الاصناف والمخلوقات على المخالفة فهي عبادة نابعة من بعد واحد ومن جهات لا تملك القدرة على الاختيار والتمييز بين الطاعة والمخـالفة فهي عبـادة مستسلمة أجرها على الله وثوابها منه وإليه .

إن العبادة الفعلية الدالة على الطاعة الحقيقية هي عبادة الانسان القائمة على الادراك والتمييز والارادة في القبول والرفض ، وبهذا التوزيع كان الانسان في عبادته معبرا عن إقراره بوجود الله ووحدانيته وقدرته ، وهذه هي الحكمة من خلقه والطلب منه ليعبده سبحانه .

إن تكوين الانسان الذي أشرنا إليه هو الذي أعطى للعبادة قوتها وأهميتها باعتبارها وسيلة من وسائل الله الكبرى للتدليل على وجوده جلت قدرته وأن حالة التناقض والانقسام في الانسان وحريته في القبول والرفض هي رتبت عليه مسؤولية ما يقوم به ، وهذه المسؤولية المرتكزة الى الحرية هي التي ميزت الانسان عن سائر

المخلوقات حيث فرضت عليه نتائج ما يقوم به إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، أما سائر المخلوقات حيث لا تمتلك الحرية والادراك للتمييز والاختيار فان مسؤوليتها على أعمالها تكون مسؤولية موقوفة فلا تتحمل من جراء ما تقوم به أية نتيجة سواء أكانت سلبية أم إيجابية .

إن الانسان هو الذي يحاسب على اعماله في الدنيا وفي الآخرة أما سائر الاحياء فليس من حساب على تصرفاتها لانها لا تمتلك الفهم والارادة على التمييز فيما تقوم به وهذا التكوين المتميز للانسان هو الذي هيأه ليكون خليفة الله في الارض ولقد تسلم الانسان مسؤولية الخلافة عندما أدرك هذه المسؤولية وكان على استعداد لتحملها ولولا الانسان لبقى الكون وما فيه سمواته العلا وأرضه زاخرة بالاحياء والظواهر والكواكب والنجوم والجبال والبحار والحيوانات كبيرها وصغيرها والنباتات على أنواعها ليست لها أسماء تحملها ولا صفات تعبر عنها ولا معان أو دلالات لها ، لبقيت أكواما من مظاهر وأنواعا من المخلوقات مختلفة الوانها وأشكالها ولكن لا أحد يستطيع أن يعبر عنها أو يتحدث في ماهيتها ، ولبقى الكون ظلمة دائمة أو نورا دائما لا أحد يدركه ويتحدث عنه ، الانسان هو الذي اكتشف كل هذه الظواهر والمخلوقات وسماها وميزها وفسر حقيقتها ودلل على وجودها ، فلولاه لبقيت الأرض تدور على نفسها وحول الشمس وليس من جهة تحسب الليل أو تدرك النهار ولا مخلوق يميز هذه الشجرة عن تلك ولا هذا الحيوان عن ذاك ولا هذا الكوكب اللامع عن غيره . إن الانسان هو الذي عبر عن هذه المخلوقات وسماها وبذلك اتخذت هذه صفاتها وأسماءها ودلالاتها ، كان ذلك منذ أن جعل الله آدم نبيا حيث أن آدم النبي يعبر عن مرحلة متطورة متقدمة للانسان حيث علمه الله الأسماء كلها ، فكانت هذه معجزته وبها تميز من سائر المخلوقات واستحق الخلافة على الارض فكانت فيه النبوة وكان قد تحمل الامانة بعد أن عجزت السموات والأرض والجبال من حملها . هذا الحمل للامانة هو أمانة المعرفة لرسالة السماء ، إدراك لامر الله وإطاعة لتعاليمه وأن الانسان هو الذي تحمل رفع هذه المسؤولية وبذلك كان إكرام الله سبحانه له أن أعده إعداداً خاصا ليكون قادرا على حمل أمانته ، وهذا الحمل ليس نقلا لشئ من مكان الى آخر إنما هو معاناة فكرية ووجدانية عميقة ، مكابدة ووعي وحوار وجدل بين القبول والرفض وتحمل المشاق والصعاب عبر هذه المعاناة .

إن الأمانة من عنده تعالى رسالة لحمل الانسان على العيش بأمان وسلام ورفاه ، وأن هذه الرسالة تواجه ظلما ونزعة للقتل والعدوان ، وأن معركة تنشب بين الامانة والانسان ، وأن هذه المعركة هي التي تبقى على خلافة الانسان على الأرض فلولا وجود حالة التناقض عند الانسان والصراع بين نوازع الخير ودوافع الشر لما قامت النبوة حيث لا ضرورة لها لو كان الانسان في حالة غير مدركة ويعيش حياة ذات بعد واحد كما تعيش سائر المخلوقات .

إن الذي أبقى الخلافة على الأرض متمثلة بالانسان هو حالة الصراع المحتدمة بين الظلم والعدل فلولا الانسان لما قام هذا الصراع ولولا الانسان لكانت الارض في حالة عدل دائم أو ظلم دائم ، ذلك لان أيا من المخلوقات لا تستطيع الحكم على الاشياء المحيطة بها سواء بالحكم لها بالخير أم الحكم عليها بالظلم والشر .

من هنا كان الانسان خليفة الله في الارض وهذه الخلافة هي حمل لامانته ورسالته وهذه الرسالة هي الخير الذي يصارع الشر الذي في الانسان حيث في داخله قوى مدركة خيرة وقوى شريرة وأنها في معركة دائمة داخل الانسان ومع القوى المحيطة به وأن رسالة السماء وأمانته تمثل إرادة الله الخيرة وأن الانسان الطرف المكلف بحملها وأن هذا الحمل يقوم على الصراع فيما بينه وبينها وأن هذا الاحتراب هو سر بقاء الانسان وديمومة خلافته على الأرض .

(١) آل عمران آية ٥٩

(٢) الكهف آية ٣٧

(٣) الحج آية ٥

(٤) الروم آية ٢٠

(٥) فاطرة آية ١١

(٦) غافر آية ٦٧

(٧) سورة ص آية ٧٢

(٨) الأنبياء آية ٣٠

(٩) آل عمران آية ٤٩

(١٠) المائدة آية ١١٠

(١١) الأنعام آية ٢

(١٢) الأعراف آية ١٢

(١٣) المؤمنون آية ١٢

(١٤) الصافات آية ١١

(١٥) السجدة آية ٧

(١٦) سورة ص آية ٧١

(١٧) الاسراء آية ٦١

(١٨) غافر آية ٦٧

(١٩) فاطر آية ١١

(٢٠) سورة الأعراف آية ١٨٩

(٢١) سورة النحل آية ٧٢

(٢٢) سورة الروم آية ٥٤

(٢٣) سورة الزمر آية ٦

(٢٤) السجدة آية ٣٢

(٢٥) السجدة آية ٩

(٢٦) الحجر آية ٢٩

(٢٧) الأنبياء آية ٩١

(٢٨) التحريم آية ١٢

(٢٩) آل عمران آية ٤٩

(٣٠) الاسراء آية ٨٥
(٣١) الاحزاب : آية ٧٢

(٣٢) الحشر : آية ٢١

(٣٣) الذاريات : آية ٥٦

(٣٤) البقرة آية ٢٦٩

(٣٥) النساء آية ٨٢

(٣٦) السجدة آية ٩

(٣٧) الحجر آية ٢٩

(٣٨) القدر آية ٤

(٣٩) البقرة آية ٤٤

(٤٠) البقرة آية ٧٢

(٤١) آل عمران آية ٦٥

(٤٢) يوسف آية ٢

(٤٣) الأعراف آية ١٦٩

(٤٤) الأنبياء : آية ١٠

(٤٥) الأنبياء آية ٦٧

(٤٦) الصافات آية ١٣٨

(٤٧) يس آية ٦٢

(٤٨) النساء آية ١١٣

(٤٩) البقرة آية ١٥١

(٥٠) الشعراء آية ١٣٢

(٥١) التوبة آية ١٠١

(٥٢) يونس آية ٥

(٥٣) النساء : آية ١١٣

(٥٤) غافر آية ٨٤

(٥٥) النساء آية ٦١

(٥٦) الفرقان آية ٤٣

(٥٧) الانعام آية ٤٦

(٥٨) القصص آية ٧١

(٥٩) القصص آية ٧٢

(٦٠) الاحقاف آية ٤

(٦١) الواقعة آية ٧١

(٦٢) الكهف آية ١٧

(٦٣) الرعد آية ٢

(٦٤) الانبياء آية ٣٠

(٦٥) النجم آية ٤٠

(٦٦) فصلت آية ٥٣

(٦٧) البقرة آية ٧٣

(٦٨) المائدة آية ٩٣

(٦٩) محمد محمد إسماعيل : الفكر الاسلامي ص٤٥

(٧٠) البقرة آية ١٦٤

(٧١) عبدالجبار المعتزلي : المغني .. جـ١١ .ص٣٧٥

(٧٢) المصدر السابق جـ١٢ .. ص٢٢٢

(٧٣) الحج : آية ٤٦

(٧٤) حسني زينة : العقل عند المعتزلة ص٣٢

(٧٥) المغني جـ١١ ص٣٧٨

(٧٦ ـ ٨٢) انظر المغني جـ١١ ص٣٨٢ ، ص٣٨٠ ، ص٣٨٣ ، جـ١٢ ص٢٩٧ والمغني جـ٦ ص١٨٦ .

(٨٣) حسني زينة ص٣٧ ـ ٣٨

(٨٤) المصدر السابق ص٣٧ ـ ٤١

(٨٥) حسني زينة / العقل عند المعتزلة / ص٤٢

(٨٦) المغني - جـ١١ - ص٣٨٦ وانظر حسني زينة ص٤٣ .

(٨٧) المغني - جـ١١ ص٣٨٦

(٨٨) عبدالجبار المعتزلي / المغني جـ١١ ، ص٣٧٩ ـ ٣٨٠

(٨٩) انظر المغني جـ١٢ ص١٤٤ ، ص٢٤٨ وانظر حسني زينة / العقل عند المعتزلة ص٤٤ ـ ٤٥

(٩٠) الانسان آية ٣

(٩١) الكهف آية ٢٨

(٩٢) الأعراف آية ١٨٨

(٩٣) التوبة آية ٥١

(٩٤) - حسني زينة / العقل عند المعتزلة ص١٤ ـ ١٥

(٩٥) الشهرستاني / الملل والنحل جـ١ ص٥٠

(٩٦) المسعودي / مروج الذهب جـ٣ ص١٥٢ تحقيق محيي الدين عبدالحميد

(٩٧) حسني زينة : العقل عند المعتزلة ص١٧ ـ ١٩

(٩٨) المسعودي : مروج الذهب جـ٣ ص١٥٢

(٩٩) المرتضى : امالي المرتضى جـ١ ص١٥١ وشرح نهج البلاغة جـ٢ ص١٢٨ ـ ١٢٩

(١٠٠) البقرة آية ٣٠

(١٠١) الروم آية ١٩

(١٠٢) الشعراء آية ٧

(١٠٣) يس آية ٣٦

(١٠٤) الزمر آية ٦

(١٠٥) الزخرف آية ١٢

(١٠٦) الزخرف آية ٢٦

(١٠٧) الذاريات آية ٤٩

(١٠٨) النجم آية ٤٥

الفصل الثالث

الشيطان .. والملك

والانسان

أولا ـ معنى كلمة شيطان :

الشيطان كما جاء في لسان العرب [كل عات متمرد من الجن والانس والدواب شيطان .. وتشيطن الرجل وشيطن إذا صار كالشيطان .. وقيل الشيطان فعلان من شاط يشيط إذا هلك واحترق مثل هيجان وغيمان من هاج وغام .. والشيطان لايرى ولكنه يستشعر أنه أقبح ما يكون من الاشياء ولورؤى لرؤى في أقبح صورة .. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم إنما هو مثل أي يتسلط عليه فيوسوس له ، لا انه يدخل في جوفه][1] .

الشيطان جمعها ـ شياطين ـ ... والشيطان (روح شرير كل عات متمرد من إنس أو جن أو دابة ومنه «شياطين العرب» .. الحية شيطان الفلاة ، العطش مخاط الشيطان ... ما يتراءى في أعين الشمس للناظر في الهواء وقت الهاجرة . ويقال ركبه شيطان أي غضب . وشياطين الرأس هي وثبات الغضب وأطوار هيجانه) .

وأصل كلمة شيطان واشتقاقها من شاطنه شطنا أي خالفه عن نيته ووجهه .. ويقال شطن في الأرض دخل شطونا وشطنت الدار بعدت ، والرجل بعد عن الحق وغيره أشطنه أبعده . شيطن وشيطنه ، وتشيطن فعل الشيطان والشاطن الرجل الخبيث البعيد عن الحق . وبئر شطون بعيدة القعر . حرب شطون عسيرة شديدة ورمح شطون طويل أعوج[2] .

ويوضح الامام الرازي معنى كلمة شيطان فيأتي على دلالتها اللغوية ويقف عند معناها وما تحمله من دلالات واصطلاح عبر عمليات الجمع بين معنى الكلمة لغة واستعمالاتها التي انتهت إليها في الحضارة العربية الاسلامية فقال (وأما الشيطان ففيه قولان الاول أنه مشتق من الشطن وهو البعد ، يقال شطن دارك أي بعد فلا جرم سمي كل متمرد من جن وإنس ودابة شيطانا لبعده من الرشاد والسداد قال الله تعالى «وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن» فجعل من الانس شياطين ، وركب عمر برذونا فطفق يتبختر به فجعل يضربه فلا يزداد إلاّ تبخترا فنزل عنه وقال .. ما حملتوني الا على شيطان ... والقول الثاني إن الشيطان مأخوذ من قوله شاط يشيط إذا بطل ولما كان كل متمرد كالباطل في نفسه بسبب كونه مبطلا لوجوه مصالح نفسه سمى شيطانا)[3] .

ويضيف الامام الرازي في توضيح كلمة شيطان فيقول [الشيطان مبالغة في الشيطنة كما أن الرحمن مبالغة في الرحمة ، والرجيم في حق الشيطان فعيل بمعنى مفعول ، كما أن الرحيم في حق الله تعالى فعيل بمعنى فاعل إذا عرفت هذا فهذه الكلمة تقتضي الفرار من الشيطان الرحيم الى الرحمن الرحيم][٤]

إن كلمة شيطان قديمة حيث نجد هذه اللفظة واشتقاقها مستعملة في الحضارات القديمة وقد ارتبطت هذه الكلمة بظاهرة الشر والاذى ، ولما كان الشر مناقضا للخير فقد كان الخير من فعل الله أو من فعل القوة الخيرة وكان الشر من فعل الشيطان ، ولهذا فقد اعتبر الامام الرازي أن الثنوية قالت بوجود قوتين قوة الخير التي يمثلها الله وقوة الشر ويمثلها الشيطان وهما صنوان وأخوان متقابلان [وهذا يقتضي المساواة بينهما وينشأ عنه قول الثنوية الذين يقولون أن الله وإبليس أخوان الا أن الله هو الاخ الكريم الرحيم الفاضل وإبليس هو الاخ اللئيم الخسيس المؤذي فالعاقل يفر من هذا الشرير إلى ذلك الخير][٥] .

إن حالة التعارض بين الخير والشر قائمة داخل الانسان كما أنها متمثلة في الظواهر المحيطة به ، وهذه البيئة تفرز حالات وتصدر عنها مؤثرات تبعث على السعادة والرضى حينا وقد تثير الاذى والضرر حينا آخر فقامت في لغة الانسان مفاهيم تدل على النفع وكلمات ومعانٍ واصطلاحات تدل على الأذى .

إن البدء في التمييز بين الحالات الضارة والنافعة في داخل الانسان أو في خارجه كان عندما تطور الانسان وصار قادرا على الادراك والتمييز والتعبير عما يحس من أذى أو رضى ، فالانسان هو الذي سمى الاشياء والمؤثرات بأسمائها المفيدة وغير المفيدة في ضوء إدراكه لتأثيرها في ذاته واثرها في نفسه .

لقد كانت البداية في استعمال الفاظ الخير والشر بسيطة ساذجة ثم توسعت وتعددت بتوسع مدارك الانسان ومعارفه فاذا كانت المعاني التي عبر عنها الانسان بكلمات محدودة في هذا الميدان فانها بلغت معاني ودلالات والفاظاً كبيرة في مراحل الانسان المتطورة بحيث توزعت الكلمات ومعانيها الى صنفين أساسيين ، كلمات ومعان دالة على الايجابية والنفع وأخرى دالة على السلبية والضرر فقامت ثنائية عميقة بين المفهومين الخير والشر وتعمقت جذور كل منهما بحيث صارت حضارة

الانسان تعبيزا عن هذين الصنفين المتعارضين .

هناك صلة بين الشر كصفة وتأثير وبين فاعل هذا الشر (الشرير) حيث لا شر من دون شرير ولا ظلم من دون ظالم ولذلك فقد ارتبطت كلمات الشر والاذى والعدوان بفاعلها فصارت هناك كلمتان ـ الشرير ، الشر ـ وأن الشرير هو الاهم في هذه المعادلة وعليه فأن الشرير تقابل كلمة الشيطان بمعنى فاعل الشر أو الدافع له فالشرير هو الذي يأتي منه الظلم والاتهامات وقذف الناس بالشتيمة والاذى وهو الذي يحمل العدوان والظلم من جهته الى جهة ثانية وأن هذه الجهة الواقع عليها العدوان هي الانسان .

قد يقع الاذى من إنسان على النباتات والحيوانات ، الا أن هذه لا تستطيع التعبير عما يقع عليها ، والذي يعبر نيابة عنها هو الانسان إذا كان مالكا لها لان أذاها يعود عليه .

إن الشر قد يصدر عن الطبيعة وما فيها فقد تعصف عاصفة هوجاء تعصف بالانسان وما يملك وقد يفيض النهر فيضانا يأتي على الانسان وما جناه كما أن حيوانا مفترسا قد يتقدم لا فتراس الانسان والقضاء عليه ، لذلك أطلق على المظاهر المؤذية والحيوانات المفترسة صفات الشر والاذى . ووصف بعض هذه المظاهر والحيوانات بلقب الشيطان ولذلك سمت العرب الحية «شيطان الفلاة» .

ولما كانت مظاهر الطبيعة تعمل من دون إرادة واعية وبدون نية مسبقة فقد حملها بعض صفات الشر وألقابه ولكنه لم يحملها وزر ذلكم الشر كما حمل الحيوانات والانسان فنجد أن الانسان لم ينتقم من الطبيعة التي كانت تؤذيه بالضرب والشتم إنما حاول استرضاءها بالعبادة والتوسل إليها بالرجاء كما عمد الى الابتعاد عن أذاها وتهيئة أسباب القوة لمواجهة نزواتها وأحداثها المفجعة فكان أن بنى الحضارة على أشكالها المتعددة المتطورة خلاصا ودفعا لاذى الطبيعة .

وعزم على مواجهة شراسة الحيوانات وأبعاد أذاها بالقتل أو بالتدجين والاسترضاء فاستطاع أن ينجح في ذلك كثيرا وبقيت أنواع من الحيوانات مؤذية ومعتدية حتى يومنا هذا وعلى الرغم من شدة أذاها فأن حملته عليها كانت أقل من

حملته على فعل الانسان الشرير ذلك لان إدراك الحيوانات محدود وقدرتها على التمييز ضيقة وأن فعلها العدواني غريزة ونتيجة عوامل كثيرة من بينها الحفاظ على وجودها وديمومته .

إن المعركة الحقيقية في ميدان الشر والاذى كانت بين الإنسان وأخيه الانسان فهو المصدر الاكبر للعدوان كما أنه المجال الذي تتفاعل فيه وعلى ساحة عقله ووجدانه وجوارحه ولذلك ارتبطت كلمة شر وعدوان وأذى بالانسان فكان الشرير الاكبر كما أنه الخير الاكبر .

ثانيا - الشيطان في الحضارات القديمة

إن متابعة كلمة الشر والشرير في الحضارات القديمة نجدها في الشر الصادر عن الانسان فهو الذي يفعل الشر وهو الذي يقع عليه تأثيره كما أن فاعل الشر نفسه يتأثر بعمله الشرير كما يؤثر عمله هذا في الآخرين .

إن البدايات الاولى التي ظهرت فيها حالة الخير والشر ، النفع والاذى هي الحالات التي تتمثل عليها وفيها ظاهرة النفع والعطاء وظاهرة الاذى والفناء ، ومن أبرز الظواهر المثيرة للاسى هي ظاهرة القتل أو الموت والفناء وما يسبقها من حالات الضعف والمرض ويقابل هذه الظاهرة السلبية ظاهرة الحياة ، الولادة ، النمو ، العطاء ... ولما كانت هذه الظاهرة تتمثل في الانسان كما تتمثل في بعض الحيوانات والنباتات المحيطة به فأن الولادة التي تقع للانسان وفي الحيوانات المفيدة كانت مركز الخير ، ولما كانت الوفاة تقع لهذا المولود الخير والعطاء الجديد فأن الانسان عدّ ظاهرة الحياة والموت أعلى درجات الخير والشر ، وقد فتش عن مصدر الحياة والموت والقوة المحدثة لذلك فتوصل الى نتائج كثيرة وكان من المنطق أن يكون توصله في البداية الى (المخلوق الذي يولد عنه مخلوق جديد) فكانت الانثى من الانسان والحيوان هي مصدر هذا العطاء ، ولما كان الموت يقع عليها فصارت هي الاخرى مركز الشر ، لذلك نجد في الحضارة العراقية القديمة (قوى الشر تظهر في شخص الشريرة «تيامات» ولو أن تيامات نفسها في الاصل ربة انجبت الكثير من الآلهة العظمى القديمة ، فقد ارتبطت بالشر واصبحت المخلوق الالهي الذي يتجسم فيها الشر «شيطان» حقا أرادت الموت والفناء للكل حتى للشبان من الآلهة والذين هم أحفادها من أجل راحتها وسلامة الاقربين إليها ليس إلا)[٦] .

من هذا يتبين أن تيامات استحقت لفظة الشر والخير لانها أنجبت الكثير من الآلهة العظمى كناية عن الخير وانها تسببت في فناء هذه الآلهة بالرغم من شبابها وعمدت إلى اغتيال الابناء والاحفاد ، مما يؤكد أن ظاهرة الموت والحياة هي المفتاح الذي انفتحت به أبواب الخير وأبواب الشر .

إن الظواهر الطبيعية المفيدة أو الضارة إنما تأثيرها على الانسان ، وأقوى هذه التأثيرات هي إحداث الموت والفناء للانسان أو لخيراته وحاجاته التي بها يديم وجوده ، لذلك أصدر الانسان أحكامه بالشر أو الخير على تلك المؤثرات في ضوء فعلها وتأثيرها عليه ، فنجد في الحضارات القديمة أن الطبيعة القاسية المشحونة بالحيوانات الكاسرة والتغيرات الجوية الصاخبة والفيضانات المدمرة أو الجفاف الشديد قد دفعت الانسان الى إصدار أحكامه على هذه التأثيرات فنجد أن أحكاما وصفات للاذى والشر قد انتشرت في الحضارة العراقية القديمة مثلا اكثر مما انتشرت في الحضارة المصرية القديمة نظر لقسوة الظروف في العراق وشدة الفيضانات المدمرة فيه والتباين بين حرارة الصيف وبرودة الشتاء وقسوة الرياح الرملية الهابة عليه من الصحراء ، كل هذه زادت من حدة توتره وشعوره بالاذى مما حمله على إصدار صفات وأحكام الشر والاكثار منها والمبالغة في أذاها لكي تتناسب مع حقيقة ذلك الاذى وتأثيراته السلبية . إن الفيضانات المدمرة في العراق والحرارة الشديدة والرياح العاصفة والملوحة أضعفت قوة الارض الانتاجية وحملت الانسان في العراق الى ترك الارض والانتقال الى أخرى لعلها تفيده أو ابتعادا عن أرض غرقت في الملح في حين أن البيئة في مصر كانت متوازنة بين حرارة الصيف وبرودة الشتاء وأن موسم الفيضان يجيُ في مرحلة تتناسب مع الزراعة وبدرجة أقل عنفا وخطورة مما هي عليه في العراق وأن خصوبة الارض المتجددة من فيضانات النيل جعلت الانسان هناك أكثر استقراراً وهدوءا وجعلت أحكامه (بالشر والاذى) على المظاهر والحاجات أقل عددا وحدة مما كان عليه الانسان في العراق(٧) .

ليست هناك بيئة على الارض تضم ظواهر طبيعية خيرة كليا ولا هي مضرة كليا إنما كل ما في الطبيعة هي مظاهر نافعة وضارة وأن الخلاف بين بيئة وأخرى هو في درجة ونسبة الاشياء الضارة والمفيدة .

ولما كان الانسان هو الذي تقع عليه آثار الظواهر فأن الانسان هو الذي يعطي حجم تلك التأثيرات ونوعيتها ، ولما كانت الحياة أهم وأقوى حالات العطاء وأن الموت هو الصفة الشريرة المناقضة للحياة فأن القوة التي تسبب الحياة والموت هي مصدر الخير والشر للانسان وقد توصل الانسان في كل حضارة من الحضارات القديمة الى ربط خصائص وصفات وقوى الحياة والموت في قوة معينة ، ولما كانت حالة الحياة والموت مهمة فأن أهميتها لانها تقع عليه وتتمثل فيه ، ولهذا فتش عن هذه القوة في الانسان ذاته سواء في شخصه أو في شخص النوع الانساني الذي ينتمي إليه .

وعبر متابعته وملاحظته وتحليله توصل الى أن المرأة منه سبب العطاء وسبب الفناء ولما كان (دم الانسان) هو مصدر القوة فيه حيث عند نزفه يموت الانسان فقد اعتقد أن الدم هو مصدر العطاء ، ولما ذهب الانسان ليتأكد من قيمة هذه المادة في حياته فذهب الى إنسان ميت فلم يستطع أن يجمع منه دما بالرغم من أنه استعمل وسائل القطع وأدوات الجرح في محاولة لتجميع هذه المادة وفحصها فتأكد من أن الدم مصدر القوة والحيوية ، فقرر (أن دم تيامات التي وإن كانت أم الارباب ولكنها شيطانه مليئة بالكراهية وحب الانتقام والعطش للقتل وسفك الدماء ، فانهم بذلك مخلوقات يجري الشر في عروقهم وهو في كل جزء من أجسامهم ويسير أعضاءهم كافة)[٨] .

ومما يؤكد أن فكرة الشيطان جاءت من الاذى الذي يقع على الانسان أنه صور ما يقع عليه من عدوان بصورة الجهة التي يصدر عنها الشر والاذى فكان لكل بيئة صورة مجسمة للشر يتوافق مع الظاهرة التي يتقدم منها الشر ويؤدي الى إيذاء الانسان ووفاته ، ولما كان الموت اكبر درجات الاذى فقد صور القوى الشريرة بصورة الحيوان الاكثر عدونا وايذاء له ، ففي مصر صور الشر على شكل ثعبان ضخم جدا ذي طيات متعددة في كل منها سكين حاد واعتقد المصريون القدامى أن هذا الثعبان يهاجم الشمس التي تمثل عندهم الاله (رع) مرتين في كل يوم عند الشروق ولدى الغروب[٩] .

ولم تكن المعركة بين قوة الشر الرئيسية وقوة الخير الاولى فحسب إنما كان لكل من القوتين الرئيسيتين أعوان وجنود وأن المعركة بين الجانبين محتدمة .

إن ما يقع على الانسان من خير أو شر يقع من جهات ومظاهر كثيرة ، لذلك ربط بين هذه المظاهر وما يصدر عنها فكانت هناك قوى كثيرة يأتي منها الخير وقوى كثيرة يصدر عنها الشر عمل الانسان على الاستفادة من الجهات الخيرة وصد ودفع أذى مصادر الشر عنه وكان من وسائله في هذه العملية العبادة والتقرب من تلك المظاهر النافعة لكي تواصل نفعها وعطاءها والضارة لعلها تكف عنه أذاها ، فنشأت الديانة الوثنية حيث عبد الانسان كل المظاهر النافعة والمظاهر الضارة كلا بطريقة تتناسب واهميته .

وتمكن الانسان وهو يتابع أثر الشر والخير فيه من توزيع المؤثرات الى نوعين ، نوع ضار وآخر نافع وقد وضع المؤثرات النافعة في قائمة والضارة في تسلسل خاص بها وحاول أن يختصر المؤثرات في النواحي الايجابية ويركزها في عدد محدود من الآلهة وكذلك الامر مع القوى الشريرة حيث اختصر الهتها الكثيرة الى عدد محدود وبقى يختصر في قائمة الالهة الخيرة والشريرة حتى انتهى الى الثنوية حيث توصل الى الحكم بأن هناك قوتان رئيسيتان ، قوة وراء الخير وأخرى وراء الشر فكانت الديانات الثنوية الزرادشتية والمزدكية والمانوية وغيرها تقوم على الايمان بوجود إلهين ، فكان إله الخير يوصف بالنور والعطاء وكان إله الشر يمثل الظلمة ، لقد قسموا الظواهر المؤثرة الى قسمين أساسيين قسم ظواهر شريرة مظلمة وآخر ظواهر خيرة مشرقة ، وتركت المعركة قائمة بين إلهي الخير والشر خارج الانسان وأن اثار هذه المعركة تصيب الانسان أولا فهو الذي يتأثر بنتائجها وهو الجهة التي تقع عليها الاضرار أو الفوائد لهذا الصراع .

إن التقسيم الثنائي للقوى المؤثرة لم يقع صدفة ولا جاء عبر قفزة طارئة إنما بقى الانسان على الوثنية زمنا طويلا حيث عشرات الالهة كانت مراكز لعبادته وأن كلا منها يحمل قوة مؤثرة فيه ، ولهذا لم ينته التوزيع الثنائي الا بعد مرور دهور طويلة على مرحلة الوثنية وتعدد الالهة وعليه تعتبر الثنوية مرحلة متقدمة قياسا الى مرحلة الوثنية وأن الانتقال إلها جاء بطيئا حيث استقرت الثنوية وترسخت جذورها وتعمقت بحيث استطاعت مواجهة الديانات الموحدة بقوة وعنف .

إن التوزيع الثنائي للقوة المؤثرة كان قد ضم الى معسكريه آلهة صغيرة للخير وأخرى للشر وهذا التوزيع كان على نوع القوة وحجم التأثير وليس على الاصناف والاعداد ولذلك كان توزيع الالهة الخيرة والشريرة في ضوء القوى التي

تتمثل فيها حيث توزعت الآلهة الخيرة والآلهة الشريرة وكل منها تحيطها أرباب صغيرة تدور في فلكها وتعمل بأمرتها ، لقوى الخير عناصرها وجنودها ولقوى الشر عفاريتها وقواها التي تعمل على خلق الاذى وزرع الشر ونشر الفساد في مقابل القوى الطيبة التي تواجه العدوان وتعمل على نشر الفضيلة والطيبة .

إن الثنائية تحولت وتطورت حيث صار إله الخير قوة روحية كبيرة كما أن إله الشر قوة روحية معارضة فصارت هناك روحان متقابلتان متناقضتان فأطلقت العقائد الثنوية اسم (أهرومزدا) على قوة وروح الخير (وأهرمان) على روح الشر وقواه وفرض الانسان أن لكل من أهرومزدا وأهرمان القدرة على الخلق والتأثير ولو أن كلا منهما قد خلق بصورة منفصلة .. وقد راحت الثنوية تعطي لاله الخير قوة اكبر من قوة إله الشر كما تدفع هذا الاله الى مسافات أبعد من إله الشر وإلى ان السبق سيكون له على حسابه[10] .

ولقد بقي الانسان هو الاهم في تفسير قوى الخير والشر وتعيين حجم هذه القوى واسبقيتها وطبيعة المعركة الناشبة فيما بينها وساحات هذه المعركة ونتائجها وحينما يقرر الانسان أن إله الخير سينتصر فأن ذلك يعني أن دوافع الخير فيه سوف تنتصر على نوازع الشر وكأنه يريد بذلك أن قوى إله الخير المتمثلة في دوافع الخير في ذاته سوف تتغلب على قوى إله الشر المتمثلة في نوازع الشر القائمة فيه وبذلك تتحول المعركة من ساحتها الكبرى في الكون إلى الساحة الفعلية المتمثلة في الانسان والممتدة في داخله والبارزة مصادماتها بين طرفيه المتحاربين المتعارضين المتناقضين .

إن الصراع بين إلهي الخير والشر ، إلهي النور والظلمة ، بين القوى الايجابية والسلبية لا وجود له ولا أثر الا لوجود الانسان وإحساسه وإدراكه لقوى هذين الالهين متمثلة في داخله بارزة على ساحة عقله ووجدانه ، فلو لم يكن الانسان موجودا لبقي صراع الهي النور والظلمة صراعا غير محسوس فيه ولا مدرك وليس له أثر أو تأثيرا . إن تعاقب الليل والنهار ، النور والظلمة ، النفع والاذى ، الحق والباطل ، العدالة والجور ، السعادة والشقاء ، هذه التسميات وهذه الاوصاف لا وجود لها ولا تأثير ولا صفات لولا أن الانسان أدركها وأطلق أحكامه عليها ، وبعبارة أدق أن الالهين أهرومزدا وأهرمان لا وجود لهما ولا تأثير لولا الانسان

وتصوره وإدراكه وحديثه عنهما .

وكمـا ظهرت أفكـار الشر في الحضارة العـراقية القـديمة والمصـرية وفي الحضارة الايرانية الثنوية فكذلك ظهرت في الحضارة اليونانية والرومانية القديمة فقد حفظت الالياذة والأوديسا أشعارا تحمل أفكار الشر والاذى حيث حملت هذه المنجزات الفنية الرائعة أبياتا تشير الى حالات الشر ومصادره وعلاقـة الانسان به[١١] .

ومن قراءة هذه الاشعار ومتابعـة صور الشر تتبـين العلاقـة بين الـذنب وفاعله ، وأن هناك علاقة سببية بينهما وفي سبيل أن تقلل الالياذة والأوديسا من فعل الشر جعلتا فعل الخير من صنع إله الخير واعتبرت فعل الشر من نبي له وليس من إله (فكان للشر نبي خاص ففي الالياذة اعتبـر هناك نبي معـين عرف بنبي الشر)[١٢] .

إن فكرة وضع نبي لقوى الشر هي عملية متطورة عن فكرة وجود إله لهذه القوة وكأنها تريد أن تقول ان قوة الشر أقل من قوة إله الخير فهذه تصدر قوتها عن إله وتلك تصدر عن نبي والمسافة بين الالوهية والنبوة طويلة وكأنها تريد أن تقول أيضا أن النبوة من البشر وأن هذا البشر الذي يصير منه النبي تصير منه القوى الشريرة فهو نبي إذا كان خيرا وهو شرير إذا كان سيئا وأن خيره من عند الله وشره من عنده .

لقد ربط الانسان في الحضارة اليونانية والرومانية بين الذنب والشر وبين الانسان وأن الشرور هي التي تخرج الانسان عن دائرة الحق والعدل والانصاف وتدخله في دائرة العدوان والاضرار (فالذنب هو عبارة عن الخروج عن الحقوق الكثيرة للارباب وعدم تقديم الضحايا والاعتداء على الكائنات الحية التي حصلت قدسيتها من قوى عليا ... وأن حصول أية مأساة مفاجئة وكبيـرة ربما تحمـل البعض على وضع السبب على حقيقة الشر ، واستمرت هذه الاعتقادات مع بعض التغيرات الطفيفة طيلة عصور التاريخ اليوناني والروماني)[١٣] .

وفي الحضارة الرومانية واليونانية تعددت قـوى الشر ولم تتجمع في قـوة

واحدة كما انتهت إليه العقائد الثنوية أو كما أبرزته الديانات السماوية كقوة مؤثرة كما هي عليه صفات وقوى الشيطان .

وحيثما وجد الانسان المدرك ميز بين قوتين متناقضتين سمى واحدة منها قوة خيرة والثانية قوة شريرة ، كان ذلك في الديانات البوذية والبرهمية حيث أنها حددت صفات خيرة لقوى معينة وأخرى شريرة لالهة جائرة .

ثالثا - الشيطان في الديانات السماوية :

الديانات السماوية كانت هداية من الله للانسان ، فهي دليل عمل له ووسيلة لهدايته وحجة بين يديه ونورٌ ينير له الدرب ليميز بين الفساد والرشاد ومشكاة تبين للانسان الشر وعلاماته والخير ودلالاته ، ولهذا فأن الكتب السماوية حملت صورا وأحكاما وآيات تصف الشر وفاعله والخير وصانعه بصورة جلية دقيقة .

وقد ربطت الكتب السماوية بين الشر وفاعله ربطا عضويا ، وأوضحت أيضا أن الخير بفعله وبعزمه فكانت البشرى بالثواب لفعل الخير والعاقبة بالجزاء لفعل الشر ومرتكب الآثام .

لقد سمت الكتب السماوية الافعال الضارة بالافعال الشريرة واعتبرت الشر هو الذنب هو الفعل الصادر من الشرير وقد أطلقت كلمة (الشيطان) على فاعل الشر فصارت هذه الكلمة مرادفة لكلمة شرير أي أن معنى الشيطان هو فاعل الشر .

وذكر مقابل الشيطان الملك ومقابل الشياطين الملائكة بحيث نجد أن كلمة شيطان جاءت صريحة أو في معناها بنفس العدد الذي جاءت بها كلمة ملك وتبدو الموازنة دقيقة بين كلمات الملائكة والشياطين في القرآن الكريم بحيث أن عدد المرات التي وردت فيها هاتان الكلمتان كانت متساوية .

لقد جاء في العهد القديم لفظة الشر والشياطين والعفاريت في معرض انتشار

أرواح وقوى العدوان حيث (أشار العهد القديم كثيرا الى العفاريت والشياطين والارواح الشريرة)[١٤] .

كما وردت في العهد القديم آيات تشير الى وجود قوتي الخير والشر والمنازعة بينهما حيث جاء (ويلقى هارون قرعتين ، قرعة للرب وقرعة لعزازيل)[١٥] .

ويوضح العهد القديم أن الصراع قائم بين قوى الخير وقوى الشر وأن مركز هذا الصراع هو الانسان وصورة هذا الصراع تتجلى في ـ آن الانسان لاجل أن يجد تفسيرا لقوى الشر التي تنغص عليه حياته البسيطة اعتقد فيما يمكن أن نطلق عليه قوة مبررة شرعية يضفي عليها صفة القدسية فكان «غزازيل» والاشارات إليه يمكن ملاحظتها في الاجزاء الاولية من العهد القديم[١٦] .

إن الربط بين الاذى والجهات التي يصدر عنها حمل الانسان أن يطلق على تلك القوى أسماء وصفات ذات دلالات شريرة مثل عفريت وعفاريت وذلك لقسوة ما يقع عليه من نكبات من تلك القوى الضارة المعادية مما ولد الخوف والرعب عند الانسان وهذا الخوف (هو العفريت) الاقوى تأثيرا في تخويف الانسان ووقوعه مستسلما أمام تلك القوى الشريرة بحيث راح يتوسل إليها ويقدم لها الضحايا والنذور .
لقد صور العهد القديم خوف الانسان من قـوى الشر وجعلها متمثلـة في حيوان (الماعز) واعتبر هذا الحيوان هو الشيطان وراح يقدم الضحايا إليه دفعا لشره وأذاه (ولا يذبحوا بعد ذبائحهم للمعاعز «الشياطين» التي يزفـون وراءها فريضة دهرية تكون هذه في أجيالهم)[١٧] .

إن اختيار الماعز ليكون ممثـلا للشيطان ومصـدرا للشر إنما جـاء ليكون مستودعا لقوى الشر يمكن التعامل معه ، والتقرب منه أو الاقدام عليه ، والخلاص منه أو التقدم منه وذبح القرابين له أو ذبحه ذاته فدية للشر الذي يحمله .

لقد وصف العهد القديم الشر بالذنب والعفاريت وشكلها على صورة الماعز وسماها (سيرين) وهي تعني الماعز وربما دل استعمالها على أنها تقدم كبش فداء الى عزازيل الذي هو قوة شيطانية في الازمان القديمة .

إن جعل الماعز مركزا للشر وملاذا للفداء وكبشا له يدل على أن الاقتراب من إله الشر كان امتدادا لافكار الثنوية التي ترى في إلهي الخير والشر قوة مؤثرة ولهذا عرف عن اليهود أنهم كانوا (يأتون بماعز الى حفلاتهم واجتماعاتهم مقتنعين أنها تأخذ الذنوب من الناس وتحملها الى مواطنها في عالم الشياطين)[١٨] .

ولما كانت العلاقة بين الشر ومصدره علاقة سببية ، ولما كان معظم الاذى الواقع على الانسان صادراً منه على نفسه وعلى غيره من بني جلدته فأنه حكم على الجهة التي يصدر عنها الشر بالشرير والشيطان وعمد الى تحميل هؤلاء الناس صفات شريرة ، ولما كانت أفدح أنواع الضرر وأقسى درجات الشر تأتي من الانسان على أخيه فأنه استحق حمل لقب الشيطان ومواصفاته وخصائصه .لذلك اعتقد بأن الشيطان وراء الرجال الاشرار جميعهم إذا لم يكن هؤلاء الاشرار هم الشياطين فعلا وحقيقة .

لقد صور العهد القديم الانسان الشرير على شكل مخلوق أقرب الى صورة الشيطان المخلوق على شكل بشر أو البشر المصنوع على هيأة شيطان حيث صفات وعلامات الاذى والعدوان بارزة فيه ككائن مخلوق له مكانة في هذا الكون يعمل ما يشاء حسب قدرة الله ومشيئته . كثير الشك ، لا يمكن أن يثق بالرجل التقي ، مذنب عدو لدود الى الله والانسان على السواء فللشيطان ثلاث وظائف أساسية هي الاتهام والاضلال والتخريب[١٩] .

ان وظائف الاتهام والاضلال والتخريب هي أعلى مراحل العدوان على الانسان ، فهو الذي ميزها لأنها من أشد أنواع الشر الواقع عليه ، وقد اعتبرها المهمات المركزية لفعله العدواني .

إن هذه الوظائف تأتي أولا من الانسان ضد أخيه الانسان الآخر وإن كانت هناك حالات من التخريب تأتي عن طريق الظواهر الطبيعية ونتيجة لحالات وظروف مناخية وجغرافية مختلفة إلا أن هذا التخريب لا يشكل تأثيرا سلبيا عنيفا بقدر التخريب الصادر عن الانسان ، أما الاتهام والاضلال فهما من خصائص فعل الانسان وأن من أقسى حالات العدوان الاتهام بما أنت برئ منه والاضلال الى طريق الفساد وهذه مسؤوليات يقوم بها الانسان وتصدر عنه .

من كل ذلك راح الانسان يبحث في طبيعته وخصائصه ليقف على قوى الشر فيه فتبين أن هذه القوى من السوء والعنف والضلال والتخريب ما يؤلف شيطانا كبيرا داخل الانسان . وعبر تحميل الانسان وزر قوى الشر في ذاته فقد نصب هذه القوى حية قائمة فصار كل إنسان يحمل روحين هما روح الحق والضلال حيث يصدر النور عن روح الحق وتصدر الظلمة والضلال عن روح الباطل وهناك قوتان تتحكم في أعمال الانسان ومصيره ، قوة تدفع للخير وأخرى الى الشر والفساد وتحت إمرة القوتين قوى أخرى مساندة فالملائكة الى جانب قوة الخير والشياطين والعفاريت الى جانب قوة الشر ، وهكذا انتقلت الثنوية بصورة أو أخرى من خارج الانسان الى داخله فصار إنسان العهد القديم تتحكم فيه روح الخير وروح الشر وتعتبران العنصر الاساس في عمل وتحرك الانسان منذ الخليقة وستبقى كذلك مؤثرة فيه حتى نهاية العالم[٢٠] .

إن نظرة لما جاء في العهد القديم تبين أن أفكار الخير والشر تحركت عندما أدرك الانسان طبيعة هذه الاعمال وخصائصها وميز فيما بينها وجاءت عملية التمييز هذه لاحقة لمرحلة الادراك لذاته ونوازعها ودوافعها ولتفاعله مع القوى المحيطة به أخذا وعطاء وأن هذا التفاعل سحب قوى الطبيعة وركزها في ذاته فصارت قوى الخير والشر تتصارعان في داخله ، وكان عمل الانسان نتيجة لهذا الصراع فأما أن تتغلب قوى الخير على قوى الشر فيكون عمله صائبا صالحا وإما العكس حيث يكون عمله ضارا وفاسدا .

أما في العهد الجديد فأن كلمة الشر والشيطان جاءت في ذات المعنى الذي كانت عليه في العهد القديم ففي (انجيل لوقا الاصحاح الرابع - يخاطب إبليس قائلا ... إذهب يا شيطان إنه مكتوب للرب إلهك أن تسجد ، وإياه وحده تعبد ، رافضا السجود للشيطان ولو أعطاه ملك الارض ومعلنا سجوده لله وحده)[٢١] .

ويفسر عيسى عليه السلام الشيطان باعتباره قوة تفعل الشر وأن الخير من فعل الله (فقال حينئذ الكاهن .. ليغفر لنا الله أما أنت فصلٍّ لاجلنا ، ثم قال الوالي وهيرودس يا سيد إنه لمن المحال أن يفعل بشر ما أنت تفعله فلذلك لانفقه ما تقول .. أجاب يوسع إن ما تقوله لصدقا .. إن الله يفعل صلاحا بالانسان كما أن الشيطان يفعل شرا لان الانسان بمثابة حانوت من يدخله برضاه يشتغل ويبيع فيه)[٢٢] .

ويتحدث العهد الجديد عن الشيطان ويعطيه قوة وحجما تقف في الطرف المناهض لقوة الله (هو كل شئ فيما عدا الله والمسيح . فليس هناك شر لوحده حتى الشيطان والعفاريت قد خلقوا وتركوا يعيثون فسادا بأمر الله فيقول القديس

بولس ... «بأن الله هو الذي خلق الامارات والممالك ويقصد بها طبعا مملكة الشيطان)[٢٣] .

إن وضع الشيطان في وجه الله والمسيح يعني أن قوة الخير في الله وفي نبيه تقابلها قوة الشر المتمثلة في الشيطان والعفاريت ، وهذا التقسيم الثنائي يشير الى أن الخير المطلق الذي هو في الله ورسله لا يمكن أن يدرك ما لم تكن حالة نقيضه تقف في الطرف المقابل له تعمل باتجاه مضاد له تؤلف الباطل بوجه الحق والظلمة مقابل النور والجور في وجه العدل وبكلمة ادق أن الشر والظلمة هي التي تعطي للنور فرصة الظهور والبروز فلولا هذه لما كانت تلك الاشراقة والعدالة والانصاف والخير .

ولما كان الانسان هو الذي يفرق بين الظلمة التي يمثلها الشيطان وبين النور والعدل والحق والعطاء التي يمثلها الله سبحانه والمسيح فأن الانسان هو الذي يتحمل مسؤولية التمييز بين الضدين والحكم لهما أو عليهما فلولا الظلمة لما تبين للانسان النور والعكس صحيح ولولا الاد ان لما كانت الصفات بالظلمة والنور .

وبين العهد الجديد صفات الشيطان التي منها أنه (خداع ماكر كذاب مضلل يستغل الضعيف ويفسد الكتب المقدسة وظهر المسيح مرة واحدة فقط وذلك حينما واجه المسيح كغاو في القفر ولكنه لم يكن كغاوى أيوب لانه الآن هو العدو اللدود الى ابن الله «المسيح» وقال المسيح بأنه رأى الشيطان يسقط كبرق من السماء والشيطان الآن هو أمير بل ورب هذا العالم الثاني على السواء)[٢٤] .

إن التوزيع الثنائي لقوى الخير والشر ظهر ثانية في ا.ا الحديث حيث أن قوى الشر تمثل أميرا أو ربا لهذا العالم الثاني أي عالم الأرض يواجه رب السماء وفي ذلك عودة بشكل أو بآخر الى الثنوية التي هي الاخرى توزع الالوهية بين إلهين كما أن في إعطاء الشيطان قوة تحكم العالم الثاني عودة الى افكار الثنوية التي قسمت الالوهية بين إلهين وأن الصراع قائم بينهما . وإن كانت قوى الخير هي الاقوى وهي التي ستنتصر فأن في اعتبار قوى الشيطان تمثل ربوبية العالم الثاني فان في ذلك إشارة الى أن قوة الخير هي الاعلى والاقوى وهي المنتصرة أخيرا ، فالله حسب رأيهم خلق كلا من روح الحق وروح الشر والاجرام وكلا الروحين في تنازع دائم وصراع مستمر حتى تنحصر قوى بليال وتهزم جيوشه[٢٥] .

إن هذه المعاني والتقسيمات هي ذاتها التي أشرنا إليها في العهد القديم مما يدل على أنها منسوخة عن بعضها وأنها صادرة من معين واحد وتصب في مجرى معين وعندما يصف العهد الجديد بأن الشيطان هو كل شئ فيما عدا الله والمسيح

فأنه أراد بذلك أن يقول بأن ليس هناك خير مطلق وأن الخير لابد من نقيض له لكي يشير إليه ويميزه وأن الشيطان وجنده قد خلقوا ليعبثوا في الارض فسادا ليظل الصراع محتدما بين الفساد والانسان لتبقى عجلة الحياة تدور ويبقى الانسان يدفع الشر بالخير ويدفع الشر الخير وبذلك يستمر دولاب الحياة في تغيره وتقلبه .

إن الصراع بين الخير والشر بين الله والشيطان قائم في الأرض وباق عليها ما دام الانسان خليفة فيها فهو مركز هذا الصراع وساحة النـزال الدائمـة وكتب الاناجيل تحدثت عن هذا الصراع حيث فسرت التجربة بكاملها باعتبارها نوعاً من الصراع بين المسيح والشيطان وانما جاء السيد المسيح من أجل تحطيم ودحر قوى الشر والتي يقودها الشيطان نفسه .

وعلى الرغم من أن المعركة الحقيقية المعلنة بين الخير والشر ، بين المسيح والشيطان على الارض فان العهد الجديد صعد أتونها الى السماء وجعلها قائمة بين الملائكة والشياطين حيثما وجدا (فالشيطان واتباعه في تطاحن وحرب مع ميكائيل وبقية الملائكة من أجل السيطرة على إدارة السماء وكانت النتيجة هي اندحـار الشيطان وسقوطه مثل كوكب هاو الى الارض واعطيت له مفاتيح الهوة)[٣٦] .

إن التوزيع الذي تحدثت عنه الاناجيل بين الخير والشر ، بين الله والمسيح من جهة والشيطان من جهة ثانية ، بين الشيطان واتباعه من طرف وميكائيل وبقية الملائكة من طرف آخر تشير الى التشابه بالتوزيع لهذه القوى المتصارعة في العهد القديم وفي العهد الجديد فقد رمز العهد القديم الى حالة التطاحن بين الخير والشر في الارض وقد تمثل الشر في عزازيل مرة وفي الماعز مرة أخرى وكلها رموز تدل على قوة الشر . في حين أشار العهد الجديد الى الصراع بين الشيطان وميكائيل وبقية الملائكة وكأن الصراع بين القوتين الخيرة والشريرة متمثل بالشيطان مركزا للشر وميكائيل مركزا للخير ومعه بقية الملائكة وكأن المعركة بين الشياطين والملائكة هي المعركة الدائمة .

ولما كانت الشياطين قوى غير متطورة تدفع للشر ، والملائكة قوى غير منظورة تدفع الى الخير فان قوى هذين النوعين لا يمكن أن تتقابل وتدخل في معركة مع بعضها ما لم يلتقيا عند مركز مشترك وعلى ساحة معينة واحدة .

إن مكان هذا الصراع وساحته هي الانسان وأن مفهوم الشيطان والقوى السلبية الفاعلة المؤثرة في داخله والملائكة هي القوة الايجابية الضاغطة الفاعلة المؤثرة فيه ولهذا فأن عدد الشياطين بعدد البشر وعدد الملائكة بعدد البشر أيضا ولهذا فكلاهما يعملان في وقت واحد وعلى حلبة واحدة في معركة حامية النصر فيها

للاقوى والاكثر إصرارا واندفاعا على الفوز .

قال سبحانه (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين) ويعلق على هذه الاية الاستاذ عبد الرزاق نوفل قائلا [ولما كانت الشياطين هم بعض أفراد الجن فيكون ما بقى من القرين هم من الجن أيضا ولو أنهم من غير الشياطين ... فهل عدد الجن كعدد بني الانسان فقط ؟ أم هل يوجد في عالم الجن العدد الاكثر من العدد المقابل للنوع الآدمي وبذلك فأن أقل عدد يمكن أن يكون لعالم الجن هو عدد أهل الارض من بني الانسان ... ولقد ورد في الاحاديث الصحيحة عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم «أن كل مولود يولد له جني يختص به» وذلك بنص الحديث «لكل مولود قرين من الجن» ... وكما يوسوس الجن للانسان فأنه يتلقى منه فأذا كان جن الانسان شيطانا فأنه يحاول قدر الاستطاعة غوايته بما يهتف له في نفسه وبما يوسوس له في داخله[٢٧] .

إن فعل الشيطان والملك يتمثل بالانسان وأن قوة كل منهما تبرز على ساحته قوة الملك تكون مع دوافع الخير ، مع الادراك المميز ، مع الارادة الواعية ، وقوى الشيطان تكون مع نوازع الشر فتنشب المعركة على أشدها فيتحرك الانسان الى جهة معينة تكون موصلة الى الفلاح والنجاح إذا كانت تلك الحركة نتيجة قوة الخير وعناصره وتكون الى جهة الشر إذا كانت الحركة بتأثير قوي الشر وعوامله .

لقد حفظ العهد القديم في أسفاره عددا من الآيات التي جاءت فيها كلمة شيطان تمثل قوة فاعلة مؤثرة فقد جاء في سفر أيوب من العهد العتيق ما نصه [ثم اتفق يوما أن دخل بنو الله ليمثلوا أمام الرب ودخل الشيطان أيضا بينهم ليمثل أمام الرب ■ فقال الرب للشيطان : من أين أقبلت فأجاب الشيطان وقال للرب من الطواف في الارض والتردد فيها ■ فقال الرب للشيطان : هل أملت بالك الى عبد أيوب فأنه ليس له مثيل في الارض . إنه رجل سليم مستقيم يتقي الله ويجانب الشر والى الآن هو معتصم بسلامته وقد أغريتني به أن أمحقه لغير علة ■ فأجاب الشيطان وقال للرب جلد بجلد وكل ما يحوزه الانسان يبذله عن نفسه ■ ولكن ابسط يدك وأمسس عظمه ولحمه فتنظر الا يجدف عليك في وجهك ■ فقال الرب للشيطان ها أنه في يدك ولكن احتفظ بنفسه ■ فخرج الشيطان من لدن وجه الرب وضرب أيوب بقرح خبيث من باطن قدمه الى قمته ■ فأخذ له خزفة ليحتك بها وهو جالس على الرماد ■ فقالت له امرأته الى الان انت معتصم بسلامتك جدف على الله ومت ■ فقال لها إنما كلامك كلام إحدى السفيهات أنقبل الخير من الله ولا نقبل الشر . في هذا كله لم يخطأ أيوب بشفتيه ■ وسمع ثلاثة أخلاء لايوب بكل ما

اصابه من البلوى فاقبل كل من مكانه («اليفاز» «التيماني» «وبلـدد الشوحي» «وصوفر النعماتي») وتوافقوا على أن يأتوا فيرثوا له ويعزوه فرفعوا أبصارهم من بعيد فلم يعرفوه فرفعوا أصواتهم وبكوا وشق كل منهم رداءه وذروا ترابا فوق ارؤسهم نحو السماء ■ وجلسوا معه على الأرض سبعة أيام وسبع ليال ولم يكلمه احد لانهم رأوا أن كآبته كانت شديدة جدا](٢٨) .

إن مراجعة لهذا النص ترينا صورة الشيطان في العهد القديم ويمكن متابعة هذه الصورة في الخطوط والملامح الآتية :ـ

- إن الشيطان يبدو قوة مستقلة فاعلة مؤثرة تقف أمام قوة الله وتعبر عن أثرها وفعلها في الانسان .

- في السؤال الذي سأله الرب سبحانه للشيطان عن الجهة التي جاء منها فاجاب الشيطان أنه في كل الارض وأنه يطوف حولها مما يوضح أن قوة الشيطان قائمة في الارض حيثما كانت ـ (فأجاب الشيطان وقال للرب من الطواف في الارض والتردد فيها) .

- إن ما أصاب النبي أيوب من أسقام وأوجاع على الرغم من اعتصامه بحبل الله واستقامته فأن في ذلك عبرة أن الله سبحانه قد جعل من نبيه الورع مجالاً للمرض والاذى ليظهر أن الخير منه وأنه قادر على فعل الشر وأن الحكمة من إصابة أيوب بذلكم المرض المؤذي إنما ليوضح جلت قدرته أنه لا بد من وجود الشر لتمييز الخير وأن كلا منهما شرط للثاني ، إذ لا خير ما لم يكن هناك شر ولا شر ما لم يكن هناك خير يسبقه أو يلازمه أو يلحق به .

- ومما يؤكد أن الخير والشر منه سبحانه وتعالى الحوار بين الشيطان والرب جلت قدرته والذي تبينه الآيات من سفر أيوب (فقال الرب للشيطان هل أملت بالك الى عبدي أيوب فأنه ليس له مثيل في الارض ، إنه رجل سليم مستقيم يتقي الله ويجانب الشر والى الآن هو معتصم بسلامته وقد أغريتني به أن أمحقه لغير علة) .. إن قول الشيطان «وقد أغريتني به أن أمحقه لغير علة» يؤكد أن فعل الشيطان من عند الله وأنه لا يتحرك الا بأمره فقوله (وقد أغريتني) فأن هذا إقرار من الشيطان بأن فعلته من عنده سبحانه وأن حديث الشيطان هذا لم يكن في معزل عن معرفة الله وإرادته إنما الذي أنطقه هو الله وأن كلامه هو خلاصة للموقف الذي أراده سبحانه وتعالى .

- مما جاء أعلاه يتبين أن الخير من عند الله وأن الاذى والشر الـذي يصيب الانسان وهو غير قادر على دفعه ومواجهته مثل المرض والحوادث المفجعة فأن هذه إنما تتحرك بأمر من عنده تعالى .
- إن أيوب عليه السلام يعلن عن إيمانه بأن الخير من الله وأن عليه أن يتحمل الاذى الذي يصيبه فيرد على زوجته (... أنقبل الخير من الله ولا نقبل منه الشر) مما يوضح أنه عليه السلام مؤمن أن ما أصابه من أذى انما كان من عند الله ، وعليه أن يتحمل ذلك .
- إن في هذه القصة لعبرة أراد بها سبحانه أن يبين للانسان أن الخير من عنده وأن هذا الخير يلازمه شر وأن هذه الملازمة لابد من تحملها وأن هذا الطراز من الاذى والشر الساقط على الانسان من خارجه من خلال المـرض بدون علـة والاذى بفعل الاحداث والتغيرات الخارجية لابد من ربطها بقوة هي قوة الله .
- إن العبـرة الكبرى في قصـة أيوب هي تـرويض الانسان وإعـداده لتحمل الاحداث المفجعه حيث أن الاحداث على الحياة موزعة الى نوعين أساسيين ، مفرحة وموجعه ، وأن كل إنسان يواجه فيها أصنافا متعددة من الخير والشر ، ولما كان الموت نهاية كل إنسان وإن هذه النهاية من عنده سبحانه وأنها تصيب الانبياء والمرسلين والاحياء جميعا وأن الانسان التقي الورع والآخر المجرم الظالم كل سيلاقي نهايته فان هذه النهاية الحتمية تصيب المحسنين والمسيئين وأن أثرها وتأثيرها عميق ومؤذٍ لاهل المتوفي ولذلك كانت هذه الموعظة في مرض أيوب لتكون هادية للانسان أن يتوقع كل شئ في هذه الارض ويعد نفسه لمثل هذه الاحداث .

ولقد جاءت كلمة «شيطان» في ـ العهد الجديد ـ حيث ذكرت في عـدد من الاناجيل منها (ولما كان المساء قدموا إليه كثيرين بهم شياطين وكان يخرج الارواح بكلمته وأبرأ كل من كان به سوء)[٢٩] . وجاء (فسأله الشياطين قائلين : إن كنت تخرجنا فأرسلنا الى قطيع الخنازير فقال لهم اذهبوا فلما خرجوا دخلوا في الخنازير فاذا بالقطيع كله قد وثب عن الجرف الى البحر ومات في المياه)[٣٠] .

وجاءت كلمة شيطان في مكان آخر من العهد الجديد (فلما أخرج الشيطان تكلم الاخرس فتعجب الجموع قائلين لم يظهر قط مثل هذا في إسرائيـل ■ أما الفرسيون فقالوا : إنه برنيس الشياطين يخرج الشياطين)[٣١] .

وجاءت هذه الكلمـة مرة أخـرى (أشفوا المـرضى وأقيموا المـوتى طهروا البرص ـ اخرجوا الشياطين ، مجانا اخذتم فمجانا أعطوا)[٣٢] .

و وردت كلمة شيطان (جاء يوحنا لا يأكل ولا يشرب فقالوا إن به شيطانا)[٣٣] .

وجاء في انجيل متى (وسمع الفرسيون فقالوا إنما هذا يخرج الشياطين ببعل زبوب رئيس الشياطين ■ فعلم يسوع أفكارهم فقال لهم كل مملكة تنقسم على نفسها تخرب وكل مدينة أو بيت ينقسم على نفسه لا يثبت ■ فأن كل شيطان يخرج الشيطان فقد انقسم على نفسه فكيف تثبت مملكته ■ وإن كنت أنا أخرج الشياطين ببعل زبوب فابناءكم بمن يخرجونهم فمن أجل هذا هم يحكمون عليكم ■ وإن كنت أنا بروح الله أخرج الشياطين فقد اقترب منكم ملكوت الله)[٣٤] .

إن كلمة (شيطان) التي جاءت في العهد الجديد تؤكد ذات المعنى الذي جاءت به في العهد القديم حيث أن الشيطان قوة تبدو مستقلة فاعلة مؤثرة ولكنها في حقيقة الامر تتحرك بأمره سبحانه وأن الانسان يواجهها ، يتفاعل معها فأن كانت بقوة وتأثير يستطيع مغالبتها والا فانها تتمكن منه لانها الاقوى .

رابعا ـ كلمة «الشيطان» في القرآن الكريم وكلمة «ملك» :

وردت كلمة «شيطان» في القرآن الكريم في آيات كثيرة بلغ عددها ٨٨ آية .. جاءت كلمة شيطان (في صيغة المفرد) في ٦٨ مرة وجاءت هذه الكلمة بصيغة «شيطانا» في آيتين وبصيغة الجمع «شياطين» في ١٧ مرة وفي صيغة شياطينهم في آية واحدة .

ومن متابعة الآيات التي وردت فيها كلمة «ملك» على صيغة المفرد والمثنى والجمع كان مجموع الآيات التي وردت فيها كلمة «ملك» «وملكين» «وملائكة» ٨٨ مرة أيضا ، مما يشير الى أن عدد المرات التي حملت كلمة «شيطان» وكلمة «ملك» كان واحدا .

ولما كانت الآيات التي جاءت فيها كلمة (شيطان) و (ملك) بصيغة القوة المؤثرة سلبياً وايجاباً في الانسان فان كون عدد الملائكة والشياطين متساوياً يعني أن تأثيرهما واحد ومتوازن في الانسان .

إن جمعا للآيات التي حملت كلمة «شيطان» وتلك التي حملت كلمة «ملك» وقراءتها قراءة فاحصة تبين أن قوة الشيطان قوة دافعة لفعل الشر والاذى وأن قوة الملك قوة دافعة لعمل الخير ومواجهة الاذى والشر ، وأن فعل كل من هاتين القوتين يبدأ في لحظة واحدة يتحركان في اتجاه مشترك ويحلان في داخل الانسان حيث تبدأ المعركة بينهما على ساحة عقله ووجدانه .

إن قوة الشيطان لا تفعل فعلها الا عند لقائها في الانسان وتفاعلها مع نوازع الشر فيه وقوة الملك لا تفعل فعلها في الفراغ إنما تبدأ تأثيرهـا عند دخـولها في الانسان وتفاعلها مع دوافع الخير فيه حيث تصبح قوة مضاعفة تواجه قوة الشر التي قامت بتفاعل نوازع الشر مع قوة الشيطان .

إن ملاحقة النزاع بين قوى الشيطان والملك تبين أن المعركة بينهما تقوم داخل الانسان ولم نسمع أخبار معركة نشبت بينهما خارج الانسان ، إن الحكم على طبيعة الفعل كونه خيرا أو شراً خاص بفعل الانسان أما أفعال الحيوانات فأنها لا تسمى افعالا خيرة ولا شريرة لانها تنطلق منها بصورة غريزية وليست للحيوان قوة إرادة وإدراك تميز الشر من الخير ولهذا فأن أفعالها لا توصف بهاتين الصفتين .

إن إقدام الحيوانات المفترسة المقدسة على عمل عدواني ضد الانسان لا يمكن تفسيره بأنه حصل بدافع وبقوة من الشيطان ، وأن فعل النحل ايضاً وهي تضع عسلها بصورة منظمة ودقيقة لا يمكن أن يكون فعلها هذا النافع بدافع وبقوة من الملك ، إنما هو نقل غريزي لا أثر للارادة والادراك والتمييز فيه ولا وجود ايضاً للشيطان أو الملك في طبيعته الشريرة أو الخيرة .

إن أفعال الانسان هي التي يحكم عليها بالخـير أو بالشر ، بـالصواب أو بالخطأ ، بالعدل أو بالجور لان الانسان المخلوق الوحيد الذي يحس ويدرك ويميز ويعبر عما يريد ويستطيع إتخاذ القرار الذي يراه ويواصل تنفيذه لذلك بأرادته الحرة المستقلة الواعية .

إن قراءة دقيقة للآيات القرآنية التي ذكرت فيها كلمة شيطان أو ملك تبين ما يأتي :

١ - أن ظاهر هذه الآيات يوحي بأن للشيطان قوة مستقلة تفعل فعلها وتأثيرها في الانسان وتدفعه الى إرتكاب الاثام والاخطاء وأن هذه القوة أكبر حجما وأشد تأثيرا من قوة الانسان ، لذلك تحمله لارتكاب الخطأ وتحمله على اقتراف الذنوب .

وأن قوة الملك تبدو قوية خارقة تفعل فعلها وتدفع الانسان الى القيام بالاعمال النافعة المفيدة وأن هذه القوى وراء كل ما يأتي من الانسان من عطاء ونفع وخير .

٢ - إن ملازمة للآيات الحاملة لكلمة «الشيطان» و «الملك» وهي تعطي الدلالة المشار اليها في الفقرة السابقة تبين أن قوة الشيطان والملك تبدأ بتفاعلها مع الانسان في امتزاجها مع تكوينه الداخلي ، مع إدراكه وغرائزه وعواطفه ووجدانه ودفعها لنوازع الشر لان تتقوى وتندفع في درب العدوان والاذى ، والامر ذاته بالنسبة لقوة وفعل الملك ، فأنها تبدأ عند دخولها في الانسان وتفاعلها مع قواه المختلفة ومشاركتها في الفعل والتأثير مع ودوافع الخير فيه حيث يسفر عن ذلك القول الصائب والفعل النافع .

٣ - ولما كان عدد الآيات التي فيها كلمة «شيطان» يساوي عدد الآيات التي فيها كلمة «ملك» سواء بصيغة المفرد أو الجمع فأن هذه المساواة بالعدد تعني أن حجم القوة لكل من قوة الشيطان والملك متعادلة .

ولما كانت هذه القوى الخيرة والشريرة «قوة الشيطان وقوة الملك» هي من عند الله فأن قوتها ودفعها وتأثيرها لابد أن يكون واحدا ، فما تحمله قوة الشيطان من طاقة سلبية تعادل ما تحمله قوة الملك من طاقة إيجابية .

ولما كان الانسان هو الآخر من خلق الله حيث أنه سبحانه خالق كل شئ ، فأن قوته في التعامل والتفاعل مع قوى الشيطان وقوى الملك واحدة وتأثير كل منهما تأثيرا يعادل تأثير الآخر ، إلا أن أحدهم يؤثر سلباً والآخر إيجاباً .

٤ - ولما كان القرآن الكريم قد وعد الانسان بالثواب على فعل الخير وتوعده بالعقاب على فعل الشر فلا بد أن يعطي الله سبحانه وتعالى حرية وإمكانية للتمييز والاختيار وقوة للتنفيذ واتخاذ القرار حرة مستقلة لكي يكون هناك وجه حق في إعطاء الثواب للعمل النافع وفرض العقوبة على فاعل الشر ومرتكبه ، ومن هنا فأن الآيات القرآنية الداعية لفعل الخير والمانعة من فعل الشر أعطت الانسان حرية في الاختيار واتخاذ القرار لكي يصح تقديم الثواب وفرض العقاب .

ومن متابعة الآيات الكريمة يتبين أن الانسان بتكوينه المتميز وبقوة إدراكه

وبأرادته المستقلة هو الذي يتخذ القرار فأما أن يكون صائبا فيكافأ عليه أو يكون مخطئاً فيعاقب بموجبه . ومن هنا لابد أن نبحث في طبيعة الانسان وتكوينه وتركيبه لكي نقف على مصدر القوة والفعل والتنفيذ فيه من أجل تحديد هذه المصادر وحجمها وكنهها ومدى حريتها واستقلالهـا في اتخاذ القرار ليصح تطبيق مبدأ الثواب والعقاب عليه وتحميله مسؤولية ما يقوم به .

٥ - إن تكوين الانسان هذا التكوين الخاص المتميز حيث خلق من تراب ومن ماء فصار طينا لازبا ثم نفخ الله فيه فبث فيه الحياة حيث صار نطفة ثم علقة حتى صار إنسانا ، هذا التكوين من مادة التراب والماء والروح من عنده جعلت الاحياء كافة .. النباتات والحيوانات والانسان منها تتكون من مادتين رئيسيتين هما التراب والماء ، والروح وبكلمة أدق صارت الاحياء مخلوقة ومكونة من المادة والروح ، هذه الثنائية في التكوين هي التي ميزت الاحياء من غير الاحياء ومن الملائكة حيث إن الملائكة خلقت من نار وأن هذه ذات بعد واحد وليس بعدين ، ويتحدث القرآن الكريم عن الثنائية الموجودة في الاحياء والاحادية الموجودة في الملائكة ، عندما أمر سبحانه الملائكة أن تسجد لادم حيث يقول (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لادم فسجدوا الا إبليس أبى)[٣٥] . وقال سبحانه (ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين)[٣٦] . وعندما سـأل الله تعالى إبليس عن أسبـاب إمتناعـه من السجـود لآدم إذ خاطبـه (قال يـا إبليس ما منعـك أن تسجد لمـا خلقت بيدي)[٣٧] . رد إبليس على سؤاله سبحانه قائلا (قال ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين)[٣٨] .

إن هذه الثنائية التي خلق الله بها الاحياء وبخاصة الانسان ثم تطوير هذه البداية تطويرا إنتهى الى أن يتميـز الانسان من سـائر الاحيـاء بخلقته وتكوينه الجسدي والداخلي بحيث صار أحسن خلقه وأعلاهم تطورا حيث قال فيه سبحانه (لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم) وقال (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا إبليس لم يكن من الساجدين)[٣٩] . وقوله تعالى (ولقد خلقناكم ثم صورناكم) يعني تلك الخلقة التي بدأها سبحانه وتعهدها وصورها أحسن تصوير ، وبعـد أن وصلت مرحلة الاتقان ، طلب من الملائكة السجود للانسان .

إن الحوار بين الله سبحانه وتعالى وإبليس حول تفضيل آدم على الملائكة ورد إبليس بأنه أفضل من آدم لانه مخلوق من نار وأن آدم خلق من طين ، إن هذا الجواب ذاته هو الدليل على أن تفضيل الله لآدم على الملائكة لان آدم خلق من طين وأن الملائكة خلقت من نار ، وهذا التفضيل هو جواب من عند الله وإقرار منه وأن هذا التفضيل حصل لان هذه الخلقة والتكوين من مادة الطين والروح فيها هي التي جعلت الانسان على ثنائيته التي بها يدرك ويميز ويعيش في بعدين متناقضين وأن كون الملائكة من نار أو نور فأنها تعيش في بعد واحدا أو تكون على حالة واحدة وهذه الحالة سواء أكانت كلها خير أو كلها شر فهي حالة أحادية لا يمكن أن تدرك شيئا ولا يمكن أن تدرك باعتبارها شيئا محددا حيث أن الخير لا يعرف الا عند إقترانه بالشر وأن الظلمة لا تكتشف الا بالنور وأن النور تدل عليه الظلمة وأن أي حالة ذات بعد واحد لوحدها لا تمتلك مقومات البقاء والتمييز والدلالة .

إن الثناية التي خلق الله عليها الانسان هي التي ميزته من الملائكة وجعلته مفضلا عليها ومن هنا جاء أمره تعالى للملائكة ليسجدوا لآدم .

إن الثنائية هي التي ميزت الانسان من الملائكة وأن الانسان تميز من سائر الاحياء بقدرته على الادراك والتمييز والتعبير عما يدرك واتخاذ القرار وتنفيذه بارادة مستقلة ، هذه الخصائص هي التي جعلته يتميز من الملائكة ومن سائر الاحياء وبهذه الخصائص استحق خلافة الله في الارض وهذه الخلافة تعني مسؤولية الانسان عن نفسه وعن الارض وعما يحيط به منها وعليه أن يتفاعل داخل ذاته ويتحرك نحو الخير ضد نوازع الشر فيه ويتحرك صوب الخير والقوى الخيرة يتفاعل معها في مواجهة القوى الشريرة ، إن صراعه داخل ذاته وصراعه مع محيطه هو الذي أعطاه صفة الخلافة وهو الذي ميزه من سائر خلقه سبحانه وحمله مسؤولية الحكم في الارض .

وهذه المسؤولية تبدأ من الحرية المطلقة المعطاة لقوى الانسان أن تفعل وفق ما ترى وتستطيع وأنها مسؤولة مسؤولية كاملة عن نتائج فعلها النابع من تلك الحرية ، هذه المعادلة الدقيقة بين الحرية التامة والمسؤولية المقابلة لها هي التي تجعل الانسان حرا في أعماله وتجعله مسؤولا عنها ، وهي التي تعطيه ثواب فعله الخير وتحمله عقوبة عمله الشرير .

٦ - إن مصدر الفعل للخير والشر في تكوين الانسان الثنائي هذا ، حيث أن الانسان نشأ وفيه قوى الخير وقوى الشر وأن هناك جنودا لقوى الخير وحراساً لقوى الشر حيث نوازع الشر تلتقي مع بعضها فتؤلف قوة الدفع نحو عمل الاذى والعدوان ودوافع الخير تلتقي مع بعضها فتحمل الانسان على فعل الخير فأن رجحت دوافع الخير وتمكنت من التغلب على نوازع الشر ، كان العمل خيرا مصيبا والا فيكون العمل شريرا مؤذيا إذا ما تغلبت نوازع الشر .

ليس هناك إنتصارا مطلقا ودائما في الانسان الواحد لقوى الخير أو لقوى الشر إنما هناك انتصار لاحدى هاتين القوتين بالدرجة وليس في المطلق كما أن هذا الانتصار ليس دائما لاحداهما على الثانية كما أنه ليس النصر أو الخسارة لاي منها في جميع المعارك إنما الحرب سجال فمرة تنتصر نوازع الشر وأخرى تتغلب دوافع الخير وهكذا في عملية تناقضية مستمرة .

إن الثنائية التي خلق الله الانسان عليها كانت من عنده تعالى متصلة بطبيعة تكوينه الثنائي الذي أشرنا إليه وأنه سبحانه جعل في الانسان قوتين متناقضتين متجابهتين حيث قال (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها)[٤٠] ... إن هذه الآية الكريمة صريحة بأن النفس من عند الله وأنه تعالى جعل فيها نزعتين ، نزعة للفجور والشر وأخرى للهداية والتقى والخير وأن هاتين النزعتين متقابلتان متجاورتان متضادتان في مجابهة مستمرة تارة تتغلب نزعة الفجور على نزعة التقى وأخرى تتغلب الاخيرة على الاولى وتعود اتنتصر هذه على تلك في دورة متتابعة .

إن نوازع الشر تتركز في قوة الفجور ودوافع الخير تتمثل في قوة التقي والهداية ، وأن دفع هاتين القوتين يصطدم بأدراك الانسان ووجدانه وارادته وغوايته وكل ما يتفاعل في داخله من قوى ومؤثرات وأن القرار الاخير يتخذه إدراك الانسان وعقله وإرادته ، وهذا الادراك على درجة من التمييز والقدرة على اتخاذ القرار وتنفيذه مستقلة بحيث يتحمل في ضوئها مسؤولية طبيعة القرار إن صوابا وإن خطأً ، وقد أعد الله سبحانه الانسان ليكون قادرا على الادراك والتمييز بين ما تنزع إليه نفسه الملهمة فجورا وبين نفسه الملهمة تقى وفي وفي ضوء هذا الادراك والتمييز والارادة على اتخاذ القرار تكون مسؤوليته ، وقد أوضح سبحانه أنه هيأ للانسان هذه القوة التمييزية

والارادة التنفيذية حيث قال (انا هديناه السبيل إما شاكرا وأما كفورا)[41] .
وقال (وهديناه النجدين)[42] .

٧ - إن فعل الشيطان الشر وفعل الملك الخير ، يبدأ عند دخول كل منهما في الانسان وتفاعل الشيطان مع نوازع الشر والملك مع دوافع الخير ، ولما كان فعل كل من الشيطان والملك واحداً من حيث الحجم والقوة والتأثير وأن كلا منهما له قوة معادلة للآخر وأن قوتهما متناقضة ، فالاول الشيطان قوته سلبية والملك قوته إيجابية فان تقابل هاتين القوتين وتصادمهما يؤدي الى أن تأكل الواحدة الاخرى وتسقطان في حومة المعركة بقايا قوة مسحوقة ، وعليه فأن تأثيرهما في المعركة بين نوازع الشر ودوافع الخير في الانسان تكون غير ذات أثر لان كلا منهما تأتي على الاخرى فتسقطان هشيما أو رمادا تذروه الرياح .

إن قوة الشيطان وقوة الملك قوتان الملك قوتان متلازمتان في عملية واحدة كل منهما تؤلف وجها من هذه العملة وكل قوة تستقر عند قطب من قطبي هذه العملة ، وحينما يتصارعان تحاول كل منهما ان تأتي على قوة الآخر فتسقطها ، ولما كانت القوتان متعادلتين ومتساويتين ، فأنهما يظلان في صراع بينهما ولا تستطيع أية قوة منهما أن تؤثر في الانسان تأثيرا إيجابيا أو سلبيا حيث أن لا فرصة لاية قوة أن تتقدم خطوة على حساب القوة المنافسة لها وبذلك تقف القوتان في نقطة واحدة غير مؤثرة فأما أن تسقط أو تعود منهزمة خارجة عن الانسان حيث لم تحقق أي منهما الغرض الذي جاءت من أجله ودخلت الانسان في سبيله ، ولهذا فأن قوة الشيطان الخارجية وقوة الملك الخارجية لا أثر ولا فعل لهما في الانسان ويظل فعله ونتائجه رهينة بحقيقته التي جعلها الله فيه حيث قال (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) وأن غلبة الفجور في هذه النفس يعني انتشار الشر ووقوعه ، وإذا كان فعل الشر لابد أن يقترن بفاعله وأن فاعله يسمى شيطانا فأن فعل النفس الفاجرة المعتدية الظالمة هو فعلها الشيطاني الرجيم ، وفعل النفس التقية الخيرة هو فعل ملاك الهداية والرحمة في هذه النفس وأن الميزان الذي يدفع بهذه الفعلة الشيطانية أو بتلك الرحمانية إدراك الانسان وإرادته المتفاعلة مع نزعة الفجور والتقى في نفسه ، وفي ضوء طبيعة القرار تكون النتيجة بالثواب أو العقاب .

خامسا ـ إبليس والشيطان :

لقد وردت كلمة إبليس في القرآن الكريم في إحدى عشرة آية هي :

١ ـ [وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى ...][٤٣]

٢ ـ [ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس][٤٤]

٣ ـ [إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين][٤٥]

٤ ـ [قال يا إبليس ما لك ألا تكون مع الساجدين][٤٦]

٥ ـ [وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس][٤٧]

٦ ـ [وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى][٤٨]

٧ ـ [فكبكبوا فيها هم والغاوون ■ وجنود إبليس أجمعون][٤٩]

٨ ـ [ولقد صدّق عليهم إبليس ظنهم فاتبعوه الا فريقا من المؤمنين][٥٠]

٩ ـ [إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين][٥١]

١٠ ـ [قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي][٥٢]

١١ ـ [وإذ قلنا للملائكة اسجدوا فسجدوا إلا إبليس][٥٣]

هذه الآيات الكريمة ثماني منها متعلقـة بموقف إبليس من آدم ورفضـه السجود له والآيات صريحة في هذه المطالبة ، والآيات الثلاث الاخرى وهي الآية (٩٥) من سورة الشعراء والآية (٢٠) من سورة سبأ والآية (٧٤) من سورة ص تدل على قوة إبليس وتكبره وعناده وتأثيره في دفع الناس على عمـل الشر ، وأن لابليس جنوداً يعاونونه في مهمته هذه .

وإن إبليس يشكل قوة استطاعت أن تقف مخالفة بقية الملائكة حيث أطاعت الملائكة أمر الله فسجدت لآدم ورفض إبليس ذلك مما حمل سيد قطب على أن يعد إبليس من غير الملائكة إلا أنه عده (معهم) لأنه يختلف عنهم فقال [إن إبليس لم يكن من جنس الملائكة إنما كان معهم فلو كان منهم ما عصى وصفتهم الاولى أنهم «لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون» وإبليس من الجن بنص القرآن والله خلق الجان من مارج من نار وهذا يقطع أنه ليس من الملائكة](٥٤) .

ويقول الطبري . وإبليس من [الابلاس وهو الأياس أي اليأس من رحمة الله .. إن إبليس دعا لعبادة نفسه حيث أنه كان من الجن الذين خلقوا من نار السموم ... إن إبليس كان ملك سماء الدنيا وسائسها وسائس لما بينهما وبين الارض وخازن الجنة مع اجتهاده في العبادة فاعجب بنفسه واستكبر على الله](٥٥) .

ويقول إبن الجوزي في إبليس والشيطان [... إن المصادر الاسلامية تفرق بين إبليس والشيطان فأبليس هو ذلك الكائن الذي عصى ربه بعدم السجود لآدم فطرده من السماء وهو الذي يحرض الانسان على عدم السير في خطوات الله .. أما الشيطان فهو في الكائنات الشريرة التي ربما تستوحي قوتها وأوامرها منه](٥٦) .

وإبليس علم جنس للشيطان والجمع أبالس وأبالسه(٥٧) .

إن موقف إبليس هذا ليس موقفا ذاتيا وأن حديثه هو حديث الله سبحانه عنه وأن ما قيل عنه إنما يمثل (لسان حاله) .

إن هذا الحوار بين الله سبحانه وتعالى وإبليس وهذه المحاكمة منه سبحانه له لرفضه السجود لآدم ودفعه وتسويغه بعدم سجوده بأنه خلق من نار وأن النار أفضل من الطين وأنها هي التي تصهر كل شئ ، تعطي الحرارة والدفء وتبخر الماء ، ويصدر الضياء عنها وأنها طاقة ضرورية لكل حركة ، الا أن هذه الحجة لم تكن مقنعة حيث رد عليه سبحانه مقرعاً بقوله [قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي] وأراد سبحانه وتعالى بهذه الآية الكريمة أنه هو الذي خلق آدم بقدرته وهو الذي طالب بالسجود له فكان عليه أن يطيع أمر الله ، وفي هذه الآية معنى آخر .. أنه هو الذي خلق آدم وهو الذي خلق إبليس من نار وهو الذي قرر تفضيل

آدم على إبليس لحكمة يراها فليس من حق إبليس الامتناع عن الاجابة بحجة أنه مصنوع من نار ، فما أدراه بأن النار أفضل من الطين الذي نفخ فيه من روحه .

- إن العبرة من هذه الآيات التي طالب سبحانه في ثمانٍ منها إبليس أن يسجد لآدم هي تفضيل آدم على الملائكة ، على الرغم من أن الملاكة من خلقه كما أن آدم من خلقه أيضا ،؛ ولابد أن يكون وراء تفضيل الله آدم على الملائكة من حجة لذلك فان متابعة موقف إبليس والحوار معه يحمل في ثناياه الاسباب التي جعلت الله سبحانه وتعالى أن يفضل آدم على الملائكة ، ومن هذه الآيات قوله تعالى [وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الارض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال أني اعلم ما لا تعلمون][٥٨] .

- إن احتجاج الملائكة واعتراضهم على الله سبحانه كيف يجعل على الارض خليفة سيفسد فيها ويسفك الدماء ولا يجعل هذه الخلافة للملائكة التي تسبح بحمده وتقدس ذكره فأن اعتراضهم هذا رد عليه سبحانه بقوله [إني أعلم ما لا تعلمون] .. وهذا العلم الذي لا تعرف سره وأبعاده الملائكة ينطوي في ذات الآية ويقوم في ثناياها .

- إن خلافة الانسان على الأرض تمت بقرار منه سبحانه وأنها أعطيت للانسان لأنه قادر على القيام بها وأن هذه القدرة حاصلة ومتمثلة في طبيعة الانسان وكنهه حيث خلق من طين لازب ، ومن ثم نفخ فيه من روحه ، وأن هذه الطبيعة الثنائية هي القادرة على تحمل المسؤولية ومجابهة تكاليف الحياة على الارض وحمل أمانته ورسالاته وأنه بهذه الازدواجية سيتفاعل مع ذاته ومع بيئته وعبر هذا التفاعل ستدوم الحياة وتتطور وبهذه الديمومة استحق مسؤولية الخلافة عليها ... وأن احتجاج الملائكة بأن هذه الخلافة ستغرق الحياة بالدماء وسيعم فيها الفساد ، فأن ذلك نتيجة الصراع بين المتناقضات ، بين الخير والشر ، بين الحياة والموت ، بين الحق والباطل ، بين العدل والجور ، بين التعمير والخراب ، بين الرفض والعطاء .. وهذه المجابهة لابد منها وأنها لا يمكن أن تكون الا بخلافة الانسان حيث أن تكوينه الثنائي هو ساحة المعركة الرئيسية وأن طرفي المعركة بين نزعة الشر ونزعة الخير .. بين عناصر البقاء

وعناصر الفناء .. وأن هذا الصراع الداخلي تنتج عنه قوة تتصارع مع المتناقضات المحيطة وهكذا في عملية تناقض مستمرة وان هذا التناقض هو مركز هذه الاهمية التي فضل الله بها آدم على الملائكة حيث أنها لا تستطيع أن تدخل المعركة لانها مخلوقة من نار وهي ذات بعد واحد وهذا البعد الواحد لا يستطيع التفاعل مع أبعاد الحياة المتناقضة المتمثلة في الاحياء وفي الظواهر الطبيعية الاخرى ذات التكوين الثنائي .

إن الانسان هو المخلوق القادر على مواجهة التناقض في داخله وفي خارجه وأن الحياة هي في هذه المعركة بين النقيضين وأن ديمومتها في بقاء هذا الصراع محتدما .

إن حجة إبليس وهو يقول [... قال إني خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين] لم يدرك بأن هذه الخلقة لآدم من طين هي التي فضلته على إبليس المخلوق من نار .. وعندما أصر إبليس على موقفه حكم عليه الله سبحانه فأخرجه من دائرة الملائكة حيث كان معهم الى الارض ليبدأ معركته مع الانسان .. فقال سبحانه في ذلك [قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين][٥٩] . هذا الاخراج لابليس من دائرة الملائكة كان بسبب تكبره ومخالفته أمر الله حيث دفع به الى الارض لتبدأ المعركة حامية بينه وبين الانسان .. إن كلمة (فاهبط) تعني السقوط من مرتبة الملائكة الى مرتبة نقيضة لها حيث يعيش الانسان ليبدأ الصراع معه .. وقبل أن يصل إبليس الى الارض توعد بشن حرب على الانسان حيث خاطب الله سبحانه [قال فبما أغويتني لاقعدن لهم سراطك المستقيم][٦٠] .. ثم زاد متوعدا [ثم لاتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد اكثرهم شاكرين][٦١] ... فلما سمع الله تهديده ووعيده هذا أمر بطرده من دائرة النور وقال مخاطبا إياه [قال فاخرج منها مذؤوما مدحورا لمن اتبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين][٦٢] .

في هذه الآيات الكريمة صورة متكاملة عن موقف إبليس يوم كان مع الملائكة ورفض السجود لآدم فأخرجه الله من حظيرتهم وأنزله الى الارض فراح يتهدد ويتوعد .

وإذا ما دققنا في قول إبليس وهو يخاطب الله سبحانه [قال فبما أغويتني

لاقعدن لهم سراطك المستقيم] وقوله [ثم لاتينهم من بين أيديهم ...] فان هذه القوة التي يهدد بها إبليس هي من عند الله ، فقوله فبما أغويتني أي مكنتني من الغواية والاغواء وبها سأقعد على الطريق المستقيم لادفع عنه الغاوين أي الذين أدفع بهم عن جادة الحق .

إن هذه القدرة في إبليس إنما وضعت لاختبار الانسان وامتحانه ليواجه الموقف ويعمل على التغلب على دوافعه التي تدفع الى الغواية والخطأ لتبدأ حياة الانسان الجديدة المتباينة عن حياته يوم كان كغيره من الحيوانات لا يحس ولا يفرق أوكحياة الملائكة التي هي في خير مطلق ونور دائم ، وعندما يذكّر الله سبحانه وتعالى إبليس والانسان بقوله [قال أخرج منها مذؤوما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين] نبه الانسان على ضرورة الانتباه الى فعل إبليس وغوايته وأن من يستسلم له سيكون مصيره الى جهنم ، مما يؤكد أن فعل إبليس ليس قوة غالبة مطلقة إنما هي قوة مجابهة ودفع للشر وأن في الانسان قوة مقاومة ومضادة وأن الغلبة للاقوى .

إن إبليس وهو يطرد من حظيرة الملائكة ويعلن عن عدائه للانسان يدخل دائرة الشر ويصير أبا الشياطين وقائدهم جميعا وأنه كبير هذه القوى التي بدأت الحرب مع الانسان منذ أن صار إنسانا مدركا معبرا قادرا على اتخاذ القرار في اتباع طريق الخير أو طريق الشر .

وتبدأ معركة إبليس كقوة شريرة منذ حركته صوب ادم وحواء فراح يوسوس لهما ويزين لهما ارتكاب الخطأ ومخالفة أمر الله يوم كان آدم وحواء يعيشان في الجنة حيث الخير المطلق وإذا بآدم وحواء يقعان تحت تأثير وسوسته وفعله فيتقدمان باتجاه الشجرة الممنوعة فيأكلان منها فتبدأ عملية نقل وتحويل للانسان من حالة العيش في بعد واحد يوم كان في الجنة حيث لا تفريق ولا تمييز بين حياة وأخرى وشجرة وثانية وعندما بلغ الانسان درجة التمييز والقدرة على الاختيار ورغبة في التحدي تحول من حالة البعد الواحد الى حالة التناقض والعيش في بعدين ، وبذلك بدأت حياة الانسان على الأرض غيرها يوم كانت في الجنة حيث تلك كانت حياة في بعد واحد وعلى امتداد أحادي الفعل والتأثير ، فلما وقف آدم وحواء يتطلعان بشوق ورغبة الى الشجرة وما فيها ويقدمان على اتخاذ قرار مخالف تبدأ الحياة الجديدة الثنائية التي بها استحق الخلافة في الأرض .

إن مرحلة التقدم في سبيل معرفة سر الشجرة الممنوعة وما فيها وعدم الاكتفاء بخيرات اشجار الجنة سدا لحاجته يشير الى بدء انقسام الانسان الى حالتين ، حالة تستقر وتستلذ بالعطاء والنعيم والرفاه ، وهذه لا تلبث أن تتطلع الى عطاء آخر وحالة ثانية هذه الحاجة المتجددة وهذا التطلع الى المجهول والرغبة في معرفة الممنوع وكشف الالغاز والشعور بالحاجة بعد الاشباع وفي قمته والتشوق الى حاجات أخرى هي مرحلة توزع الانسان الى نقيضين متصارعين وأن هذه الحالة تختلف عن حياة الملائكة وحياة بقية الاحياء وبها تولى الانسان مسؤوليته على الارض .

ان الآيات القرآنية الكريمة بخصوص هذه المعركة تقول (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ■ فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين)[٦٣] .

من هنا بدأت المعركة بين الانسان والشيطان وقد بدأت عندما انتقل الانسان من مرحلة عدم الادراك والتمييز والتعبير الى مرحلة الادراك والتعبير .

إن الجنة التي سكنها آدم ، من عند الله وكانت وارفة غنية ملأى بكل أنواع اللذة والراحة والهناء ، وأن الله سبحانه قادر أن يبقى الانسان فيها مترفا وسعيدا الا انه سبحانه وتعالى عندما قرر أن تبدأ حياة للانسان فيها سعادة وفيها حركة ولذة تختلف عن حياة الملائكة فلا بد أن يخلق حياة فيها سعادة وشقاء لكي تتميز عن حياة المخلوقات الاخرى التي لا تستطيع التمييز والتعبير عما تشعر به .

إن جنة آدم وحواء كانت عندما عاشا فيها وهما في حالة لا تستطيع التفريق بين عطاء شجرة عن عطاء شجرة أخرى وكانت حياتهم تمتد على بعد واحد لا تفرق بين ما يمتد على جانبيها من ظلمة أو نور ، كانت حياة كلها نور وأثمار وماء عذب وشراب نمير وليس هناك ماء آسن ولا شجرة اوراقها مدببة وأغصانها عيدان يابسة ، .. كانت حواء أم البشر وآدم أبوهم لا يستطيعان التعبير عما يحسان به ولا التفاعل إيجابيا أو سلبيا مع ما يحيط بهما ... كانت مرحلة التطور فيهما لم

تصل بعد الى درجة الادراك والتمييز والتعبير ، وكان كل شئ يحيط بهما ويؤثر عليهما ، أي كان نوع هذا التأثير مؤذيا أو مفيدا لا يقويان على الحكم واصدار القرار بأن «هذا الشئ» نافع وذلك مضر ، على الرغم من حدوث الفوائد والاضرار .

إن حياة آدم وحواء في الجنة الاولى كانت حياة ذات بعد واحد كلها خير دون القدرة على التعبير عن هذا الخير والحديث عنه وهذه الجنة هي جنة الانسان الذي هو في حالة أحادية الشعور والادراك كما هي عليه حال الملائكة ، وهذه الجنة الاحادية من عند الله وهبها للانسان وللملائكة حيث لم يرتكب احد منهم أية مخالفة ، ذلك لانهم لا يملكون القدرة على ارتكاب المخالفة إنها جنة من عند الله ، هبة من دون ثمن ، وهذه الجنة ليست الجنة التي أرادها الله للانسان مكافأة لاعماله وثوابا لخيراته .. ان الجنة (الآدمية) هي التي تقوم على المكافأة للانسان على فعله الخير والا فيكون نصيبه العقاب والنار .. إن الجنة القائمة على الحساب إنما تجاورها نار تكون مستقرا للكفرة المجرمين . ولكي تبدأ هذه المرحلة لابد من جعل الانسان قادرا على التمييز بين الامور صالحها وطالحها وأن تكون له الحرية في العمل تجاه الخير أو الشر وأن تكون لديه القدرة لمعرفة درب الضلال من طريق الهدى ، ولديه الارادة المستقلة لاتخاذ القرار وتطبيقه .. هذه المرحلة تتطلب إنسانا يختلف عن الانسان الاول الذي كان أقرب في تكوينه الى مرحلة الحيوان غير المدرك غير الناطق .. ولكي تبدأ هذه المرحلة لابد أن يصل الانسان الى مرحلة التمييز بين الاشياء والشعور بها نافعة أو ضارة والادراك لما يقوم به ، وأنه في اتخاذه هذا الاجراء يكون نافعا لنفسه ونافعا للآخرين أو ضاراً لذاته ولغيره .. هذه الدرجة من التطور هي التي تعطي الانسان خلافة الله في الارض وتسوغ محاسبته على أعماله وإصدار الحكم عليه فأما الى الجنة وأما الى النار ... إذن الجنة الجديدة لابد أن تبدأ من الانسان على الارض وتكون نهاية لفعل الانسان وحسابا له في ضوء سجل أعماله فهي جنة للصالحين العاملين بوعي وإيمان والا فهناك نهاية معاكسة لهذه .

ومن اجل ان تبدأ هذه المحاسبة وتنتهي الى الثواب أو العقاب لابد أن يكون هناك إنسان من طراز جديد تتمثل في حياته معركة الحياة ، ويكون وسيلتها وساحتها والنهاية المتحصلة عنها .

إن الآيتين ٣٥ ، ٣٦ توضحان بداية النهاية لمرحلة الانسان غير المدرك

المعبر كما أنهما تمثلان بداية البداية لمرحلة الانسان المدرك المميز المعبر عما يريد أي مرحلة الانسان المتطور الذي يعيش في بعدين ويدرك ما يحيط به إن خيرا أو شرا ، سعادة أو شقاء ، حقا أو باطلا ، ظلمة أو نوراً .

إن هذه البداية قامت عندما بلغ الانسان درجة الادراك لاوامر الله وهو يخاطبه (وقلنا يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) .

إن خطاب الله سبحانه لآدم وزوجه لم يسمع الا عندما بلغ آدم وحواء مرحلة الادراك المميز حيث لا يجوز مخاطبة المخاطب إلا عندما يستطيع سماع النداء المخاطب به وادراكه .

إن هذا الخطاب كان خاصا بالانسان في هذه المرحلة فلو صدر عنه سبحانه قبل ذلك وكان آدم وحواء في مرحلة تطورية لم تصل بعد الى درجة الادراك والتمييز لما صدر هذا الخطاب ، وإن صدر فلا يلزم آدم وزوجه حيث لا قدرة لهما على إدراكه وتنفيذه .

كما أن الله سبحانه لم يخاطب الاحياء من نباتات وحيوانات بهذا الخطاب لانه يعلم بأنها غير قادرة على إدراكه وتنفيذه .

إن نص الآية الكريمة التي طالب فيها سبحانه آدم وحواء السكن في الجنة والأكل منها رغدا وأن لايقتربا من (هذه الشجرة) فأن هذا الاختيار لهذه الشجرة دون سواها والمطالبة بعدم الاقتراب منها هي بداية التمييز بين شجرة وأخرى ، بين حالة وثانية ، هي مرحلة عدم إعطاء كل شئ ، إنما هناك عطاء ومنع ، هذه البداية هي أساس وضع الحياة على طريقين وفي حالتين مختلفتين ، خيرة وغير خيرة ، عطاء ومنع ، جنة وارفة وشجرة منها ممنوعة عن الناس وبذلك بداية لحياة الانسان المتباينة عن حياة الاحياء كافة وحياة الملائكة حيث تعيش كل هذه على حالة واحدة هي سعادة ورفاه وخير دائم ، وهذا الرفاه والخير المستمر لا يجاوره بؤس أو شر ، فهو يمتد طويلا على نسق واحد وأن الذين يعيشون على امتداده لا يفرقون بين حياتهم في الليل وحياتهم في النهار ، لا يجوعون ولا يعطشون ولا يتألمون وهذه جنة الملائكة التي هي خاصة بهم ، أما جنة الانسان فتمتد على

بعدين . بعد يتلألأ نورا وسعادة وعطاء ورفاهية يجاوره شقاء وتقوم على امتداده نار حامية .. والانسان قبل أن يدخل هذه الجنة عليه أن يعمل أعمالا صالحة توصله إليها وإلا فان ارتكب جرائم وآثاماً فمصيره الى النار .

إن قرار المنع الموجه من عند الله كان قد صدر عنه سبحانه الى الانسان وقد تلقاه وادرك كنهه وبدأ يفكر فيه ويسأل لماذا أباح الله سبحانه له التمتع بأشجار الجنة كلها عدا شجرة واحدة ، وقف طويلا أمام هذه الشجرة وهو يفكر في أمر المنع ويحاول الاقتراب منها فيتذكر امر الله فيتراجع ويعود يحاول الاقتراب ثانية ، وبينما يهم بمد يده واستعمال جوارحه في كشف سر هذه الشجرة يعود يتذكر قرار الله له بالامتناع عنها .. هذه المحاولات للاقتراب من الشجرة والتراجع عنها والدوران حولها والتفكير بأمر الله والنية لمخالفته والرجوع الى الاستسلام لحكمه هي المرحلة التي جاءت متوافقة مع التطور الذي وصل إليه الانسان حيث صار يميز بين الاشياء .

إن الشيطان الذي أزلهما ، تحرك عندما بدأ كل منهما يفكر في أسرار المنع وفي الرغبة لكشف الحكمة من هذا التحريم ، ولولا حيرة الانسان وتحفزه وتفكيره وشعوره بالرغبة في معرفة سر الاسرار القائم في تلك الشجرة لما تقدم الشيطان خطوة ولما استطاع التأثير عليهما .. إن الشيطان بدأ عندما راح كل من آدم وحواء يهمهم بالاقتراب من تلك الشجرة ، وتلك المحاولة والمعاناة واالتفكير والعزم للتحرك صوب الشجرة والتراجع والعودة الى التقدم إليها ثانية هي الوسوسة الشيطانية التي انتهت الى إقدام آدم وحواء صوب تلك الشجرة الممنوعة فالشيطان هنا هو نزعة التطلع والتشوق والرغبة في الاطلاع ومعرفة السر والحاجة الى كشف المجهول والشعور باللهفة لسبر غور هذا الممنوع ، وأن القرار المتخذ في الحركة بهذا الاتجاه هو قرار آدم وحواء وليس قرار الشيطان .

إن الله سبحانه وتعالى أراد أن تكون حياة الانسان على الارض حياة حية مبصرة متميزة .. فلابد أن يكون الانسان على هذه الصورة القادرة على الرفض والطاعة لتبدأ حياة من طراز آخر فيها حركة وتمر عبر خطين متجاورين متناقضين ، كل منهما ضروري للآخر وأن هناك صراعا حادا بين الانسان داخل ذاته وبينه وبين بيئته ، وهذا الصراع في طرفيه الذاتي والخارجي هو الذي أعطى للحياة على الارض سرها وصورتها وقدرتها على الحركة والتطور فصارت حياة تختلف عن حياة سائر الاحياء والملائكة والحياة في العوالم الاخرى غير المدركة .

إن الشيطان الذي وسوس لآدم وحـواء لم يكن قوة مستقلة أرسلهـا الله سبحانه وتعالى لكي يغوي آدم ويدفعه الى ارتكـاب الاثم والمخالفـة ، إذ لو كان الشيطان قوة مرسلة من عند الله وهي التي أوقعت آدم وزوجه في الزلل وجرتهم الى المخالفة فأن معاقبة الله لآدم وحواء عن جرم لم يكن من صنعهم ، ومحاسبتهم عن خطيئة لم تكن من فعل أيديهم فان تلك المعاقبة تكون غير عادلة حيث وقعت على أبرياء لم يرتكبوا إثماً ، وهذا ظلم وأن الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يكون ظالما ، وعليه فأن (الشيطان) الذي وسوس لآدم وزوجه وأزلهما هو نوازع الشر أو التطلع والرغبة في معرفة السر والتمييز بين الاشياء هي التي كانت وراء هذه العملية لتبدأ حياة جديدة تمشي برجلين اثنتين واحدة تقوى على فعل الخير وتسير على طريقه وأخرى تقوى على فعل الشر وتريد المرور على دربه ، وهناك معركة بين القوتين تارة تنتصر القوى الدافعة الى الخير وتارة تنتصر غريمتها وهكذا في حركـة تفاعليـة مستمرة .

إن الآيات القرآنية الاخرى التي حكت هذا الانتقال من حياة الجنة الى حياة الارض هي [ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا إبليس لم يكن من الساجدين ■ قال ما منعك الا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ■ قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فأخرج إنك من الصاغـرين ■ قال انـظرني الى يوم يبعثـون ■ قال إنـك من المنظرين ■ قال فبما أغويتني لاقعدن لهم سراطك المستقيم ■ ثم لاتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولاتجد اكثرهم شاكرين ■ قال أخرج منها مذؤوما مدحورا لمن تبعك منهم لاملأن جهنم منكم أجمعين ■ ويا آدم اسكن انت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ■ فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما وری عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ■ وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ■ فدلهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما الم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ■ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ■ قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الارض مستقـر ومتاع الى حـين ■ قال فيهـا تحيون فيهـا تموتـون ومنهـا تخرجون ■ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواری سوءاتكم وريشـا ولباس

التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون ■ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ■][٦٤]

إن هذه الايات الكريمة من سورة الاعراف من الآية ١١ الى ٢٧ تبين بدقة مراحل تطور حياة الانسان وانتقاله من مرحلة كان فيها يعيش في جنة كما تعيش الملائكة الى المرحلة الجديدة التي صار عليها إنسانا (يختلف تكوينا عن المرحلة الاولى) .

كما تعين الآيات مراحل الصراع بين الانسان وإبليس حيث أن هذه المرحلة تبدأ عندما فضل الله سبحانه وتعالى آدم على الملائكة وطلب منهم السجود له فرفض إبليس ذلك لتبدأ معركة قوية بينه وبين الانسان .

إن الايات الكريمة من ١١ الى ١٨ من سورة الاعراف تبين المرحلة الاولى من هذا الصراع والحوار بين الله وإبليس ونتائج المعركة التي بدأت بينه وبين آدم لا سيما بعد أن أخرجه الله من دائرة الملائكة وجعله في الدائرة المضادة .

والايات الكريمة من سورة الاعراف من الآية ١٨ الى الآية ٢٤ تبين المعركة بين إبليس الذي صار قوة شريرة (شيطان) مع الانسان حيث سقط آدم وزوجه في شرك المخالفة فيصدر أمر الله سبحانه بأخراجهما من الجنة والسقوط الى الارض لتبدأ حياتهما الجديدة وهي تتحرك على بعدين متناقضين .

والايات الكريمة من ٢٤ الى ٢٧ من سورة الاعراف تحكي حياة الانسان على الارض والنزاع بينه وبين الشيطان وكيف أن الله سبحانه قد جعل في بني آدم لباسا للتقوى وآخر يوارى سوءاتهم ليبين انه جعل الانسان في ثنائية بين نوازع الشر ودوافع الخير .

إن هذا التوزيع العام للايات من سورة الاعراف من ١١ الى ٢٧ يمكن قراءته قراءة أخرى مفصلة وتوضيح المعاني التي تحملها هذه الآيات حيث تفسر قصة الانسان يوم كان في الجنة وحواره مع إبليس وعناد الاخير في طاعة أمر الله ، في

السجود له ومن ثم إخراج إبليس وانتقاله من مرحلة الرضا عنه الى مرحلة السخط عليه ليبدأ شن حربه على الانسان .

إن هذه القراءة المفصلة يمكن توزيعها على النقاط الآتية :

١ - إن الآية ١١ التي تبدأ [ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا ...] تعني ان الله هو الذي خلق البشر وصوره على الصورة التي أرادها له وبعد أن أتم سبحانه خلقه وتصويره للانسان على هذه الدرجة من التكوين طلب من الملائكة أن تسجد له .. إن هذه المطالبة جاءت لان الله خلق الانسان وطوره وصوره على هيأة استحق بها التكريم والفضل على سائر المخلوقات وعلى الملائكة أيضا . إن سائر المخلوقات من خلق الله ، كما أن الملائكة من خلقه وأنه تعالى هو الذي خلق وصور الانسان على الصيغة التي أرادها وأنه فضل الانسان على الملائكة لانه خلقه على هيأة وشاكلة خاصة به كانت وراء عملية التفضيل .

٢ - ومما يدل على أن تفضيل الله للانسان كان بسبب تكوينه الخاص وصنعه من مادة تختلف عن مادة الملائكة ، أن إبليس سوغ رفضه السجود لآدم بقوله (.. أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) وأن دفع إبليس هذا يؤكد أن سبب التفضيل لآدم عليه كان لأن آدم خلق من طين وخلق إبليس من نار . ويبدو أن الحكمة في تفضيل الله آدم المخلوق من الطين على ابليس المخلوق من النار أنه سبحانه جعل من هذا الطين قدرة للتكيف بحيث يصير على هيأة الطير والانسان وأن الانسان تطور عن هيأة الطير الى ما هو عليه بحيث صار يدرك ويميز ويعبر وبذلك فضله سبحانه على سائر خلقه وعلى الملائكة التي لا يمكن أن تتكيف وتتهيأ الى حالة وصورة كما هي عليه حالة الانسان .

٣ - وعندما أصر إبليس على عناده ورفضه السجود لآدم استحق عقوبة الاخراج من دائرة الرحمة والملائكية الى دائرة الظلمة والسخط ، فأمر سبحانه بطرده (قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر ...) هذا الهبوط والاخراج إنما كان بسبب مخالفة ورفض إبليس السجود لآدم ، وبذلك بدأت معركة سافرة بين إبليس المطرود وبين الانسان وقد أعلن عن بدئها إبليس عندما قال (قال فبما

أغويتني لاقعدن لهم سراطك المستقيم ...) وتوعد بأنه سيزحف على بني آدم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وشمائلهم وكان تهديده هذا سافرا فأصدر سبحانه أمره بأخراجه مذؤوما مدحورا وهدده ومن سيتبعه بادخالهم جهنم اجمعين . إن وعيد إبليس هذا ابتدأ بتنفيذه منذ اللحظة الاولى التي وقع عليه عقاب الله سبحانه وتعالى بالطرد من دائرة الرحمة السقوط في بؤرة الشر والعدوان . وأن فعل إبليس الشرير في هذه المرحلة ابتدأ عندما وصل الانسان الى مرحلة ثنائية حيث يعيش في بعدين متناقضين يوم صار يميز بين الاشياء ويفرق فيما بينها ويشبع مرة ويجوع بعد فترة ، يرتوي ثم يعطش ، يتشوق الى كشف المجهول بعد أن كان لا يفرق بين المعلوم والمجهول ، حينما بلغ الانسان هذه المرحلة بدأت المعركة علنية مكشوفة بينه وبين إبليس الذي صار قوة شريرة أي صار شيطانا .

٤ ـ وبينما آدم وزوجه في الجنة وقد بلغا مرحلة التفريق والشعور بالسعادة والاذى ابتدأت الجولة الحقيقية بين الخير والشر وبعبارة أدق بدأت المعركة بين نوازع الشر ودوافع الخير القائمة في ذاته وقد دخل إبليس الشيطان قوة خفية غير مرئية من النافذة الموصلة الى نوازع الشر فكان وسواسه الذي دفع الى الخطيئة فكانت مرحلة السقوط من السماء الى الارض أي مرحلة الانتقال من حياة الانسان على بعد واحد الى مرحلة الانسان وهو يعيش في بعدين متناقضين .

٥ ـ إن الآيتين ١٩ ، ٢٠ تكشفان عن المعركة التي اشتعلت داخل الانسان في آدم وحواء وأن ساحة المعركة كانت فكر آدم ووجدانه كما كانتا على ساحة فكر حواء ووجدانها وأن اسلحة المعركة كانت نوازع التطلع الى المجهول والحاجة الى كشف سره والرغبة في معرفة حقيقته والوصول الى ما تحمله الشجرة من ثمار كانت تبعث الرغبة والاندفاع في الانسان للاقتراب منها والحصول عليها . إن حركة آدم وحواء كانت حركة داخلية ، وأن تلك (الوسوسة) كانت إحساسا ذاتيا دفعت إليه نوازع ودوافع ذاتية متعلقة بطبيعة الانسان المحتاجة الى الغذاء والشراب والمعرفة والرغبة في تنفيذ الارادة ورفض الاكراه وتحدي الخصوم .

ومما يؤكد أن حركة آدم وزوجه كانت ذاتية وأن الشيطان الزاحف عليهما لم يزحف بقوى مستقلة إنما زحف على قوى وعوامل من طبيعة الانسان وتكوينه ، وبعبارة أدق أن حركة الشيطان ووسوسته تلك إنما هي حركة الانسان المندفعة نحو المخالفة والمتلهفة لكشف المجهول وسبر غور الممنوع وأنه سبحانه وتعالى يؤيد أن تلك الحركة للانسان ومنه عندما يخاطب آدم وحواء على لسان الشيطان حيث يقول لهما (فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ورى عنهما من سوءاتهما وقال مانها كما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين او تكونا من الخالدين ...) وتوضيح هذه الآية الكريمة بعبارات أخرى أن الشيطان تحدث الى آدم وحواء قائلا ـ أن الله سبحانه لم ينهكما عن هذه الشجرة الا بسبب أن تظلا (ملكين خالدين) أي تبقيا على حياة هي حياة الملائكة ذات بعد واحد حركة في اتجاه معين لا تغيير في الحركة ولا تبديل في الوضعية ، إنها حياة الخير المطلق ، الجنة الخالدة حيث لا نار تجاورها ولا شجرة أو أشجار تحرم منها وأن حياة كهذه حياة الملائكة وأن هذه الحياة إن رضى بها الانسان فسيبقى على حاله مستلقيا تحت ظلال أشجار وارفة تتساقط اثمارها شهية وتتصاعد كؤوس الماء عذبة تروى عطشه ينام ولا يفيق أو يفيق ولا ينام ، هذه الجنة جنة الملائكة التي أراد الله سبحانه وتعالى أن تكون للملائكة وأن تكون للانسان جنة على شاكلة أخرى ليصل إليها بنفسه ، بأرادته ، بأعماله . إنه يريدها حياة بشرية وليس حياة ملكين خالدين يرفلان بالسعادة حيث لا شقاء يصاحبها .

٦ ـ وعندما قرر الانسان أن يكون بشرا وليس ملكا ، رفض الركون والاكتفاء بأشجار الجنة كلها عدا شجرة واحدة وقد وجد في هذه الشجرة الممنوعة إنسانيته وإرادته فتقدم إليها وتحول من حالة الاستقرار والسعادة الدائمة الى القلق والحركة باتجاهين متعاكسين حيث ابتدأت حياته على الارض حياة خاصة به متميزة من غيرها .

وعندما ارتضى الانسان لنفسه الخروج من حياة الجن المستقرة الى حياة المعارضة والخلاف هبط الى الارض وابتدأ حياتـه القائمة على الصراع والقتال فخاطبه سبحانه (قال فاهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين) إذن الحياة على الارض ستكون مستقرا ومجالا للحركة وفيها متعة محدودة وأن حياة الانسان فيها ستقوم على النزاع

والمجابهة وقوله (بعضكم لبعض عدو) فأن هذه العداوة هي عداوة بين الانسان ونفسه اولا حيث هذا الصراع بين نوازع الخير ودوافع الشر والنزاع بين الانسان واخيه الانسان وبينه وبين محيطه وأن هذا النزاع يستند اساسا الى حالة التناقض والثنائية التي عليها تركيب وتكوين الانسان .

٧ - ومما يؤكد أن حالة النزاع ستبقى على الارض وأن منشأ ذلك هو الانسان وطبيعته حيث أن الله سبحانه أعلن بأنه خلق الانسان على نقيضين وزوده بقوتين متعارضتين واحدة نزاعة للخير وأخرى نزاعة للشر حيث قال (يا بني آدم قد انزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون) .. إن هذه الآية الكريمة تبين أن الله قد خلق في الانسان نوازع السوء ودوافع التقى وأن هذه قائمة داخل نفس الانسان فهي غير منظورة ، لذلك صور الله سبحانه وتعالى وجودها وحدودها بقوله أنه إلبسها لباسا يغطي جوانبها السيئة ويتستر عليها بظواهر يبدو الانسان من خلالها على هيأته الآدمية المتميزة المتناسبة والمتساوقة مع قوله تعالى (لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم) وقوله [وقد فضلنا بني آدم على العالمين] كما أنه برفع قوى الخير والتقى بلباس من الريش إشارة الى حسن تعامله مع هذه القوة الخيرة وإظهارها بمظهر حسن .. إن توزيع الانسان الى قوتين . قوة خيرة وأخرى شريرة كان منذ قيام الانسان على الارض وتحمله مسؤولية إدارتها وتولى خلافتها ، وهو مصداق لقوله تعالى (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) .. إن جعل الانسان يتحرك في ظل لباس السوء ولباس التقوى هو تأكيد على ثنائية الانسان وأن حركته المتميزة قائمة على هذه الثنائية .

٨ - إن الآية ٢٧ التي تبدأ بقوله (يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان ...) إنما هي تأكيد لطبيعة المعركة التي ابتدأت داخل الانسان بين قوى الخير وقوى الشر فيه وتذكير للانسان بعدم فسح المجال لقوى الشر (الشيطان) التغلب عليه ، وأن في ذكر (فتنة الشيطان) التي كانت قد أوقعت آدم وحواء في الخطيئة هو تكرار لتصوير المعركة التي ابتدأت بين البعد الواحد الذي كان عليه الانسان يوم كان في الجنة وبين البعدين يوم صار الانسان يحس بهما ويدرك كنههما

وتقوم حياته على أساسهما . وفي قوله تعالى (... إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) تأكيد على أن الشياطين لا تبدأ قوتها الا في الذين لا يؤمنون وأنها لا يمكن أن تفعل شيئا في الذين يؤمنون ، عليه يعتبر فعل الشياطين تابعا لموقف غير المؤمنين وليس سابقا لموقفهم أي أن الشيطان يوالى المخالفين ويصاحبهم عندما يبدأ هؤلاء التحرك صوب المخالفة واقتراف الاثم ، وعليه فأن فعل الشياطين هو فعل المخالفين وحركتهم واندفاعهم نحو الخطأ هو تغلب نوازع الشر على نوازع الخير .. إن الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون أي أنهم قوة متفاعلة مع فعل الشر ونتيجة له ، وبذلك بيان من عنده سبحانه أن المعركة بين الخير والشر ، بين الحق والباطل ، بين الشيطان والانسان هي معركة الانسان نفسه بين النقيضين بذاته وبينه وبين ما يحيط به من تناقضات .

سادسا - المعاني والدلالات لكلمة «شيطان» في الآيات القرآنية :

لقد وردت كلمة «شيطان» بصيغة المفرد والجمع في ٧٨ آية من آيات القرآن الكريم[٦٥] .. وهذه الآيات موزعة على سور القرآن الكريم وهي تحمل «لفظة شيطان» بصيغة المفرد وصيغة الفاعل والجمع وتبدو كلمة «شيطان» وهي تأخذ حجمها وفعلها المتميز وكأنها قوة فاعلة متميزة زاحفة من خارج الانسان الى داخله .. إلا أن متابعة المعاني والدلالات لفعل هذه الكلمة وحركتها تبين إنها قوة لاحقة تأتي بعد أن يقدم الانسان على الفعل ويقع بالخطأ وأن عدد المرات التي وردت فيها كلمة شيطان في تلك الآيات ٨٨ مرة :

ونظرا لأهمية دراسة كلمة «الشيطان» في هذه الآيات سنأتي على ذكرها تباعا ليكون من المستطاع دراستها ومتابعة معانيها والدلالات التي تحملها . إن الآيات التي جاءت فيها كلمة شيطان هي :

١ - [وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا الى «شياطينهم» قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون][٦٦] .

٢ - [فأزلهما «الشيطان» عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين][٦٧] .

٣ - [واتبعوا ما تتلوا «الشياطين» على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن «الشياطين» كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد الا بأذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه به ما له في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون][٦٨] .

٤ - [يأيها الناس كلوا مما في الارض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات «الشيطان» إنه لكم عدو مبين][٦٩] .

٥ - [يأيها الذين آمنوا أدخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات «الشيطان» إنه لكم عدو مبين][٧٠] .

٦ - [«الشيطان» يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم][٧١] .

٧ - [الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه «الشيطان» من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره الى الله ومن عاد فأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون][٧٢] .

٨ - [فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها إنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالانثى وإني سميتها مريم وإني اعيذها بك وذريتها من «الشيطان» الرجيم][٧٣] .

٩ - [إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم «الشيطان» ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم][٧٤] .

١٠ - [إنما ذلكم «الشيطان» يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين][٧٥] .

١١ - [والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن «الشيطان» له قرينا فساء قرينا][٧٦] .

١٢ - [ألم تر إلى الذين يزعمون انهم آمنوا بما أنزل إليك وما انـزل من قبلك يـريدون أن يتحـاكموا الى الطاغـوت وقد أمـروا أن يكفروا بـه ويريـد «الشيطان» أن يضلهم ضلالا بعيدا][٧٧] .

١٣ - [الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء «الشيطان» إن كيد «الشيطان» كان ضعيفا][٧٨] .

١٤ - [وإذا جاءهم أمر من الامن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه الى الرسول والى أولى الامـر منهم لعلمه الذين يستنبـطونه منهم ولولا فضـل الله عليكم ورحمته لاتبعتم «الشيطان» الا قليلا][٧٩] .

١٥ - [إن يدعون من دونه الا أناثا وإن يدعون الا «شيطانا» مريدا][٨٠] .

١٦ - [ولاضلنهم ولامنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الانعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبيا][٨١] .

١٧ - [يعدهم ويمنيهم وما يعدهم «الشيطان» الا غرورا][٨٢] .

١٨ - [يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون][٨٣] .

١٩ - [إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون][٨٤] .

٢٠ - [فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون][٨٥] .

٢١ - [وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فاعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره واما ينسينك «الشيطان» فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين][٨٦] .

٢٢ - [قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد أذ هدانا الله كالذي استهوته «الشياطين» في الارض حيران له أصحاب يدعونه الى الهدى قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين][٨٧] .

٢٣ - [وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا «شياطين» الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون][٨٨] .

٢٤ - [ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون][٨٩] .

٢٥ - [ومن الانعام حمولة وفرشا كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات «الشيطان» إنه لكم عدو مبين][٩٠] .

٢٦ - [فوسوس لهما «الشيطان» ليبدي لهما ما ورى عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين][٩١] .

٢٧ - [فدلهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما الم أنهكما عن تلكم الشجرة وأقل لكما إن «الشيطان» لكما عدو مبين][٩٢] .

٢٨ - [يا بني آدم لا يفتننكم «الشيطان» كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا «الشياطين» أولياء للذين لا يؤمنون][٩٣] .

٢٩ - [فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا «الشياطين» أولياء من

دون الله ويحسبون أنهم مهتدون][94] .

٣٠ - [واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه «الشيطان» فكان من الغاوين][95] .

٣١ - [واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم][96] .

٣٢ - [إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من «الشيطان» تذكروا فاذا هم مبصرون][97] .

٣٣ - [إذ يغشاكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز «الشيطان» وليربط على قلوبكم ويثبت به الاقدام][98] .

٣٤ - [وإذ زين لهم «الشيطان» أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريءٌ منكم إني أرى ما لا ترون إنى أخاف الله والله شديد العقاب][99] .

٣٥ - [قال يا بني لا تقصص رؤياك على أخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للانسان عدو مبين][100] .

٣٦ - [وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين][101] .

٣٧ - [ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربى حقا وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو بعد أن نزغ «الشيطان» بيني وبين أخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم][102] .

٣٩ - [وقال «الشيطان» لما قضى الامر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا انفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت

بما اشركتموني من قبل إن الظالمين لهم عذاب إليم][103] .

٤٠ ـ [وحفظناها من كل «شيطان» رجيم][104] .

٤١ ـ [تالله لقد أرسلنا الى أمم من قبلك فزين لهم «الشيطان» أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم][105] .

٤٢ ـ [فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من «الشيطان» الرجيم][106] .

٤٣ ـ [إن المبذرين كانوا إخوان «الشياطين» وكان «الشيطان» لربه كفورا][107] .

٤٤ ـ [وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن «الشيطان» ينزغ بينهم إن «الشيطان» كان للانسان عدوا مبينا][108] .

٤٥ ـ [واستفزز من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الاموال والاولاد وعدهم وما يعدهم «الشيطان» الا غرورا][109] .

٤٦ ـ [قال ارأيت إذا أوينا الى الصخرة فأني نسيت الحوت وما انسانيه الا «الشيطان» ان أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا][110] .

٤٧ ـ [يا أبت لا تعبد «الشيطان» إن «الشيطان» كان للرحمن عصيا][111] .

٤٨ ـ [يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون «للشيطان» وليا][112] .

٤٩ ـ [فوربك لنحشرنهم و «الشياطين» ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا][113] .

٥٠ ـ [ألم ترانا أرسلنا «الشياطين» على الكافرين تؤزهم أزا][114]

٥١ - [فوسوس إليه «الشيطان» قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى][١١٥] .

٥٢ - [ومن «الشيـاطين» من يغوصـون له ويعملون عملا دون ذلك وكنـا لهم حافظين][١١٦] .

٥٣ - [ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل «شيطان» مريد][١١٧] .

٥٤ - [وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا إذا تمنى ألقى الشيطان في امنيتـه فينسـخ الله مـا يلقى الشيـطان ثم يحكم الله آيـاتـه والله عليم حكيم][١١٨] .

٥٥ - [ليجعل ما يلقى «الشيطان» فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد][١١٩] .

٥٦ - [وقل ربي أعوذ بك من همزات «الشياطين»][١٢٠].

٥٧ - [يـأيها الذين آمنـوا لا تتبعوا خـطوات «الشيطان» ومن يتبـع خطوات «الشيطان» فأنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن يزكى من يشاء والله سميع عليم][١٢١] .

٥٨ - [لقـد أضلني عن الذكر بعـد إذ جـاءني وكـان «الشيـطان» للانسـان خذولا][١٢٢] .

٥٩ - [وما تنزلت به «الشياطين»][١٢٣] .

٦٠ - [وجدتها وقومها يسجـدون للشمس من دون الله وزين لهم «الشيطان» أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون][١٢٤] .

٦١ - [ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من

شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل «الشيطان» إنه عدو مضل مبين][١٢٥] .

٦٢ ـ [وعادا وثمودا وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم «الشيطان» أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين][١٢٦] .

٦٣ ـ [وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان «الشيطان» يدعوهم الى عذاب السعير][١٢٧] .

٦٤ ـ [إن «الشيطان» لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير][١٢٨] .

٦٥ ـ [ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا «الشيطان» إنه لكم عدو مبين][١٢٩] .

٦٦ ـ [وحفظا من كل «شيطان» مارد][١٣٠] .

٦٧ ـ [طلعها كأنه رؤوس «الشياطين»][١٣١] .

٦٨ ـ [والشياطين كل بناء وغواص][١٣٢] .

٦٩ ـ [واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه إني مسني الشيطان بنصب وعذاب][١٣٣] .

٧٠ ـ [وإما ينزغنك من «الشيطان» نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم][١٣٤] .

٧١ ـ [ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين][١٣٥] .

٧٢ ـ [ولا يصدنكم «الشيطان» إنه لكم عدو مبين][١٣٦] .

٧٣ - [إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى «الشيطان» سول لهم وأملى لهم][١٣٧] .

٧٤ - [إنما النجوى من «الشيطان» ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئا الا بأذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون][١٣٨] .

٧٥ - [استحوذ عليهم «الشيطان» فأنساهم ذكر الله أولئك حزب «الشيطان» الا إن حزب الشيطان هم الخاسرون][١٣٩] .

٧٦ - [كمثل «الشيطان» إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إنى برئ منك إني أخاف الله رب العالمين][١٤٠] .

٧٧ - [ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما «للشياطين» وأعتدنا لهم عذاب السعير][١٤١] .

٧٨ - [وما هو بقول «شيطان» رجيم][١٤٢] .

إن قراءة ثانية للآيات الكريمة التي جاءت فيها كلمة شيطان والوقوف مليا عند كل آية والتفكير فيها بعمق يمكن أن نضع المعاني والدلالات التي تحملها كلمات (الشيطان) في النقاط الآتية :

١ - إن قوة الشيطان وفعله التي جاءت في الآية ١٤ من سورة البقرة تبين أن أولئك المذبذبين المنافقين يظهرون بموقفين فحينما يلاقوا المؤمنين يعلنوا عن ايمانهم واستقامتهم وعندما يخلوا الى أنفسهم يركنوا الى عنادهم وشرورهم وشياطينهم إن موقف هؤلاء سواء عند التظاهر بالايمان أو عند الاستهزاء بالمؤمنين إنما هو سلوكهم وليس سلوك قوة أخرى دافعة لهم وانهم في هذه الآية الكريمة هم الذين رجعوا الى «شياطينهم» المستقرة في دواخلهم لكي يتحدثوا إليها عن تصرفاتهم وكيف أنهم في تعاملهم مع المؤمنين كانوا يستهزئون بهم ويخدعونهم إن فعل هولاء في الحالتين هو فعلهم وليس فعل شياطينهم .

٢ ـ في آيات يظهر أن الشيطان وكأنه قوة مستقلة خارجية تدخل للانسان وتدفعه الى ارتكاب فعل شرير وأن الانسان لا يقوى على صد هذه القوة ولا التغلب عليها والآية ٢١٦ من سورة البقرة تبرز قوة الشيطان المستقلة هذه حيث جاء فيها (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم) .. إن إبراز قوة الشيطان وهو يعد الانسان ويهدده بالفقر ويأمره بالفحشاء فان هناك قوة الله التي هي أوسع واكبر من قوة الشيطان وفي قوله (والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم) فيها ما يوحي بأن على الانسان أن يواجه قوة الضغط الخارجية الشيطانية ويتهيأ لها ويرفضها وانه سبحانه وتعالى إذا ما علم بأن الانسان أعد نفسه للمقاومة والمجابهة وأن الانسان لم يقوَ على التغلب على قوة الشيطان هذه فأنه واسع العلم والمعرفة وسوف تكون جريرة الانسان متناسبة بقدر قوته ومقاسة بقوة الشيطان الزاحفة عليه وعندئذ فأن مغفرته سبحانه كبيرة .

٣ ـ إن قوة الشيطان لم نجدها فاعلة ولا مؤثرة في أي نوع من أنواع الاحياء لا في النباتات ولا في الحيوانات مما يؤكد أنها قوة موجهة للانسان وأنها تتفاعل مع قواه وليس مع قوة أخرى . وأن التفاعل بين قوة الشيطان الخارجية ونوازع الشر القائمة في الانسان لا يمكن أن تكون الا إذا كانت قوة الشيطان مصنوعة من ذات القوى التي عليها نزعة الشر في الانسان إذ لا يمكن تفاعل قوتين من طرازين متباينين ومن عنصرين متعارضين ، وعليه فأن قوى التفاعل بين قوة الشيطان الشريرة ونوازع الشر الانسانية تبدأ من تحرك نوازع الشر داخل الانسان وأن هذا التحرك يتصاعد درجة ويتفاعل مع ذاته حيث تنقسم هذه النزعات الى قوتين متقابلتين ، قوة تدفع الى الشر وأخرى تدفع الى الخير في آن واحد وعندئذ تبدأ المعركة وأن صراع هذه القوى يوحي بأن هناك قوتان قوة خارجية هي قوة الشيطان وأخرى داخلية وفي الحقيقة هناك قوة واحدة انقسمت على ذاتها هي قوة الخير في وجه قوة الشر وأن المجابهة بينهما تسفر عنها نتائج إما شريرة وإما خيرة .

٤ ـ إن الله سبحانه وتعالى قادر أن يجعل من قوة شريرة طاقة تدخل الى الانسان وتحمله على ارتكاب الاخطاء والآثام ولكن عدالة الله لا يمكن أن توافق أن

تتسلط قوة فوقية مفروضة من عنده تدفع الى ارتكاب الاثم ومن ثم يعود فيحاسب الانسان مقترف ذلك الخطأ وإذا سلمنا جدلا أن الله سبحانه وتعالى يأمر قوة لفعل شئ ضار لحكمة يريدها فأنه سبحانه وتعالى سوف لن يحمل الانسان الذي وقع عليه الخطأ أو قام به مكرها على فعله لانه فعل صادر عن قوة غير قوة الانسان وأن من العدالة أن يضع لهذا الانسان وسيلة لتنفيذ الخطأ ودليلا على حكمته ثواب قيامه بهذه الوسيلة (والأمر كله لله يرزق من يشاء ويعذب من يشاء) .

٥ - إن الآيات التي جاءت فيها كلمة شيطان عرضت لتذكير الانسان بأن هناك شرا يحيط به واخطارا محدقة به وأن عليه أن يتهيأ لمواجهة هذه الاخطار ويعد نفسه إعدادا خاصا للتغلب عليها ومن اجل أن تكون صورة هذا الخطأ الزاحف عليه واضحة مجسمة فأن عددا من الآيات وصفت حركة الشيطان وهو يمشي الهوينا خطوة خطوة وأن حركته تبدأ من داخل الانسان وتستمر مارة عليه حيث تبدأ هذه الحركة بخطوة صغيرة ووسوسة هامسة في الامكان مواجهتها والتغلب عليها . إن هذا التصوير الدقيق المحكم لحركة الشيطان إنما جاء لتحفيز الانسان ودفعه لمواجهة هذه القوة والاستعداد لها والانتباه الى طبيعة فعلها . كما أن في هذا التصوير أدلة قاطعة بأن تلك الحركة ليست حركة ساقطة على الانسان إنما هي حركة من داخله حيث تبدأ نوازع الشر فيه بالتحرك صوب فعل الشر في مثل هذه الخطوات الوئيدة والوسوسات الهادئة ومن ثم تتصاعد قوية صاخبة حيث يكون الفعل الشرير نتيجة منطقية لنوازع الشر ومحصلة لضغوطه وتأثيراته .

٦ - وعندما يتحدث الله سبحانه وتعالى في سورة آل عمران في الآية ١٥٥ ويصف الذين تراجعوا وانهزموا من المعركة إذ يقول «إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم» فأن في هذه الآية توضيح لحالة الانسان وهو لا يقوى على الثبات والصمود عندما تتجمع عليه قوى خارجية ضاغطة ويختل ميزان المقارنة لديه ولا يستطيع استعمال قواه الذاتية والقوى المعدة له فأن ذلكم التراجع الناجم عن اختلال القوة يكون حسابه غير حساب التراجع الناجم عن غير هذا الاختلال . إن فعل الشيطان هنا يتمثل بالقوة الخارجية الضاغطة

المتحكمة التي شلت قواهم وتغلبت عليها ولذلك فأن تراجعهم الناجم عن هذا الخلل في ميزان القوى لا يشكل جريمة كما لو كان الامر على صيغة أخرى تكون فيها لديه قوة ضاربة تستطيع أن تقاوم وتواجه وتتقدم . إن التراجع تحت ضغط القوة المتباين لا يؤلف عملا شريرا وجريمة لا تغتفر إنما أعلن سبحانه وتعالى بأنه سيعفى عن هؤلاء ويغفر لهم إذ قال : (ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور رحيم) .

٧ - إن التفاعل بين قوة الشيطان باعتبارها قوة خارجية مؤثرة تأثيرا سلبيا وقوى الانسان الداخلية لابد من وجود عوامل وعناصر تعمل على تفاعل القوتين وتداخل عناصرهما في عملية متقابلة متبادلة في الاثر والتأثير . وبما أن قوى الشيطان غير منظورة وليست لها مواصفات معينة يمكن اخضاعها للتحديد والوصف وللوزن والتأثير ، فأن هذه الحقائق تجعل حجم القوة الخارجية وفعلها غير منظور إليه الا عندما ينفعل بها الانسان وتتحرك نوازعه باتجاه الشر أو في صد قواه وتأثيراته الزاحفة من الخارج ، ولما كانت قوى الشيطان الخارجية تلازمها قوى الملك حيث تدخلان سوية كل منهما يؤثر تأثيرا متباينا حيث قوة الشيطان سلبية وتأثير الملك ايجابي فأن هاتين القوتين يبقى في صراع عنيف فيما بينهما بحيث يكون تأثير كل من القوتين سلبا أو إيجابا متعادلا ، حيث يصل هذا التأثير المتباين على درجة واحدة وتأثير متساو في الانسان .

٨ - إن الآيات الكريمة التي حملت كلمة «شيطان» تظهر أنه قوة خارجيةتتحرك بأمر من الله وتفعل فعلها بقوته وإرادته وتظهر هذه الآيات أن قوة الشيطان أكبر من قوة الانسان وآيات أخرى تظهر أن هذه القوة محدودة ويستطيع الانسان مغالبتها ، وعليه فأن الحالات التي تكون فيها قوة الشيطان خارقة ولا يقوى الانسان على مواجهتها وإبعاد أذاها مثل الامراض الفتاكة والحوادث المفجعة ، فأن الانسان غير مسؤول في حالة عدم نجاحه في مواجهتها وصد أذاها ، إنما عليه مواجهة الحالات التي يستطيع صدها ومقاومتها ، وأن حسابه سبحانه للانسان على أفعاله التي يستطيع التمييز بين ضارها ونافعها ويتمكن من فعل الخير ويقوى على اجتناب الشر ، فأذا لم يعمل وهو قادر على الفعل الخير واجتناب الفعل الشرير فيحاسب على قدر طاقته وإرادته .

٩ - إن كلمات الشيطان تبين أن قواه موزعه في مكـانين - الاول في الانسـان والآخر في خارجه وهذه القوى الخارجية تبدو واقعية مجسمة بارزة تمشي على الانسان لايقاع الاذى فيه وفي الآيات دعوة للانسان لمواجهة هـذه القوى ودفع أذاها عنه ، كما أن في تصـوير قـوى الشر الداخلية حث للانسـان لمواجهتها والوقوف بوجه تحريضها وتأثيرها على ارتكاب الاذى والعدوان ، ومن الآيات التي تبرز قوى الشر الخارجية مجسمة قوله تعالى [يأيها الناس كلوا مما في الارض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان انـه لكم عدو مبين](١٤٣) .

وقوله [الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعـدكم مغفرة منـه وفضلا والله واسع عليم](١٤٤) .. في الآية الاولى يظهر الشيطان قوة متحركة داخل الانسان وفي خارجه تتحرك على أقدام تسير بها خطوة خطوة ، مما يؤكد أن الشيطان قوة مجسمة تتحرك في كل الاتجاهات وأن هذا التجسيم أريد به إبراز هذه القوة من أجل مجابهتها وعدم تركها تعمل كما تشاء .

وفي الآية الثانية تظهر قوة الشيطان اكثر استقلالا وتحديداً حيث تظهر قوة فاعلة تدفع للفقر والفحشاء ، ومما يزيد في تجسيمها وإبرازها قوة مضادة أن الله سبحانه وتعالى يقع في الجهة المقابلة لها ، وأن لكل منهما قوة وتأثير متباين مع الطرف الآخر وفي ذلك إبراز لفعل الشيطان وتأكيد على استقلاله وقوة حركته وتأثيره .

وعندما تناجي أم مريم العذراء ربها قائلة [فلما وضعتهـا قالت ربي إني وضعتها انثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالانثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها وذريتها من الشيطان الرجيم](١٤٥) .. في هذه الآية تتوسل أم العذراء أن يبعد الله عنها وعن ذريتها أذى الشيـطان الرجيم وكأن هـذا الشيـطان قوة متـربصة واقفـة بالمـرصاد تتـرقب الموقف لتهجم وتفتـك بضحيتها ، إن هذا التجسيم لقوى الشيطان يظهر أنه قوة مستقلة تتحرك من الخارج الى الداخل ، تلتقي مع النفس اللوامة الملهمة فجورا وهوى .

١٠ - في بعض الآيات التي تظهر فيها قوة الشيطان قوة مسيطرة غالبة تفعـل فعلها وتؤثر في الانسان ولا يقوى على مجابهتها فأن الله سبحانه وتعالى لا يحمل الانسان وزر ما يقع عليه من هذه القوة الهائلة الكبيرة ، ففي الآية ١٥٥ من سورة آل عمران التي نصها [إن الذين تولوا منكم يوم التقى

الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم ، إن الله غفور رحيم] .. في هذه الآية صورتان ، صورة تبين أن الهزيمة من فعل المنهزمين ونتيجة لموقف الذعر والهلع فيهم فهم يتحملون مسؤوليتها وذلك في النصف الاول من هذه الآية المتمثل بقبوله (إن الذين تولوا منكم ..) فأن هذه الهزيمة كانت من عندهم فهم يتحملون وزرها وما يترتب عليها من مسؤولية . والصورة الثانية تظهر وكأن الهزيمة ناتجة عن قوة خارجية كانت وراء ذلك حيث (استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا) قوة الشيطان فعلت فعلها ، إلا أن هذا الفعل وجد أرضا خصبة عاش عليها ومصداق ذلك قوله (إنما استزلهم ببعض ما كسبوا) اي أن أثر الشيطان كان نتيجة لكسبهم أو لمواقفهم التي وجد فيها الشيطان مجالا للتأثير ولذلك فأن الله سبحانه وتعالى خفف من عقوبة هؤلاء نظرا لقوة فعل الشيطان وتأثيره ، وهذه القوة متمثلة باختلال موازين الحرب وأدواتها بين القوتين المتحاربتين وكأن فعل الشيطان الخارجي تمثل بقوة العدو المتفوقة مما أحدث التخاذل والهزيمة ، فنتيجة لهذا التباين في القوة عفا الله عن أولئك الذين تولوا يوم التقى الجمعان وغفر لهم ذنبهم إن الله غفور رحيم .

إن الجمع بين الصورتين لقوى الشيطان يؤكد أن فعله لا يقع ولا يتم الا عندما تتفاعل قوته مع حالة الانسان وطبيعته عبر عملية متداخلة معقدة تنتهي الى قرار قد يكون صائبا أو مخطأ .

ومن متابعة عملية التفاعل بين قوى الشر الخارجية وقوى الانسان الداخلية يتضح أن قوى الشيطان الخارجية لا تبدأ فعلها وتأثيرها الا عندما تلتقي مع الانسان بحيث يسقط أثر هذه القوة وينتفي ما لم يكن هذا اللقاء بين القوى الخارجية وقوة الانسان .

ومما يؤكد أهمية موقف الانسان في عملية التفاعل واتخاذ القرارات أن عددا من الآيات الكريمة تبين أن هناك صلة حميمة بين «الشيطان» وبين طراز معين من الناس سماهم الله (أولياءه) وكأن هناك صلة عضوية بين الانسان المستعد لفعل الشر والشر ذاته .. يقول سبحانه [إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوه وخافون إن كنتم مؤمنين][١٤٦] .. إن أولياء الشيطان أولئك المهيأين لعمل الشر والمستعدين لارتكاب الاثم والمتربصين حول دائرة السوء للدخول فيها .. إن الشيطان يجد أبواب هؤلاء مشرعة يدخل منها ، يوسوس فيها فتبدأ حركة متقابلة ، يمشي

الشيطان بقوة منه وبقوة أخرى تثير قواه حجما وتأثيرا ، وبذلك تتصاعد أفعال الشر من أولياء الشيطان وتعلو على أفعال الخير إن الشيطان يزداد قوة عندما يجد أولياءه يفتحون عيونهم وآذانهم لاستقبال الغواية والاستزادة من نار الفجور المشتعلة في دواخلهم وبذلك ينتشر الظلم ويعم الفساد .. إن فعل الشر كحدث متحرك لهِ بداية ونتيجة هو فعل الانسان والآية الكريمة بخصوص المرابين توضح ذلك .. قال سبحانه [الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا ، فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره الى الله ومن عاد فأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون][١٤٧] .. في هذه الآية الكريمة ، أن الذي يتعامل بالربا ويتعاطاه هو الانسان وذاته الذي سوغ هذه الفعلة عندما قال «إنما البيع مثل الربا» وهو الذي خالف أمر الله الذي قال «وأحل الله البيع وحرم الربا» وأن فعل الشيطان الذي يخبط في الانسان ويهزه ويضرب به الأرض والجدار إنما كان ذلك جراء فعل الانسان ومخالفته ، فقوله (كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس) فأن هذا التخبط إنما وقع به الانسان نتيجة ارتكابه الاثم ومخالفته تعاليم الله . فجاء الشيطان ووجد أرضا خصبة فعمل على أن يزرع فيها ما يشاء ويخبط الانسان ويجعله في حالة سيئة .

١١ - إن الانسان مدعو الى فعل الخير والى اجتناب فعل الشر والاثام ، وهذه الدعوة مباشرة صريحة والانسان يثاب على فعله الخير ويعاقب على فعله السئ ، هذا الثواب والعقاب الذي تؤكده عشرات الآيات يوضح أن فعل الشيطان لا يكون فعلا قويا مستقلا عن الانسان إنما يتفاعل مع قواه الداخلية يؤثر فيها ، تؤثر فيه ، يقوى على صدها ، يتمكن من مغالبة أثرها ، ولولا هذه القدرة عند الانسان لما وضع الله سبحانه وتعالى أجرا على أفعاله الصالحة وعقوبات على أفعاله الطالحة .. إن الشيطان يدخل قوة إضافية تعزز فعل الشر فيه كما أن قوة الملك تدخل قوة إيجابية تواجه قوى الشيطان ولهذا يبقى الانسان مسؤولا مسؤولية أساسية عن أعماله ، ومن هنا جاء الثواب والعقاب على تلكم الاعمال .. يقول الله سبحانه [والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قرينا] .. ان الذين ينفقون أموالهم رياء

ولا يؤمنون باليوم الآخر ولا بالله ، هؤلاء يرافقهم الشيطان ، هذه المرافقة جاءت لان هؤلاء كانوا لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر وينفقون أموالهم رئاء الناس ، بعد هذه الافعال أو في أثنائها وعند البدء بها يرافقهم الشيطان فيكون لهم قرينا ، إذن هذه الصحبة جاءت نتيجة أفعال أولئك غير المؤمنين الذين ينفقون أموالهم رئاء ، وهنا يتضح أن الفعل السئ ابتدأ منهم وصار واقعا ومن ثم جاء الشيطان وصار قرينا لهم وإذا ما تصور البعض بأن هذا الاقتران بين الشيطان وأولئك كان قد وقع في مرحلة سابقة لفعل الشر ، فلا يمكن الجزم بذلك لأن الحكم على الشئ بالخطأ والشر إنما يجئ بعد اقترافه ولذلك فأن اقتران الشيطان بفاعل الشر حصل بعد ارتكابه الفعل وليس قبل ذلك .

١٢ - إن الخلاصة التي يمكن أن نلخص فيها معنى كلمة شيطان التي وردت في الآيات الكريمة والتي أتينا على توزيعها على نقاط ، فأن مراجعة هذه النقاط وتحليلها تبين أن (الشيطان) يمكن توزيع صورته وتأثيره على صورتين وقوتين ، قوة خارجية مستقلة تفعل فعلها بأمر من الله وتأثير وتوجيه من عنده ، وهذه القوة غير منظورة ولا يمكن إدراكها وتجسيمها مادة محددة ، وهذه القوة تتحرك وتؤثر في الانسان وتسبب له أضراراً كبيرة والانسان لا يقوى على مواجهتها ولا ردها ، وتتمثل هذه القوى في الحالات التي تصيب الانسان فتؤدي به الى أمراض مميتة وتظهر في المظاهر الطبيعية العنيفة التي تقع على الانسان فتودي بحياته ، إن مثل هذه الاثار المؤذية التي تقع على الانسان ولا يقوى على صدها لا يتحمل مسؤولية استسلامه لها وسقوطه تحت تأثيرها .

والصورة الثانية التي تبرز فيها قوة الشيطان أنها قائمة داخل الانسان في نفسه المركبة تركيبا ثنائيا حيث فيها نوازع الشر والفجور كما فيها دوافع الخير والتقى وأن قوة الشيطان تصدر عن قوى الشر ونوازعه القائمة في ذاته وأن هذه النزعة تقابلها نزعة خيرة وأن للانسان قوة إدراك تميز بين النزعتين ودوافعهما كما لديه إرادة واعية تستطيع أن تقرر العمل صوب الفعل الخاطئ وباتجاه ما تدعو إليه نوازع الشر كما لهذه الارادة القدرة على رفض دعاوى فعل الشر والقيام بأعمال الخير وأن المحاسبة للانسان ستكون في ضوء قدرته الادراكية وإرادته

القادرة على اتخاذ القرار وستكون النتيجة في ضوء طبيعة القرار المتخذ .

من هنا يتأكد أن القوى الخارجية التي تسبب ضررا على الانسان كالامراض الفتاكة والصواعق المحرقة والزوابع العنيفة والفيضانات المدمرة والحرارة اللاهبة ، هي من فعل خارجي لا يقوى الانسان على رده فاذا اقترن هذا الفعل المؤذي بتلك القوى وأنه جاء نتيجة قوى الشر فيها ، وأن هذه القوى الشريرة هي قوة الشيطان وأنها تتحرك بفعل وإرادة مفروضة عليها ، فان تلك الحركة الموجهة والقوة المؤثرة هي قوة الله التي بها يفعل ما يشاء وما يريد .

أما الافعال الذاتية التي تصدر عن الانسان فأنها تأتي إما نتيجة غلبة نزعة الشر فيه أو حصيلة تغلب دوافع الخير ، وأن الحكم الذي يميز بين الفعلين و القوة المسؤولة عن تحرك النزعة الشريرة في طريقها والنزعة الخيرة في دربها هو عقل الانسان المدرك وإرادته الحرة الواعية فتكون مسؤولية العمل عليه ونتائجه الايجابية له والسلبية عليه .

سابعا - الملك والملائكة في القرآن الكريم :

الآيات التي وردت فيها كلمة «ملك» و «ملائكة» كثيرة وأن عدد المرات التي ذكرت فيها هذه الكلمة هي ذاتها المرات التي ذكرت فيها كلمة «شيطان» و «شياطين» .

إن الآيات التي حملت كلمة «ملك» و «ملائكة» هي :

١ - [وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الامر ثم لا ينظرون][١٤٨] .

٢ - [ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون][١٤٩] .

٣ - [قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع الا ما يوحى الي قل هل يستوى الاعمى والبصير افلا تتفكرون][١٥٠] .

٤ - [فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه

كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شئ وكيل][١٥١] .

٥ - [ولا اقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما في أنفسهم إنى إذن لمن الظالمين][١٥٢] .

٦ - [فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن واعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت أخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا ابشرا إن هذا إلا ملك كريم][١٥٣] .

٧ - [وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق لولا أنزل إليك ملك فيكون معه نذيرا][١٥٤] .

٨ - [قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم الى ربكم ترجعون][١٥٥] .

٩ - [وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئا الا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى][١٥٦] .

١٠ - [والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية][١٥٧] .

١١ - [كلا إذا دكت الارض دكا دكا ■ وجاء ربك والملك صفا صفا ■][١٥٨] .

١٢ - [قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا][١٥٩] ..

١٣ - [واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وما روت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد الا بأذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخره

من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون][١٦٠] .

١٤ - [فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ورى عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين][١٦١] .

١٥ - [وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال اني أعلم ما لا تعلمون][١٦٢] .

١٦ - [وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني باسماء هؤلاء إن كنتم صادقين][١٦٣] .

١٧ - [وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين][١٦٤] .

١٨ - [إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين][١٦٥] .

١٩ - [ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون][١٦٦] .

٢٠ - [هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضى الامر والى الله ترجع الامور][١٦٧] .

٢١ - [وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم

مؤمنين][168] .

٢٢ - [شهد الله انه لا إله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله الا هو العزيز الحكيم][169] .

٢٣ - [فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين][170] .

٢٤ - [وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين][171] .

٢٥ - [إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين][172] .

٢٦ - [ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون][173] .

٢٧ - [أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين][174] .

٢٨ - [إذ تقول للمؤمنين الن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين][175] .

٢٩ - [بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين][176] .

٣٠ - [إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا الم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا][177] .

٣١ - [لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا][178] .

٣٢ - [لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا][١٧٩] .

٣٣ - [ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلي ولم يوح إليه شئ ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم اخرجوا انفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون][١٨٠] .

٣٤ - [ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شئ قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن اكثرهم يجهلون][١٨١] .

٣٥ - [هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا قل انتظروا إنا منتظرون][١٨٢] .

٣٦ - [ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين][١٨٣] .

٣٧ - [إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم إني ممدكم بألف من الملائكة مردفين][١٨٤] .

٣٨ - [إذ يوحي ربك الى الملائكة إني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان][١٨٥] .

٣٩ - [ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق][١٨٦] .

٤٠ - [ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال][١٨٧] .

٤١ - [جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب][١٨٨] .

٤٢ - [لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين][١٨٩] .

٤٣ - [ما تنزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذن منظرين][١٩٠] .

٤٤ - [وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون][١٩١] .

٤٥ - [فسجد الملائكة كلهم أجمعون][١٩٢] .

٤٦ - [ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا انه لا إله إلا أنا فاتقون][١٩٣] .

٤٧ - [الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم فألقوا السلم ماكنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون][١٩٤] .

٤٨ - [الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون][١٩٥] .

٤٩ - [هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى أمر ربك كذلك فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون][١٩٦] .

٥٠ - [ولله يسجد ما في السموات وما في الارض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون][١٩٧] .

٥١ - [افاصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا إنكم لتقولون قولا عظيما][١٩٨] .

٥٢ - [وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا][١٩٩] .

٥٣ - [أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا][٢٠٠] .

٥٤ - [قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا][٢٠١] .

٥٥ - [وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا][٢٠٢] .

٥٦ - [وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا أبليس أبى][٢٠٣] .

٥٧ - [لا يحزنهم الفزع الاكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون][٢٠٤] .

٥٨ - [الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس إن الله سميع بصير][٢٠٥] .

٥٩ - [فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا الا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لانزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الاولين][٢٠٦] .

٦٠ - [وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في انفسهم وعتو عتوا كبيرا][٢٠٧] .

٦١ - [يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا][٢٠٨] .

٦٢ - [ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا][٢٠٩] .

٦٣ - [ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون][٢١٠] .

٦٤ - [الحمد لله فاطر السموات والارض جاعل الملائكة رسلا أولى اجنحة مثنى

وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شئ قدير][211] .

٦٥ - [أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون][212] .

٦٦ - [إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين][213] .

٦٧ - [فسجد الملائكة كلهم اجمعون][214] .

٦٨ - [وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين][215] .

٦٩ - [.ذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم الا تعبدون الا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فأنا بما أرسلتم به كافرون][216] .

٧٠ - [إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون][217] .

٧١ - [تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض الا إن الله هو الغفور الرحيم][218] .

٧٢ - [وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون][219] .

٧٣ - [فلولا القي عليه أسورة من ذهب أوجاء معه الملائكة مقترنين][220]

٧٤ - [ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون][221] .

٧٥ - [فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم][222] .

٧٦ - [إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الانثى][223] .

٧٧ - [أن تتوبا الى الله فقد صغت قلوبكما وان تظاهرا عليه فأن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير][٢٢٤] .

٧٨ - [يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون][٢٢٥] .

٧٩ - [تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة][٢٢٦] .

٨٠ - [وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين اوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يظل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك الا هو وما هي الا ذكرى للبشر][٢٢٧] .

٨١ - [يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون الا من أذن له الرحمن وقال صوابا][٢٢٨] .

٨٢ - [تنزل الملائكة والروح فيها بأذن ربهم من كل أمر][٢٢٩] .

٨٣ - [من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل فأن الله عدو للكافرين][٢٣٠] .

٨٤ - [آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير][٢٣١] .

٨٥ - [يأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا][٢٣٢] .

٨٦ - [هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكـان بالمؤمنين رحيما][٢٣٣] .

٨٧ - [إن الله وملائكته يصلون على النبي يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما][٢٣٤] .

مما جاء أعلاه يتبين أن عدد المرات التي وردت فيها كلمة (ملك) بصيغة المفرد والمثنى والجمع والجمع المضاف (ملائكته) ثمان وثمانون مرة .

وأن عدد الآيات التي وردت فيها كلمة (ملك) على صيغها المختلفة كـانت سبعاً وثمانين آية ويلاحظ أن الآية رقم ثمانية من سورة الأنعام ذكرت فيها كلمة (ملك) مرتان [وقالوا لولا أنزل عليه (ملك) ولو أنـزلنا (ملكـا) لقضي الأمر ثم لا ينظرون] في حين أن عدد الآيات التي ذكرت فيها كلمة (شيطان) بصيغة المفرد والجمع كانت ثمانية وسبعين آية مما يبين ان في آيات ذكرت فيها كلمة شيطان اكثر من مرة مما جعل عدد الآيات أقل من الايات التي ذكرت فيها كلمة (ملك) ، إلا أن عدد المرات للكلمتين كان متساوياً حيث العدد ثمانية وثمانون كان (للشيطـان) وذاته (للملك) .

إن قراءة أخرى للآيات الكريمة التي وردت فيها كلمة (ملك) على صيغها المختلفة تعطي المعاني والدلالات الآتية :

١ - إن الملائكة مخلوقات خفية غير منظورة خلقها الله وهي تختلف عن سـائر الأحياء وعن الانسان .. قال سبحانـه (ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك)[٢٣٥] .. وقال سبحانه (وقلن حاش لله ما هـذا بشرا إن هـذا إلا ملك كريم)[٢٣٦] .

٢ - إن عدد المرات التي ذكرت فيها كلمة ملك أو ملائكة ثمان وثمانون مرة أما أعدادها الفاعلة والمؤثرة فقد ذكرت مرة بعدد الف وأخرى بثلاثة آلاف وثالثة بخمسة الآف .. قال سبحانه [فاستجاب لكم إني ممدكم بألف من الملائكة مردفين][٢٣٧] . وقال جل شأنه [الن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من

الملائكة منزلين][٢٣٨] . وقال [يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين][٢٣٩] .

٣ - إن الآيات التي وردت فيها كلمة ملك تبين أن الملائكة كانت وسيلة الله لحمل إرادته وفعله الموجه للانسان سواء عطاؤه أو منعه الخير الذي يسديه أو الشر الذي يوقعه ، الحياة التي يهبها أو الموت الذي يتوفى الانفس .. قال سبحانه [قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم الى ربكم ترجعون][٢٤٠] .. وقال [الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم][٢٤١] .. وقال [الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم][٢٤٢] . وقال سبحانه [فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم][٢٤٣] .. وقال [عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم][٢٤٤] . وقال [ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذن منظرين][٢٤٥] .. وقال جلت قدرته [ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده][٢٤٦] .

٤ - وهناك آيات جاءت فيها كلمة (ملك) قائمة في السموات ولا تستطيع أن تفعل شيئا نافعا للانسان أو تشفع له .. قال سبحانه [وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئا][٢٤٧] .

٥ - أن سبحانه استعمل كلمة (ملك) وجعلها وسيلة لحمل قوته والتعبير عن إرادته وإبراز عرشه وقوته ، ليس بغرض التجسيم إنما في سبيل توضيح قدرته ووحدانيته .. قال سبحانه [والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية][٢٤٨] .

٦ - إن الملائكة لكي تفعل فعلها وتحمل أمانة الله وقدرته لابد أن تكون من صنف الجهة المرسلة إليها لكي تـ عمل الامر والتأثير والفعل إلى الجهة المرسلة إليها ولهذا عندما كان يرسل سبحانه جبريل الى أنبيائه يرسله على هيأة وشكل يشبه البشر لكي تتم عملية النقل والتوجيه بصورة سليمة يقول سبحانه [قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا][٢٤٩] .. وقال سبحانه [ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون][٢٥٠] .. وقال [الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس][٢٥١] . وقال

جلت قدرته [فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ورى عنهما من سوءاتهما وقال مانها كما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونـا ملكين أو تكـونا من الخالدين][٢٥٢] .

من هذه الآيات يتبين أن الملائكة لابد أن تشكل بأمـره تعالى عـلى صورة متناسبة مع شكل الانسان ومكونة من أجزاء تستطيع أن تنقل إليه رسالته وأوامره سبحانه ، وفي الآية (٢٠) من سورة الاعراف المتعلقة بالمعركة بين الشيطان من جهة وآدم وحواء من جهة ثانية فأن هذا التحول الذي صار لآدم وزوجه كان متناسبا مع تحول إبليس وخروجه من دائرة الملائكة الى دائرة الشيطان لكي يحدث الوسوسة ويزيل العورة ويكشف عن السوأة ولن يتم ذلك إلا بانتقال آدم وزوجه من الحالة السابقة التي كانا عليها ملكين خالدين الى حالة تحمل الصفات الملائكية والشيطانية وبذلك خرج من دائرة الخلود الى دائرة الحياة والموت أي لم يتم فعل الشيطان إلا بعد أن انتقل آدم وحواء من حالة الملائكة الى حالة فيها جانب ملائكي وآخر شيطاني مما يؤكد إشارتنا أن فعل الملائكة والشياطين إنما يكون عندما يتفاعل مع الجهة التي تحمل صفات .. ومواصفات تشبه الصفات والمقومات المكـونة للشيطـان والملك .

- إن الله سبحانه وتعالى قادر ان يدفع بمخلوقاته ان تتفاعل مع بعضها كما يشاء ولكنه جعل حركة مخلوقاته من الأحياء وبخاصة الانسان حركة تقوم على نواميس معينة وقوانين ثابتة ودقيقة بحيث تتفـاعل وتتحـرك الاحياء والاشياء بصورة محددة دقيقة فلا يتفاعل فعلان تفاعلا دقيقـا منظما الا عندما يكون المتفاعلان من طراز واحد ومن نوعية مشتركة ، ولما كـان الله سبحانه وتعالى (ليس كمثله شئ) فهو يتميز من سائر مخلوقاته ويختلف عنها جميعا ، لذلـك تحدث الى خليفتـه في الارض بالـواسطة ولم يتحـدث إليه مباشرة ، لقد خلق الملائكة وصورها على صورة قريبة من الانسان تحمل إليه ما يريده سبحانه لكي تجري عملية النقل والتكليف بصورة منطقية سليمة .

ومما يبين هذه الدقة في الخلق والتكليف أن الآيات التي حملت كلمة (ملك) وهي تتحمل أمانة الله ورسالته وأوامره كانت تلك (الملائكة) على هيأة بشر أو تتصف بصفـات تشبه صفـات البشر .. قال سبحـانه (الحمـد لله فاطـر السموات والارض جاعل الملائكة رسلا)[٢٥٣] .. وقال [ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عبادة][٢٥٤] .

وعندما أراد سبحانه وتعالى أن تلد مريم العذراء ولدها ارسل إليها روحه ملكا تمثل لها بشرا فقال [فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا][٢٠٠] .. كان الله قادرا أن يرزق مريم بولدها دون أن يرسل روحه فتتمثل لها بشرا ، إلا انه سبحانه يريد أن يبقى على قوانين الحياة بصورة دقيقة ومن أجل أن يمسك بالوحدة التنظيمية لحركة الاحياء وفعلها وتكاثرها ، إنه قادر أن يخلق آدم والمسيح كما يشاء فيقول لكل منهما كن فيكون إلا أنه وضع قوانين لحياة الاحياء والانسان وطبقها بصورة دقيقة وكان باستطاعته أن ينتقل بالانسان من فوق تلك القوانين ويصل بالانسان الى ما وصل إليه دون مروره بطريق التطور الطويل ، إنه سبحانه يؤكد بأنه خلق آدم من تراب فقال [إن مثل عيسى كمثل آدم خلق من تراب] ومر هذا المخلوق من تراب عبر مراحل التطور حتى بلغ مرحلة الكمال عندما صار قادرا على الاحساس والادراك والتمييز والتعبير والفعل والرفض وبذلك استحق خلافته في الارض .

مما ذكر أعلاه يتبين أن : ـ

- الشيطان أداة لحمل الشر وفعله وهناك حالة من التفاعل بين الاداة وما تحمل بحيث تؤلف قوة فاعلة تؤثر تأثيرا سلبيا في الانسان وأن الملك هو الآخر أداة حاملة للخير وتتفاعل هذه الاداة مع قوة الخير وتصير قوة فاعلة مؤثرة في الانسان تأثيرا إيجلبيا .
- إن قوة الاداة الشريرة (الشيطان) وقوة الاداة الخيرة (الملك) متساويتان من حيث الحجم والزخم حيث أن أعدادها متساوية وأنها من طبيعة واحدة وأن خالقها واحد وتأثيرها سيكون متقابلا بحيث ما يصدر عن كل منهما لا يمكن أن يكون ذا قوة واحدة ، انما ما يأتي من تقابل ومواجهة الاداتين والقوتين سيكون متساويا بحيث أن كلا منهما لا تسمح لقوة الآخر أن تنفرد ولا تؤثر تأثيرا منفردا .
- إن طبيعة فعل الشيطان طبيعة سلبية وطبيعة فعل الملك طبيعة إيجابية وان اختلاف الطبيعتين يؤدي الى انجذاب كل منهما نحو الآخر بحيث تتفاعلان وتؤلفان حالة مشتركة نصفها سلبي ونصفها الآخر إيجابي .

ولما كانت هذه القوة المتفاعلة لا يمكن أن تتفاعل فيما بينها في الفضاء ولا في أي محيط آخر إنما شرط تفاعلهما عبر الانسان وبعد دخولهما فيه حيث تبدأ حالة من الصراع بين القوة الداخلة وقوى الانسان حيث

نزعة الشر القائمة فيه ونزعة الخير المتمثلة في ذاته .. إن حالة الصراع بين نوازع الشر مع دوافع الخير متأججة داخل الانسان فعندما تدخل قوى الملك والشيطان فأن قوة كل منهما تنحاز الى القوى الشبيهة بها . فقوة الملائكة تكون مع دوافع الخير وقوى الشياطين تكون مع نوازع الشر وتسفر المعركة عن فعل ، إما أن يكون متأثرا بقوى الخير أو صادرا عن نوازع الشر وهكذا يكون الفعل إما خيرا وإما شرا ، ولما كانت حياة الانسان حية متحركة وأن الصراع بين النزعتين باق ما دام الانسان حيا فأن نتائج هذه المعركة تكون تارة انتصارا لقوى الخير ومرة انتصاراً لقوى الشر ، وهكذا في عملية دائرية مستمرة وعبر تناقض واحتراب دائم .

٨ ـ إن الملائكة على أنواع ودرجات كما أن الشياطين على أنواع ودرجات الملائكة كما ذكرنا أدوات لحمل الخير والنفع والشياطين وسائل لنقل الشر والاذى .

وانه سبحانه وتعالى قد يرسل الملائكة ويحملهم مسؤولية فعل فيه أذى للناس فقد جاءت آيات تحمل فيها الملائكة افعالا شديدة منها قوله تعالى [إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم][٢٥٦] .. وقوله سبحانه [ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم][٢٥٧] .. وقال [هل ينظرون إلا أن تاتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك][٢٥٨] . وقال [فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم][٢٥٩] . وقال [وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة][٢٦٠] . اما معظم الآيات الاخرى فانها وردت تحمل صورة خيرة للملائكة سواء كوسيلة لحمل الخير أو انها وسيلة وقوة دافعة لفعله .

أما صورة الشيطان فتظهر في معظم الآيات صورة دافعة للشر وأداة ناقلة له ، وأن هذه الاداة وما تحمل من فعل تبدو قوية اكثر قوة وغليانا من قوة الملائكة ، ومما يؤكد ذلك أن عددا من الآيات التي جاءت فيها كلمة شيطان نرى أن الشيطان يتحول من أداة نقل الى قوة مشتعلة أذى ودفع لفعله .. يقول سبحانه [يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون][٢٦١] ... وقال [إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن

ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون][٣٦٢] . ويقول [فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون][٣٦٣] .

في هذه الآيات وغيرها تظهر قوة الشيطان قوية فاعلة مؤثرة وكأنها ليست قوة منقولة من مكان الى آخر عبر أداة تسمى الشيطان إنما صارت الاداة وسيلة وفعلا في عملية التأثير السلبي .

ولو وقفنا عند الآيات التي فيها كلمة شيطان لوجدنا أن معظمها يشير الى تفاعل الاداة مع القوة المحمولة في عملية تفاعل قوية . ولم نجد الشيطان في اية آية ذكر فيها إلا وهو أداة لنقل الشر وفعله حيث لا آية من تلكم الآيات تحمل صورة إيجابية للشيطان .

٩ - إن الملائكة كما أشرنا قوة إيجابية والشياطين قوة سلبية وأن هاتين القوتين لا تعملان إلا بوجودهما في آن واحد حيث لا يمكن للملائكة ان تكون قائمة مالم تكن الشياطين قائمة الى جانبها والامر ذاته بالنسبة الى الشياطين فهي الاخرى لا تكون ما لم تكن الملائكة الى جانبها كل منهما سبب ونتيجة للآخر فليست هناك قوة إيجابية ما لم تكن هناك قوة سلبية ، ليس هناك خير ما لم يكن هناك شر وليس هناك شر وليس هناك ظلمة ما لم يكن هناك نور فبقدر ما يكون النور مفيدا وإيجابيا فأن هذه الايجابية والفائدة لا تتحقق ما لم تكن هناك ظلمة .

إن تعاقب الخير والشر ، الظلمة والنور ، الحياة والموت ، من عند الله وأن وسيلته الى تنفيذ ذلك هي الملائكة والشياطين ، هذه القوى غير المنظورة هي التي وراء حركة التناقض وديمومتها ، ولما كانت حالة التناقض هي صورة الحياة المتجددة فأن هذا التجدد يكمن في قوة وحركة وتفاعل الملائكة والشياطين ، هاتين القوتين الخفيتين غير المنظورتين وراء حركة الأحياء وديمومتها .

وفي الوقت الذي تختل قوى الموازنة بين هاتين القوتين تتوقف الحياة على الأرض وتصبح حياة ذات بعد واحد فأذا تغلبت قوة الملائكة وصار الوجود كله خيراً فان هذه الحالة هي حياة الملائكة ذات البعد الواحد المطلق والعكس

إذا ما تغلبت قوى الشيطان فصار الوجود كله شرا وظلاما فأن هذه حياة الشياطين ذات البعد الواحد المظلم دائما وهذه ليست الحياة على الأرض .

إن الذي يتفاعل مع قوتي الملك والشيطان هو الانسان وهو الذي تتمثل على أرضه وساحته هذه المعركة وهو الذي يتسلم نتائجها ليحكم عليها بالخير أو الشر ، بالنفع أو الضرر ، بالحياة أو الموت فأذا لم يكن هذا الانسان فليس للمعركة بين الملائكة والشياطين أية قيمة .

إن الذي يعين المعركة ويتابع نتائجها ويقف على قواها ويتأثر بها هو الانسان وأنها باقية ما بقي . وأن بقاءه حيا متفاعلا قادرا على الحكم والتحكم هو في الابقاء على طبيعته الثنائية التي تحمل حالتين متناقضتين وقوتين متصارعتين ، قوة الخير ونزعة الشر ، مادة الحياة وفقدان هذه المادة ، إن النفس البشرية التي خلقها الله تحمل نزعة الفجور ونزعة التقى هي التي تتسلم الصراع بين الخير والشر وتتفاعل معه وتتأثر بنتائجه . وأن عملية التناقض القائمة في داخل الانسان هي التي تبقى على ديمومة حياته وفعله وتفاعله وأن تجدد الصراع بين قوة الملك والشيطان هو الذي يبقى على طبيعة الحياة والوجود ، هذه الطبيعة المتحركة المتجددة . إن حالة السلب والايجاب القائمة في الانسان وحالة التناقض بين القوى الايجابية والسلبية في المحيط الذي يحيط بالانسان هي سر الحياة وهي مكمن القوة والحركة والتجدد فيها .

(١) لسان العرب (مادة : شطن)

(٢) المنجد ص٤٠٠

(٣) الرازي : التفسير الكبير جـ١ ص٦٤

(٤) المصدر السابق جـ١ ص١٠٠

(٥) الرازي : التفسير الكبير جـ١ ص١٠٠

(٦) سامي سعيد الأحمد : الأصول الأولى لأفكار الشر والشيطان . ص٢٠

(٧) سامي سعيد : الأصول الأولى لأفكار الشر والشيطان . ص١٨

(٨) سامي سعيد : ص٢١ ـ ٢٢

(٩) المصدر السابق ص٢٥

(١٠) كتابنا (الغلو والفرق الغالية) ص٢١ ـ ٣٠

(١١) سامي سعيد : الأصول الأولى لأفكار الشر والشيطان ص٨٤

(١٢) سامي سعيد : المصدر السابق ص٨٤

(١٣) المصدر السابق ص٨٤ ـ ٨٥

(١٤) لاويين : ١٦ ـ ١٨ وانظر الأصول الأولى لأفكار الشر والشيطان ص٥٢

(١٥) المصدر السابق ص١٦ ـ ١٨

(١٦) انظر الأصول الأولى لأفكار الشر والشيطان ص٥٣

(١٧) لاويين رقم ١٧ : ٧

(١٨) سامي سعيد : ص٥٣

(١٩) انظر سامي سعيد : ص٦٧ ـ ٦٨

(٢٠) انظر المصدر السابق ص٧٠

(٢١) مصطفى محمود : الله . ص٥٧

(٢٢) احمد حجازي السقا : الله وصفاته . ص٥٤

(٢٣) انظر رسالة بولس الى أهل كولوس رقم ١ ـ ١٦ وانظر سامي سعيد / المصدر السابق ص٧٣

(٢٤) سامي سعيد : الاصول الأولى لأفكار الشر والشيطان ص٧٤

(٢٥) المصدر السابق ص٦٧ ـ ٦٨

(٢٦) انظر سامي سعيد : المصدر السابق ص٧٠ ـ ٧٥

(٢٧) عبدالرزاق نوفل : عالم الجن والملائكة ص١٠٠ ـ ١٠٧

(٢٨) العهد العتيق المجلد الثاني سفر أيوب ص٣ ـ ٤

(٢٩) العهد الجديد / ص١٣ / ط٢ بيروت ١٨٨٣ / مطبعة المرسلين اليسوعيين

(٣٠) المصدر السابق / الفصل الثامن / ص١٤

(٣١) المصدر السابق / الفصل التاسع / ص١٦

(٣٢) المصدر السابق / الفصل العاشر / انجيل متى ص١٧

(٣٣) المصدر السابق / انجيل متى ص١٩

(٣٤) المصدر السابق / انجيل متى الفصل الثاني عشر ص٢١

(٣٥) البقرة آية ٣٤

(٣٦) الأعراف آية ١١

(٣٧) سورة ص آية ٧٥

(٣٩) الأعراف آية ١١

(٤٠) الشمس : آية ٨

(٤١) الانسان : ٣

(٤٢) البلد : ١٠

(٤٣) البقرة آية ٣٤

(٤٤) الأعراف آية ١١

(٤٥) الحجر آية ٣١

(٤٦) الحجر آية ٣٢

(٤٧) الاسراء آية ٦١

(٤٨) طه آية ١١٦

(٤٩) الشعراء آية ٩٤ _ ٩٥

(٥٠) سبأ آية ٢٠

(٥١) ص آية ٧٤

(٥٢) ص آية ٧٥

(٥٣) الكهف آية ٥٠

(٥٤) سيد قطب : في ظلال القرآن / المجلد الأول / جـ١ / ص٦٨

(٥٥) الطبري : تاريخ الأمم والملوك / جـ١ / ص٥٥ _ ٥٨

(٥٦) تلبيس إبليس : ص٣٣

(٥٧) المنجد ص٢

(٥٨) البقرة آية ٣٠

(٥٩) الأعراف آية ١٣

(٦٠) الأعراف آية ١٦

(٦١) الأعراف آية ١٧

(٦٢) الأعراف آية ١٨

(٦٣) البقرة آية ٣٥ ـ ٣٦

(٦٤) سورة الأعراف / الآيات من ١١ ـ ٢٧

(٦٥) انظر ـ محمد فؤاد عبدالباقي .. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص٣٨٢ ـ ٣٨٣

(٦٦) البقرة آية ١٤

(٦٧) البقرة آية ٣٦

(٦٨) البقرة آية ١٠٢

(٦٩) البقرة آية ١٦٨

(٧٠) البقرة آية ٢٠٨

(٧١) البقرة آية ٢٧٥

(٧٢) آل عمران آية ١٥٥

(٧٣) النساء آية ٣٨

(٧٤) البقرة آية ٢٦٨

(٧٥) آل عمران آية ٣٦

(٧٦) النساء آية ٣٨

(٧٧) النساء آية ٦٠

(٧٨) النساء آية ٧٦

(٧٩) النساء آية ٨٣

(٨٠) النساء آية ١١٧

(٨١) النساء آية ١١٩

(٨٢) النساء آية ١٢٠

(٨٣) المائدة آية ٩٠

(٨٤) المائدة آية ٩١

(٨٥) الانعام آية ٤٣

(٨٦) الانعام آية ٦٨

(٨٧) الانعام آية ٧١

(٨٨) الانعام آية ١١٢

(٨٩) الانعام آية ١٢١

(٩٠) الانعام آية ١٤٢

(٩١) الأعراف آية ٢٠

(٩٢) الأعراف آية ٢٢

(٩٣) الأعراف آية ٢٧

(٩٤) الأعراف آية ٣٠

(٩٥) الأعراف آية ١٧٥

(٩٦) الأعراف آية ٢٠٠

(٩٧) الأعراف آية ٢٠١

(٩٨) الانفال آية ١١

(٩٩) الانفال آية ٤٨

(١٠٠) يوسف آية ٥

(١٠١) يوسف آية ٤٢

(١٠٢) يوسف آية ١٠٠

(١٠٣) ابراهيم آية ٢٢

(١٠٤) الحجر آية ١٧

(١٠٥) النحل آية ٦٣

(١٠٦) النحل آية ٩٨

(١٠٧) الاسراء آية ٢٧

(١٠٨)الاسراء آية ٥٣

(١٠٩) الاسراء آية ٦٤

(١١٠) الكهف آية ٦٣

(١١١) مريم آية ٤٤

(١١٢) مريم آية ٤٥

(١١٣) مريم آية ٦٨

(١١٤) مريم آية ٨٣

(١١٥) طه آية ١٢٠

(١١٦) الأنبياء آية ٨٢

(١١٧) الحج آية ٣

(١١٨) الحج آية ٥٢

(١١٩) الحج آية ٥٣

(١٢٠) المؤمنون آية ٩٧

(١٢١) النور آية ٢١

(١٢٢) الفرقان آية ٢٩

(١٢٣) الشعراء آية ٢١٠

(١٢٤) النمل آية ٢٤

(١٢٥) القصص آية ١٥

(١٢٦) العنكبوت آية ٣٨

(١٢٧) لقمان آية ٢١

(١٢٨) فاطر آية ٦

(١٢٩) يس آية ٦٠

(١٣٠) الصافات آية ٧

(١٣١) الصافات آية ٦٥

(١٣٢) ص آية ٣٧

(١٣٣) ص آية ٤١

(١٣٤) فصلت آية ٣٦

(١٣٥) الزخرف آية ٣٦

(١٣٦) الزخرف آية ٦٢

(١٣٧) محمد آية ٢٥

(١٣٨) المجادلة آية ١٠

(١٣٩) المجادلة آية ١٩

(١٤٠) الحشر آية ١٦

(١٤١) الملك آية ٥

(١٤٢) التكوير آية ٢٥

(١٤٣) البقرة : آية ١٦٨

(١٤٤) البقرة : آية ٢٦٨

(١٤٥) آل عمران : آية ٣٦

(١٤٦) آل عمران : آية ١٧٥

(١٤٧) البقرة : آية ٢٧٥

(١٤٨) الانعام : آية ٨

(١٤٩) الانعام : آية ٩

(١٥٠) الانعام : آية ٥٠

(١٥١) هود : آية ١٢

(١٥٢) هود : آية ٣١

(١٥٣) يوسف : آية ٣١

(١٥٤) الفرقان : آية ٧

(١٥٥) السجدة : آية ١١

(١٥٦) النجم : آية ٢٦

(١٥٧) الحاقة : آية ١٧

(١٥٨) الفجر : آية ٢٢

(١٥٩) الاسراء : آية ٩٥

(١٦٠) البقرة : آية ١٠٢

(١٦١) الاعراف : آية ٢٠

(١٦٢) البقرة : آية ٣٠

(١٦٣) البقرة : آية ٣١

(١٦٤) البقرة : آية ٣٤

(١٦٥) البقرة : آية ١٦١

(١٦٦) البقرة : آية ١٧٧

(١٦٧) البقرة : آية ٢١٠

(١٦٨) البقرة : آية ٢٤٨

(١٦٩) آل عمران : آية ١٨

(١٧٠) آل عمران : آية ٣٩

(١٧١) آل عمران : آية ٤٢

(١٧٢) آل عمران : آية ٤٥

(١٧٣) آل عمران : آية ٨٠

(١٧٤) آل عمران : آية ٨٧

(١٧٥) آل عمران : آية ١٢٤

(١٧٦) آل عمران : آية ١٢٥

(١٧٧) النساء : آية ٩٧

(١٧٨) النساء : آية ١٦٦

(١٧٩) النساء : آية ١٧٢

(١٨٠) الانعام : آية ٩٣

(١٨١) الانعام : آية ١١١

(١٨٢) الانعام : آية ١٥٨

(١٨٣) الاعراف : آية ١١

(١٨٤) الانفال : آية ٩

(١٨٥) الأنفال : آية ١٢

(١٨٦) الانفال : آية ٥٠

(١٨٧) الرعد : آية ١٣

(١٨٨) الرعد : آية ٢٣

(١٨٩) الحجر : آية ٧

(١٩٠) الحجر : آية ٨

(١٩١) الحجر : آية ٢٨

(١٩٢) الحجر : آية ٣٠

(١٩٣) النحل : آية ٢

(١٩٤) النحل : آية ٢٨

(١٩٥) النحل : آية ٣٢

(١٩٦) النحل : آية ٣٣

(١٩٧) النحل : آية ٤٩

(١٩٨) الاسراء : آية ٤٠

(١٩٩) الاسراء : آية ٦١

(٢٠٠) الاسراء : آية ٩٢

(٢٠١) الاسراء : آية ٩٥

(٢٠٢) الكهف : آية ٥٠

(٢٠٣) طه : آية ١١٦

(٢٠٤) الانبياء : آية ١٠٣

(٢٠٥) الحج : آية ٧٥

(٢٠٦) المؤمنون : آية ٢٤

(٢٠٧) الفرقان : آية ٢١

(٢٠٨) الفرقان : آية ٢٢

(٢٠٩) الفرقان : آية ٢٥

(٢١٠) سبأ : آية ٤٠

(٢١١) فاطر : آية ١

(٢١٢) الصافات : آية ١٥٠

(٢١٣) ص :آية ٧١

(٢١٤) ص :آية ٧٣

(٢١٥) الزمر : آية ٧٥

(٢١٦) فصلت : آية ١٤

(٢١٧) فصلت : آية ٣٠

(٢١٨) الشورى : آية ٥

(٢١٩) الزخرف : آية ١٩

(٢٢٠) الزخرف : آية ٥٣

(٢٢١) الزخرف : آية ٦٠

(٢٢٢) محمد : آية ٢٧

(٢٢٣) النجم : آية ٢٧

(٢٢٤) التحريم : آية ٤

(٢٢٥) التحريم : آية ٦

(٢٢٦) المعارج : آية ٤

(٢٢٧) المدثر : آية ٣١

(٢٢٨) النبأ : آية ٣٨

(٢٢٩) القدر : آية ٤

(٢٣٠) البقرة : آية ٩٨

(٢٣١) البقرة : آية ٢٨٥

(٢٣٢) النساء : آية ١٣٦

(٢٣٣) الاحزاب : آية ٤٣

(٢٣٤) الاحزاب : آية ٥٦

(٢٣٥) هود : آية ١٢

(٢٣٦) يوسف : آية ٣١

(٢٣٧) الانفال : آية ٩

(٢٣٨) آل عمران : آية ١٢٤

(٢٣٩) آل عمران : آية ١٢٥

(٢٤٠) السجدة : آية ١١

(٢٤١) النحل : آية ٢٨

(٢٤٢) النحل : آية ٣٢

(٢٤٣) محمد : آية ٢٧

(٢٤٤) التحريم : آية ٦

(٢٤٥) الحجر : آية ٧

(٢٤٦) النحل : آية ١٦

(٢٤٧) النجم : آية ٢٦

(٢٤٨) الحاقة : آية ١٧

(٢٤٩) الاسراء : آية ٩٥

(٢٥٠) الانعام : آية ٩

الفصل الرابع

الجبرية .. والقدرية

أولا : الآيات الدالة على الجبر والآيات الدالة على الاختيار :

أ - الآيات الدالة على الجبر :

الجبر والاختيار ، وهل الانسان في حياته مسيرا أو مخيرا مسألة لازمت الانسان منذ وعيه وإيمانه بوجود قوة خالقة لهذا الكون .

وقد تجلت هذه القضية في الديانات السماوية وصارت مسألة أساسية حيث وزعت آيات الجبر والاختيار بصورة متتابعة توحي مرة أن الانسان مسير وآيات أخرى تبين أنه غير مسير .

لقد تعمقت فكرة الجبر والاختيار والخير والشر في الديانات الثنوية حيث قررت تلك الديانات أن هناك قوتين ، قوة خيرة تدفع الانسان لفعل الخير واخرى شريرة تجره الى فعل الشر كما أنها تسقط الاذى والسوء عليه .

وقد حمل القرآن الكريم آيات تدل على أن الانسان حر فيما يعمل ويقول وآيات تبين أنه مقيد لا يستطيع العمل بحرية ، ولذلك شغلت آيات الجبر والاختيار المسلمين وكانت الأساس الذي انبثقت منه الآراء والافكار الفلسفية حيث صار لفكرة «الجبرية والقدرية» الدور الاكبر والاهم في فلسفة المبادئ الاسلامية وتحول الفكر الاسلامي السهل المباشر الى فكر مركب بحيث جاءت الفلسفة تمشي مسرعة لتدخل من بابي الجبر والاختيار فيتحول ذلكم الفكر الديني الواضح الى فلسفة .

إن اليوم الآخر والحساب فيه ورواح الانسان الى الجنة أو الى النار بعمله دفع المسلمين الى التفكير في هذه الناحية وراحوا يتساءلون عن فعل الانسان ، هل أنه من صنعه وإرادته أم أنه مفروض عليه .

إن فكرة الثواب والعقاب تقتضي أن يكون المحاسب مسؤولاً عن افعاله لكي ينال الثواب على فعله الحسن والعقاب على فعله السئ ، ومن هنا برزت المعتزلة لتؤكد أن الانسان حر في ما يعمل ويقول وهو مسؤول عن عمله ، ولهذا سيكافأ

بالثواب إذا كانت أعماله خيرة وسيعاقب إن كانت أعماله سيئة .

إن ظاهر الآيات الكريمة يدفع حينا الى اعتبار أن الانسان حر ومسؤول عن حريته هذه . وحينا توحي بعض الآيات بأن الانسان لا حول له فيما يقع عليه .

إن متابعة دقيقة وشاملة لآيات القرآن الكريم تؤكد أن عددا كبيرا من الآيات تدل على حرية الانسان وأنه يختار الفعل الذي يقوم به ويتحمل مسؤوليته وتؤلف هذه الآيات نسبة كبيرة قياسا للآيات التي ظاهرها يوحي بالجبر .

إن جمع كل الآيات الدالة على الاختيار يتطلب تدوين معظم آيات القرآن حيث أن أعدادا كبيرة من آيات الكتاب الحكيم توضح هذه الحرية وتحدد مسؤولية الانسان عن أعماله . أما الآيات التي يبدو ظاهرها أنها دالة على الجبر فهي قليلة ويمكن تفسيرها وتأويلها بحيث تكون الى جانب الآيات الدالة على حرية الانسان وإرادته المستقلة في القول والعمل .

وقبل الخوض في ايات الكتاب الحكيم وتوزيعها الى مجموعتين مجموعة دالة على حرية الانسان وأخرى مقيدة له ، لابد أن نقف عند طبيعة العمل الانساني وكيفية قيامه والعبرة من هذا الفعل والاحكام المحددة التي بموجبها يحكم على الفعل خيرا كان أم شريرا .

في هذا السياق لابد من تبيان النقاط والعناصر التي يتعين بموجبها العمل الانساني وكيفية توزيعه ومقاييس الحكم عليه بالخير أو الشر .

- إن الانسان هو المخلوق الذي خلقه الله ليكون شاهدا ودليلا عليه حيث أن السماوات وما فيها والارض وما عليها لم تستطع أن تعبر بكلمة عن ذات الله ووجوده والانسان هو المخلوق الوحيد القادر على التعبير عن الذات الالهية .

- ولكي يكون الانسان على هذه الدرجة من القدرة في التعبير والتدليل على وجود الله لابد أن يمتلك قدرة ذهنية عالية يستطيع بها الحس والتمييز والتعبير عما يدركه ، حيث أن في إدراكه بداية الاعتراف بوجود الله والتوجه إليه .

- إن الآيات الكثيرة التي فضل بها الله الانسان على سائر خلقه تبين أن الانسان هو وسيلة الله لمعرفته والاعتراف به ، كما أن الانسان هو الغاية التي من أجلها خلق الله ما في الارض لتكون في خدمته ، وعليه فهناك علاقة حية فاعلة بين الله وبين الانسان فعلى الرغم من أن الله سبحانه خالق الانسان وخالق كل شئ إلا أن الانسان هو المخلوق الوحيد القادر على الشهادة والاعلان عنها بوجود الله والاقرار بوحدانيته ولولا الانسان لما كانت هناك قدرة لكل مخلوقاته أن تشهد على ذات الله .

- من هنا كانت خلافة الانسان في الارض ، وهذه الخلافة هي مسؤولية هذا المخلوق وتولى شؤون حياته عليها ومواجهة ما فيها من قوى ومغالبة العناصر الشريرة والمؤذية فيها وتغليب العناصر الخيرة ، وهذه المسؤوليات تطلبت أن يكون الانسان على خلق وتكوين يستطيع أن يتولى هذه المسؤولية ويقوم بأعبائها على الوجه الاكمل لكي يكون شاهدا صادقا على ذات الله .

ونظرا لهذه المسؤولية الخطيرة فقد خلقه الله خلقة متميزة إذ جعله على نسق وطراز وقدرات تتناسب وتلك الخلافة ، هذا التكوين وتلك القدرات يمكن توزيعها في النقاط الآتية :

أ - إن النفس الانسانية تمثل خلاصة القوى المدركة الفاعلة في الانسان فهي حصيلة جمع وتفاعل العقل مع الوجدان مع الغرائز مع الارادة ، هذا التفاعل يؤلف النفس البشرية التي هي مصدر الفعل والحركة وهي بمثابة (الشخصية في مصطلحات علم النفس الحديث) .

ب - إن هذه النفس مخلوقة على أساس ثنائي حيث فيها نوازع للشر كما فيها دوافع للخير (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) وقال سبحانه (يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون)[1] ..

الآية (ونفس وما سواها ...) صريحة في أن النفس البشرية مركبة من نزعتين نزعة تدعو للفجور وأخرى للتقى ، والآية ٢٦ من سورة

الاعراف تؤكد أن الانسان موزع الى قوتين . قوة تدعو للسوء وأخرى تدفع للتقى والخير ، وما في الاية الكريمة من ستار على نزعة الشر وانها مغطاة بريش ، إنما جاءت هذه التغطية لتنبيه الانسان على ما فيه من نزعات شريرة تغطيها مظاهره البراقة وأن هذه المظاهـر لا تقوى على إسقاط تلك القوة الدافعة للعدوان .. وأن الى جوار هذه القوة الشريرة قوة أخرى دافعة للخير حاملة الانسان على فعله .

جـ - إن للانسان قدرة إدراكية تميز بين الاشياء وتفرق بين المتناقضات وتعرف ما يضر وما ينفع وهذه القدرة متميزة بالدرجة والعمق على قدرات المخلوقات جميعا ، وبها فضل الله الانسان على كافة خلقه .

د - إن للانسان إرادة مستقلة هي حصيلة وعيه وإدراكه وعواطفه وخبرته ونوازعه الشريرة ودوافعه الخيرة ، وهذه الارادة المستقلة تعمل بما يتناسب معها وما تريده وتقدره .

هـ - ولكي تكون هذه الارادة مسؤولية عن فعلها وقراراتها فلا بد أن تكون حرة غير مقيدة بأية قيود خارجية ، وهذه الحرية لابد أن تكون مطلقة من كل قيد أو تأثير سوى قيد القوى الذاتية القائمة فيها والمكونة لها .

و - إن هذه الارادة الواعية الحرة لكي تكون أفعالها متناسبة مع المهمة التي خلق الانسان من أجلها وهي (خلافة الله في الأرض) والشهادة على وجوده وقدرته فلا بد أن تكون مسؤولية فعل وحركة وحرية هذه الارادة مسؤولية كبيرة تتناسب مع الحرية الممنوحة للانسان .

ز - هذه المسؤولية هي تحميل الانسان وزر ما يقوم به من خطأ ومحاسبته على ذلك ، ومكافأته على فعل الخير والصواب بما يتلاءم مع درجة هذا الخير .

من هنا لابد أن تكون أفعال الانسان من عنده وليست مفروضة عليه ،

إذ لا يجوز محاسبة الانسان على فعل لم يفعله ، كما لا تجوز مكافأته عن عمل خير لم يفعله بنفسه .

إن قيام مبدأ الثواب والعقاب يقتضي أن يكون الانسان قادرا على فعل الخطأ والصواب وأن يكون مدركا لما يفعل ومريدا ، وأن فعله نابع من ذاته بحرية تامة .

هذه العناصر هي التي تعين طبيعة فعل الانسان وتميزه من فعل سائر الأحياء وأنه بموجبها استحق خلافة الله على الارض .

ولهذا فأن كل الآيات التي جاءت تعبيرا وتوضيحا عن الفعل الانساني لابد أن تفسر بأنها إنما جاءت لتؤكد حرية الانسان في عمله وعدم وجود أية جبرية عليه .

ح - إن الجبرية التي يمكن تأويل بعض الآيات بموجبها هي الجبرية المطلقة التي تساوي القدرية المطلقة القائمة على الاسس والعناصر الآتية :

- إن الله هو العلة الاولى ، القوة الخالقة لكل شئ والمقدرة لكل أمر بمقدار .

- إن الحياة في الاحياء منه وبأمره تزهق أرواح هذه الأحياء .

- إن الله هو الذي خلق كل شئ وجعل مجال الحياة للأحياء وهيأ لها وسائل الحصول على ما تحتاج بصورة دقيقة .
- وأنه سبحانه خلق الانسان على الصورة التي أشرنا إليها بحيث يكون قادرا على الادراك والتمييز والتعبير واتخاذ القرار وأن فيه قوتان تتصارعان واحدة تدفع للخير وأخرى تدفع للشر .

في إطار هذه المسلمات هناك آيات قرآنية معينة تؤكد أن الله بيده

ملكوت كل شئ وهو على كل شئ قدير .

هـذه يمكن أن نسميها بـالجبريـة المطلقة ، كمـا أن تسميتها الدقيقة هي أن الله له قدرة كلية على الخلق والاحياء والافناء وأن يجعل ما يريد كيفما يريد .. في هذا المعنى يمكن أن نجد آيات تدل عليه ولذلك سندخل تلك الآيات تحت قائمة الآيات الدالة على الجبرية المطلقة أو الدالة على القدرية الكلية .

وهذه القدرة المطلقة لله ليست موضع نقاش وليست الآيات الدالة عليها أو تلك غير الدالة عليها هي موضع الخلاف ، إنما الخلاف هو في عمل الانسان ، أهو من صنعه أم مفروض عليه وساقط فوق راسه من عند الله ؟ .. إن البحث في الآيات التي تحمل الدلالات الدالة على الحرية واختيار الانسان لنوع وطراز عمله أو تلك التي تشير الى أن فعل الانسان مسلط ومفروض عليه ، إن متابعة لهذه الآيـات الكريمة تؤكد أن معظم الآيات تشير الى حرية الانسان في نوع وشكل الفعل والقول الذي يصدر عنه ، وإلا إذا سلمنا بعكس ذلك فلا بد أن نستسلم الى الجبريـة المطلقة التي تقول إن كل شئ من عند الله وبذلك تنتفي مسؤولية الانسان وتسقط خلافته وينتهي دوره في الحياة وتتبدل الأرض غير الارض والحياة الى حياة أخرى ليست حياة المسؤولية والثواب والعقاب .

إن الآيات الدالة على قدرة الله الكلية وعلى الجبرية آيات متفرقة على سور متعددة ولابد من البدء بها حيث أن قدرته الكلية هي الحقيقة الخالدة وأنه العلة الاولى وخالق الاحياء وبيده ملكوت السموات والأرض وأن الآيات الدالة على الجبر إنما تقع في هذه الدائرة الكبيرة التي لا تقبل نقاشا وليست هي موضع أخذ ورد ما دمنا مؤمنين بوجود الله .

إن كل الآيات الدالة على الجبر متعلقة بقدرة الله في الخلق والفناء ، في الرزق والفقر ، في الصحة والمرض في الظلمة والنور ، كل هذه المتناقضات في الأحياء وفي الطبيعة من خلقه وكانت وما زالت بقدرته ، ولما كان الانسان واحدا من مخلوقاته فأن حياته ومماته وما فيه من قدرات ونوازع .. من عنده تعالى ، وأن المجال الذي يتحرك فيه الانسان من صنع الله والقوى المختلفة المحيطة بالانسان هي الاخرى

من تكوينه وأن تفاعل الانسان في ذاته وتفاعله مع ما يحيط به يسير وفقا للهيأة العامة والطبيعة الاولى والتكوين الذي جعله الله فيه .

على هذا الاعتبار فأن قدرة الله مطلقة ، وأنه هو الذي يحيي ويميت ويحيط سائر المخلوقات ، وهذه الاحاطة والقدرة في إيجادها وتغييرها وإخفائها بمشيئته في هذا السياق هناك عدد من الآيات الدالة على ذلك وسنعرض لعدد منها :

١ - [زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب][٢] .

٢ - [هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه إبتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الالباب][٣] .

٣ - [أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا][٤] .

٤ - [ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير][٥] .

٥ - [والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على سراط مستقيم][٦] .

٦ - [يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون][٧] .

٧ - [فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم][٨] .

٨ - [وألف بين قلوبهم لو انفقت ما في الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم][٩] .

٩ - [إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم][١٠] .

١٠ - [قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون][١١] .

١١ - [قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والابصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الامر فسيقولون الله فقل افلا تتقون][١٢] .

١٢ - [قل لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون][١٣] .

١٣ - [الا ان لله مَن في السموات ومن في الارض وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون][١٤] .

١٤ - [ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين][١٥] .

١٥ - [وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم][١٦] .

١٦ - [وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم][١٧] .

١٧ - [وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون][١٨] .

١٨ - [قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الارض ولاغوينهم أجمعين][١٩] .

١٩ - [وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فأليه تجأرون][٢٠] .

٢٠ - [والله فضل بعضكم على بعض في الرزق فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون][٢١] .

٢١ - [والله جعل لكم من انفسكم ازواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفي الباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون][٢٢] .

٢٢ - [ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون][٢٣] .

٢٣ - [أو لم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شئ حي أفلا يؤمنون][٢٤] .

٢٤ - [كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون][٢٥] .

٢٥ - [إنما قولنا لشئ إذا أردناه أن نقول له كن فيكون][٢٦] .

٢٦ - [خلق الانسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون][٢٧] .

٢٧ - [وأيوب إذ نادى ربه إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين ■ فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين][٢٨] .

٢٨ - [له ما في السموات وما في الارض وأن الله لهو الغني الحميد][٢٩] .

٢٩ - [الذي له ملك السموات والارض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شئ فقدره تقديرا][٣٠] .

٣٠ - [الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شئ عليم][٣١] .

٣١ - [الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون][٣٢] .

٣٢ - [ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون][٣٣] .

٣٣ - [ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف السنتكم والوانكم ، إن في ذلك لآيات للعالمين][٣٤] .

٣٤ - [ومن آياته منامكم بالليل والنهار وإبتغاؤكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ■ ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ■ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ■ وله من في السموات والأرض كل له قانتون ■ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الاعلى في السموات والارض وهو العزيز الحكيم][٣٥] .

٣٥ - [أو لم يروا انا نسوق الماء الى الارض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه انعامهم وانفسهم افلا يبصرون][٣٦] .

٣٦ - [ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم][٣٧] .

٣٧ - [إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ■ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شئ وإليه ترجعون][٣٨] .

٣٨ - [أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد ■ ومن يهد الله فما له من فضل أليس الله بعزيز ذي انتقام][٣٩] .

٣٩ - [الله خالق كل شئ وهو على كل شئ وكيل][٤٠] .

٤٠ - [ذلكم الله ربكم خالق كل شئ لا إله إلا هو فأنى تؤفكون][٤١] .

٤١ - [الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فاحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين][٤٢] .

٤٢ - [كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر][٤٣] .

٤٣ - [وما تشاؤن إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما][٤٤] .

٤٤ - [وما تشاؤن إلا أن يشاء الله رب العالمين][٤٥] .

٤٥ - [سبح اسم ربك الاعلى ■ الذي خلق فسوى ■ والذي قدر فهدى ■ والذي أخرج المرعى ■ فجعله غثاء أحوى ■ سنقرئك فلا تنس ■ إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى ■ ونيسرك لليسرى فذكر إن نفعت الذكرى][٤٦] .

٤٦ - [وهديناه النجدين][٤٧] .

٤٧ - [ونفس وما سواها ■ فألهمها فجورها وتقواها][٤٨] .

إن هذه الآيات الكريمة هي جملة من الآيات التي نرى بأنها تحمل معاني ودلالات الجبر وأن سبحانه وتعالى يفعل كل شئ ، وهناك آيات أخرى تعطي هذا المعنى ، إنما أردنا بهذه الآيات الكريمة (أنموذجا) لتوضيح البعد الالزامي والفعل المصنوع من قبل الله للوقوف على دلالته وكيفية التعامل معه وسحب عمل الانسان وإخضاعه الى فعل الله ومشيئته وتحديد المسؤولية الملقاة على الانسان في حالة كون العمل الذي يعمله مفروضا عليه ولا قدرة أو إرادة له في صنعه .

إن قراءة ثانية للآيات الكريمة والتي أطلقنا على مجموعتها الآيات الدالة على الجبر يمكن أن توزع معانيها ودلالاتها ، ليس على بعد واحد وإنما على أبعاد

متعددة ودلالات كثيرة منها :

- أن معظم هذه الآيات تدل على القدرة المطلقة لله في خلق السموات والارض وما فيها من أحياء وانتظام هذا الكون وإدارته بصورة دقيقة .

- وأن هذه القدرة تبرز واضحة وتتكرر مرات بخصوص الاحياء والافناء من عنده تعالى [وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون] و [كل نفس ذائقة الموت] و [ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون] و [هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الاعلى في السموات والارض وهو العزيز الحكيم] .

- وتبرز قدرته سبحانه وتعالى كلية مطلقة في خلق الاشياء وطبيعة تكوينها وعناصر هذا التكوين [يأيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم ، هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والارض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون] ويقول جلت قدرته [أولم يروا أنا نسوق الماء الى الارض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون] . إن قدرته الكلية هذه تتأكد في آيات كثيرة مما يستدل بها على أن هذه القدرة شاملة مطلقة وأن ليست هناك من قوة تشاركها من أجل تأكيد وحدانية تلك القدرة وشموليتها .

- وهناك آيات تدل على الفرص والاجبار وعمل الخير وإيقاع الاذى ، هذه الآيات هي التي يمكن أن نسميها (بالآيات الجبرية) ، وبما أن أبعاد الفعل الخير والشرير مطلق حيث يأتي في هذه الآيات على إطلاقه مما يصح أن نسمى هذه الجبرية بالجبرية المطلقة .

- إن الآيات الدالة على الجبرية المطلقة هي المتعلقة بالانسان أولا والمؤثرة فيه سلبا أو إيجابا ، ولذلك وزعنا الآيات الى آيات تدل على (القدرة الكلية لله) وآيات تشير الى الجبرية المطلقة لله (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا)[49] . و [وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الارض جميعا ما ألفت بين

قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم][٥٠] . وقال [إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني إثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم][٥١] .

من هذه الآيات يتبين فعل الله وتأثيره على الانسان ومصيره ومثل هذه الآيات هي التي حملت البعض على القول بالجبرية ، والذي نراه إن هذه الجبرية ليست الجبرية المتعلقة بمحاسبة الانسان والحكم على أفعاله إنما هي شبيهة بمعاني القدرة الالهية الكلية للاشياء حيث أن الله هو الخالق للسموات والارض وما فيهما وهو الذي جعل الأحياء من نباتات وحيوانات وميز الانسان من سائر أحيائه وخلق ما يحيط به وأعده إعدادا معينا يستطيع به مواجهة هذا المحيط والقيام بواجباته ومسؤولياته على الأرض .. كل هذه من عند الله ، فالآيات الدالة على الجبر يراد بها هذه الدلالات ويقصد بها أن الله هو الذي خلق كل شئ وأعد عناصر الحياة والفناء في كل حي وصور الانسان بأحسن صورة وأمده بقوة من عنده وتركه في خضم محيطه يتفاعل معه ، ينتصر مرة ويهزم أخرى ، هذه القدرة التي كانت وراء كل شئ هي التي تفسر بها الآيات الدالة على الجبر ، فعندما يقول سبحانه [زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب][٥٢] .. في هذه الآية كشف دقيق عن قدرة الله التي خلقت الناس وخلقت فيهم تلك الشهوات وأوجدت الذهب والفضة والخيل والانعام ، مما يبين أن الله هو الذي أعد وهيأ الانسان لهذا التوجه نحو النساء والبنين والقناطير المقنطرة وهو الذي دفع به الى الذهب والفضة ، وفي واقع الحال أن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق هذه الاشياء كلها ومن هنا فتكون قدرته الكلية هذه وراء ما يصح أن نقول خلف جبريته المطلقة أي أن ما في الانسان من قدرة على فعل الخير أو الشر وما في الاشياء من ضرر أو نفع ، لذة أو ألم هي من عند الله وأن حركة الانسان صوب الاشياء هي نتاج مقوماته وعناصره الاساسية ، وتحت هذا المفهوم يصح أن نقول أن الانسان مسير وليس مخير ، وأن الجبرية المطلقة هي في الاشياء والاسس الاولى وان أصح تسمية لهذه الكيفية القول (بقدرة الله الكلية وليس الجبرية سواء المطلقة أو المقيدة لأن في مفهوم الجبرية أن يكون العمل من عند الله خيره وشره والقول بأن الامر من لدنه خيرا أو شريرا عليه نوع من [التساؤل .. لماذا يكون الشر منه سبحانه] في

حين القول بقدرته الكلية حيث تمتد هذه القدرة على فعل وخلق كل شئ وأن الاشياء الضارة ينظر إليها بمنظار آخر هو منظار (الضرورة) والحكمة في خلق تلك الاشياء حيث لا يمكن للشئ أن يكون صالحا ما لم يكن هناك أمر نقيض له ، ولا يمكن للخير أن يحدث ما لم يكن هناك شر يميزه ، ومن هنا يكون التفسير لهذه القدرة الكلية تفسيرا متناسبا مع الحكمة الربانية التي تنتظم هذا الكون وتسير به بصورة دقيقة :

- إن الآيات الدالة على الجبر والمتعلقة بالانسان إذا أخذت على ظاهرها وإطلاقها فأن الانسان لا يتحمل مسؤولية الفعل الذي يقوم به سواء كان صوابا أو خطأ ولا يتحمل عقوبة مخالفته ولا ثواب فعله الحسن ، وبذلك يكون حال الانسان لا يختلف عن حال بقية الاحياء فهي الاخرى يقع عليها فعل الله سواء أكان حياة أو موتا ، نفعا أو مضرة ، خيرا أو شرا . وبذلك يتساوى الانسان وبقية المخلوقات ، وبذلك تكون الحياة ليست حياة للانسان .

- ومن أجل أن نحسم الامر بخصوص الآيات الدالة على الجبر وعلاقتها بمسؤولية الانسان عن أعماله ، نقول إن ما في هذه الآيات من معان تؤكد أن كل شئ من عند الله وكل ما يقع على الأحياء ومنها الانسان وكل ما يفعله الانسان هو من عنده سبحانه فهذه المعاني متعلقة بالاقرار بقدرة الله على ذلك وترجع إليه خلق الاصل والاساس لكل شئ ، وأنها وإن تكررت هذه المعاني مرات فأنما يريد بها الله سبحانه أن يذكر الانسان بذلك لكي لا يشتط وينسى ربه .

إن الجبرية المطلقة التي تحملها بعض الآيات تعني القدرة الكلية لله فهو الذي قدر كل شئ بمقدار .

- إن عددا من الآيات الدالة على الجبر تضم نوعين أساسيين من المعاني ، الاول يدل على قدرة الله المطلقة والمعنى الآخر يشير الى مسؤولية الانسان ودوره ومحاسبته على فعله ، مما يدل على أن هذه الآيات أريد بها أن تؤكد في جانب منها على أن الله هو الذي خلق الانسان وهو الذي أمره بأسباب البقاء وهيأ له عناصر القوة وهذه تعني أن وجوده وحركته وأفعاله نتيجة لهذا التكوين الرباني الدقيق ، وفي ذلك وقوف عند شاطئ القدرة الربانية المطلقه ، أما

الجانب الآخر من المعاني فتؤكد أن للانسان قدرة يسـ [illegible]
الاشياء ويتخذ بصددها ما يراه ويريده .. ومن الآيات الدالة عـ [illegible]
الثنائي قوله تعالى (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيـات محكمات [illegible]
الكتاب وأخرى متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منـ [illegible]
إبتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والـراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الالباب][٥٣] .

إن في هذه الآية تتجلى قدرة الله المطلقة ، فهو الذي أنزل الكتاب ، وهو الذي جعل آيات منه محكمة وجعل أخر متشابهة ، والانسان أعلى درجات خلقه ، في قلبه زيغ وهذا الزيغ متصل بالخلقة والتكوين وذلكم يدفع الى التأويل ابتغاء الفتنة ، كل هذه النتائج من عند الله وبقدرته إلا انه سبحانه يطالب بالايمان بالآيات المحكمة وترك المتشابه منها ويصف المؤمنين بالعلم مما يدل على أن الانسان مطالب لمواجهة الوقائع والمظاهر والاحداث حتى تلك التي هي من عند الله ويتعامل معها تعاملا يتناسب مع ما يرى ويدرك ، ومن هنا يكون واضحا أن الجبرية التي تحملها هذه الآيات وغيرها إنما هي تعني أن الله هو العلة الاولى وأن كل شئ من عنده وأن على الانسان أن يتعامل مع ما هـو مخلوق ومقدر من الله تعاملا يحقق به عمل الخير ودفع الشر لكي تكون حياته حياة متميزة ويكون خليفته على الأرض فالجبرية المطلقة لا تتناقص مع مطـالبة الانسان بأن يعمل ويقول ما يراه صائبا ويتجنب ما يعتقده مضرا وخاطئا .

- ومما يدل على أن الآيات الدالة على الجبر هي ليست دالة على ذلك بمعنى أن يسلم الانسان بما يقع عليه على الرغم من إيمانه وقناعته بأن هذا الشئ الواقع من عند الله ففي الآية رقم ٣٩ من سورة الانعام والتي نصها [والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على سراط مستقيم] نجد إن القسم الاول من هذه الآية يبين أن الذين كذبوا بآيات الله حكم عليهم (بالصم البكم) اي أن هذه الصفـة لحقت بهم نتيجة كفـر هم وتكذيبهم آيات الله وأحكامه مما يؤكد أن فعل الانسان السئ من عنده وأنه يحاسب عليه بقدره ونوعه .

في حين أن النصف الثاني من الآية يشير الى أن الله سبحانه وتعالى هو الذي

، بين هاتين الصورتين لا يمكن أن
ر والدال على أن الله يهدي ويضل هو
كلية لله حيث أنه هو الخالق لكل شئ فهو
خلقه وخلق فيه قوى وعناصر فعل الخير
كلية لم تعف الانسـان من مسؤولياتـه في
ـير منها وإبعاد وإسقاط الطرف الضار .
بـد من تزويـد الانسان بقـدرة ذهنية وإرادة
وبر ـ جهة الجبرية المطلقة مواجهة تتناسب مع ما يطلب
من الانسان وقد أعد الله سبحانه وتعالى الانسـان على هيـأة
تستطيع القيام بهذه ـمة ، ولهذا فكل الآيات الدالة على الجبر والمتعلقة بأثر وفعل القوة الالهية في الانسان فأن الله سبحانه طالب الانسان بعدم التسليم لها إنما حثه على مواجهتها والتعامل معها بالشكل الذي يعود عليه بالنفع .

ومن الآيات الدالة على الثنائية أي القدرة الكلية ومطالبة الانسان بأن يعمل بما يتناسب مع منفعته قوله تعالى [الا إن لله من في السموات ومن في الارض وما يتبـع الذين يدعـون من دون الله شركـاء إن يتبعون الا الظن وإن هـم إلا يخرصون](٥٤) .

فالقسم الاول من الآية الكريمة يعلن أن لله كل ما في السموات وما في الارض وفي القسم الثاني من الآية يحمل الذين يجعلون لله شركاء مسؤولية عملهم وأنهم إنما يتبعون الظن وأنهم يخرصون . مما يوضح مرة أخرى أن قدرة الله الكلية لا تعفى الانسان من اتباع طريق الهدى والقيام بالعمل الصالح .

وهناك آيات أخرى موزعة توزيعا ثنائيا بحيث تنفصل معانيهما إنفصالا تاما حيث يشير قسم منها الى الجبرية التامة ويبين القسم الآخر حرية الانسان وقدرته المستقلة في العمل الذي يقوم به .. يقول سبحانه وتعالى [قل يـأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فأنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل](٥٥) .

إن الحق من عنده سبحانه قد جاء بازغا ماشيا يحمل علاماته وما فيه من

إيجابية تتهادى بقوة الله وبأمره وعلى الرغم من أن هذا الحق من عنده الا أن الناس توزعوا الى مهتد وضال مما يؤكد أن موقف الناس هـؤلاء هو الذي حملهم على الدخول في دائرة الهدى أو الضلال على الرغم من أن الحق كان من عند الله صريحا ناطقا .

ومن الآيات التي تدخل في هذا التقسيم الثنائي قوله [له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ، إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغير واما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دون الله من وال] .. في هذه الآية تتجلى الجبرية المطلقة والحرية التامة للانسان فيما يفعل ، فقوله [له معقبات من بين يديه ...] يشير الى قدرة الله العليا .. وقوله [إن الله لا يغير ما بقوم ...] يدل على أن التغيير الى الاحسن أو الا سوأ هو من عند الانسان وبقدر ما يعمل الانسان ويغير من نفسه ويعدها إعدادا سليما إيجابياً يقع التغيير وحينما يقع يكون هو المسؤول عنه وأنه سبحانه وتعالى لا يدخل في عملية التغيير إلا انه في نهاية الآية يعود فيعلن مرة أخرى أن الله إذا ما أراد بقوم سوء افلا مرد له . بمعنى أن الله قادر أن يوقع الاذى والسوء في أي قوم وأن وقوعه لا تقوى قوى القوم على صده ومجابهته .. إن هذا المعنى الجبري في نهاية الآية الكريمة يدخل في إطار القدرة الكلية لله التي أشرنا إليها وأن هذه القدرة لا تعفى الانسان من مسؤوليته .

وهناك آيات فيها معنى الاجبار المحدد الواقع على الانسان حيث أن حركته وما يسفر عنها مقيدة تقييدا تاما بأرادة الله وقدرته ، من هذه الأيات قوله تعالى (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا ، إن الله سميع عليم)[٥٦] .

إن هذه الآية اكثر الايات دلالة على الجبرية حيث تتوضح إرادة الله المطلقة في قتل المقتولين وأنه يدفع برمية المؤمنين فيجعلها مصيبة الهدف محققة الغرض ، فبخصوص إرادة الله في الحياة والموت فأن هذه الارادة مطلقة وليست محل نقاش أو جدل فان الآلة التي تحدث الجرح وتؤدي الى الوفاة فأنها لا تفعل ذلك الا عندما يريد الله أن يميت من تقع عليه الضربة ، ولذلك فهناك ضربات متساوية في القوة وفي مكان الاصابة واحدة تحدث وفاة والاخرى لا تحدث ذلك لان الله هو الذي يحيي ويميت .

وقوله (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) فهي تبين أن الرماة الذين سددوا ضرباتهم الى صدور الكفار لم يحققوا أهدافا فيها إلا بأرادة الله ومشيئته ، وحينما يكون الخطاب منه سبحانه الى نبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) فأن هذا الفعل صادر عنه وأن المعنى صريح أن الذي تولى الرمي وأصاب الهدف إنما هو الله جلت قدرته .

إلا أن نهاية الآية التي جاء فيها (وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا) تشير الى أن هذه الآية الدالة على قدرة الله الكلية في الاحياء والافناء وعلى قدرته في إحداث الفعل وتأثيره فأن ذلك لم يلغ مسؤولية الانسان إنما إعتبرت هذه القدرة الكلية امتحانا للمؤمنين وإذا كان المؤمنون ممتحنين فمن أجل اختبار درجة إيمانهم وعزل غير المؤمنين عنهم وأن في هذا التوزيع إشارة الى أن هناك دور للانسان وأن هناك مواقف متعددة لكل منهم وأن هذه المواقف المتعددة تدل عليها أفعالهم التي تشير الى عملهم وإيمانهم على الرغم من مقدمة الآية التي تعطي الفعل ونوعيته الى الله وحده .

ويقول الامام الرازي في تفسير هذه الآية [... قال مجاهد : اختلفوا يوم بدر فقال هذا : أنا قتلته وقال الآخر : أنا قتلته فأنزل الله تعالى هذه الآية يعني أن هذه الكسرة الكبيرة لم تحصل منكم وإنما حصلت بمعونة الله . روى أنه لما طلعت قريش قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذه قريش قد جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون رسولك «اللهم إني أسالك ما وعدتني» فنزل جبريل وقال خذ قبضة من تراب فأرمهم بها فلما التقى الجمعان قال لعلى أعطني قبضة من التراب من حصباء الوادي فرمى بها في وجوههم ، وقال : شاهت الوجوه فلم يبق مشرك الا شغل بعينه فانهزموا . قال صاحب الكشاف : والفاء في قوله (فلم تقتلوهم) جواب شرط محذوف تقديره . إن افتخرتم بقتلهم فانتم لم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ....

ثم قال (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) يعني أن القبض من الحصباء التي رميتها فانت ما رميتها في الحقيقة لان رميك لا يبلغ أثره إلا ما يبلغه رمى سائر البشر ولكن الله رماها حيث نفذ أجزاء ذلك التراب وأوصلها الى عيونهم فصورة الرمية صدرت من الرسول (عليه الصلاة والسلام) وأثرها إنما صدر من الله ،

فلهذا المعنى صح فيه النفي والاثبات ....

احتج أصحابنا بهذه الآية على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى ، وجه الاستدلال أنه تعالى قال (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) ومن المعلوم إنهم جرحوا فدل هذا على أن حدوث تلك الافعال إنما حصل من الله . وأيضا قوله (وما رميت إذ رميت) أثبت كونه عليه السلام راميا ونفى عنه كونه راميا فوجب حمله على أنه رماه كسبا وما رماه خلقا .

فان قيل أما قوله (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) فيه وجوه ، الاول أن قتل الكفار إنما تيسر بمعونة الله ونصره وتأييده فصحت هذه الاضافة ، الثاني أن الجرح كان إليهم وإخراج الروح كان إلى الله تعالى ، والتقدير : فلم تموتوهم ولكن الله أماتهم ....

وأما قوله (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) قال القاضي فيه أشياء : منها أن الرمية الواحدة لا توجب وصول تراب الى عيونهم وكان إيصال أجزاء التراب الى عيونهم ليس إلا بأيصال الله تعالى ، ومنها أن التراب الذي رماه كان قليلا فمنع وصول ذلك القدر إلى عيون الكل ، فدل هذا على أنه تعالى ضم إليها أشياء أخرى من أجزاء التراب وأوصلها الى عيونهم ومنها أن عند رميته ألقى الله تعالى الرعب في قلوبهم فكان المراد من قوله (ولكن الله رمى) هو أنه تعالى رمى قلوبهم بذلك الرعب[٥٧] .

إن في تفسير الامام الرازي هذا معنى من معاني اعتبار الفعل خلقا وأصلا لله وأن فعل الانسان هو في إطار الفعل الالهي وصادر عنه فحينما يقول .. (فدل هذا على أن حدوث تلك الافعال إنما حصل من الله ... أثبت كونه عليه السلام راميا ونفى عنه كونه راميا فوجب حمله على أنه رماه كسبا وما رماه خلقا .

- وهناك عدد من الآيات تتداخل فيها إرادة الله مع إرادة الانسان بحيث تكون الارادة الالهية هي العليا والانسان يأتمر بأمرها وتارة تبرز إرادة الانسان لها حصة في الفعل ونتائجه مما يوضح أن الاصل في خلق الاشياء وحركتها وتأثيرها هو من عند الله وأن حركة الانسان هي في التعامل مع الحركة الكلية تكتسب هذه الحركة البشرية عناصر وجودها وحيويتها وفعلها من القدرة

الكلية الشاملة وتعمل في إطارها وقد تبتعد عن الأصل وقد تبقى قريبة منه ، قد تنحرف انحرافا نحو الخطأ أو تتجه نحو الصواب ، ذلكم الخطأ والصواب المحيط بالانسان والذي هو وما يحيط به من عند الله .

الآيات التي تدخل في هذا الطراز من التداخل بين فعل الله الكلي وفعل الانسان قوله تعالى [وإن يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين][٥٨] و [وألف بين قلوبهم لو انفقت ما في الارض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم][٥٩] . و [يأيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين][٦٠] و [يأيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا الفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون][٦١] .

إن الآية ٦٢ من سورة الأنفال تأكيد على أن الله ينصر من ينصره وأن نصره لرسوله كان بتأييده وبتأييد المؤمنين له مما يوضح أن تأييد الله لرسوله وللمؤمنين إنما يأتي لاحقا لموقف الرسول والمؤمنين من الحق ومن المسؤوليات الملقاة عليهم مما يشير الى أن العمل والسعي إليه والنصر وتحقيقه هو من فعل الانسان الذي يسير بعزم نحوه من أجل الحق ونشر المبادئ والعمل بها .

أما الآية ٦٣ من سورة الانفال فأنها توحي بالجبرية التامة وأن قراءتها بأمعان تشير الى أن فيها صور الجبرية واضحة كما أن فيها صورة تدل على الحرية ، الدالة على الجبر قوله [يأيها النبي حسبك الله] أي من كان الله حسبه كان الله حافظا له مهيئا إياه لفعل الخير ، وفي قوله ومن اتبعك من المؤمنين أن الاعتماد على الله لازم كما أن الاستعانة بالمؤمنين لازمة مما يشير الى دور الانسان الفاعل في عملية الحفاظ وتحقيق النصر وإقامة الخير والسعادة فيه .

والآية ٦٥ تكشف جليا أن هناك فعلاً للانسان نابع من ذاته وأنه يصدر عن الفعل الالهي ويتفاعل معه فأن النصر عند القتال يكون بالعزيمة والعدة والفن واسباب الحرب وأن النصر يكون للاعمق إيمانا وللاصدق صبرا وبذلك تكون النسبة بين المؤمنين والكافرين واحدا الى عشرة ، هذه القوة التي تحملها هذه النسبة هي نتاج الايمان والثقة بالنفس والقناعة بالموقف وأن الزيادة في

القوة والزخم إنما سببها النصر من الله ، وهذا النصر وقوته ناحية معنوية تمتلك النفس وتدفع الوجدان لان يتضاعف ويندفع بزخم قوي فيحقق النصر .

من هذا يتبين أن أفعال الله وقدرته هي المحيط الهائل الذي تدور فيه حركة الاحداث وأن هذه الحركة من عنده وأن حركة الاشياء الصغيرة أو الكبيرة هي جزء من قدرة الله وإرادته وأن حركة الانسان هي الحركة الوحيدة التي تمشي الى جوار القدرة الكلية لله ، تستعين بها وتلك تمدها بقوة إضافية .

من هنا يتبين أن النصر لا بد له من فعل يحققه على فعل مضاد له وهذان الفعلان من عند الانسان وان النصر يكون للفعل الاكثر قربا وانسجاما وتساوقا مع الحق ، مع إرادة الله ومشيئته وفعله على الرغم من أن مشيئة الله هي الكل وأن الانسان وفعله هي جزء من هذا الكل .

ب - الآيات الدالة على الحرية والاختيار :

إن الآيات الدالة على الحرية واختيار الانسان لنوع الفعل الذي يقوم به ومسؤوليته عنه كثيرة جدا وتكاد معظم الآيات التي تحمل معاني الفعل وتفسر طبيعته وتعين المسؤول عن فعله تؤكد أن أفعال الانسان حرة وأنها صادرة عنه بأرادته ووعيه .

ولو أردنا أن نجمع نماذج من هذه الآيات الدالة على الأختيار لوجدنا أعدادا كبيرة من الآيات يتزاحم بعضها مع بعض لتؤكد أن فعل الانسان من عنده .

إن الحكمة الالهية من خلق الانسان أن يكون هذا الانسان شاهدا على ذات الله ، على وجوده وقدرته ووحدانيته وعدالته ، ولكي يكون هذا الشاهد قادرا على تحقيق هذه الاغراض لابد أن يكون مخلوقا خلقة تمكنه من تنفيذ المهمة وإعطاء الشهادة .

ولكي يكون بهذا الاستعداد فلا بد أن تكون خلقته وتكوينه على شكل وطراز

يختلف عن سائر المخلوقات حيث أن كل مخلوقات الله عجزت عن أن تكون شاهدا ناطقا على وجود الله .

إن عقل الانسان وإدراكه ، وجدانه وإحساسه ، غرائزه وما فيها ، نوازع الشر فيه ودوافع الخير عنده ، إرادته المستقلة الواعية ، كل هذه معدة إعدادا متميزا لتكون قادرة على التدليل على وجود الله والتعبير عن حقيقته .

ولكي يكون هذا التعبير صحيحا وصادقا ومعبرا يجب أن يمتلك صاحبه القدرة على التمييز بين المتناقضات والقدرة على الفعل للاشياء المتضادة وأن يكون قادرا على التمييز والفعل للاشياء المتعارضة والتفاعل داخليا بين ما تنطوي عليه نفسه من قوى متناحرة وقادر أن يدفع بقدراته للدخول في معارك مع محيطه وما يتناقض وإياه في هذا المحيط .

ولكي يكون هذا الفعل بهذا الحجم من التحدي وهذا العمق من الادراك لابد أن يكون الانسان حرا حرية مطلقة في التعامل مع ما يحمله ويقوم فيه ويؤلف أسس شخصية والتعامل بين هذه الشخصية وما يحيط بها ، إن الحرية المطلقة تتمثل في الارادة الفاعلة التي تأخذ القرار ويكون ذلك قرارها وفعلها وتعبيرا عن قناعتها وإدراكها ومطلق تحررها في اتخاذ ذلكم القرار .

ومن أجل أن تكون هذه الحرية حرية واعية ، حرية محققة لنتائج إيجابية ، حرية تختلف عن الحرية السائبة التي تتمتع فيها الحيوانات وسائر الاحياء فأن على هذه الحرية قيد واحد ، أن تكون محققه هدفا إيجابيا وموصلة الى غاية صحيحة .

ولكي تتوضح هذه الغاية وتكون هدفا ، يتجه العمل صوبها لابد من إدراك الانسان لطبيعة العمل وهل أنه موصل الى هذه الغاية ومعرفة أبعاد هذه الغاية وهل أنها تتحقق بهذا النوع من العمل أو في نوع آخر .

ولكي يسير العمل الانساني بهذا الانتظام ويصل الى المهمة التي خلق من أجلها وكلف بحملها لابد من وضع مكافأة أو عقوبة على الفعل الانساني لتكون هذه

المحاسبة عامل تنبيه وتشجيع وتحريض على فعل الخير واجتناب عمل السوء .

ولكي يكون أثر المحاسبة إيجابيا لابد من وجود جهة تكافئ على الفعل النافع وتعاقب على الفعل الضار .. إذن لابد من وجود شيئين أساسيين ، الانسان الفاعل للفعل والحكم الذي يحكم على طبيعته وحقيقته ، إذ لايجوز أن يكون فاعل الفعل حكماً على ذاته إذ لا تتوافر مقومات العدالة في تقرير الحكم فلا بد من وجود قوة مستقلة تفعل ووجود قوة تقيم وتحكم وتنفذ الحكم . أي لابد من وجود الانسان الحر المسؤول عن أعماله وأن الله هو الحكم وهو ينظر الى فعل الانسان الصادر عنه لكي يقرر فيه ما يراه إن صالحا وإن طالحا .

إن مبدأ الثواب والعقاب يؤكد مبدأ المسؤولية ، وهذه المسؤولية تستند الى الحرية المطلقة للانسان وهذه بتفاعل بعضها مع بعض يصدر عنها فعله فهي من عنده وهو يتحمل مسؤوليتها .

وأن هذه المسؤولية للانسان هي حصيلة عناصر تكوينه التي عبر عنها سبحانه وتعالى بقوله [ولقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم] وقوله [الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى والذي اخرج المرعى فجعله غثاء أحوى سنقرئك فلا تنسَ] وقال (الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شئ عليم) وقال (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين)[٦٢] . وقال (ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف السنتكم والوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين)[٦٣] . وقوله (وهديناه النجدين) وقوله (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) وقال (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ■ فأن الجنة هي المأوى)[٦٤] . وقال (يأيها الانسان ما غرك بربك الكريم ■ الذي خلقك فسواك فعدلك ■ في أي صورة ما شاء ركبك)[٦٥] .

هذه العناصر هي من عند الله وهذا التكوين من لدنه وأنه سبحانه يطالب الانسان بقدر ما أعطاه من قوى سماها مرة نوازع فاجرة ودوافع تقية وعدل وسوى وصور ما شاء بقدر فأن مسؤولية الانسان متوافقة مع هذه الاسس والمقومات التي تقوم عليها نفسه ، ولما كانت هذه النفس هي ملهمة الفجور والتقى فأن توجهها سيكون تارة نحو السوء وأخرى نحو الهدى وأن الله سبحانه

سيحاسب الانسان على قدر ما أودع فيه من قوى مميزة للفجور والهدى وما فيه من نزعات تدفع للشر ودوافع تحث على الخير .. يقول سبحانه (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فأن الجنة هي المأوى) ، فأن الخوف حالة تقع للانسان نفسه وأن نهى النفس عن الهوى هو نهى لما فيها من نزعة الغواية والفجور مما يؤكد أنه سبحانه سيحاسب على قدر فعل الانسان في مواجهة النوازع التي وضعها فيه وطالبه بعدم الاستسلام لها والخضوع إليها .

ولكي يقطع على الانسان التحجج بأنه لا يقدر على مغالبة النفس وهواها وأنه لا يقوى على التمييز بين الاشياء فيما إذا كانت ضارة أو نافعة وأنه لا يتمكن من مقاومة حالات غريزية تدفعه الى إشباع نهم وجوع هذه الجوارح فأن الله قد رد على هؤلاء بقوله (وهديناه النجدين) وبقوله أن الانسان بما هو عليه وفيه يستطيع أن يميز بين الفعلين حيث وضع للسوء علاماته ووضع للخير أدلته وجعل الانسان قادرا أن يميز بين الشيئين المتضادين واعتبر الميزان الذي لا يخطئ في الحكم على الاشياء والموازنة بينها في داخل الانسان في إدراكه وجعل الحساب على قدر هذا الادراك فقال (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) والرسول هنا اذا كان النبي المرسل لهداية الناس فأن هديه يتطلب إدراكا يهتدي الانسان به ويتوصل الى معرفة ما يريده ويدعو إليه الرسول إذ لا ايمان دون المعرفة ولا معرفة دون العقل والتعقل .

اما إذا فسرنا الرسول في الآية المذكورة كما تفسره المعتزلة بأنه العقل فعلى قدره ستكون المحاسبة وفي ذلك عدالة مطلقة .. يقول سبحانه وتعالى (كل نفس بما كسبت رهينة) أي أن ما تكسبه النفس من خير أو شر إنما بقدر طبيعتها وقدرتها ، هناك معادلة من حيث الحجم والمسؤولية ، بين القدرة الانسانية والمسؤولية ، وعندما يؤكد سبحانه أنه منح الانسان هذه القدرة المدركة المميزة وأعطى لها الحرية لان تكون في الطريق السليم أو الطريق الخطر فأن ذلك لكي يحمل الانسان مسؤولية عمله متناسبة مع قدراته فقال (إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا)[٦٦] .

وفي سبيل أن تتواصل مسؤولية الانسان وخلافته في الارض فأن عقابا بالنار للكافرين وثوابا بالجنة للمؤمنين فحفظ القرآن الكريم آيات في الثواب والعقاب مؤكدة تلك المسؤولية الانسانية . قال سبحانه (إنا اعتدنا للكافرين سلاسل

وأغلالا وسعيرا)[٦٧] . وقال (إن الابرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا)[٦٨] .

إن هذا الوعد بالجنة والظلال والفاكهة والماء السلسبيل هي ثـواب لفعل الانسان الحسن وتركه عمل السوء .

وفي القرآن آيات كثيرة فيها وعد بالجنة لمن يعمل عملا صالحا وهو مؤمن ووعيدا بالنار لمن يكفر بالله ويعمل عملا ضالا .

إن آيات الوعد والوعيد كثيرة ، وآيات الثواب والعقاب مرافقة لتلك الواعدة خيرا والمنذرة بالشر ، ولكي تكون عملية الوعد والوعيد ، الثواب والعقاب عادلة فلا بد أن تستند الى الحرية التامة والى المسؤولية الكاملة جراء فعل الانسان وحريته في اتخاذ القرار .

إن الآيات التي تحمل معاني الحرية وتؤكد أن الانسان هو الـذي يعمل ويقول وهو الذي يتوجه نحو الخير أو صوب الشر وأنه يتحرك في الاتجاهين بنفسه ، ولهذا فهو المسؤول عما يفعل .. ومن الآيات الناطقة بحرية الانسان قوله تعالى :

١ - [لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا إنفصام لها والله سميع عليم][٦٩] .

٢ - [الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات أولئك أصحاب النـار هم فيها خالدون][٧٠] .

٣ - [يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد][٧١] .

٤ - [لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الانبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق][٧٢] .

٥ - [ذلك بما قدمت ايديكم وإن الله ليس بظلام للعبيد][٧٣] .

٦ - [إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويأتي من لدنه أجرا عظيماً][٧٤] .

٧ - [ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما][٧٥]

٨ - [ومن يكسب إثما فانما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما][٧٦]

٩ - [ليس بامانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يجزَ به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا][٧٧] .

١٠ - [ومن يعملَ من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا][٧٨] .

١١ - [ولله ما في السموات وما في الأرض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله وإن تكفروا فأن لله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنيا حميدا][٧٩] .

١٢ - [قالا ربنا ظلمنا انفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين][٨٠]

١٣ - [وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله مالا تعلمون][٨١] .

١٤ - [إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فان الله عزيز حكيم][٨٢] .

١٥ - [ذلك بما قدمت ايديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد][٨٣] .

١٦ - [كد أب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي شديد العقاب][٨٤] .

١٧ - [كد أب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين][٨٥] .

١٨ - [وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون بـه عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شئ في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون][٨٦] .

١٩ - [عفـا الله عنـك لم أذنت لهم حتى يتبـين لك الذين صـدقـوا وتعـلم الكاذبين][٨٧] .

٢٠ - [إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم ، تجـري من تحتهم الانهار في جنات النعيم][٨٨] .

٢١ - [والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون][٨٩] .

٢٢ - [هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت وردوا الى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون][٩٠] .

٢٣ - [إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون][٩١] .

٢٤ - [قل يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسة ومن ضل فأنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل][٩٢] .

٢٥ - [يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء][٩٣] .

٢٦ - [قال ربي بما أغويتني لازينن لهم في الأرض ولاغوينهم أجمعـين ■ إلا عبادك منهم المخلصين ■ قال هذا سراط عليّ مستقيم ■ إن عبادي ليس

لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين][٩٤] .

٢٧ - [إن تحرص على هداهم فان الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين][٩٥] .

٢٨ - [وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون][٩٦] .

٢٩ - [كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون][٩٧] .

٣٠ - [فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون][٩٨] .

٣١ - [إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار إن الله يفعل ما يريد][٩٩] .

٣٢ - [ذلك بما قدمت يداك وإن الله ليس بظلام للعبيد][١٠٠] .

٣٣ - [إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير][١٠١] .

٣٤ - [إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب اليم][١٠٢] .

٣٥ - [إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور][١٠٣] .

٣٦ - [فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم ■ والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم][١٠٤] .

٣٧ - [تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا][١٠٥] .

٣٨ - [وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين][١٠٦] .

٣٩ - [قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا أعزة أهلها اذلة وكذلك يفعلون][١٠٧] .

٤٠ - [إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين][١٠٨] .

٤١ - [وما أنت بهاد العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون][١٠٩] .

٤٢ - [من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون][١١٠] .

٤٣ - [ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون الا ما كنتم تعملون][١١١] .

٤٤ - [وإن أتلو القرآن فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين][١١٢] .

٤٥ - [وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسَ نصيبك من الدنيا وأحسن كما احسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الارض إن الله لا يحب المفسدين][١١٣] .

٤٦ - [من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات الا ما كانوا يعملون][١١٤] .

٤٧ - [فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من اخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون][١١٥] .

٤٨ - [والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين][١١٦]

٤٩ - [ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين][١١٧] .

٥٠ - [فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون][١١٨] .

٥١ - [إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فأنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل][١١٩] .

٥٢ - [اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب][١٢٠] .

٥٣ - [من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو انثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب][١٢١] .

٥٤ - [من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد][١٢٢] .

٥٥ - [الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز ■ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب ■][١٢٣] .

٥٦ - [ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير][١٢٤] .

٥٧ - [وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير][١٢٥] .

٥٨ - [وإنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا][١٢٦] .

٥٩ - [كل نفس بما كسبت رهينة][١٢٧] .

٦٠ - [إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا][١٢٨] .

٦١ - [إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا][١٢٩] .

٦٢ - [إن الابرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا][١٣٠] .

٦٣ - [يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما][١٣١] .

٦٤ - [وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ■ فأن الجنة هي المأوى][١٣٢] .

٦٥ - [إن الابرار لفي نعيم ■ وإن الفجار لفي جحيم][١٣٣] .

٦٦ - [فبشرهم بعذاب أليم ■ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون][١٣٤] .

٦٧ - [إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ■ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الانهار ذلك الفوز الكبير][١٣٥] .

٦٨ - [فذكر إنما أنت مذكر ■ لست عليهم بمسيطر ■ إلا من تولى وكفر ■ فيعذبه الله العذاب الاكبر ■ إن إلينا إيابهم ■ ثم إن علينا حسابهم][١٣٦] .

٦٩ - [وهديناه النجدين][١٣٧] .

٧٠ - [ونفس وما سواها ■ فالهمها فجورها وتقواها][١٣٨] .

إن قراءة ثانية لهذه المجموعة من الآيات الكريمة الدالة على حرية الانسان والمؤكدة إرادته واختياره تعطي المعاني والاعتبارات الآتية :

أ - إن كل الآيات الدالة على الأختيار متعلقة بالانسان وليس بمخلوق غيره حيث انها تبدأ بخطاب موجه إليه أو بحقيقة مقدمة من عند الله أو بديهية أو فرضية ثم يليها أمر أو قرار من عنده سبحانه وأن هناك مسؤولية للانسان في تنفيذ ما يطلب منه وهناك نتيجة معينة تكون إما ثوابا وإما عقابا .

ب - إن هذه الآيات لكي تكون ملزمة للانسان ويحاسب عليها حسابا متوازنا مع طبيعة الطلب فلا بد أن يكون الانسان قادرا على إدراك ما يطلب منه كما أنه قادر على رفض أو قبول ذلكم الطلب ، فعندما تنتفي القدرة على اتخاذ القرار بالموافقة أو عدمها تسقط المسؤولية ويتحول الأمر من طلب موجه للانسان الى طلب موجه الى مخلوق غير مدرك ومثل هذا الطلب لا يتحمل الموجه إليه مسؤولية التعامل معه .

ج - إن هناك علاقة عضوية في كل آية من الآيات الدالة على الحرية وبخاصة بين الانسان المطالب بالأمر وبين الله سبحانه وتعالى ، هذه العلاقة تعينها طبيعة المطاليب الموجهة منه سبحانه وتعالى الى الانسان ، ولذلك فأن الوحدة التي تشد بين طرفي العلة الاولى (الله جلت قدرته) والمعلول (الانسان) هي الاوامر والنواهي . وهذه هي اعتبارات فكرية .. وخلقية وحضارية تـواجه حيـاة الانسان وتشكل طراز ولو لا حياته بحيث إذا سار وفقا لهذه الاوامر ونهي النفس عن تلك النواهي سيكون في الموقف المطلوب والعكس إذا لم يستطع تنفيذ ما يؤمر به وينهي عنه .

د - ولكي تسير العلاقة بين مراكز الفعل ونتائجه بصورة دقيقة فلا بد من ربط النتيجة بحساب يقف منها فأن كانت صائبة يكافأ عليها وإن كانت سيئة يحاسب عليها ، ولكي تكون هذه المحاسبة عادلة فلا بد أن يكون الانسان حرا عندما يتخذ القرار وأن يكون القرار المتخذ سواء أكان أمرا من عنده تعالى أو نهيا منه عن فعل يجب أن يتجنبه أو موقف عليه أن يبتعد عنه ففي ذلك إلتزام سليم وتطبيق لمبدأ المسؤولية وعدالة في منح المحسن ثواب عمله والمسئ جزاء فعله .. ومن أجل أن تكون المحاسبة دقيقة فلا بـد أن تكون الاوامر والنواهي متوافقة مع إدراك الانسان ومعارفه ومتناسبة مع قدرته في القبول والرفض فأذا كانت المطاليب فوق طاقة الانسان ولا يستطيع بما أوتي من قوة من القيام بها فأن تحميله مسؤولية ذلك يعد تعسفا ، ولذلـك أكد

سبحانه وتعالى (بأنه لا يكلف نفسا الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) وتنفيذا لهذه الدقة في طبيعة الأمر وقدرة الانسان على مواجهته وتنفيذه أنه سبحانه يؤكد ، (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤتي من لدنه أجرا عظيما)[١٣٩] ... ويكرر سبحانه وتعالى بأن أوامره ونواهيه مقدرة تقديرا دقيقا وأنه لا يحمل الانسان اكثر من طاقته فيقول [ذلك بما قدمت أيديكم وان الله ليس بظلام للعبيد][١٤٠] . ويقول سبحانه [إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس انفسهم يظلمون][١٤١] .

هـ - إن كل أو معظم الآيات الدالة على الحرية تؤكد بأن فعل الانسان السيء من عنده وفعله الخير منه أيضا ، وفي حالات ينبه سبحانه الى أن الفعل السيء من الانسان وأن الفعل الخير منه سبحانه وتعالى ... يقول سبحانه (ومن يكسب إثما فأنما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما)[١٤٢] . وقال (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم)[١٤٣] . وبخصوص الفعل الخير الذي من عنده يتوضح في آيات منها [وما بكم من نعمة فمن الله ...][١٤٤] . فأن هذه النعمة وهذا الخير يدخل في دائرة القدرة الكلية لله التي تؤكد أن كل شيء من عنده .

و - إن ميزان الحكم على الاشياء يكون داخل النفس البشرية وأن هذه النفس لكي تختلف عن بقية نفوس الاحياء لابد من ابتلائها واختبارها بالشر والخير وأن تمنح الحرية في التوجه في أي من الاتجاهين لكي تكون النفس البشرية على درجة من التمييز تختلف عن النفوس الاخرى يقول سبحانه (كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون)[١٤٥] . إن ابتلاء الله للانسان بالشر والخير أي اختباره في مواجهة الشر ونقيضه وامتحانه في القيام بفعل الخير وعكسه ووضعه في حلبة الصراع بين قوى تجره وأخرى تدفعه الى الشر وقوى خارجية وأخرى داخلية تدعوه لفعل الخير .

ز - إن الله سبحانه وتعالى هو الذي جعل الانسان في هذه الهيأة وحمله المسؤولية لكي تبدأ حياة جديدة تختلف عن الحياة الاخرى كحياة الحيوانات أو النباتات التي لا تدرك ولا تملك الارادة لاتخاذ فعل أي كانت درجته ووهب الانسان كل عناصر ومقومات تحمل هذه المسؤولية والقدرة على مواجهتها

فكان العقل على مستوى من الادراك يستطيع به الانسان التمييز بين الاشياء كما أن تعاليم الله التي وضعها في كتبه تضع أمامه المجال مفتوحا لكي يتخذ القرار في ضوء مصابيح الهدى المنبثقة من كل آية من آياته ... يقول سبحانه (وان اتلو القرآن فمن اهتدى فأنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين) ويقول سبحانه (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا واحسن كما أحسن الله إليك ولاتبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين)[١٤٦] .

ح - إن الله سبحانه وتعالى قادر أن يجعل الانسان فاعلا للخير تاركا للشر حيث أن قدرته الكلية تقول للشئ (كن فيكون) ولكن هذه الكينونة المطلقة هي ليست حياة الانسان إنما هي حياة الملائكة وحياة الاحياء الاخرى غير الناطقة والتي لا تعي ولا تعبر ... إن الخير المطلق والهداية الكلية تجعل الانسان والملائكة والاحياء وكل شئ على حالة واحدة واتجاه واحد ، هذا الاتجاه الواحد إن كان خيرا فأنه يظل محبوسا في ذاته ولا يستطيع أن يعبر عما فيه من خير كما لا يستطيع أي من تلك الاطراف أن تعبر عن ذلكم الخير لأنها لا تمتلك القدرة على التعبير وإن امتلكت فأن وجود الخير المطلق يحول دون الشعور والاحساس والادراك له لأن نقيضه الشر غير موجود ... يقول سبحانه (ولو شئنا لاتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ■ فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون)[١٤٧] ... وقال (إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا) . ففي الآية (١٣) من سورة السجدة تبين أن الله قادر على أن يجعل النفس البشرية سائرة في طريق الهدى ولكنه لم يفعل ذلك لأن سير الانسان على طريق الهدى فحسب وبامر من عنده يجعل الله الانسان وسائر الاشياء أمرا واحدا وبذلك تنتفي الحكمة من خلق الله للانسان ليعبر عما يدرك ويرى ولكي تتواصل العلاقة بين الله والانسان بصورة دقيقة تستطيع بها قوى الانسان أن تعترف بفضل الله عليها وتعلن عن وجوده وقوته .

ثانيا : الشيطان والملك واثرهما في فعل الانسان :

في الفصل الثالث جمعنا الآيات التي وردت فيها كلمة شيطـان وتلك التي جاءت فيها كلمة ملك ، وعرضنا المعـاني والدلالات التي أوحت بهـا معنى كلمة شيطان وملك وعلاقتها بالانسان وتأثيرها فيه .

لقد توضح بأن قوة الشيطان وقوة الملك من عند الله وهي قوة خارجية تتحرك من خارج الانسان وتتفاعل مع قواه الداخلية فتقع حركة فعل ورد فعل وتفاعل بين هذه القوى وعناصر القوة في الانسان .

ولما كان عدد المرات التي وردت فيها كلمة شيطان هي ذاتها التي وردت فيها كلمة ملك ، ولما كانت قوة الشيطان سلبية وقوة الملك إيجابية فأن أثر القوتين واحد حيث أن ما تحدثه القوة السلبية تواجهها القوة الايجابية فتكون المحصلة أثرا وتأثيرا متقابلا لا يترك فعلا خارج دائرة التفاعل بين القوتين المتناقضتين .

وأوضحنا بأن قوة الشيطان والملك تتفاعل مع قوى الانسان ولا تتفاعل مع أية قوة أخرى إذ لا تفاعل بين هذه القوى والحيوانات أو النباتات ، ولهذا فأن متابعة أثرهما ينحصر في الانسان وليس في مخلوق غيره .

إن طبيعة القوة الشريرة في الشيطان تكمن في الجانب السلبي والقوة الخيرة في الملك تتمثل في الجانب الايجابي ، وأن هاتين القوتين لا يمكن أن تؤثران ما لم يتم تفاعلهما مع بعضهما تفاعلا مباشرا حيا في دائرة وحـدة نوعيـة ، تمثل القـوة الايجابية نصفها وتمثل القوة السلبية النصف الآخر . ولذلـك تدخـل القوتـان كحصيلة واحدة في الانسان وتتفاعل مع قواه الداخلية .

ولهذا كانت قوة الشيطان (الجانب السلبي) وقوة الملك (الجانب الايجابي) متساويتين في العدد وفي الزخم لكي تتفاعل مع بعضها فتؤلف قوة واحدة هي نتاج هذا التفاعل فأما أن تتغلب القوة الايجابية على القوة السلبية فتؤتر إيجابيا وإما أن تتغلب القوة السلبية فتؤثر سلبا ، وعلى درجة وقوة هذا التأثير يكون العمل إما صائبا وإما خاطئا وعلى درجات متفاوته .

إن طبيعة الانسان الثنائية حيث خلق من نزعتين ، نزعة شريرة وأخـرى

خيرة فأن هذه الثنائية في التكوين هي أساس حركة الانسان ومصدر الحياة فيه وهذا التوزيع والخلق من عنده تعالى .. إن التقسيم الثنائي للنفس البشرية هو الذي جعل التفاعل بينها وبين قوى الشيطان السلبية وقوى الملك الايجابية أي أن تفاعل الانسان يكون تفاعلاً على محورين ومرحلتين متداخلتين ، التفاعل الاول بين نزعة الخير في ذاته ونزعة الشر القائمة فيه ، وأن حصيلة هذا التفاعل تواجه النواحي السلبية والقوى الايجابية في الاشياء وفي المؤثرات الخارجية ، تتفاعل معها فتقوم حالة من الفعل ورد الفعل بين القوى الداخلية والخارجية تسفر عنها نتائج وقرارات صوب الخير أو اتجاه الشر .

إن تفاعل الانسان وحركته دائمة على المحورين ، الحركة الداخلية ومواجهة القوة الخارجية وأن أية ظاهرة مؤثرة وقوة فاعلة تحيط بالانسان وتؤثر فيه تتكون من قوتين واحدة سلبية والاخرى إيجابية ، وليس من ظاهرة في الكون مؤثرة إلا وتقوم على هذه الثنائية .

إن التعبير عن القوى الشريرة بالشيطان وعن القوة الخيرة بالملك ، إنما هو تعبير دقيق بارع شامل وأن المعنى الذي يقابله ويساويه في البعد والتأثير أن نطلق على قوة الشيطان الشريرة (بالقوة السلبية) وعلى قوة الملك الخيرة (القوة الايجابية) وأن حجم وأثر القوتين متعادل حيث أن (الوحدة النوعية) لاية ظاهرة تتألف من عنصرين أساسيين ، عنصر سلبي وآخر إيجابي وتبقى هذه الثنائية في أصغر الاشياء وأدقها كما تبدو في المظاهر الكبيرة .

إن التعبير بالقوة السلبية والايجابية هو ذاته التعبير بقوة الشيطان وقوة الملك وأن هاتين القوتين متفاعلتان متداخلتان ، وأن وجودهما يكون في كل أجزاء الاشياء وفي كل القوى الحية مهما صغرت أو كبرت .

إن قراءة ثالثة لقوة ومعاني كلمة (شيطان) ، (ملك) وعلاقتها بفعل الانسان ومدى تأثيرها عليه تبين :-

- أن قوة الشيطان والملك قوة خارجية غير منظورة تؤثر سلبا أو إيجابا عندما تلتقي مع الانسان وتصطدم مع قواه الداخلية ويتوقف مصير المعركة بينهما

على قوى الانسان الذاتية أي على مصادر قوة النزعة الشريرة فيه ومنابع النزعة الخيرة فيه .

- إن التفاعل بين القوى الذاتية للانسان ومواجهة القوة الخارجية يقع بين حصيلة قوى الانسان الداخلية أي حصيلة نزعتيه الخيرة والشريرة مع حصيلة القوة الخارجية أي مع نتيجة القوة السلبية والقوة الايجابية .. حيث لا يحدث التفاعل بين القوى السلبية في الانسان مع القوى السلبية الخارجية على انفراد وفي معزل عن القوتين الايجابيتين الداخلية والخارجية والامر ذاته بالنسبة للقوتين الايجابية الداخلية والخارجية إذ لا يحدث بينهما تفاعل أو تكامل في معزل عن أثر القوة السلبية الداخلية والخارجية لأن عملية التفاعل هي ليست عملية جمع بين قوتين متشابهتين إنما هي حالة من التفاعل والتداخل تتولد منها حصيلة تختلف حجما وتأثيرا عن حصيلة الجمع الاعتيادية بينهما .

- ولما كانت القوة الشريرة المعبر عنها بالشيطان والقوة الايجابية المعبر عنها بالملك هي قوة واحدة في الحجم والزخم كما أوضحنا مرارا فأن حصيلة هذه القوى تكون واحدة حيث قوة الشيطان تعادل قوة الملك وعند تفاعل هاتين القوتين ينجم عنهما حصيلة تتألف من قوة ذات زخم متعادل في أثرها السلبي والايجابي ، ولهذا فعندما تواجهها قوى الانسان فأنها تواجه حصيلة ذات قوة إيجابية تعادلها حصيلة ذات قوة سلبية ، ولما كانت القوة المواجهة واحدة (هي قوى الانسان) فان على هذه القوة يتعين طبيعة القرار ويتحدد نوع وطراز الفعل ، ولهذا يمكن إضافة قوى الشيطان وقوى الملك كقوة إيجابية تقابلها قوة سلبية ، تعادلها وتوازيها في الأثر والتأثير ويمكن إسقاطها وإبعادها على اعتبار أنها ليست ذات أثر أو تأثير على قوى الانسان الداخلية . ومن هنا فان عمل الانسان هو نتاج تكوينه وعناصر القوة في نزعته الخيرة وعوامل الفعل في نزعته الشريرة وهذه تتحرك بحرية تامة وتؤثر تأثيرا خاصا وبموجبها تكون نتائج العمل أو القول خيرا كان أو شرا .

يفسر محي الدين بن عربى قوله تعالى (ونفس وماسواها فالهمها فجورها وتقواها) تفسيرا كنا قريبين منه فيما ذهبنا إليه فيقول [فالهمها فجورها وتقواها

بأن الله جعل في طبيعة النفس استعدادا لقبول ما تلهمه من فجور أو تقوى وجعلها قادرة على التمييز بين هذين الأمرين][١٤٨] .. إلا أن الشيخ محي الدين ابن عربى يدخل في حوار حول الخير والشر وكيف يكون الشر من عند الله فيقول [... هل يجوز لنا أن نزعم أن الله هو الذي يلهمنا الخير والشر معا ؟ يرى ابن عربى إنه من الاجدر أن نفهم هذه الآية في ضوء الحديث الذي روى عن الرسول من أنه للملك في الانسان لمسة وللشيطان لمسة ـ فيكون الضمير في الهمها للملك في التقوى وللشيطان في الفجور .. وكان بقضاء الله وقدره .. ولا يصح أن يقال في هذا الموضوع إن الله هو الملهم لما في هذا من الجهل وسوء الأدب ولما في ذلك من غلبة أحد الخاطرين .. وايضا لقوله تعالى (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) فالسيئة نتيجة لميل النفس الى خاطر الشر وأما الحسنة فأنها بسبب ميل النفس بتوفيق من الله الى خاطر الخير ، اما سوء الادب الذي يتحدث عنه إبن عربى فهو نتيجة للجمع بين الله والشيطان في ضمير واحد وهذا غاية سوء الأدب مع الله ، إذن من الاولى أن ينسب الالهام بالفجور الى الشيطان والالهام بالتقي الى الملك (فمقابلة مخلوق بمخلوق أولى من مقابلة مخلوق بخالق) اي أن المقابلة بين الملك والشيطان احق من المقابلة بين الله والشيطان][١٤٩] .

إن تعليق الدكتور محمود قاسم على كلام ابن عربى قد ابعد كلامه عن الابعاد الدقيقة التي ذهب إليها ذلك الشيخ المتصوف الفيلسوف ، إن العزل بين قوى الشيطان وقوى الملك ، هذا العزل الذي ذهب إليه الدكتور محمود قاسم هو الذي أوقعه بالخطأ حيث لا توجد قوة للشيطان مستقلة عن قوة الملك إنما كل منهما قوة متداخلة مع الاخرى وكلاهما يمثلان قوة واحدة ، وجه منها يحمل نصف قوة الشيطان ونصف قوة الملك والوجه الآخر يحمل نصف قوة الملك ونصف قوة الشيطان .. وأن هاتين القوتين من عند الله ، والحذر من القول ، كيف يصح أن نردد بأن الخير من عند الله وأن الشر منه فأن الخروج من هذا المأزق يكون بأن الخير الذي هو من عند الله لا يمكن أن يكون قائما متميزا حاضرا مؤثرا الا عندما يكون هناك نقيض له هو الشر ، فبقدر ما يتمتع الخير من مزايا الايجابية والنفع والعطاء ، فأن هذه الميزات لا تتحقق ولا تقوم لو لم يكن هناك شر ولهذا فأن الشر ضروري لوجود الخير حيث لا يكون هذا بدون ذاك .. إن الحكمة الالهية هي في خلق هذه الثنائية في الاشياء ، وهذه الثنائية ابتدات وصارت قائمة عندما ظهر الانسان ووصل الى مرحلة التمييز بين الاشياء وهذه جاءت نتيجة تكوينه ذلك

التكوين الثنائي وإدراكه وتعبيره عن ذلك في حين لم تستطع الملائكة ولا الحيوانات وسائر المخلوقات أن ترى هذه الثنائية وتميز بينهما ولذلك كانت حياتها غير مدركة وغير مهمة ولم تتحمل أية مسؤولية وأن المسؤولية ابتدات منذ قيام الانسان المميز بين المتناقضات وهذا التمييز يعطي للنقيضين أهمية متساوية إذ أن الحاصل من تناقض المتناقضات لم يقع الا نتيجة تفاعلهـا وأن الحصيلة الصـادرة عن هذا التفاعل تضم بين طرفيها شيئا من تلك المتناقضات بقدر معين .

إن النظرة بأن الشر والشيطان قوة عدوانية نظرة خاطئه وأن الخروج من هذا المفهوم وجعل قوة الشيطان أو الشر في حدودها المنطقية هي باعتبار أن هذه تمثل القوة السلبية التي هي والقوة الايجابية في كل ظاهرة حية وأن هذه الظاهرة لا تقوم الا بوجود القوتين السلبية والايجابية ومن هنا تكون كـل منهما ضـرورية وأساسية في وجودها .

ولما كانت كل ظاهرة حية مخلوقة من عند الله فأنه سبحانه هو الذي خلق عناصر الحياة في هذه الظاهرة وأن نلك العناصر توزعت إلي قوتين اساسيتين قوة سلبيه وأخرى إيجابية فلا يضير والحالة هذه أن تكون القوتان من عند الله وعلى وجه أدق لابد من الاعلان بأن القوتين من عنده وأنهما اساس الحركـة والفعل والتأثير في الظواهر الحية .

وقد عمل ابن عربى على أن يربط بين القوتين السلبية والايجابية عن طريق الربط بين النفوس والارواح من جهة وبين الاجساد من جهة ثانية فاعتبر أن وحدة الانسان في التجانس بين النفس والجسد وفسر قوله تعالى (يأيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شـاء ركبك) ... في أي صورة ما شاء ركبك بأن هناك تجانسا بين كل نفس وكل جسد أو بين الجسد الذي تحل فيه وهذا التجانس أو الانسجام ... فأن الصورة المعدلة لا تقبل إلا روحا تشاكل مزاجها ... ولما كانت النفوس تتجانس مع طريقـة تركيب الجسم فـأنها تتكيف به أو تظهر بصورته ، ولذلك فمن الممكن أن ندرك لماذا تتفاوت النفوس أو تتفاضل فيما بينها فأن ذلك يرجع الى التفاوت بين طرق التركيب التي خضعت لها أجسامها ... فالسبب في التفاضل بين أفراد البشر يكمن في الصورة التي شاء الله أن ينشئ فيها كل واحد منهم وهذا هو معنى التجانس بين كل من النفس والبدن

(فأن الله قد جعل الانسان وعقله بحكم مزاج جسده فأن النفس لا تدرك شيئا إلا بواسطة هذه القوة التي ركب الله في هذه النشأة فهي للنفس كالآلة فأن كانت الآلة مستقيمة على الوزن الصحيح ظهر حسن الصنعة بها إذا كانت النفس عالمة بالصنعة) ...

... فالارواح أو النفوس لا تتفاضل فيما بينها بحسب أصلها لانها كلها من أمر الله وانما تتفاضل بحسب أمزجة الاجسام التي خصصت لها وقد وضح إبن عربى هذه الفكرة فقال (إن التفاوت بين النفوس بسبب تفاوت أمزجة أجسادها أو اختلاف طرق تركيبها شبيهة بما نراه من إنعكاس نور الشمس على ألواح من الزجاج مختلفة الالوان فهذا النور الواحد يتشكل بألوان مختلفة فيكون فيه الاخضر والاصفر والازرق والاحمر والبنفسجي على نحو ما تبدو به ألوان الزجاج في العين فاذا كانت النفس تؤثر في الجسم فتدبره وتعني بأمره بعد أن كانت سببا في حياته وحركته الظاهرتين فالجسم يؤثر فيها من جانبه . بمعنى أن أمزجة الاجسام أو طريقة تركيبها تخلع على الازواج يميز بعضها من بعض (فمنهم الذكي والبليد بحسب مزاج الهيكل (الجسم) فالامر عجيب بينهما فكل واحد منها يؤثر فيمن هو مؤثر فيه)(١٥٠) .

إن رواح الدكتور محمود قاسم مع ما ذهب إليه إبن عربى في توزيع الانسس بين النفس والجسد فأن هذا التوزيع كان على ظاهر الشئ وعلى السطح حيث أن القول بأن الجسم يتجانس مع النفس أو أن هذه تدخل في الجسم وتكيفه وتظهره بصورة معينة هو محاولة لتفسير نزعات الخير والشر عند الانسان .

إن الذهاب الى تفسير ذلك عن طريق تقسيم الانسان الى جسد وروح مسألة تبقى عددا من الاسئلة معلقة دون جواب إذ كيف تتحرك النفس وتؤثر في الجسد وكيف يتقمص الجسد الروح ويتكيف بموجبها . إن مثل هذه التساؤلات وغيرها تظل قابلة للنقاش مثيرة للجدل وأن خير ما نحسم به الامر هو تفسير قوله تعالى (ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها) حيث أن النفس الانسانية ملهمة قوى سلبية وأخرى إيجابية وأن حركة الانسان هي نتاج تفاعل القوتين فـأذا تغلبت القوة الفاجرة كان العمل شرا و إن تغلبت القوة الخيرة كان العمل خيرا . وأن حركة هذه القوة مطلقة ولا يقيدها الا قيد واحد هو طبيعة قوتها وقوى العناصر

المكونة لها ، وهذا القيد بموجبه تتحدد مسؤوليته وبانطلاق قواه الفاجرة والتقية تكون أعماله صائبة أو خاطئة وفي ضوء ذلك يكون ثوابه أو عقابه .

إن افتراض وجود قوة خارجية تؤثر في الانسان وتحمله على عمل شئ يقع بتأثير هذه القوة يؤدي إلى خلل في ميزان المعادلة بين الحرية للانسان ومسؤوليته عن أعماله ويزعزع مبدأ الثواب والعقاب ، إذ لا يمكن تطبيقه والانسان يعمل تحت تأثير قوة ساقطة عليه مسيرة إياه وفقا لمشيئتها وتأثيرها .

إن مسؤولية الانسان تمثل الطرف الثاني من المعادلة الدقيقة حيث تقع في المقابل حريته المطلقة ، إن الحريــة التامــة هي التي تحمل الانســان وزر عمله فيحاسب بقدر حجم وزخم هذه الحرية ونوع القرار الصادر عنها وطبيعته ، إن المسؤلية تبدأ من التسليم بحرية الانسان وأن أي خلل في جانب من جوانب هذه المعادلة يسقط أركانها وينهى مبدأ الثواب والعقاب .

لهذا فأن قوة الشيطان السلبية وقوة الملك الايجابية إذا ما اقتحمت الانسان وعملت على حمله .لاتخاذ قرار يتناسب مع تأثير هاتين القوتين فأن مبدأ الحرية يسقط فيسقط معه قاعدة المسؤولية وبذلك ينتفي النظام المرسوم والمنسق للعلاقة بين الله والانسان وبذلك انتهاء لحالة الاستقرار والانتظام التي تسير بمــوجبها عملية الحياة والتوافق والتساوق بين أطرافها المختلفة .

إن إعطاء الشيطان دور غالب مؤثر على الانسان يؤدي الى أن يكون الانسان على حالة واحدة وبعد واحد هو البعد السلبي والامر اذا تغلبت قوى الملك فأن حالة الانسان تكون على بعد إيجابي واحد وأي من البعدين لوحده يعتبر سقوطا لمبدأ الحياة وانتقاء لوجود الانسان .

إن الجبرية وهي تصور فعل الشيطان وقوته في دفع الانسان لارتكاب الآثام تؤدي الى انتهاء خلافة الانسان وسيطرة قوى الشر ، وفي حالة تغليب المــلائكة وتعميم الخير فأن ذلك يؤدي الى قيام ظاهرة الخير المطلق وهذه الظاهرة لا يمكنها أن تشكل حياة حية .

إن أي اعتبار لقوى الشيطان الخارجية أقوى من قـوى الانسان وأنهـا المتحكمة فيه كما أن اعتبار قوى الملائكة بأنها أقوى من الانسان وهي المتحكمة فيه يسقط دور الانسان ويجعل المعركة قائمة خارجه وهذه المعركة قد تقـع وتستمر وتتتابع الاحداث ولكن ليس هناك من شاهد يشهد على حركتها وتتـابعها .. إن الانسان هو الحكم والدليل والشاهد على تتابع الليل والنهار ، الحياة والمـوت ، الخير والشر ، وأن عدم وجوده يبقى حالة التناقض غير مرصودة ولا مدركة فهي قد تكون مستمرة ولكن ليس من حكم أو إشارة تشير الى وجودها وحركتها فهي بغياب الانسان تكون عدما غير محسوسة .

ولكي تنتظم حياة الانسان على الأرض وتتوازن لابد أن يظل الانسان حيا حرا مسؤولا عن أعماله وليس من قوة تؤثر في حركته وفعله غير قوة الله والقوة التي أودعها فيه وجعلها حية فاعلة وهذه القوة كما ذكرنا مرات قـوة سلبية وأخـرى إيجابية وهي في حالة تفاعل دائمة وأن الفعل الانساني هو نتاج ذلكم التفاعل .

إن اعتبار قوى الشيطان قوى مؤثرة في الانسان وكذلك الملك هو عودة الى الثنوية حيث تعطي لقوى الشر تأثيرها ولقوى الخير فعلها ، وبذلك نرجع القهقري الى حيث الثنائية التي تحكمت في الانسان زمانا طويلا .

إن الوحدانية التي أكدت عليها الديانات السمـاوية تبـدأ باسقـاط قوى الشيطان وقوى الملك ، تلك القوى المستقلة الفاعلة المؤثرة في الانسان واعتبارها قوى مخلوقة بأرادة الله وأن خير تصوير لها يضعها في مكانها من مبدأ الوحدانية هو باعتبارها القوة السلبية والايجابية التي وضعهـا الله سبحانـه في الظواهـر الحياتية المختلفة وأن هذه الظواهر تتحرك بفعل وتفاعل القوتين السلبية والايجابية الموضوعة في كل ظاهرة حية . وأن حركة كل جانب من تلك القوى يكون من عند الله وبقدرته .

إن قانون التناقض الذي يحكم حركة الاحياء في تفاعل مستمر وأن قوى الحركة في هذا التفاعل هو في الثنائية القائمة في كل ظاهرة حيث تتقابـل القوى السلبية مع القوى الايجابية وتتداخل في حركة مستمرة وأن انتظام حركة هذه الظواهر وديمـومتها يستنـد الى الموازنـة بين القـوتين بحيث لا يمكن لايـة قوة

الاستغناء عن القوة الثانية ولا يمكن لحركة الظاهرة أن تكون الا نتيجة التفاعل بين القوتين وأن هذه النتيجة هي حصيلة جمع وتداخل وتفاعل القوتين وأن غلبة القوة السلبية حينا أو القوة الايجابية حينا آخر إنما تكون هذه الغلبة بالدرجة وبالنسبة وليست غلبة مطلقة . إذ كيف يمكن أن تتحقق الغلبة المطلقة وحصيلة الفعل هو من جمع وتفاعل القوتين المتساويتين سلبا وإيجابا ، كما أن هذه المحصلة كفعل أو قول أو إجراء أو نتيجة لا يمكن أن تكون الا من نتاج وحصيلة وأسس ومقومات القوتين المتفاعلتين إذ لا يمكن لهذه النتيجة أو ذلكم القرار أن يكون حيا فاعلا ما لم يضم بين بعديه القوى السلبية والقوى الايجابية التي صدر عنهما .

إن انتصار فعل الشر هو انتصار نسبي و مؤقت كما أن انتصار فعل الخير هو انتصار بالدرجة ولمرحلة معينة وأن أي انتصار مطلق للشر على الخير أو بالعكس يعني ذلك انتهاء الحياة الدنيا على الارض التي يتولى الانسان خلافتها وبذلك يتولى الشيطان الخلافة إذا ما انتصر على الخير أو يتولى الملك المسؤولية في حالة انتصاره على الشر وبذلك نعود ثانية الى حياة الملائكة والشياطين التي هي غير حياة الانسان .

إن حالة الشر المطلق إذا ما تحققت فأنها تقتضي انتهاء دور الانسان وزواله ، إن الله سبحانه قادر على تغليب هذه القوى أو القوى المناقضة لها كما أنه قادر أن يجعل من مخلوق من مخلوقاته حكما على هذه القوة ويعطيه القدرة على التعامل مع ذلكم الشر المطلق والخير المطلق وأن هذا المخلوق يستطيع إعداده وتكييفه بشكل يمكنه من التعامل مع تلك القوى الشريرة والخيرة المطلقة . الا أن هذا المخلوق سيكون على شاكلة وتكييف كما يريد سبحانه وتعالى إلا أن هذه ليست على شاكلة الانسان الذي نعرفه .

إن تكوين الانسان على الشكل والكيفية التي خلقه الله سبحانه عليها تمكنه من التفاعل والحركة بين جناحي قوته السلبية والايجابية والتفاعل مع القوى الخارجية بتناقضاتها المختلفة ويستطيع الانسان مواجهة القوى الخارجية بما فيها من أذى أو نفع إذا كانت قواه الداخلية أقوى منها بحيث يستطيع مجابهتها والدخول في معركة معها وأن انتصاره عليها يتحقق لان قواه الداخلية من القوة والعمق والسعة بحيث تكون أقوى من تلك المظاهر الخارجية ، وفي حالات تعصف

القوى والظواهر الخارجية بالانسان فتؤدي الى غرقه أو اختناقه وفنائه وهذه النتيجة هي حصيلة تلك القوى الخارجية التي كانت على درجة أقوى وأشد وأعمق من قوى الانسان .

لقد واجه الانسان محيطه وقواه ودخل معركة ضارية مع ما يحيطه فانتصر على كثير من تلك الظواهر والاحياء المحيطة به وأقام الحضارة الانسانية التي نراها اليوم حيث أنها نتاج انتصاره على بيئته وما فيها من مظاهر . وما زال الانسان في صراع دائم مع بيئته وقواها المختلفة وقد عجز حتى اليوم من التغلب على ظاهرة الحياة والموت والقوى والمظاهر التي تسببها وأنه ما زال يحث الخطى في محاولة لتحقيق النصر على هذه الظاهرة إلا أنه لم يتوصل الى نتائج مشجعة في هذا الميدان ويبدو أنه سوف لن يتوصل الى تلك النتائج لأن هذه من عند الله وأن الله سبحانه وتعالى بيده ملكوت كل شئ وأنه قد قرر ان كل نفس ذائقة الموت وأن الانسان سوف لن يقوى على مغالبة هذه الحقيقة إلا إذا أراد الله ذلك بالشكل والكيفية التي يقررها وذلك من أسرار الغيب والامر بعد في الاول والآخر لله .

إن التعبير بالشيطان وبالملك باعتبارهما قوى مؤثرة خيرا أو شرا كان تعبيرا دقيقا مجسما متناسبا مع المرحلة الحضارية التي نزل فيها القرآن الكريم ومن قبل الديانات السماوية السابقة ، وأن قولنا بأن الشيطان هو القوة السلبية في الظواهر الحياتية وأن الملك هو القوة الايجابية فيها وأن كل جزء حي يتألف من هاتين القوتين هو تصوير لتلك القوى تصويرا متناسبا معها وأن محاولات البعض اعتبار قوى الشيطان مستقلة استقلالا تاما عن قوى الملك وكأن هناك عالمان مستقلان متباينان ، عالم الشياطين وعالم الملائكة وأن هناك من يتحرج في إصدار القرار بأن الشيطان وفعله الشرير من خلق الله كما أن الملك وفعله الايجابي من خلقه فأن ذهابنا الى تفسير الظواهر الحياتية بأن كلا منها تتألف من قوتين سلبية وإيجابية وأن هاتين القوتين متداخلتان متفاعلتان تؤلفان قوة مشتركة وأن هذه القوى ليست منعزلة عن بعضها وأن كلاً منها ضروري للآخر حيث لا يمكن للظاهرة الحية الواحدة أن تكون الا بوجود القوتين السلبية والايجابية وأن الحصيلة التي تظهر فيها الظاهرة أو تفعل فعلها وتؤثر تأثيرها فأن تلك الحصيلة هي نتيجة تفاعل القوتين وحاصل جمعهما وتداخلهما في عملية تفاعل حية دقيقة مستمرة ، وإن بدت تلك الحصيلة على حالة أو صورة تغلب عليها صفات القوى السلبية أو القوى

الايجابية فأن هذه الغلبة لا تعني قيام الصورة السلبية لوحدهـا دون أن يكون للعناصر الايجابية فيها أثر وتأثير فحالة الظلمة هي حالة تتغلب فيها عناصرها على عناصر النور والعكس حالة النور هي حالة تتفوق فيها عناصر النور على عنـاصر الظلمة بنسبة عالية الا أن هذه النسبة لا تكون مطلقة الا في حالة الظلمة الدائمة وكذلك الامر في عكسها ، أي في حالة النور المطلق ، وهذه الحـالات المطلقة هي الحالات التي تتغلب فيها إحدى القوتين تغلبا كاملا وهذه الغلبة لا تتوفر ذاتيا أي أن هذه القوى السلبية لا تمتلك التأثير والفاعلية على إسقاط القوة الايجابية كليا ما لم تدخل القوة الالهية الكلية في هذا الامر فتصير الامر كله خيرا أو كله شرا وهذه النتيجة هي ليست من حياة الاحياء ولا من الحياة التي يتولى الانسان المسؤولية عليها بأمر من عند الله سبحانه .

ثالثا - حرية الانسان المطلقة ومسؤوليته التامة :

لقد أوضحنا معنى الجبر والاختيار في الآيات القرآنيـة الدالـة على هـذه المعاني وانتهينا الى أن معظم الآيات الدالة على الجبر إنما تكون دالة عـلى هذه المعاني لتعني قدرة الله الكلية المطلقة على فعل كل شئ . أما بخصوص الانسان فقد تبين لنا أنه بعد هذه القدرة الكلية لله تبدأ حرية الانسان ومسؤوليته عن أعماله ، وقد بينا أن معظم الآيات الدالة على الجبر إنما تبدأ بعد تثبيت وتوضيح قدرة الله المطلقة تمنح الانسان حرية العمل وتحمله مسؤولية ما يعمل .

كما أوضحنا قوة الشيطان باعتباره قوة سلبية خارجية وأثبتنا أن قوته هذه تقابلها قوة الملك الايجابية بحيث أن القوتين تتداخلان وتتفاعلان وتؤلفان حصيلة تظل واقفة خارج الانسان ولا يمكن لها أن تؤثر فيه وتغير من موقفه ، ولهذا اكدنا على أن الانسان حر في تصرفاته وأنه يتحمل مسؤولية تلك التصرفات ولا يجوز أن يبرر أخطاءه التي يقع فيها من أنها جاءت نتيجة فعل وتأثير الشيطان .

إن خلافة الانسان على الارض وحمله أمانة الله ورسالاته وتفضيله على سائر مخلوقاته إنما كان بتكوينه هذا التكوين الخاص به ، هذا التكوين القادر عـلى التصرف واتخاذ القرار خطأ كان أو صوابا وأن قراره هذا نابع من ذاته صادر عن إرادته الحرة الواعية وأنه يدرك ما يقرره كما أنه يعى نتيجة ما يقوم به ، هـذا التكوين هو الذين حمله مسؤولية خلافة الله على الأرض .

وهذه المسؤولية لكي تكون دقيقة كاملة لابد ان تقوم على اساس أن المتحمل لها (وهو الانسان) حر حرية تامة فيما يقوم به ويفعله ، وهـذه الحريـة مطلقة وإطلاقها لا قيد عليه إلا قيد واحد هو عناصر وقوى هذه الحرية والادراك والارادة التي تتفاعل معها وتقرر القرار بموجبها . ولكي تكون هذه الحرية تامة والمسؤولية كاملة فلا بد من إسقاط أية قوة خارجية مؤثرة في الانسان أي كانت هذه القوى ولذلك فقد أبعدنا قوى الشيطان الشريرة كما أبعدنا في ذات الوقت قوى الملـك الخيرة باعتبارهما قوتين خارجيتين واكدنا على أن حصيلة فعل الانسان هو نتاج قواه الداخلية وتفاعل هذه القوى مع بعضها وحصول المحصلة من هذا التفاعل هو الذي يعين طبيعة الفعل صوابه أو خطأه .

ولكي تنتظم هذه الحرية حملنا الانسان مسؤولية ما يتمتع به من تلك الحرية وأن هناك محاسبة دقيقة مستمرة على أفعاله وأن هذه المحاسبة تنتهي بمكافأته على أعماله الصائبة أو معاقبته على أفعاله الخاطئة .

إن تكليف الله سبحانه وتعالى بالواجبات التي حددها جلت قدرته في دياناته فأن تلك الواجبات تقابلها حقوق معادلة لها ، كمـا أن المحرمـات التي طلب من الانسان تجنبها أباح الله له حلالا يوازنها ، وفي سبيل أن يقوم الانسان بهـذه المسؤوليات لابد أن يعد إعدادا يتنـاسب معها وأن أولى هـذه المستلزمـات أن يكون :ـ

- قادرا على إدراك تلك المسؤوليات الواجبات منها والحقوق ، الحلال والحرام ، هذه القدرة عقلية وجسمية ووجـدانيه بحيث يستطيـع أن يلم بأبعـاد تلك المسؤوليات ويدرك ما فيها وما تنطوي عليه من عظة وفوائد وما تحققه من نتائج في حالة قيامه بها أو تجنبه إياها .

- ولكي نتحرك هذه القدرات حركة تتحمل مسؤوليـة حركتهـا لابد أن تكـون حركتها حرة لا يقيدها قيد ولا يعترض مسيرتها معترض ولا يؤثر في اتجاهها ودورانها أية قوة خارجية .

- وفي سبيل أن تكون هذه الحرية المطلقة حـرية مسؤوليـة عما تفعـل وهذه

المسؤولية حقيقية ودقيقة وملزمة فلا بد من ربط تلك المسؤولية بطبيعة النتيجة التي تتحق عن فعل الانسان ومحصلة ما يصدر عنه ويقوم به ، ولكي يسعى الانسان الى توجيه قواه وتحويل طاقاته وتوظيف حرية وتحمل مسؤولية ذلك لا بد من ربط هذه المسؤولية بثواب وعقاب على قدر طبيعة الفعل وحقيقته .

- ومن أجل حث الانسان على فعل الخير واجتناب الشر ، ترك الحرام ، وممارسة الحلال وأداء الواجبات والتمتع بالحقوق لا بد من ربط الثواب والعقاب بطبيعة العمل وتنفيذ هذا الثواب وذلك العقاب تنفيذا واقعيا بحيث يتسلم الانسان المحسن ثواب فعله الحسن ويتحمل المسئ عقاب عمله السئ . إن انتظام فعل الانسان في هذا المسلسل المنظم الدقيق ومن أجل أن تتحقق حريته ويتحمل مسؤولية فلا بد من تفاوت في القدرة والاستعداد بين إنسان وآخر على فعل الخير وتجنب الشر ، كما لابد أن يكون الانسان الواحد في حالات يستطيع بها أن يعمل الخير والشر وفي حالات أخرى يرتكب الشر بدلا عن فعل الخير . هذا التفاوت هو الذي يعطي للحرية بعدها وللمسؤولية أهميتها وللثواب والعقاب دوره في انتظام الفعل الانساني أما إذا تساوى الناس وكانوا كلهم على درجة واحدة فأن التباين فيما بينهم يسقط وبذلك يكون مجموعهم وإن بلغ الملايين فأنهم يمثلون إنسانا واحدا ، وهذا الانسان الواحد لا يمكنه تحمل المسؤولية لوحده كما أنه لا يستطيع أن يكون شاهدا على الحياة ولا معبرا عن حقيقتها إذ أنه لوحده يتحرك حركة الى مسافة محدودة وفي دائرة ضيقة لا تستطيع مواجهة الحياة المحيطة به بكل عناصرها وتفاعلاتها وتناقضاتها .

- إن التفاوت بين إنسان وآخر هو الذي يوسع من مسؤولية الانسان على الارض ويعطي للحرية دلالتها ويمنح المسؤولية أهميتها حيث أن حرية الانسان الذاتية المطلقة تظل حبيسة عناصرها وتتحرك في دائرة ضيقة ما لم يكن هناك إنسان آخر يتفاعل معه الانسان الاول وهكذا تتوسع دائرة الحرية والمسؤولية نتيجة المشاركة والتفاعل بين الانسان وأخيه الانسان . لذلك إن الخطاب الذي وجهه الله سبحانه وتعالى والذي منح فيه الحرية للانسان وحمله المسؤولية كان خطابا للانسان كوحدة نوعية وأن هذه الوحدة تمثل كل البشر وأن حالات التفاعل تبدأ من حركة الانسان الواحد مع بني قومه لكي تقوم العملية الانسانية في حدودها المنطقية إذ لا حركة إيجابية ولا فعل مؤثر الا نتاج تفاعل

الانسان مع إنسان آخر .

- إن التفاوت بين إنسان وإنسان آخر توضحه كثير من الآيات الكريمة منها (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)[١٥١] . (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين)[١٥٢] . (قال ربى بما اغويتني لازينن لهم في الارض ولأغوينهم أجمعين ■ إلا عبادك منهم المخلصين)[١٥٣] .

إن قوله تعالى وهو يقول على لسان إبليس (إلا عبادك منهم المخلصين) يعني أن هناك من عباد الله من لا يقوى ابليس على غوايته والتأثير فيه وقوله تعالى (إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فان الله عـزيز حكيم)[١٥٤] . وقـوله تعـالى (ذلك بمـا قدمت أيـديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد)[١٥٥] . إن في الآية ٤٩ من سورة الانفال توضيح أن المنافقين ومن في قلوبهم مرض هم الذين استحقوا هذه الصفة وأن غيرهم من غير المنافقين هم الذين توكلوا على الله ، فأن في هذا التوزيع دلالة على أن هناك من هو منافق ومن هو غير منافق وهناك من في قلبه زيغ ومرض ومن قلوبهم ملأى بالايمان . وقال تعالى (وقـالت اليهود والنصارى نحن ابناء الله واحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير)[١٥٦] .

إن اليهود والنصارى هم الذين قالوا نحن ابناء الله وأنهم بشر كسائر البشر حيث هناك من لم يقل مقالتهم هذه وقوله سبحانه (فلم يعذ بكم بذنوبكم) تأكيد على أن هذا العذاب إنما هو عقوبة لفعلهم الصادر عنهم بحريتهم وأن من لا يصدر عنه مثل هذا الفعل فأن الله سوف لن يعذبه ، وقوله تعالى (ومن يكسب إثماً إنما يكسبه عـلى نفسه وكـان الله عليما حكيمـا)[١٥٧] . إذن هناك من يكسب الاثم فيتحمـل مسؤولية ما يقوم به وهناك من يقوم بعمل الخير فينال ثواب ما يقوم به ، عمل الاثم من عند الانسان وعمل الخير منه أيضا ، وهذا العمل المتباين هو نتيجة الاختلاف بين إنسان وآخر ..

وإذا ما حاول البعض التساؤل والاحتجاج عبر هذا التساؤل من أن من يعمل السوء ومن يقوم بالخير هو نتيجة تكوين الانسان الذي هو من عند الله ،

فلماذا يحمل الله الانسان السئ سوء عمله ؟ الذي كان ذلك السوء صادر من تكوينه ذلك التكوين الذي وضعه وخلقه الله سلبحانه الله سبحانه فيه ، لماذا يكافئ الله الانسان المحسن على فعله الحسن وأن فعله هذا نتيجة تكوينه الذي أعده وهيأه سبحانه على هذه الهيئة والقدرة التي تستطيع فعل الخير .. إن مثل هذا التساؤل الذي يبدو مشروعا لاول وهلة ، إن الرد عليه أن تلك المحاسبة للانسان على فعل الاثم إنما فرضها سبحانه وتعالى لان الانسان كان قادرا على تجنب فعل السوء والقيام بالعمل الحسن حيث أن الله سبحانه وتعالى أعد الانسان إعدادا معينا ، وحينما حمله مسؤولية العمل الذي يقوم به مُنحه القدرة على التمييز لهذا العمل سواء أكان خيرا أم شرا صائبا أو مخطئا ومنحه القدرة والارادة على القيام بذلكم الفعل سواء كان فعلا خيرا أو شرا وأنه يحاسب الانسان لانه منحه تلك القدرة وعلى قدرها تكون المحاسبة ولهذا فأن عددا من الآيات الكريمة وضحت أنه جلت قدرته قد منح الانسان القدرة على التمييز والاختيار واتخاذ القرار حيث قال (إنا هديناه السبيل اما شاكرا و إما كفورا)[١٥٨] . وقال (كل نفس بما كسبت رهينة)[١٥٩] . وقال (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب)[١٦٠] . وقال (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير)[١٦١] .

هذه الآيات تؤكد أن الحساب على قدر العدة والامكانية والقدرة التي وضعها الله سبحانه في الانسان ، وفي الأية ٢٧ من سورة الشورى (ولو بسط الله الرزق ..) تأكيد على حكمة الله وقدرته الكلية في خلق الناس وتوزيعهم على درجات وأنه عندما يبسط الرزق لعباده إنما يجعل ذلك بقدر دقيق حتى لا يستبد الانسان ويطغى ، وهذا الرزق في أمرين أساسيين الاول في ذاته ، في عناصر تكوينه من إدراك وإرادة وقدرات فأن هذه وضعت لكل إنسان بميزان وأنها مقيدة بقيد الحكمة الالهية بحيث لا تكن سببا في الاسراف والتقتير في الظلم أو الاستبداد ، في العطاء غير المقيد وفي الرفاه غير المحدد .

والمجال الآخر للرزق هو ما يصيب الانسان من نفع وخير ومال نتيجة جده وعمله فان ذلك يجري بقدر من عنده وفق معايير وحكمة يراها .

وإن اعترض معترض آخر وقال : ولماذا يمنح سبحانه وتعالى هذا الانسان

قدرا من القدرة والمكنة والرزق اكثر من غيره ويجعل الآخر في حالة دون ذلك فان الرد على هذا ، إن انتظام الحياة على الارض ودوام حركتها واستمرار تطورها واندفاعها ومواجهتها لما يحيط بها وتفاعلها مع ذاتها ومع القوى والمظاهر الخارجية لا يتم الا بتعدد وتباين قوى الانسان إذ لو كانت قوى الانسان كل إنسان واحدة لما استمرت الحياة ولما كانت دورة هذا الوجود متتابعة ولبقى الناس في مستوى واحد وفي حركة متوازنة وفي تطور بطئ يكاد أن يكون معدوما ..

إن في خلق الناس أطوارا واختلافهم في القدرة حكمة وضرورة إذ بدونها تصير حياة الانسان ذات حركة محدودة متساوية متشابهة فتظل حياته متراوحة في مكانه محبوسة في دائرة ضيقة لا تختلف عن حياة النبات والاحياء فهي مستقرة في مكان واحد أو متحركة في مسافة معينة لا تستطيع أن تنتج شيئا أو تقوم بعمل يختلف في الدرجة عن عمل نبات أو حيوان آخر ولهذا فأن حياتها ونتاجها ظل راكدا وعلى صيغة واحدة لاتباين ولا تطور فيها .

ولما كانت محاسبة الله سبحانه وتعالى على قدر ما أودع فيه فأن هذه المحاسبة العادلة هي التي يجب الاطمئنان إليها وأن فيها كل عناصر العدالة فأنه سبحانه يكرر قوله تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وقوله (كل نفس بما كسبت رهينة) وقوله (من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) وقوله تعالى (اليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد ■ ومن يهد الله فما له من مضل اليس الله بعزيز ذى انتقام)[١٦٢] .

في قوله (اليس الله بكاف عبده ....) تأكيد بأن الله قد وهب الانسان ما يكفيه وأن هذه الكفاية من عنده هي الوحدة التي بها يحاسب الله عبده وهذه الوحدة النوعية في القدرة هي التي بموجبها يضل الانسان أو يهتدي فأن كان ضلاله صادراً عن قدرته ومعرفته بهذه الضلالة وآثامها فيتحمل مسؤولية ذلك وإلا إذا كانت قدرته لا تستطيع التحكم بالموقف الضال منه أو المهتدى فأن عدم قدرته على التحكم في ذلك تعفيه من تلك المسؤولية .. ولهذا يؤكد سبحانه (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت) .

من هذا يتبين معنى الحرية الممنوحة للانسان وحدود المسؤولية المقيد بها ،

وإن توازن الحرية مع المسؤولية هو الذي ميز الانسان عن سائر خلقه وحمله أعباء كبيرة فكان التكليف من عنده سبحانه ليقوم بحمل الامانة وأداء الرسالة وليتولى الالتزام بالواجبات والتعاليم والفرائض التي فرضها الله عليه .

إن تكليف الانسان بالفرائض والواجبات هو الذي حدد مسؤولياته وعينها ونظمها وجعل حريته المطلقة تتجه باتجاهات محددة تتناسق مع تلك التكاليف ، والتكليف هو حمل الانسان للقيام بعمل أو (كلفة ومشقة ولذلك لا يقال كلفت زيدا أكل شئ طيب كما يقال كلفه المشي)[١٦٣] .

وفي عملية التكليف تتبين أركانه الاساسية فهناك الله سبحانه الذي يصدر الامر به وهناك الانسان المأمور بتنفيذ ما يكلف به ، والركن الثالث (الامر الواجب تنفيذه والمطلوب القيام به) يقول عبد الجبار المعتزلي (المريد هنا هو الله والمكلف هو الانسان ذو القدرة والمسؤولية الكاملتين في المجالين الديني والقانوني ، والفعل المراد قد يعرف بواسطة السمع فيرد نص يبين إرادة الله كما قد يعلم عن طريق العقل الذي يوجب بعض الواجبات التي لا يغير أمر الله أو نهيه من وجوبه شيئا ، فأذا قضى العقل بتوحيد الخالق وأتى السمع بالنهي عنه لم يخرج التوحيد من كونه واجبا)[١٦٤] .

ولكي يكون التكليف ملزما وموصلا الى الغاية لان أن يكون هناك ثواب لمن يقوم بما كلف به وعقاب لمن لا يقوم ، ومن أجل أن يكون الثواب والعقاب متناسبا مع نتيجة العمل يجب أن يكون الانسان (قادرا على فعل الامر المكلف به) وهذه القدرة تعني إدراكه لطبيعة الامر المكلف به وقدرته على القيام به وحريته وإرادته في رفض الطاعة والالتزام بها ، وفي هذا يقول عبد الجبار المعتزلي (إن عدل الله يوجب إيجاد الانسان حر الارادة لاعتباره مسؤولا عن فعل المعروف وتجنب المنكر . ولا بد للمكلف من أن يكون قادرا ممكنا بالآلات التي يتم بواسطتها تحقيق قدراته كالجوارح أو ما يصطنعه من الآلات وما يحصله من المعارف ولا بد أيضا من تجهيزه بالعقل ليعلم بما كلف وليصبح منه القصد الى القيام به ومعرفة أنه قد أدى ما كلف إذ لا يحسن من الله أن يريد الفعل من المجانين والعجزة . إذا كان التكليف ينطوي على مشقة في أداء الفعل المراد فهذه لا تحدث الا إذا كان المكلف مشتهيا لأمور نافر الطبع عن أمور أخرى كاشتهاء ، اللذة والنفور عن الالم . ولذلك وجب أن يجعله الله (مشتهيا نافر الطبع) فيلحقه الغم أو المشقة عند عدوله عن المشتهى

بالارادة أو الألم عند اختيار ما يستحق به الثواب . إذن لابد أخيرا من كونه مريدا بأرادة حرة قادرة على الاختيار بين أمرين فيريد الفعل لا لأنه يشتهيه بل لسبب معقول)[١٦٥] .

إن ما ذهب إليه عبد الجبار المعتزلي في شروط التكليف وتأكيده على ضرورة وجود القدرة على الرغبة والنفور فلا يجوز التكليف الا لمن كان قادرا عقلا وجسما وإرادة وقد أسقط التكليف عن العجزة والمجانين . كما اشترط الحرية على التقيد بهذا التكليف وجعل إرادة الانسان في القبول أو الرفض هي الوحدة القياسية التي بموجبها يكون الثواب والعقاب ، وقد عبر عن هذه الحرية والارادة بالاشتهاء واللذة والنفور والالم على أن يكون هذا الاشتهاء وذلك النفور خاضعا للعقل ومحكوما به .

وكما منح الله الانسان ثواب ما يفعل من عمل خير فرض عليه عقوبة نتيجة لفعله السئ ، ولكي تتحقق العدالة في هذا الثواب وتلك العقوبة فلابد ان تكون الواجبات والتكاليف المفروضة على الانسان متوازنة مع قدرته على القيام بها ومتوافقة مع إدراكه لها ومتساوقة مع إبقائه على حرية في مواجهتها ، وفي هذا يقول عبد الجبار المعتزلي (لايصح .. محاسبة الانسان على افعاله الا إذا كان قادرا على فعلها أو الامتناع عنه ، فلا يحاسب على مالا حيلة له فيه ولا يسأل ـ لم لم تنبض ؟ ولم لم تصح ؟! ـ)[١٦٦] ... وبتعبير آخر لا تصح مسؤولية الانسان عن فعل تابع في التسلسل السببي لاسباب متصلة لا فجوة بينها تتيح الذهاب في أحد اتجاهين ، بل لابد من كون القادر على الشئ (قادرا) على ضده في الجنس ، لان بذلك يفارق القادر المختار المضطر الممنوع[١٦٧] ... إذن لا معنى للواجب إلا إذا كان إحدى إمكانيتين فيحسن أن يقال لمن لم يرد الوديعة لم ترد الوديعة ؟! ... ولم لم تفعل ما وجب عليك ؟ لأنه كان قادرا على فعله فاحجم[١٦٨] .

إن فكرة الحرية المطلقة للانسان والمسؤولية التامة عليه وضحتها آيات من القرآن الحكيم وان القاعدة الرئيسية التي تقوم عليها العقيدة الاسلامية إنما تقوم على حرية الانسان واختياره وأن ما ذهبت إليه المعتزلة من تأكيدها على هذه المسألة كانت تستند الى القرآن الكريم والى مواقف الرسول (صلى الله عليه وسلم) حيث أن الآيات القرآنية الدالة على الحرية تؤلف الاساس الفكري لهذا المبدأ وان بقية

المبادئ التي تمسك بها المعتزلة واعتبروها الركائز للاسلام لا تقوم ولا تتحرك الا إذا سلمنا بحرية الانسان المطلقة وأكدنا على إختياره الحر لافعاله وتحمله مسؤولية ذلك .

إن القرآن الكريم هو الذي حمل مبدأ الحرية للانسان وابرزه في آيات كثيرة ... يقول المستشرق الايطالي (نلينو) (إن المسائل الكلامية في القرنين الاول والثاني للهجرة نشأت كلها تقريبا عن اختلاف في تفسير عبارات والفاظ وردت في القرآن ومن هذه الالفاظ القرآنية اشتقت دائما تقريبا المصطلحات الفنية المتعلقة بهذه المسائل . ولفظ (قدر) ذو أصل قرآني واضح لا سبيل لنكرانه)(١٦٩) .

وفي صدر الاسلام ورث المسلمون الاوائل فكرة الجبرية حيث كانت هي السائدة ولذلك جاءت الآيات القرآنية تواجه هذا المفهوم بصورة تدريجية وبدقة وإحكام .. يروى القاضي عبد الجبار عن الحسن البصري أن الأخير يقول (إن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم وهم قدرية مجبرة يحملون ذنوبهم على الله ويقولون إن الله سبحانه قد شاء ما نحن فيه وحملنا عليه وأمرنا به فقال عز وجل (وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالا تعلمون)(١٧٠)](١٧١) .

ويعلق محمد عمارة على هذا قائلا (ومعنى هذا النص الهام الذي يرويه عن الحسن البصري أن العرب قبل الاسلام كانت تسود فيهم فكرة الجبر والجبرية وان الاسلام والقرآن قد اتخذا من هذه القضية موقفا ينتصر لحرية الانسان واختياره ويناهض القدرية الجبرية ، وذلك قبل أن تنفتح الثقافة والحضارة العربية وعلم الكلام الاسلامي على الحضارة والثقافات الاخرى)(١٧٢) .

ومن متابعة حياة الرسول الكريم والخلفاء الراشدين والحوار الذي كان يجري بينه صلوات الله وسلامه عليه يدل على أن الاسلام كان يتوجه نحو حرية الانسان ويعارض مبدأ الجبر فقد روى (أن رجلا من خثعم قال للرسول عليه الصلاة والسلام : متى يرحم الله عباده ؟ فقال ـ ما لم يعملوا المعاصي ثم يقولوا إنها من الله ـ ... كما صحح الرواة عنه الحديث الذي يقول أن بعض الصحابة قد سأل : فلأى شئ نعمل وقد فرغ الامر ؟! فقال الرسول عليه السلام ـ فكل ميسر ـ

أي أن ما كتب على الانسان وعلم من أمره لا يخرجه عن أنه حر ميسر له سلوك الطريق الذي يريد ويختار)[١٧٣] .

وروى عن الرسول (لعنت القدرية والمرجئه على لسان سبعين نبيا .. قيل له ومن القدرية يا رسول الله ؟ ... قال قوم يزعمون أن الله قدر عليهم المعاصي وعذبهم عليها ، والمرجئه قوم يزعمون إن الايمان قول بلا عمل)[١٧٤] .

وروى عن أبى بكر الصديق موقفه من مسألة (الكلالة وهي القرابة التي ليست بالبعضية والمراد بها من توفى ولم يترك ولدا ولا والدا وهي إحدى مسائل الميراث) أنه قال (أقول فيها برأيي فان كان صوابا فمن الله وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان) أي أنه نسب الى الانسان فعلا ... وقام بتنزيه الله عن الجور عندما برأه من فعل المعاصي ... وهم يذكرون ضمن ما يذكرون لعمر بن الخطاب يوم أتى (بسارق فقال لما سرقت ؟ فقال : قضى الله علي . فأمر به فقطعت يده وضرب أسواطا فقيل له في ذلك ، فقال القطع للسرقة والجلد لما كذب على الله)[١٧٥] .

وحينما حوصر عثمان بن عفان ودار نقاش بينه وبين المعتدين عليه وهم يسوغون عدوانهم بقولهم (الله يرميك فأجابهم : كذبتم لو رماني ما أخطأني)[١٧٦] .

إن إجابات أبى بكر الصديق وإجراءات عمر بن الخطاب ورد عثمان بن عفان تؤكد حرية الانسان وتحمله مسؤولية ما يقوم به وأن دفع البعض لما يقوم به من أخطاء ومخالفات بأنها ناجمة عن الله سبحانه وتعالى فأن مثل هذا الدفع لا يستطيع الصمود بوجه الآيات الصريحة والاحاديث والسوابق التي تؤكد حرية الانسان واختياره لما يريد .

وللامام علي أقوال ومواقف تؤكد هذه الحرية وتدفع أي شبهة أو محاولة لوضع الانسان في دائرة الجبر والتسيير الالزامي (فيذكرون له مثلا الحوار الذي دار بينه وبين شيخ جاءه سائلا عن الخروج والقتال ضد معاوية بن أبي سفيان وهل هو قضاء وقدر فقال له الامام علي : نعم هو قضاء وقدر ... فقال له الشيخ ـ ما أرى لي من الامر شيئا إن كان ذلك بقضاء وقدر ؟ فقال : لعلك ظننت قضاء لازما وقدرا حتما ، لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب والامر والنهي وسقط الوعدو الوعيد ولم يكن المحسن أولى بالمدح من المسئ ولا المسئ بالذم أولى من المحسن ، تلك

مقالة عبدة الاوثان وجنود الشيطان وشهود الزور وهم قدرية هذه الامه ومجوسها .. إن الله سبحانه أمر عباده تخيرا ونهاهم تحذيرا)[١٧٧] .

إن مبدأ الحرية التام حيث أن الانسان حر في تصرفاته وأعماله وأقواله هو القاعدة التي قامت عليها مسؤولية الانسان وخلافته على الأرض وأن هذه المسؤولية هي الوسيلة التي جعلها الله وأعدها ليكون الانسان شاهدا ودالا على وجوده وقدرته.

إن هذه الوسيلة تقوم على ركنين أساسيين هما الحرية التامة والمسؤولية الكاملة عن هذه الحرية - والجهة المتمتعة بهذه الحرية والمتحملة مسؤولية ذلك هو الانسان فالانسان اكتسب شرف الأداة والوسيلة لله حيث أعده وخلقه ليكون كذلك بعد أن وفر له عناصر ومقومات الحرية وأسس وركائز المسؤولية.

لم يمنح الله سبحانه وتعالى هذه الخصائص إلا للانسان ولذلك حمله غاية ما يريد تحقيقه والعبرة الأساسية من خلقه وهذه الغاية هي إقرار الانسان وإيمانه واعترافه بوجود الله والتدليل على وحدانيته وقدرته وعدالته، قال سبحانه [وما خلقت الانس والجن الا ليعبدون] وهذه العبادة لله إقرار باللسان وإيمان بالقلب بوجوده سبحانه والعمل بكل ما يريد.

إن قوله سبحانه (وما خلقت الانس والجن الا ليعبدون) فان هذه العبادة يريد بها الله سبحانه أن يعلن الانسان ويقر ويؤمن بوجود الله واحدا وأنه سبحانه إذ يؤكد على هذه الغاية من خلق الجن والانس فأنه لا يريد من وراء ذلك إلا حمل الانسان على الاقرار بوجوده ووحدانيته وأن هذا الاقرار لا يزيد من حقيقة الله ولاينقص وأنه سبحانه وتعالى يذكر في عدد من آيات الكتاب الحكيم (أنه غنى عن العالمين وأنه غنى حميد) أي ليس في حاجة إلى الحمد والثناء وليس في حاجة إلى مزيد من القدرة إنما هذه المطالبة بالعبادة إنما أراد بها سبحانه أن يكون الانسان شاهدا على وجوده وقدرته إذ لو لا الانسان بهذه الخلقة والتكوين لما استطاع أن يكون شاهدا عليه، انه بهذا التكوين الذي ميزه الله فيه عن سائر خلقه استطاع أن يكون دالا وشاهدا على الذات الإلهية.

وحينما نقول بأن الله غنى عن العالمين وعن حمد الناس وشكرهم ونقول في موضع آخر بأنه سبحانه خلق الانس والجن ليعبدوه فكأن في القولين شئ من التباعد والتنافر فمن ناحية نؤكد أن الله غنى وفي آية أخرى يعلن سبحانه بأنه خلق الانس والجن ليعبدوه ولابد للخروج من هذا الحصار أن نذهب إلى معنى العبادة التي فرضها سبحانه على خلقه من الانس والجن.. إن هذه العبادة لا تعني مجرد

الخضوع والاستسلام والايمان العام إنما تعني الاقرار بوجود الله والايمان به والعمل بأوامره، هذه العبادة في ابعادها هذه تعني أن الحكمة من خلق الله الانس والجن لكي تنتظم الحياة وتسير وفق أسس ومقـومات معينـة وإن من أهم هذه المقومات الاقرار والاعتراف بوجود الله واحدا أحدا وأنه خالق كل شيء وأنه عادل وأن عبادة الانسان له هي السير في الدرب المؤدي إلى سعادة الانسان وحركته في طريق الايمان والصلاح والسداد أي أن الحكمـة من خلق الانسان والجن هي السير وفق منهاج محدد يبين الطريق نحو الرشاد وتكون للضلالة والغي علاماتهما الدالة عليها وأن على الانسان تجنبها.

إن حكمته سبحانه في خلق مخلوقاته وبخاصة الانسان لكي تكون حياته مرتبطة بأسس ومقومات تسير به في مدارج التطور نحو الأفضل وأن عبادته هي الاقرار بقدرته ووجوده والسير والالتزام بأوامره ولولا هذه العبرة لما كانت لحياة الانسان قيمة ولولا هذه القيود في العبادة لبقي الانسان كغيره من المخلوقات لا تقيده قيود ولا تحكم أعماله قوانين وبذلك تكون حياته حياة سائبة غير مسؤولة.

ولكي يكون الانسان قادرا على القيام بهذه العبادة لابد أن يكون حراً في القيام بها وحراً في عدم التمسك بها ولابد أن يكون مدركا لمعـاني هذه العبـادة وابعادها ويدرك المنافع التي تنطوي عليهـا والأضرار التي تنجم عن تـركها أو مخالفتها وأن تكون له إرادة قادرة واعية تستطيع أن تواجه التعليمات والأوامر لكي تتعامل معها بالقبول أو الرفض لكي تكون مواقفه خاضعة للحساب، للثواب والعقاب، ومن أجل أن يكون الانسان على هذه الدرجة من المقومات لابد ان يتمتع بحرية تامة ولابد أن يكون لكل إنسان قدرات تختلف عن الانسان الآخـر لكي تتباين المواقف وتسير عملية المسؤولية والخلافة بصورة تعطى الفرصة والمجال لمحاسبة المخالفين ومكافأة المحسنين المؤمنين الملتزمين، أي لكي تبدأ حياة الانسان المسؤول المدرك الحر الذي يؤلف المدخل لمعرفة الله والدليل على وجوده. ولهذا فأن المبادئ الاسلامية التي قام عليها الفكر الاسلامي المنظم هي مبدأ الحرية المطلق ومسؤولية الانسان على أعماله في ضوء هذه الحرية.

إن مبدأ العدل الذي جاء في كثير من الآيات القرآنية يدل على حقيقة الله وقدرته فان الطريق الى اثبات وإقرار هذه العدالة يجيء عن طريق الانسان وحريته فأن القول بهذه الحرية وقدرته على خلق الأفعال الصادرة منه والأقوال الناجمة

عنه ومحاسبته على ذلك محاسبة رقيقة، وأن ثوابه على فعل الخير وعقابه على صنع الشر هو التوضيح والتأكيد على عدالة الله سبحانه.

إن مطالبة الاسلام المؤمن بالايمان بالله واليوم الآخر وما فيه من حساب وجنة ونار فأن هذا الحساب إنما يقوم على فعل الانسان وجمع أعماله فان كانت صالحة فتكون وسيلته إلى الجنة وإن كانت طالحة فتجر به إلى النار وحينما ينبه سبحانه وتعالى على ضرورة الايمان والعمل الصالح ويعد الانسان بالثواب والمغفرة والجنة ويهدد فاعل السوء ومرتكب المحرمات بالنار فأن ذلك الوعد وهذا الوعيد إنما يقع على الانسان ويثير فيه الرغبة في العمل الصالح ويبرز له سوء العاقبة من العمل السيء فان هذا الوعد والوعيد لا يأخذ مداه وتأثيره إلا بأقرار الحرية التامة للانسان لكي يتحمل من جرائها وزر ما يرتكبه من أثام ويكافأ بموجبها على أعماله الخيرة. وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حيث عشرات الآيات تلزم الانسان بالعمل به فأن هذا التوجه والنداء لا يكون دقيقا ومنطقيا وفاعلا ما لم يكن المخاطب حراً في التعامل معه لكي يتحمل مكافأة ما يقوم به من دعوة للخير ونهى عن المنكر.

إذن الحكمة من خلق الله الانس والجن لعبادته فأن هذه العبادة هي إقرار بوجوده وأن هذا الاقرار هو الذي يجعل الانسان متوازنا يعيش حياة مستقرة هادفة تسير في خطى مبدعة في حين بقاء الانسان حائرا ضائعا غير مؤمن بوجود الله يبقى على حيرته وضياعه ودورانه حول نفسه وحول العالم بحيث يبقى موزعا بين الأرض والسماء لا يلوى على قرار ولا يستقر عند موقف.

إن العبادة التي خلق الله الانسان ليقوم بها إنما هي انتظام صلة الانسان بخالقه وتنسيق هذه الصلة وفق أسس ومقومات تجعل العلاقة بين الله والانسان علاقة تبدأ أول ما تبدأ على الايمان به وإقراره بها وتمسكه بشروطها ومقوماتها وأن هذا التمسك بالشروط والأوامر هو الذي يوفر للانسان أسباب الحركة والعمل والتطور وهو الذي يبقي الصلة العضوية قائمة بين الله والانسان . كما أن هذه العبادة لا تأخذ أبعادها في تحمل المسؤولية وإفراز النتائج المترتبة عليها ما لم يكن الانسان على هذه الهيأة التي هو عليها قادرا واعيا مدركا مريداً حرا وهذه الخصائص تمثلت بحقيقة تكوين الانسان ذلك التكوين الذي أتينا على ذكره مرات كثيرة والذي أوضحته الآية الكريمة (ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها)

وهذه النفس هي التي تتولى أمر العبادة وتقوم بتنفيذ شروطها وهذه العبادة هي الأمانة الكبرى والرسالة العظمى التي قال عنها سبحانه [إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا) هذا الانسان الظلوم الجهول تمثله نفسه التي خلق الله نصفها قوة سلبية وخلق نصفها الآخر قوة إيجابية وكانت هذه الثنائيـة أساس حـركة الانسان ومصدر الحياة فيه والفاعليه منه.. إنه سبحانه هو الذي خلق النفس على هذه الشاكلة وهو الذي ألهمها محورها اي سلبيتها كما الهمها تقواها أي إيجابيتها وبذلك كان الانسان هذه الوحدة الفعلية المدركة الواعية المريدة الحرة، ومن هنا تحمل خلافة الله في الأرض وكان الانسان وما زال خليفته فيها ما دام يحمل في نفسه قدرة الله وإرادته في خلقه على هذه الصورة التي بها يتحمل تلك الأمانة ويقوم بادائها وله في ذلك أجره ان احسن في عمله وعليه عقاب إن أساء وفي ذلك حكمة الله في خلقه .

هوامش الفصل الرابع

(١) الاعراف : آية ٢٦

(٢) آل عمران : آية ١٤

(٣) آل عمران : آية ٧

(٤) النساء : آية ٧٨

(٥) المائدة : آية ١٨

(٦) الانعام : آية ٣٩

(٧) الأعراف : آية ٢٦

(٨) الانفال : آية ١٧

(٩) الانفال : آية ٦٣

(١٠) التوبة : آية ٤٠

(١١) التوبة : آية ٥١

(١٢) يونس : آية ٣١

(١٣) يونس : آية ٤٩

(١٤) يونس : آية ٦٦

(١٥) يونس : آية ٩٩

(١٦) يونس : آية ١٠٧

(١٧) إبراهيم : آية ٤

(١٨) الحجر : آية ٢٣

(١٩) الحجر : آية ٣٩

(٢٠) النحل : آية ٥٣

(٢١) النحل : آية ٧١

(٢٢) النحل : آية ٧٢

(٢٣) النحل : آية ٩٣

(٢٤) الانبياء : آية ٣٠

(٢٥) الانبياء : آية ٣٥

(٢٦) النحل : آية ٤٠

(٢٧) الانبياء : آية ٣٧

(٢٨) الانبياء : آية ٨٣ ، ٨٤

(٢٩) الحج : آية ٦٤

(٣٠) الفرقان : آية ٢

(٣١) العنكبوت : آية ٦٢

(٣٢) الروم : آية ١١

(٣٣) الروم : آية ٢٠

(٣٤) الروم : آية ٢٢

(٣٥) الروم : آيات ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧

(٣٦) السجدة : آية ٢٧

(٣٧) فاطر : آية ٢

(٣٨) يس : آية ٨٢، ٨٣

(٣٩) الزمر : آية ٣٦، ٣٧

(٤٠) الزمر : آية ٦٢

(٤١) المؤمن : آية ٦٢

(٤٢) المؤمن : آية ٦٤

(٤٣) المدثر : آية ٣١

(٤٤) الدهر : آية ٣٠

(٤٥) التكوير : آية ٢٩

(٤٦) الاعلى : الآيات من ١ ـ ٩

(٤٧) البلد : آية ١٠

(٤٨) الشمس : آية ٧ ، ٨

(٤٩) النساء : آية ٧٨

(٥٠) الانفال : آية ٦٣

(٥١) التوبة : آية ٤٠

(٥٢) آل عمران : آية ١٤

(٥٣) آل عمران : آية ٧

(٥٤) سورة يونس : آية ٦٦

(٥٥) سورة يونس : آية ١٠٨

(٥٦) الانفال : آية ١٧

(٥٧) الامام الرازي : التفسير الكبير : جـ١٥ ص١٣٩ ـ ١٤٠

(٥٨) الانفال : آية ٦٢

(٥٩) الانفال : آية ٦٣

(٦٠) الانفال : آية ٦٤

(٦١) الانفال : آية ٦٥

(٦٢) العنكبوت : آية ٦٩

(٦٣) الروم : آية ٢٢

(٦٤) النازعات : آية ٤٠ ـ ٤١

(٦٥) الانفطار : آية ٦ ـ ٧ ـ ٨

(٦٦) الدهر : آية ٣

(٦٧) الدهر : آية ٤

(٦٨) الدهر : آية ٥

(٦٩) البقرة : آية ٢٥٦

(٧٠) البقرة : آية ٢٥٧

(٧١) آل عمران : آية ٣٠

(٧٢) آل عمران : آية ١٨١

(٧٣) آل عمران : آية ١٨٢

الفهرست

المقدمة

الفصل الأول : الله جل جلاله

أولا :ـ الله والانسان
١ ـ الانسان يرى الله في حاجاته .
٢ ـ الانسان يرى الله في نوره .
٣ ـ الانسان وظاهرة الموت والحياة .
ثانيا :ـ صور ومراحل العقيدة الدينية .
١ ـ الوثنية والطوطمية .
٢ ـ الثنوية .
٣ ـ الثنوية مدلولاتها وأسسها العقائدية .
٤ ـ التوحيد .
أ ـ بين الوثنية والثنوية والتوحيد .
ب ـ الثنوية الجدلية والتوحيد .
ـ ظاهرة الموت والحياة وأثرها في الانتقال الى الوحدانية .
ثالثا :ـ الله في الديانات السماوية .
١ ـ الله حقيقته وصفاته في الديانات السماوية .
أ ـ الله في اليهودية .
ب ـ الله في المسيحية .
ج ـ الله في الاسلام .
رابعا :ـ معجزات الانبياء ودلالتها على وحدانية الله .
١ ـ معجزة آدم عليه السلام .
٢ ـ معجزة نوح عليه السلام .
٣ ـ معجزات عاد وهود وصالح وثمود وشعيب عليهم السلام .
٤ ـ معجزات النبي إبراهيم عليه السلام .
٥ ـ معجزة يوسف عليه السلام .
٦ ـ معجزة موسى عليه السلام .

٧ ـ معجزة أهل الكهف .
٨ ـ معجزة النبي سليمان عليه السلام .
٩ ـ معجزات عيسى عليه السلام .
١٠ ـ معجزات النبي محمد صلى الله عليه وسلم .
القرآن الكريم .
١ ـ الاعجاز اللغوي في القرآن الكريم .
٢ ـ الاعجاز والتعجيز في القرآن الكريم لغة ومعنى .
٣ ـ الاعجاز في المعنى .
٤ ـ معجزة الاسراء .
الفصل الثاني : الانسان معجزة الله الخالدة
أولا ـ الله والانسان .
١ ـ الانسان وحدة نوعية متساوية .
٢ ـ الانسان معجزة الله العظمى .
٣ ـ العقل الانساني أعلى مراتب الاعجاز الرباني .
٤ ـ الانسان خليفة الله في الارض .
الفصل الثالث :
الشيطان والملك
اولا ـ معنى كلمة شيطان .
ثانيا ـ الشيطان في الحضارات القديمة .
ثالثا ـ الشيطان في الديانات السماوية .
رابعا ـ الشيطان والملك في القرآن الكريم .
خامسا ـ إبليس والشيطان .
سادسا ـ المعاني والدلالات لكلمة شيطان في القرآن الكريم .
سابعا ـ الملك والملائكة في القرآن الكريم .
الفصل الرابع :
(الجبرية والقدرية)
اولا ـ الآيات الدالة على الجبر والآيات الدالة على الاختيار .
أ ـ الآيات الدالة على الجبر .
ب ـ الآيات الدالة على الحرية والاختيار .
ثانيا ـ الشيطان والملك وأثرهما في فعل الانسان .
ثالثا ـ حرية الانسان المطلقة ومسؤولياته .

كتب للمؤلف :

١ - الغلو والفرق الغالية	الطبعة الاولى ١٩٧٢
	الطبعة الثانية ١٩٨٢
٢ - الشعوبية	الطبعة الأولى ١٩٨١
٣ - القاديانية والاستعمار الانكليزي	الطبعة الأولى ١٩٨١
٤ - الولايات المتحدة الامريكية والمؤامرة على الأمة العربية	الطبعة الأولى ١٩٨٢

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ـ بغداد ٢١٠ ـ ١٩٨٣

طبع [redacted] - بغداد